شاكر مصطفى

التاريخ العربي والمؤرخون

دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام

الجزء الأول

دار العلم للملايين

التاريخ العربي والمؤرخون

دراسة في تطور علم التاريخ
ومعرفة رجاله في الإسلام

١

شاكر مصطفى

التاريخ العربي والمؤرخون

دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام

الجزء الأول

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو

ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣١٤٤١٥ - ٨١٦٦٣٩

برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٧٨

الطبعة الثالثة

تموز (يوليو) ١٩٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

يوم كانت مادة هذا الكتاب تجتمع على الصمت والتكاثر بين يدي سنة بعد سنة حتى بلغت ما يزيد على خمسة عشر ألف بطاقة ، عدا مئات الكتب ومئات الأبحاث ، ما كان في خاطري أن تأخذ طريقها إلى دراسة كهذه الدراسة في علم التاريخ الاسلامي ولا إلى كتاب من مثل هذا الكتاب . كنت أريدها لمؤلف آخر ما يزال يتكامل عندي حول « مصادر التاريخ الإسلامي » وما أزال أرى إلى فراغه الواضح في المكتبة العربية وأتألم وأعمل على السداد وآمل أن أستطيعه عن قريب .

على أن مصاداة المصادر التاريخية جرتني — دون أن أدري — إلى النظر في مناهجها ونسيجها الفكري وتقنيتها العلمية اللقينة وخصائصها من خلال تاريخ التدوين وتطوره على تمطي الزمن ، كما جرتني — ودون أن أدري أيضاً — إلى معايشة المؤرخين ، ذلك الرعيل الكبير الذي رافق مسيرة التاريخ العربي الإسلامي كله وأعارنا عيونه والأقلام لنرى ونعرِف تلك المسيرة من خلاله ... حيادياً كان أم ذاهباً مع الأهواء ، نافذ البصيرة أو أعمى الفؤاد ، في ألوف

المجلدات التي كتب ... ووجدتني بين هذا وذاك أمام موضوع جديد لم يكتب بعد ، وقد تكاملت على أوراقي جوانبه « فلم يبق إلا صورة اللحم والدم » ، لم يبق إلا أن توضع له الكلمات ... وهكذا وجد هذا الكتاب الذي يتحدث عن علم التاريخ العربي في مختلف أطواره وعصوره وعن المؤرخين الذين أقاموا، على الأطوار والعصور، هذا العلم .

ولقد حسبت أول الأمر أني بالغ ما أريد من هذا كله في مدى مجلد واحد ، محدود الجهد والمدى . ولكن البحث اتسع ثم اتسع — وكل بحث مثله إلى اتساع — ثم ما زال يتفتح من نفسه وبنفسه فألحق ... وما زالت حاجة الاستكمال تلح فأزيد ... ومن نقطة هنا إلى ناحية ما برحت مجهولة هناك إلى سؤال عابر يفتح باباً بعد باب، إذا بمجلدات خمسة ضخمة قد اجتمعت من كل أولئك ثم اذا بها تبتلع ، كأشداق الجحيم ، الوقت والجهد والفكر حتى ظننت أنها ليست إلى انتهاء أبداً .... ولم أجد مناصاً من لملمة أطراف البحث على هون وإن شابها النقص وعدم الإحاطة ، ثم دفعه ، تخلصاً من عويله الذي يشبه عويل بنات « السيرين » في نشدان الكمال ، إلى رصاص المطبعة لعله يجمد فيها على حال . وأعترف أني صرفت النظر مرات ومرات عن انجاز هذا الكتاب وإصداره للناس ولكني كنت كلما انصرفت عنه أعادتني اليه برغمي دواع ملحة عديدة :

أولها : أن التاريخ — في اعتقادي — علم عربي إسلامي أو يمكن اعتباره كذلك . ومع أن الانسان — لحد كبير — « حيوان مؤرخ » كما أنه « حيوان ناطق » ومن قبل أن يخلق هيرودوت بكثير ... ومع أن كافة الأمم تشترك في النزعة التاريخية التي تكاد لعمقها وثباتها واستمراريتها وأثرها التلقائي الفعال ندعوها « بالغريزة التاريخية » ، مع ذلك كله فاننا نلاحظ أنه ما من أمة في الأرض قبل العصور الحديثة ، كتبت في التاريخ وألفت فيه المؤلفات الضخمة جد الضخامة وفرعت الفروع العديدة وسجلت دقائق ما عاشت من الأحداث مثل ما كان في العهد العربي الإسلامي . واذا كانت الفلسفة أو الطب أو الحساب

والفلك والعلوم العملية الأخرى أو النشاطات الأدبية والشعرية قدراً مشتركاً بين مختلف الأمم تقريباً فقد تميزت الحضارة العربية الإسلامية بالنزعة التاريخية الواضحة التي تجلت في ظهور حوالى خمسة آلاف مؤرخ على الأقل فيها وما يزيد على عشرة إلى إثني عشر ألف كتاب تاريخ – في أقل التقدير – للبيها. وبعض هذه الكتب في خمسين وثمانين ومائة مجلد . التراث التأريخي الضخم هو ميزة من ميزات هذه الحضارة وحدها وليس ذلك ناجماً فقط عن صدفة انتشار الورق وصنعه لدى العرب منذ القرن الثاني الهجري ولكن له أيضاً جذوره النفسية والدينية والمادية فيهم . وهذا ما أعطاه الرواج والرجال والمؤلفات عن سعة ، كما أعطاه في النهاية الخطوط الأولى لفلسفته وتحوله إلى علم منهجي – في حدود تلك العصور – على يد ابن خلدون .

ومع ذلك وهذا هو الداعي الثاني : فان علم التاريخ الإسلامي مثله كمثل كافة نواحي النشاط الفكري في التراث لم يبحث بعد : لا درس رجاله ولا أحصيت مؤلفاته ولا جرى مسح عامّ لميدانه ولا رسم فلكه الفكري الأعمق ولا كشف عن مناهجه وطرقه وفلسفته في بحث واسع جاد كامل . بلى . وجدت أبحاث عديدة في هذا الميدان وبعضها على مستوى عال من الجدية والجودة . وقد خصصناها بعد هذه الكلمة بالاستعراض وجعلنا ذلك نوعاً من المقدمة للكتاب اعترافاً منا بجهود السابقين وتقديراً لتلك الجهود . ولكنها كانت جميعاً – عدا واحدة منها هي دراسة فرانز روزنتال – إما مختصرات تكتفي بالملامح الغامضة التعميمية والسريعة دون العمق . وإما مباحث متفرقة تتصل ببعض المؤرخين دون آلاف الآخرين . وإما أخيراً متصلة بعصر محدود . فالمسار الأكمل لهذا العلم في مختلف عصوره وبقاعه وأنواعه ورجاله ، مفقود أو غامض الحدود .

الثالث : ان معاناة البحث في التاريخ الإسلامي تضع أمام الباحثين الشباب الكثير من الصعوبات والمغلقات . ان لها فلكها الفكري وعالمها ولغتها المميزة والط ق . ولقد طالما شعرت وأنا أجمع أطراف هذا الكتاب أن مصادر

التاريخ الإسلامي وان كانت عربية اللغة إلا أنها ميدان مملوء باشارات الاستفهام ومواطن التساؤل. الأسئلة – الساذجة أحياناً – التي كان يواجهني بها طلابي الباحثون كانت تكشف لي مدى القصور الذي نواجه به هذا الفرع من المعرفة التراثية، ومدى السطحية التي نستخدم بها ذلك التراث وكنت أحار إلى أي مصدر أردّ طلابي وهم يسألون عن المؤرخين ومؤلفاتهم؟ أو عن طريق نقل وتسجيل المعلومات التاريخية في الإسلام؟ وعن موقف المؤرخ المسلم من الآثار والوثائق وعن فلسفة المؤرخين أوعن علاقة التاريخ بالأدب أو بالدين، أو عن هذا المؤرخ أو ذلك، مدى موضوعية الأول وقيمة المصدر الذي كتبه الآخر... كانت حاجتهم إلى أن يجدوا بين أيديهم بعض الكلمات التي تهدي إلى أصحاب المصادر وإلى المسيرة بين سطور ومجلدات المصادر تعدل حاجتهم إلى معرفة تلك المصادر ذاتها ومعرفة أبحاثها.

والرابع أخيراً: أن هذا الجانب، من جوانب الثقافة العربية الإسلامية ليس كأي جانب آخر من مثله. اذا كانت علوم الدين أو الطبيعة أو الرياضيات أو الفلسفة وما اليها انما «تعلّم» الحياة العربية الإسلامية وترسم لها آفاقها النظرية ومساربها العملية التي يجب أن تسلك، فالتاريخ انما «يصفها» فقط. يصف رجالها وأحداثها كما كانوا وكانت، في الواقع الحي الذي درج. انه «الشاهد» الوحيد. هو نحن بكل ما أناخت القرون في شراييننا وبكل ما وسمت الأحداث وتمرد العنفوان. أليس من الغبن ان لم يكن من الخيانة للذات العربية أن يظل هذا الشاهد مغمور العيون والجذور في تراب الأرض والاهمال؟ واذا كان التاريخ العربي الاسلامي – مثله كمثل كل تاريخ آخر – عملية مزدوجة: هو ملحمة الحياة من جهة وهو تسجيل ملامح تلك الحياة في المعترك من جهة أخرى. هو الزمان ومرآة الزمان معاً في المعنى الجدلي لهذه العلاقة المتناقضة. أفليس من الواجب العلمي والوفاء القومي أن نكشف كل تلك الظلال والألوان التي قد تكون أصابت عملية التسجيل؟ أن نعرف إلى أي مدى كانت تلك المرآة صادقة

الصورة فيما عكست الناس ؟ أن نعرف الأداة التي سجلت التاريخ بكل ضعفها وقوتها ومؤثراتها بقدر ما يجب أن نعرف - ولكي نعرف أيضاً - ذلك التاريخ على الصدق والصحة ؟

ولعلي أستطيع أن أضيف هنا ما اكشف به مشروعي الأوسع الذي أعمل عليه لتأريخ المؤرخين والأدب التاريخي الاسلامي فالكتاب الذي بين يديك والذي قد يزيد على خمسة مجلدات هو أحد كتابين اثنين هما ان شئت في التراث التاريخي ومصادر التاريخ العربي الإسلامي وان شئت في علم التاريخ الاسلامي ومؤلفاته ورجاله فالأمر ، عند الغاية التي نرجو منهما سواء . وما الغاية إلا أن يقيما « شاهد » التاريخ العربي على رجليه حياً سوياً ، في سبيل صلة أعمق وأكثر حياة وصدقاً بمنابع الذات العربية الأولى ومسارها التاريخي العنيد .

وهذا الكتاب ليس على أي حال أكثر من محاولة تطمح في كثير من التواضع إلى أن ترسم بعض الخطوط والملامح في تأريخ علم التاريخ جواباً على الحاجتين الأولى والثانية وإلى أن تكون نوعاً من المصباح الهادي لفهم المصادر التاريخية في معارجها والمسالك تلبية للحاجة الثالثة . كما نرجو أخيراً أن تكون إحدى المنافذ للاتصال على الإحاطة والألفة بهذا الفرع من فروع النشاط الفكري في الثقافة العربية الإسلامية ، تمهيداً لاستعراض ثمرات ذلك النشاط في الكتاب الثاني القريب . معجم التاريخ الإسلامي والمؤرخين .

فان قصر هذا الكتاب في بعض جوانبه أو أخطأ السبيل فان صاحبه ليأمل أن يعينه أخوانه الزملاء بالتجاوز وبالارشاد على سد القصور وتقويم الخطأ « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

الكويت، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥

شاكر مصطفى

مقدمة

في الأبحاث والدراسات التي سبقت الى دراسة علم التاريخ الإسلامي

١ ـ في التراث

لقد يكون من الظلم أن نطلب في كتب التراث بحثاً للتاريخ كعلم ذي موضوع وحدود ومنهج عما نعرف ونبحث اليوم. ولكنا مع ذلك لا نعدم أن نجد عدداً من الدراسات التي عالجت هذا العلم :

ويأتي في الدرجة الأولى تلك الفصول المختلفة طولاً وقصراً والتي عقدها بعض الفلاسفة لفلسفة العلوم وتصنيفها منذ القرن الثالث الهجري. في هذه الفصول يوضع التاريخ من خلال النظرة الشاملة لجوانب المعرفة في مكانه وتحدد أهدافه من خلال ذلك ومناهجه. ولعل أقدم محاولة في هذا الباب هي تلك التي قام بها الفيلسوف العربي يعقوب الكندي (المتوفى سنة ٨٧٣/٢٦٠) في كتابيه (أقسام العلم الانسي) و (ماهية العلم وأصنافه) ولكن هذين الكتابين لم يصلا الينا. وقد كتب عدد من العلماء في القرن التالي (الرابع) في الموضوع ذاته ومن تلك الكتب :

– كتاب في أقسام العلوم لأبي زيد سهل البلخي المتوفى سنة ٣٢٢/٩٣٤ . وهذا الكتاب ضائع ولكن الكتب التي تلته موجودة مثل :

– مفاتيح العلوم ، لمحمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب المتوفى سنة ٣٨٧/٩٦٧ وقد خصص في الباب السادس (١٦ صفحة من أصل ١٥٠) لموضوع الأخبار والتاريخ وجعل هذه الصفحات فصولاً تسعة تكلم فيها عن المصطلحات التي ترد في تواريخ الفرس والعرب والروم واليونان واليمـــن ...

– احصاء العلوم ، للفارابي أبي نصر محمد بن محمد المتوفى سنة ٣٨٨ .

– رسائل إخوان الصفا (من أواسط القرن الرابع) وهي معروفة .

– جوامع العلوم ، لابن فريغون [1] تلميذ أبي زيد البلخي من أواسط القرن الرابع أيضاً .

وقد أراد المؤلف من كتابه أن يصنف العلوم على طريقة التشجير : اللغة العربية . الكتابة ، السياسة ، الحرب (والأخبار) والأخلاق ، الفصيلة ، العبادة ، علم النجوم ، الرؤيا : الفراسة ، القيافة .... علوم الأوهام : السحر ، الطلسمات ، الكيمياء ، وكل اهتمام المؤلف منصرفٌ إلى تصنيف العلوم من وجهة نظر فلسفية .

والكتاب مخطوطات عديدة في استامبول (أحمد الثالث رقم ٢٦٧٥

---

(١) هناك اختلاف في اسم الرجل فان محمد ابو الفضل ابراهيم يجعل الاسم ابن فريعون بفتح الراء وكسرها (انظر التراث العربي – سزكين ، المقدمة صفحة ى) ويعطيه اسم : المعتني أو المبغي دون تأكيد) وأما روزنتال فيجعله فريغون أو افريغون اعتماداً على شيوع هذا الاسم الفارسي واستشهد على ذلك بوجود اسم يماثله لدى ابن الجوزي في المنتظم (ج ١٠ ص ٦٤) – انظر الطبعة الانكليزية لروزنتال ص ٣٢ ولكن هذا الاسم في الترجمة العربية لروزنتال ص ٥٢) ورد بشكل فرجون . وهناك عالم من القرن الرابع الهجري باسم فريغون ذكره الثعالبي في تتمة يتيمة الدهر (٤/٢٧٥ – نشر عباس اقبال) .

في ٨٠ ورقة ، ورقم ٢٧٦٨ في ٨٦ ورقة) ومخطوطان آخران في (مكتبة معارف عامة رقم ٥٢٨ ، و ٥٢٩ ، ومخطوط في الاسكوريال (رقم ٩٥ في ٨٤ ورقة) .

– ثم جاءت رسالة في أقسام العلوم العقلية لابن سينا المتوفى سنة ١٠٣٧/٤٢٩ .

– ورسالة مراتب العلوم ، لابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ١٠٦٤/٤٥٦ (طبعت ضمن رسائل ابن حزم – تحقيق احسان عباس . القاهرة) .

واذا كنا لا نعرف موضع التاريخ في الكتب الضائعة التي كتبها الكندي والبلخي فانا لا نجد التاريخ مكاناً أيضاً في تصنيفات الفارابي وابن سينا . وربما كان التصنيف الإغريقي التاريخ في عداد الآداب أثره في غياب اسم التاريخ لدى هؤلاء الفلاسفة بينما اضطر الخوارزمي في مفاتيح العلوم واخوان الصفا في رسائلهم وابن فريغون إلى الاعتراف بهذا الفرع الهام من المعرفة الإنسانية الإسلامية ، بعد أن كثرت مؤلفاته الإسلامية وكثر رجاله . وقد وضعه الخوارزمي بين علوم الشريعة وما يقترن بها من العربية وجعله الباب الأخير وسماه « أخبار التاريخ »[1] وبالرغم من أن كتابه في الأصل إنما كان يهدف إلى تفسير التعاريف المغلقة في العلوم فان الموضع الذي وضع فيه التاريخ يكشف أن هذا العلم قد بدأ يحتل مكانته ودوره بين الفروع الثانوية المعرفة . أما اخوان الصفا فوضعوه بين العلوم الرياضية التسعة وجعلوه بدورهم آخر تلك العلوم وسموه قريباً من تسمية الخوارزمي علم السير والأخبار[2] ، وأما ابن فريغون فيصنفه مع علوم الحكمة في الفصل الثاني . وأما ابن حزم فاعترف بالتاريخ ولكنه أعاده إلى العلوم الفقهية واعتبره مساعداً لها .

وهذا كله يعني أن « التاريخ » قد أخذ يشغل – كعلم خاص ونشاط

---

(١) انظر الخوارزمي مفاتيح العلوم (طبع القاهرة ١٣٤٩ / ١٩٣٠) ص ٦٠ – ٨٢ .
(٢) انظر رسائل اخوان الصفا (طبع القاهرة ١٣٤٧ / ١٩٢٨) ج ١ ص ٢٠٢ .

ثقافي ــ أذهان المفكرين في القرنين الرابع والخامس ، وان لم يبحثه هؤلاء في ذاته ، وفي دراسات خاصة به . وقد استمر الأمر على ذلك أيضاً في القرن السادس وما بعده في مؤلفات :

ــ كتاب طبقات العلوم ، للأبيوردي أبي المظفر محمد بن أحمد الأموي المتوفى سنة ١١١٣/٥٠٧ .

ــ كتاب الأمالي في كل فن ، للزمخشري أبي القاسم محمود بن عمر المتوفى سنة ١١٤٤/٥٣٨ .

ــ حدائق الأنوار في حقائق الأسرار ، التي كتبه بالفارسية فخر الدين الرازي المتوفى سنة ١٢٠٩/٦٠٦ .

ــ نفائس الفنون في عرائس العيون ، الذي صنفه سنة ١٤٣٠/٧٣٩ محمد ابن محمود الآملي .

ــ موضوعات العلوم ، لعبد الرحمن البسطامي المتوفى سنة ٨٥٨/ ١٤٥٤ .

وهؤلاء وأمثالهم انما كانوا يمرون ببحث التاريخ من خلال الفلسفة باعتبارها عندهم أمّ العلوم فكانت مثل هذه النظرة الشاملة لكل معرفة انسانية جزءاً أساسياً من مؤلفاتهم . جاؤوا بحث التاريخ من باب الفلسفة ولم يدخلوه من بابه نفسه كعملية فكرية انسانية مميزة . ويبدو كأن طغيان أحداث التاريخ قد ألهى المؤرخين وغيرهم وشغلهم عن النظر في ماهية هذا العلم نفسه كممارسة فكرية لها موضوعها والمناهج والحدود .

ويجب أن ننتظر حتّى النصف الثاني من القرن التاسع والقرن العاشر التالي له لتظهر أول الأبحاث الإسلامية الخاصة بعلم التاريخ نفسه . وقد ظهرت فجأة في أربعة أو خمسة أعمال متتابعة وظهرت في مصر خاصة وحملت في الغالب طابع « الدفاع » عن هذا اللون من النشاط الثقافي أكثر مما حملت من طابع التعمق والتحليل لكنهه وماهيته ومناهجه الفكرية . وكان أول ما طرح الموضوع في كتاب :

- المختصر في علم التاريخ، لمحيي الدين محمد بن سليمان الكافيجي المتوفى سنة ٨٧٩ / ١٤٧٤ وهي رسالة في عشرين ورقة [١] انتهى منها في آذار سنة ٨٦٧ حسب ما ذكره السخاوي [٢]، ثم تلاه :

- كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، للسخاوي أبي الخير شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ١٤٩٧/٩٠٢ (وقد طبع في دمشق كما طبعه روزنتال وطبع مع الترجمة).

- الشماريخ في علم التاريخ [٣]، للسيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر المتوفى سنة ١٥١٦/٩١١، وقد طبعت في ليدن سنة ١٨٩٤ من قبل سيبولد ثم نشرت في بغداد مؤخراً من قبل ابراهيم السامرائي سنة ١٩٧١.

- زهر الشماريخ في علم التاريخ، من وضع أبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي المتوفى سنة ١٠٩٦ ومنها نسخة مخطوطة في خزانة عبد الحي الكتاني في فاس بالمغرب ضمن مجموع رقمه ٤٥ ونسختان أخريان في مكتبة الرباط برقم ٥٦ د ؛ ورقم ٤٨٧ د.

أما رسالة الكافيجي فتأخذ أهميتها من أنها « أقدم رسالة إسلامية معروفة لدينا عن نظرية علم التاريخ » [٤]. انها محاولة أولية هامة سبق بها صاحبها إلى طرح عدد من المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وغرضه وأهدافه وفوائده،

---

(١) نشر روزنتال هذه الرسالة في كتابه عن علم التاريخ عند المسلمين (الطبعة الانكليزية ص ٤٦٨ - ٥٠١) وهي في الترجمة العربية ما بين ص ٣٢٥ - ٣٧٠.

(٢) انظر كتاب السخاوي - الاعلان بالتوبيخ (طبعة روزنتال - الترجمة العربية) ص ٤٣٧.

(٣) ذكر صاحب كشف الظنون (١٠٥٩/٢) كتاباً آخر بعنوان الشماريخ في علم التاريخ نسبه إلى (... ابن طولون حسن بن أحمد الشامي المتوفى سنة ...) ولم أعثر على ابن طولون هذا ولا على كتابه فيما بين يدي من المصادر والمراجع. وليس بين كتب المؤرخ محمد بن علي ابن طولون الصالحي الدمشقي (المتوفى سنة ٩٥٣ / ١٥٤٦) على كثرة تآليفه كتاب بهذا العنوان.

(٤) روزنتال (علم التاريخ - الترجمة العربية) صفحة ٣١٨.

وأجاب باختصار عليها محاولاً وضع نظرية التاريخ وأصوله ومسائله من خلال ذلك في الباب الثاني خاصة من الرسالة ، وقد طبق المنهج الفقهي وأراد استخراج منهج البحث والتدوين التاريخي من خلاله لكنه سرعان ما يقطع البحث « خوفاً — كما قال — من سآمة الخواطر من الاطناب ... وفيما ذكرنا كفاية لكل ذهن سليم » وانصرف في النصف الثاني من الرسالة إلى ذكر بعض القصص عن الأنبياء ، وآدم وابليس وفرعون ونوح والسفينة ثم عالمية الرسالة المحمدية وخلاصة صغيرة عن النبي والخلفاء الراشدين وفضل أهل العلم ... وقد عرض الكافيجي مرة أخرى لبعض المعضلات التاريخية في كتاب آخر كتبه بعنوان : كتاب النصر القاهر والفتح الظاهر (١) .

وأما الشماريخ في علم التاريخ للسيوطي فرسالة أخرى صغيرة الحجم لا تزيد على عشرين صفحة وهي دون شك أقل شأناً بكثير من الناحية الفكرية من رسالة الكافيجي لأن السيوطي لم يحاول ايجاد مشكلة فكرية جديدة تتعلق بالتاريخ كعملية علمية واكتفى بأن قسم الرسالة إلى ثلاثة أبواب : الأول في مبدأ التاريخ أي الحوادث التي تتخذ بدءاً لتواريخ الناس كهبوط آدم وبناء البيت والميلاد والهجرة ... والثاني في فوائد التاريخ وكلها ذات طابع ديني— أخلاقي ... والثالث جمع فيه بعض المعارف التاريخية ومنها حساب التاريخ بالشهور والأيام .. فكأنما أراد لا بحث ماهية التاريخ ولكن وضع بعض الأسس لعملية التدوين التاريخي بين أيدي الناس . ولا تخرج رسالة (زهر الشماريخ) عن هذا الاطار نفسه سوى أنها منظومة نظماً في أرجوزة تملأ ست ورقات (من ٢٢ سطراً) .

... وبعد فالتاريخ علم واسع — والاعتبار فيه منه نافع
والقوم لم يألوا من التأليف — فيه من الأنواع والتصنيف ...
وقد رأيت أن ألخص هنا — ما ليس يخلو أن يبلغ المنى .. الخ .

---

(١) المصدر ذاته صفحة ٣٢٠ .

أما أهم وأضخم كتاب تناول الموضوع فهو دون شك كتاب السخاوي : الاعلان بالتوبيخ . لم يظهر قبله ولا بعده كتاب مثله تناول علم التاريخ الإسلامي ، كعلم ، بالبحث والدرس ولو أن حدود المؤلف كفقيه محدث قد وقفت به دون العمق ، وحولته إلى مجرد جامع للمعلومات المتفرقة . كانت رسالة الكافيجي هي الدافع للسخاوي كي يكتب كتابه ، ولهذا فقد عرض للمسائل ذاتها التي عرض لها سابقه .

بدأ فعرف التاريخ لغة واصطلاحاً ثم عرض لموضوع التاريخ في أسطر وغرق بعد ذلك في تبيان فائدة التاريخ من الناحية الدينية خاصة . وفي خدمة علوم الدين في السند وفي المتون . ثم في ذكر قصص النبوة والناس وتثبيت الرسالة والتهذيب والحث على العمل الطيب . وانصرف بعد ذلك إلى ذكر ما رواه عدد كبير من المؤرخين في مقدمات كتبهم خاصاً بشرف التاريخ ومحله وفائدته ... وقضى في ذلك خمسين صفحة ليخلص منها إلى ذم ناقدي التاريخ وبيان الفرق بين الغيبة الملومة وقول الحق . ثم عطف على بيان شروط المؤرخ ، وكلها شروط وحدود مستقاة من روح العلوم الدينية . وبعد أن ذكر ظهور التاريخ الهجري وسببه ، والتواريخ التي أرّخت بها الأمم الأخرى . خصص النصف الأخير من كتابه لذكر مصنفات التاريخ . ولعل هذا القسم من أجمع وأهم المصادر للتراث التاريخي في الإسلام .

كتب السخاوي كتابه في الواقع ، من وجهة نظر العالم الديني ، لا وجهة نظر المؤرخ وقصد إلى الدفاع عن الثقافة التاريخية لا إلى تحليل ماهيتها . ومفهوم التاريخ لديه لم يكن يتعلق بأحداث السياسة والحياة والناس ولكن يتعلق خاصة بالتراجم وبما يخص أصحاب علوم الدين منها ، ولعل رسالة الكافيجي كانت في هذه النواحي أكثر عمقاً من كتابه وأكثر أصالة . ولم يستطع الاستفادة من المقتطفات التي رتبها بعضها وراء بعض بياناً لفوائد التاريخ ، في استخلاص نظرية شاملة لهذا العلم . واقتصر الرأي الذي أتى به في النهاية لكشف هذه الفوائد على جمع ما تفرق من الآراء في صيغة متصلة واحدة حملت طابع

الجمع لا العمق الشمولي . ومع كل اولئك فان كتاب السخاوي يظل – كما قال روزنثال – عرضاً جميلاً لعلم التاريخ الإسلامي وآماله ومعضلاته لمن يعرف كيف يقرأه ... فهو صورة مضبوطة لانجازاته النهائية ولمواطن فشله ... »[1] حتى القرن العاشر الهجري .

ولم تظهر بعد هذه الدراسات في التراث دراسات أكثر جدية منها ولا أكثر شأناً .

---

(١) روزنثال – علم التاريخ (الطبعة العربية) صفحة ٣٧٢ (الطبعة الانجليزية ص ١٩٦) .

٢ ـ الأبحاث والمؤلفات الحديثة باللغة العربية

لم تصدر ، مع الأسف دراسات واسعة من الباحثين العرب في موضوع التاريخ الإسلامي . فاذا استثنينا الموجزات التي عالجته في ايجاز أو نظرات عامة في فصول بعض الكتب فنكاد لا نجد كتاباً واحداً شاملاً أو موسعاً تناول علم التاريخ بالدراسة . وما انتهت اليه معرفتنا يتناول مجموعة محدودة من الكتب . منهـــا :

ـ أحمد ، أحمد عبد الرازق :

ـ دراسات في المصادر المملوكية المبكرة (١ ـ المصادر التاريخية) القاهرة ١٩٧٤ ، هو دراسة في حوالى ٢٠٠ صفحة من القطع الصغير يبدو بوضوح أنها نقلت نقلاً عن دراسة الباحث الأمريكي (دونالد ليتل) ، في كتابه مدخل إلى التأريخ المملوكي . ومن المؤسف أن الدكتور أحمد عبد الرازق ، وهو بعد في أول المشوار العلمي ، لم يشر إلى ذلك أدنى إشارة . وتقرأ المقدمة التي صدر بها الكتاب . فإذا هو صاحب الفكرة والبحث : وهو الذي انتقى أخبار السنوات (٦٩٤ ، ٦٩٩ ، ٧٠٥ هـ) نفسها للتحليل والمقارنة لأسباب ذكرها ، وهو الذي تتبعها لدى ٢٢ مؤرخاً (بالتمام والكمال) « ... بسبب احتكاكنا المباشر بتلك الحوليات ـ كما يقول ـ واطلاعنا على كثير منها أثناء دراستنا للدكتوراه في جامعة باريس ... » والكتاب رواية بالعربية للكتاب الانكليزي فيه تحليل أخبار السنوات المذكورة

من خلال ٢٢ مؤرخاً قد قسموا فيما بينهم إلى مصادر مصرية معاصرة وشامية معاصرة ومصادر متأخرة ، ومصادر ثانوية . ولا ينقص هذه الرواية حتى تقل الهوامش .

وقد عفا الدكتور عبد الرازق عن الناحية الثانية في كتاب (ليتل) وهي مقارنة تراجم (قره سنقر) من خلال ثلاثة مؤلفين التراجم . ولقد قرر أن يجعلها جزءاً ثانياً للدراسات : (٢ — كتب التراجم) ! على أن له على أي حال فضلاً مشكوراً هو أنه قدم لقراء العربية بحثاً قد لا يتوفر لكثيرين الوصول إليه بالانكليزية ...

— حاطوم (نور الدين ، بالاشتراك مع ن . العاقل ، أ . طربين ، ص . ملدي)

— المدخل إلى التاريخ ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٥ .

والكتاب في الأصل استعراض لتاريخ علم التاريخ في الحضارات المختلفة ومن بينها الحضارة الإسلامية . وقد عقد التاريخ الإسلامي الفصل الثالث الذي يمتد ما بين الصفحتين ١٢٤ — ٣٠٢ . والبحث واف شامل ، يكاد يكون بذاته كتاباً كاملاً في تاريخ التدوين التاريخي ، منذ الفترة السابقة للاسلام (ورواتها في الإسلام) إلى ظهور التأريخ لدى المسلمين وأسبابه . وقد أكد المؤلفون على الميزات التي تميزت بها حركة التدوين التـــاريخي من أصالة واستقلال ، ومن عناية بتاريخ الإسلام خاصة ، وعلم تسخير الأقلام التاريخ الرسمي ، واستخدام التقويم الهجري وحرص على ذكر مصادر الأخبار وسندها. كما درس المؤلفون أسباب تدوين التاريخ ، ثم التدوين في العصر الأموي .

ثم صرف البحث بعد ذلك إلى كبار المؤرخين الذين سجلوا السيرة النبوية في مختلف العصور ثم إلى مؤرخي الطبقات ومؤرخي فتوح البلدان ثم تواريخ البلدان والتراجم وأصحابها ثم التواريخ العامة وكبار المؤرخين منذ أبي حنيفة الدينوري والطبري حتى ابن خلدون . ولولا أن تراجم المؤرخين هي التي

تطغى على هذا البحث الواسع وأن تطور العلم نفسه يضمر حتى ليكاد يغيب في النصف الثاني منه ليحل محله المؤرخون أنفسهم والتراجم . لكان هذا الفصل من أوفى الدراسات لعلم التاريخ الإسلامي .

– حسن ، محمد عبد الغني

– التراجم والسير ، ١١٠ صفحات (ط . دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٥) .

وهو كتيب آخر يشتمل على دراسة عامة آفاقية موزعة على أربعـــة فصـــول :

الأول : التراجم ونشأتها – التراجم الذاتية

الثــاني : السير النبوية . السير النبوية الشعرية .

الثالث : أنواع كتب التراجم ، التنظيم الحولي فيها والتنظيم على أساس الطبقـــات .

الرابع : حول كتابة التراجم

واستعراض الكتاب يعطي فكرة إجمالية عن الموضوع لمن يريد بعض المعارف العامة حوله ولعل هذا هو الغرض منه .

– حسن ، محمد عبد الغني

– علم التاريخ عند العرب ، الكتاب التاسع من سلسلة « مع العرب » القاهرة ١٩٦١ (٢٦٤ صفحة صغيرة) .

وهو كتاب غرضه استعراض التاريخ عند المؤرخين الإسلاميين في تبسيط ثقافي يضع الخطوط العريضة للموضوع مع بعض تراجم المؤرخين البارزين . لكن طابع الاختصار والتعميم يمنعه من متابعة الكثير من الملاحظات الهامة .

ويأخذ الكتاب شكل المقالات المتابعة التي تروي أولاً بعض مشاكل التاريخ الإسلامي مثل : فائدة التاريخ – كما قررها المؤرخون المسلمون – ثم الموقف الشرعي منه . ثم مدى صدق وحياد المؤرخين أو ميلهم مع الهوى . ثم ينبّه في فصول تالية إلى تشابه بعض الأسماء في التاريخ وإلى روح النقد التاريخي لدى بعض المؤرخين وإلى أثر المعاينة في كتابة التاريخ وإلى أساليب الكتابة التاريخية ثم كيفية ذكر المصادر والمراجع ونقل المؤرخين بعضهم عن بعض ؛ وتنظيم التاريخ على أساس السنين أو المواضيع . والقسم الآخر من الكتاب فصول متفرقة عن حالة المجتمع العربي واستنباطها من كتب الحسبة ، وعن المؤرخين العرب من غير المسلمين ، وجهود المستشرقين في تاريخ العرب والإسلام ومناهج بعض المؤرخين وكتاب التراجم ومناقشة اتهام ابن خلدون بالشعوبية . وهو يصل في كثير من المواضيع التي طرقها إلى التاريخ المعاصر وترد لديه أسماء شوقي وفيليب حتّي وزيدان وقهولا زيادة.

ولعل شأن الكتاب الأساسي هو في أنه أول كتاب حاول ملامسة مواضيع التأريخ العربي بشكل شامل ومبسط سريع .

– الخطيب ، محمد عجاج

– لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ، بيروت – دمشق ١٩٧١ .

وهو نموذج لعدد من الكتب صدر بعضها في حلب وبعض في العراق غرضها معونة الطلاب الجامعيين على البحث العلمي . وهذا الكتاب مثل منها . وهو يتحدث – كما ينبيء عنوانه – عن المكتبات الإسلامية وتاريخها وأشهر مكتبات العالم المعاصر وعن المخطوطات العربية ثم عن طرائق البحث والمناهج فيه . وما كان ليدخل في نطاق الكتب التي نستعرض لولا أن قسمه الثالث يتناول حركة التأليف عند المسلمين في مختلف العلوم مع ذكر أهم المصادر فيها . ومع أن هذا القسم يمتد على ١٧٠ صفحة إلا أنه يعتمد البحث المبسط والمراجع القريبة التناول مما يجعله إلى الثقافة العامة أقرب . ولئن كان قد يخدم

بعض طلبة الجامعات إلا أنه يقصر عن معونة الباحثين العلميين في شيء .

— الدوري ، عبد العزيز

— بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ١٩٦٠ .

وهو بحث قيم ، عميق لفجر التدوين التاريخي العربي وممثليه الأوائل في ١٣٦ صفحة يتبعها زهاء ثلاثمائة صفحة من النصوص . وقد كشف المؤلف بصورة خاصة مدرستي التاريخ الأساسيتين في صدر الإسلام : مدرسة المدينة الميالة للحديث مع أبرز رجالها ، ومدرسة العراق الميالة للخبر مع رجالها وبداية القصص التاريخي ودوافع الكتابة التاريخية . وشأن الكتاب الهام هو في أنه أول بحث واسع بالعربية وضع فجر التاريخ العربي في النور الواضح ولامس في عمق ودقة بالغة وإيجاز شامل واستناد واسع للمصادر الأولى كافة العوامل والظروف التي رافقت نشأة هذا العلم في القرون الثلاثة الأولى للهجرة .

— زيدان ، جرجي

— تاريخ آداب اللغة العربية ، ٤ أجزاء ، طبع أكثر من مرة في القاهرة ثم في بيروت ، آخرها طبعة دار مكتبة الحياة — بيروت ١٩٦٧

بالرغم من أن هذا الكتاب صدر قبل الحرب العالمية الأولى ، منذ أكثر من ستين سنة ، ومن أنه في « آداب » اللغة العربية ، إلا إن سعة اطلاع مؤلفه ، ونهجه العلمي ، ومحاولته الاتيان بمؤلف عربي يضاهي تلك المؤلفات الاستشراقية التي ظهرت في مطالع هذا القرن ، بمختلف اللغات الأوروبية ، عن تاريخ الأدب العربي ، وكان من أبرزها كتاب بروكلمان ، كل ذلك أعطى كتاب زيدان قيمة خاصة ، وجعله — فيما يتعلق بعلم التاريخ واستعراض المؤرخين خاصة — أهم من كتابه الأول في تاريخ التمدن الإسلامي . وإذا اكتفى في هذا الكتاب الأخير بدراسة بعض الملامح العامة لهذا العلم ، فإنه في تاريخ

آداب اللغة العربية قد حاول أن يعطي بجانب هذه الملامح سرداً هاماً لتراجم عدد كبير من المؤرخين يزيد على المائة والخمسين عدداً ، مع ذكر مؤلفاتهم المطبوعة ، ومكان وجودها إن كانت مخطوطة . وهذا ما جعل الكتاب هاماً ، ومفيداً حتى اليوم ــ ونجد هذه التراجم :

في الجزء الأول : ص ٢٢٣ ــ ٢٢٥

في الجزء الثاني : الصفحات ٤٥٣ ــ ٤٥٩ ؛ ٥٠٠ ــ ٥٠٩ ؛ ٦٢٤ ــ ٦٣٥ .

في الجزء الثالث : الصفحات ٦٥ ــ ٨٧ ؛ ١٥٦ ــ ٢٤٤

أما الرابع فيتعلق بالعصر الحديث . ولا بد أن نضيف إلى هذه الصفحات ما ورد في الكتاب من المعلومات عن الجغرافيين الإسلاميين خاصة وغيرهم ممن شارك ، من علماء العلوم الأخرى ، في الانتاج التاريخي .

ــ عبد العزيز سالم ، سيد

ــ التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧ (٣١٠ صفحات) .

والكتاب قسمان : يعرض الأول في استيفاء واضح بحث الكتابة التاريخية عند العرب نشأة وتطوراً ومنهجاً وتنوع صورة . ثم يتناول في القسم الثاني مصادر التاريخ الإسلامي في الأثريات وفي المصادر المكتوبة . ويذيل البحث بمقتطفات من الكتب الجغرافية والتاريخية . على أن المؤلف اكتفى بالأسلوب الوصفي : ذكر في الفصل الأول : ظهور التقويم الهجري ثم آراء مؤرخي العرب في فائدة التاريخ ثم أخطاء المؤرخين في نظر ابن خلدون ثم الشروط الواجب توفرها في الكتابة التاريخية حسب آراء ابن خلدون والسخاوي .

ثم استعرض في الفصل الثاني نشأة علم التاريخ عند العرب من الجاهلية حتى مدرستي المدينة والعراق ، وعرض في الفصل الثالث تطور الكتابة التاريخية في عدة ملاحظات عامة . وانتقل إلى ذكر مناهج المؤرخين الإسلاميين في

تسجيل التاريخ على أساس حولي أو حسب الموضوعات (الدول ، الطبقات ، الأنساب) . ثم ذكر تنوع صور المادة التاريخية فمنها التاريخ العالمي ومنها التاريخ المحلي (الدنيوي والديني) ومنها التاريخ المعاصر والمذكرات . ثم يلي ذلك البحث في مصادر التاريخ الإسلامي ، في النصف الثاني من الكتاب .

– علي ، جواد

ـ موارد تاريخ الطبري ، بحث يقع في ١٨٤ صفحة كبيرة نشر في الأعداد الثلاثة الأولى من مجلة المجمع العلمي العراقي لسنوات ١٩٥٠ ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٤ (العدد الأول لسنة ١٩٥٠ من ص ١٤٣ حتى ص ٢٣٢ ، العدد الثاني لسنة ١٩٥٢ من ص ١٣٥ حتى ص ١٩٠ ، والعدد الثالث – الجزء الأول لسنة ١٩٥٤ من ص ١٦ حتى ٥٦) .

ولا يصور العنوان واقع البحث لأن سعة موارد الطبري سمحت لصاحب البحث أن يكتب في الواقع نشأة علم التاريخ الإسلامي كله حتى عهد ذلك المؤرخ . ومن هذه الناحية فالبحث يشكل مؤلفاً قائماً بذاته في هذا الموضوع وقد حرص صاحبه على أن يستعرض في دقته الواضحة وسعة اطلاعه المعروفة عنه ، كافة الإخباريين والمؤرخين في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ويدرسهم من خلال المصادر التي نقل عنها الطبري . في مختلف أقسام تاريخه قسماً بعد قسم ، فأرخ بذلك عملياً كافة النشاط التاريخي السابق له . وخرج من ذلك ببحث هام قيم وبعدد كبير سديد من الملاحظات الموضوعية وبمناقشة علمية طيبة لعدد من مشاكل التأريخ الاسلامية في فترة نشأته الأولى .

– العمري ، أكرم ضياء

– بحوث في تاريخ السنة المشرفة . مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٩٧٢ .

والكتاب في الأصل كان مقدمة لرسالة علمية ثم أفرده صاحبه في مؤلف وأضاف إليه الكثير . وبحث فيه الوضع في الحديث وجهود العلماء في مقاومته

المصنفات في علم الرجال حتى القرن الخامس ثم أسس تنظيم كتب هذا العلم ونشاط الرحلة في طلب العلم كما بحث تدوين الحديث وأهم الكتب التي روته. ومع أن الكتاب يتصل بعلم الحديث في موضوعه كله إلا أنه يطل على علم التاريخ من الباب الأوسع لأنه يتناول جانباً هاماً من هذا العلم هو جانب الرجال والتراجم . وقد ساعدت المنهجية في البحث وسعة الاطلاع وكثرة المصادر على جعل الكتاب من أهم وأبرز الكتب في موضوعه في الوقت الذي سمحت له أن يكون مرجعاً يعتمد عليه في بحث بعض جوانب علم التاريخ .

– غربال ، محمد شفيق

– أساليب كتابة التاريخ عند العرب ، مجلة مجمع اللغة العربية – القاهرة (الجزء ١٤ سنة ١٩٦٢) وهو بحث قيم هام في مناهج تدوين التاريخ وأساليبه عند المؤرخين المسلمين الأساسيين .

– فؤاد سيد ، أيمن

– مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، طبع المعهد العلمي الفرنسي – القاهرة ١٩٧٤ (٥٤٠ صفحة) .

قد يكون الكتاب أهم وأجمع محاولة تمت حتى الآن لوضع مصادر التاريخ اليمني تحت نظر الباحثين . فقد اهتم المؤلف ، معتمداً في ذلك على خبرات أبيه من قبله ، في جمع أسماء المخطوطات اليمنية وتحديد أماكن وجودها وأتبع ذلك بدراسة لمنهج الكتابة التاريخية عند اليمنيين ثم عمد إلى ترتيب المخطوطات زمنياً حسب وفاة المؤرخين مع ذكر مصادر الترجمة لكل مؤلف والمؤلفات الخاصة بتاريخ اليمن وضم إلى الكتاب ملحقين الأول بالأبحاث والدراسات الحديثة حول الموضوع والثاني بقوائم السلاطين والأئمة في تاريخ اليمن . ويتصدر الكتاب مقدمة بالفرنسية . ولا شك أن هذا العمل إسهام

واضح في خدمة تاريخ هذه البقعة العربية التي لم تدخل أضواء التاريخ الواضحة حتى الآن .

— كحالة ، عمر رضا

– التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية – المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧٢ والكتاب حلقة في سلسلة من الكتب أصدرها المؤلف تناول فيها تاريخ مختلف العلوم عند العرب المسلمين : اللغة العربية وعلومها ، الفنون الجميلة ، العلوم العملية ، الأدب العربي ، الدراسات الاجتماعية ، الفلسفة الإسلامية وملحقاتها ، علوم الدين الإسلامي ... ومن يعرف الدأب العلمي الذي اتصف به المؤلف ، ويتذكر ما قدمه حتى الآن عن المعاجم الكبرى الباحثين كمعجم المؤلفين (١٥ مجلداً) وأعلام النساء (٥ مجلدات) ومعجم قبائل العرب (٣ مجلدات) يعرف عن أي خلفية علمية واسعة مدققة يصدر في كتبه ويعرف لكتاب (التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية) قيمته كنظرة كلية شاملة لتطور علم التاريخ عند العرب المسلمين . وقد استعرض في ١٩٠ صفحة ظهور هذا العلم في الإسلام في القرن الأول والثاني ثم عرض لكبار المؤرخين : الطبري ، مسكويه ، المسعودي ، ابن الجوزي ، ابن الأثير ، ابن العبري ... إلى ابن خلدون . ناشراً هنا وهناك ملاحظات قيمة . ثم يعطف إلى كتب التراجم فيتحدث عنها على الطريقة نفسها ثم يتناول الأنساب ثم التاريخ المحلي : لمصر والحجاز وإيران والشام . كما يتناول التاريخ المعاصر والمذكرات ولا ينسى الحديث عن أسلوب الكتابة التاريخية ودخول الشعر في التاريخ وينتهي هنا البحث ليخصص القسم الباقي من الكتاب وهو يزيد على النصف لسرد كتب التاريخ العام ومؤلفيها مع نبذة قصيرة عن كل كتاب ويتبع ذلك كتب الرجال ثم المناقب ثم كتب الدول والوزراء والولاة والقضاة ثم الحكماء والأطباء والمتكلمين والصوفية وتراجم القراء والمحدثين والفقهاء والتراجم الأخرى للأدباء والشعراء واللغويين والنحاة لتأتي بعد ذلك كتب التاريخ المحلي ...

على أن الكتاب رغم فائدته والجهد المبذول فيه ، وسداده بعض الفراغ في موضوعه يحتاج إلى لمسات التنظيم العلمي الحديث وإلى الفكر المنهجي الإنشائي الذي يستفيد من هذه المعلومات الغزيرة في إعادة تكوين علم التاريخ ورجاله، وفي تقسيم البحث إلى فصول واضحة ومواضيع محددة تركيبية . وقد تأثر المؤلف كل التأثر بمباحث روزنتال حول علم التاريخ عند المسلمين واتَّبَعَ سننه مضيفاً في النهاية مائة صفحة من عناوين الكتب والمؤلفين مما أضاع عليه فرصة إعطاء أول استعراض تاريخي شامل لعلم التاريخ في الإسلام . وقد كان هذا هدفه الأصلي .

- محمد حسن ، زكي

- دراسات في مناهج البحث في التاريخ الإسلامي ، بحث في مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة . المجلد ١٢ (ج ١ مايو سنة ١٩٥٠) من الصفحة ١٥٢ إلى ١٧٧ .

- دراسات في الموازنة بين المؤرخين في دار الإسلام والمؤرخين الأوروبيين في العصور الوسطى ، بحث في مجلة كلية الآداب والعلوم - بغداد، الجزء الثاني، حزيران ١٩٥٧ (صفحة ١ - ٣١) .

- نصار ، حسين

- نشأة التدوين التاريخي عند العرب (مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٦) .

وهو رسالة تقترب في الدراسة من بحث الدكتور الدوري ومن بحث سبقهما المستشرق هوروفيتش وتستعرض في عمق وجهد الأعمال الأولى في تدوين التاريخ الإسلامي .

٣ ـ الأبحاث باللغات الأجنبية

لعل اهتمام المؤلفين من المستشرقين كان أكثر من اهتمام الباحثين العرب بعلم التاريخ الإسلامي . ونستطيع أن نجد لهم جملة واسعة من الأبحاث بمختلف اللغات وبعضها هام ودقيق وشامل . ومنها :

— **Blachère, Regis**

— ***Histoire de la Littérature Arabe***

وصاحب الكتاب مستشرق فرنسي (توفي مؤخراً في أيلول ١٩٧٣) معروف باطلاعه العميق على اللغة العربية والأدب (ترجم القرآن ودرس الجاحظ) . وفي الصفحات ٧٨٠ — ٨١٠ من الجزء الثالث من هذا الكتاب بحث نشأة التدوين التاريخي في الإسلام . وبالرغم من أن زاوية نظر المؤلف أدبية بحتة إلا أنه مع ذلك استطاع أن يأتي بعدد جيد من الملاحظات التاريخية الهامة في الموضوع .

— **Gibb, Hamilton A.R.**

***Tarikh, (Art. Enc. Is., Ancient edition)*, Sup. I, pp. 233-245 (Leide — London 1938)**

كتب هذا المستشرق المعروف هذا البحث عن التاريخ الإسلامي لدائرة المعارف الإسلامية ، وقد نشر في الطبعة القديمة لها (في الملحق الأول) سنة ١٩٣٨ ثم في كتاب ***Studies on the Civilization of Islam*** كما نشر في الترجمة العربية لدائرة المعارف (ج ٤ ما بين ص ٤٨٣ — ٥١٦) وفي الترجمة

لكتاب الدراسات (ترجمة عباس . نجم . زايد . بيروت ١٩٦٤) الصفحات ١٤٣ – ١٨٢ . ولا شك أنه ، رغم قصره ، من أوفى وأكمل الدراسات التي ظهرت عن علم التاريخ الإسلامي حتى الآن . وقد وضع فيه صاحبه الخطط الأولى والأساسية لكل دراسة موسعة فيما بعد لهذا الموضوع . وحشد فيه ، في تكثيف واضح ، عدداً هاماً من الملاحظات حول تطور هذا العلم تستند إلى اطلاع طيب ودقة منهجية واضحة واحاطة بالموضوع من كافة جوانبه وفي مختلف الأصقاع الإسلامية . بدأ البحث بما هو مأثور عن العهد الجاهلي من أفكار تاريخية ثم ما روي في الإسلام عن تاريخ ما قبل الإسلام ثم أخذ في دراسة علم التاريخ في عهد الخلافة والمؤثرات التي أثرت في نشأته . ولئن لم يكن بحثه عميقاً وافياً في هذه الناحية فإن ملاحظاته عن علم التاريخ منذ القرن الرابع ملاحظات ناضجة استعرض فيها التواريخ الإقليمية والتواريخ العامة ونشوء كتب التراجم واختلاطها بالتاريخ .

ولعل أهم ما في بحثه أنه تعمد احتواء التواريخ الإسلامية الفارسية والهندية أيضاً ضمن البحث فهو ينبه إلى ظهور التواريخ باللغة الفارسية منذ القرن الرابع ، وإلى دخول العلوم الرياضية والفلكية على التاريخ ودخول بعض أهل اللغة ميدان التأريخ العام والخاص . وبعد أن يسجل قضية دخول النثر الفني المسجوع إلى التاريخ في القرن السادس يتتبع تطور التاريخ وأبرز المؤرخين في العصر الأيوبي ثم المملوكي ثم العثماني . كما يذكر مؤرخي اليمن والأندلس في تلك الفترة . ويشير إلى ظهور معاجم التراجم الكبرى فيها .

وقد خصص معظم النصف الأخير من المقال للكلام عن تطور علم التاريخ بالعربية وبالفارسية في إيران (ولا سيما في العهد المغولي ثم التيموري) وبالتركية والعربية لدى سلاجقة الروم ثم في ظل العثمانيين وأنهى المقال ببحث التأريخ الإسلامي في الهند ، وفي إيران خلال العهد الصفوي .

وقد كتب جب بالإضافة إلى هذا البحث ، أبحاثاً أخرى قد تكون بالنسبة لموضوعنا أقل أهمية .

١ — بحث في (تفسير التاريخ الإسلامي) نشره في كتابه *Studies on the Civilization of Islam* السابق الذكر (دراسات إسلامية المترجم للعربية بقلم إحسان عباس وزملائه) ولكنه يتعلق بتاريخ الإسلام .

٢ — بحث في التاريخ الإسلامي أيضاً في دائرة المعارف البريطانية (الطبعة ١٤)

٣ — بحث في المصادر العربية عن حياة صلاح الدين .

٤ — بحث في كتب التراجم . (نشره في كتاب : مؤرخو الشرق الأوسط الذي نشرته جامعة اكسفورد بأشراف برنارد لويس و ب . م . هولت سنة ١٩٦٢ : وقد جاء في خمس صفحات (ص ٥٤ — ٥٩) وبحث فيه أسباب ظهور أدب التراجم وقواعد اختيار المترجمين لتراجمهم، وتكوين الترجمة ، ومراجع المعلومات فيها . وقيمة كتب التراجم في الدراسات التاريخية . ورغم قصر البحث فانه يتميز بما تتميز به أبحاث جب من إحكام ومنهجية واضحة وملاحظة دقيقة .

— **Guidi, Ignatius**

— *L'Historiographie chez les Semites.*
(Rev. Biblique, III, 1906, pp. 509-519)

وهو بحث قصير وقديم . ولكنه مع ذلك يحوي على عدد من الملاحظات المقارنة ما بين تدوين التاريخ لدى اليهود ولدى العرب .

— **De Goeje, M.J.,**

— *Die Arabische Literatur in "Kultur Der Gegenwart"* **hsg. Von P. Hinneberg, I, IV, Berlin. Leipzig, 1906, S. 132-160.**

وهو بحث في تاريخ الأدب العربي وتراثه على ضوء التاريخ السياسي والثقافي للإسلام ، وبالرغم من قيمة مادته إلا أن فائدته في بحث علم التاريخ وتطوره محدودة .

— **Gonzalez Palencia, Angel,**

— *Historia de la Litteratura Arabigo-Espanola,* **Madrid 1928, 2nd edition (Collection Labor, n. 164-165)· Madrid 1945.**

وهو دون شك من أهم الكتب في دراسة تاريخ الفكر الأندلسي عامة وتطور علم التاريخ لدى الأندلسيين خاصة . وصاحب الكتاب يعد في القمة من الاستشراق الأسباني المعاصر ، وقد توفي منذ فترة قريبة تاركاً من آثاره هذا الكتاب الذي يبحث في آفاق التراث الأندلسي كله : الشعر في أنحاء الأندلس ، والأدب والنحو والمعاجم والفلسفة والحديث والفقه والرياضيات والفلك والطب والنبات وفي أدب المستعربين والمستعجمين وآثـار الأدب الأندلسي في إسبانيا . وقد خصص لعلم التاريخ حوالى ١٢٠ صفحة مـن الكتاب أعقبها بحوالى ١٥ صفحة عن الجغرافيا . ودرس كتب التاريخ العام في عصر الخلافة ، وعصر الطوائف وعصر المرابطين والموحدين ومملكة غرناطة وكتب التراجم والفهارس وتاريخ الأدب وتاريخ النواحي . لكن دراسته كانت تعتمد خاصة على تراجم المؤرخين وتحليل كتبهم . ترجم هذا الكتاب إلى العربية بعنوان : تاريخ الفكر الأندلسي من قبل الدكتور حسين مؤنس وطبع باشراف الجامعة العربية — القاهرة سنة ١٩٥٥ .

— **Huart, Clément,**

— *Littérature Arabe,* **Paris 1902 (4e ed. 1923).**

وقد ظهر هذا الكتاب بالفرنسية . مع ظهور كتاب بتشي الإيطالي ، وعند ظهور كتاب بروكلمان الألماني في مطالع هذا القرن وقد غطى هـذا الكتاب الأخير على الاثنين وبحث علم التاريخ فيه محدود ويدخل ضمن بحث الأدب .

— **Kremer, A.V.,**

— *Kulturgeschichte Der Arabischen Literature* **(Die Literaturen Des Ostens in Einzeldarstellungen 1, 2) Leipzing, 1901.**

وهذا الكتاب كان المحاولة الألمانية الثانية لجمع مادة التراث العربي بعد

كتاب بورغشتال . وتظهر قيمة الجهد المبذول فيه حين نعرف أنه كان في بعض الحالات أحد المصادر الأساسية التي اعتمدها بروكلمان في تصنيف كتابه المعروف عن (تاريخ الأدب العربي) . وقد ترجمه خدابخش إلى الإنكليزية (طبع كلكتا سنة ١٩٢٠) حاذفاً منه المراجع . ونقله إلى العربية مصطفى بدر سنة ١٩٥٧ ونشر مقدمته بالعربية علي الخربوطلي سنة ١٩٦١ بالقاهرة

— **Krimsky, A.,**

— *Istoria Arabov I Arabski Literaturi*, **Moskau 1912.**

والكتاب باللغة الروسية ويدخل ضمن محاولات هوارت وبيتسي وبروكلمان لتعريف الغرب في مطالع هذا القرن بتاريخ الأدب العربي وبمؤلفاته .

— **Lewis (B.) and Holt (P.M.)**

— ***Historians of the Middle East***

(Oxford U.P. 1962)

وهو من أهم الكتب قيمة في مادته .. جمع فيه المشرفان على إخراجه ٤١ بحثاً حول التواريخ العربية والفارسية والتركية للشرق الأوسط في العصور الاسلامية والحديثة . ومن المسهمين فيه عدد من المستشرقين المعروفين (وات . روزنتال . كاهن . بيلا . جب . فوك . شبولر . غرونباوم ...) وبعض الباحثين من البلاد العربية : والأبحاث فيه (ومعظمها يتعلق بالمؤرخين المسلمين) من أجود ما كتب في موضوعاتها حتى الآن .

— **Lichtenstaedter**

— *Arabic and Islamic Historiography,*

Moslim World, XXXV, 1954, pp. 126-132

وهو بحث مختصر ، محدود الأفق أيضاً في استعراض أهم ملامح المؤرخين في التاريخ الإسلامي .

— ليتل ، دونالد بريسغريف   **Little, Donald Presgrave**

— مدخل إلى التأريخ المملوكي (بالإنكليزية ، فسبادن ١٩٧٠) .

ضمن سلسلة دراسات إسلامية التي يشرف عليها المستشرق رويمر

An introduction to Mameluk Historiography

(Freiburger Islamstudien II) Wiesbaden 1970, (154 p.)

هو دراسة محدودة الحجم ولكنها ، في الحدود التي رسمها صاحبها لها، في منتهى الجدية والدقة . وقد استهدف المؤلف دراسة العلاقات بين المصادر التاريخية بعضها مع بعض في النصف الأول من عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ودراسة الروح والمناهج التي اتبعها مؤرخو تلك الفترة (ومن بعدهم) في استخدام مصادر معلوماتهم . وهذه الفترة ليست محظوظة بوفرة المؤرخين فيها فحسب ولكنها محظوظة كذلك بكمية المعلومات التي وصلتنا عنها . ولو شاء المؤلف أن يبلغ الغاية من التحليل والمقارنة المفصلة لاحتاج دون شك إلى أضعاف ما بذل من الجهد ومن الوقت ولجاء كتابه أضعاف ما كان . ومن هنا فقد نعذر المؤلف على الأسلوب الانتقائي الذي اتبعه وعلى اختياره النماذج ، على الطريقة الأمريكية . وهكذا فقد اختار السنوات ٦٩٤، ٦٩٩ ، ٧٠٥ هـ/ ١٢٩٤ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٥ م فأخذ أخبارها كأمثلة للمقارنة في ٢٢ مصدراً عدا بعض المصادر الثانوية . وبعض تلك المصادر معاصر وبعضها من العصور اللاحقة . ثم استخرج من جهة أخرى ترجمة منتقاة (الأمير شمس الدين قره سنقر) من ثلاثة من كتب التراجم وقارن بينها .

وبالرغم من النتائج الدقيقة والهامة التي توصل اليها (ليتل) فإن ضيق الأمثلة ومحدوديتها جعلا بعض الأخطاء تتسرب إلى تلك النتائج . ولكن الكتاب يبقى هاماً ومفيداً لكل باحث في هذا الميدان .

— **Margoliouth, D.S.**

— *Lectures on Arabic Historians,* **(Univ. of Calcutta, 1930).**

والكتاب في الأصل مجموع محاضرات ألقيت في جامعة كلكتا سنة ١٩٢٩ وهي تتناول بالدراسة فجر التدوين التاريخي عند العرب المسلمين ، والمؤرخين

الأولين ثم مؤرخي القرون الهجرية الثاني فالثالث فالرابع ثم المؤرخين المتأخرين منذ القرن الخامس حتى التاسع . والكتاب يقدم مادة حسنة للدارسين ولو أنها لا تتميز بالعمق والتحليل وتعتمد خاصة على المعلومات التي قدمها ياقوت عن المؤرخين . وتبدو في النهاية كأنها تراجم لهؤلاء أكثر مما هي دراسة لتطور علم التاريخ من خلالهم . فالملاحظات المتعلقة بهذه الناحية محدودة عنده ولعله لم يكن يقصد إليها بقدر ما كان يقصد إلى جمع معلومات ياقوت التي كانت في ذلك الوقت جديدة [1] .

وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان : (دراسات عن المؤرخين العرب) بقلم حسين نصار وطبع بدار الثقافة في بيروت (دون تاريخ) في ١٧٥ صفحة صغيرة .

— **Oberman, Julius**

— ***The Idea of History in the Ancient Near East,***
" Early Islam ",
Yale University Press, New Haven, 1955.

وهو بحث خاص بتطور فكرة التاريخ الإسلامي ومحاولة التعمق في ذلك المفهوم في العهد الإسلامي الأول من خلال المؤرخين الأوائل حتى القرن الثالث ومؤلفاتهم .

— **Pfann Muller G.,**

— ***Handbuch der Islam-Litteratur,***
Berlin-Leipzig 1923.

وهو كتاب مختصر في تاريخ الأدب العربي ، قد يهم الأجانب والباحثين في البحث . وفيه اعتماد على المصادر واضح ولكنه لا يخصص لتطور علم التاريخ ما يجعله مرجعاً في هذا الموضوع .

---

(١) كان مستشرق آخر هو .Heer, F.J قد سبق منذ سنة ١٨٩٨ للتعرض للمؤرخين والجغرافيين الذين ترجم لهم ياقوت في معجم البلدان وكان في ذلك الوقت حديث الطباعة فكتب مقالا حولهم هو :
Heer, F.J. : Die Historischen und Geographischen Quellen in Yaqut' Geographischem Worter buch, Strassburg, 1898.

— Pizzi, I.,

— *Litteratura Araba* (Manuali Hoepli, Serie Sc. 335/336) Milano, 1903.

وهو بالإيطالية . وقد كان أحد كتب ثلاثة ظهرت في أوروبا في مطالع هذا القرن عن تاريخ الأدب العربي . والآخران هما كتاب هوارث بالفرنسية وكتاب بروكلمان بالألمانية ، وقد كان نشر قبلها جميعاً كتاب أربوثنوت بالإنكليزية سنة ١٨٩٠ . وفائدته في دراسة تطور الأدب التاريخي محدودة .

— Pons Boigues, F.,

— *Ensayo Bio-Bibliographico Sobre Los Historiodores Y Geographicos Arabico-Espanoles*, Madrid, 1898.

وبالرغم من قدم هذا الكتاب ومن أنه يهتم خاصة بالرجال وبالتراث إلا أنه يقدم باستعراضه التفصيلي للمؤرخين وآثارهم ، ثم بالخلاصة العامة التي يدرس فيها مجمل الأدب التاريخي الأندلسي أكمل لوحة لتطور علم التاريخ في الأندلس .

— Rescher, O

— *Abriss der Arabischen Litteratur Geschichte I, II*, Stuttgart 1925 - 1933.

صاحب الكتاب حجة في التراث العربي . وقد كان في عزمه الاشتراك مع فؤاد سزكين في إصدار موسوعة (تاريخ التراث العربي) ولكن تقدمه الكبير في العمر جعله يتنازل عن أوراقه وعن المشروع لصاحبه . ويتجلى في كتابه هذا مدى اطلاعه واستفادته من كتب التراث في كتابة تاريخ الأدب العربي . وهو يتمم بذلك سلسلة كتب المدرسة الألمانية ، في هذا الموضوع وعلى النهج نفسه منذ هامر – بورغشتال إلى بروكلمان .

— Richter, J.,

— *Das Geschichtsbild der Arabischen Historiker der Mittelaters* (Tucbingen, 1933, Philosophic und Geschichte, 43)

وهو بحث يستهدف ابراز الصورة التاريخية في أعمال المؤرخين العرب

الاسلاميين وقد بين أن ما هو تاريخي لم يجر فصله عما هو ديني فالفكر التاريخي العربي انطلق من التجربة الدينية لا من الاسطورة . وبعد أن استعرض (ريختر) مناهج الطبرى واليعقوبى وابن المقفع خاصة ذكر أن التاريخ الاسلامي جرت صياغته على طريقة معينة ليصبح جزءاًمن تقاليد الثقافة الاجتماعية والمنحى الأخلاقي . وقد ترجم إلى العربية (مجلة الفكر العربي العدد ٢ أغسطس ١٩٧٨) وكان ترجم قبلاً إلى الانكليزية من قبل محمد صابر خان ونشر بعنوان :

— *Medieval Arabic Historiography* in Islamic Culture 33 (1959) pp. 240-250; and 34 (1960) pp. 139-151.

— Rosenthal, Franz,

— *A History of Muslim Historiography* (Leiden, Brill, 1922).

وهو أول وأهم دراسة علمية جدية موسعة في علم التاريخ العربي صدرت حتى الآن سواء بالعربية أو باللغات الأجنبية . وقد استند روزنتال في كتابة هذا المؤلف إلى قاعدة واسعة من الاطلاع على مختلف المؤلفات التاريخية العربية ومنها كمية واضحة من المخطوطات واستخدم تلك المادة استخداماً ناجحاً جداً في تنظيم البحث واستخلاص النتائج راسماً بذلك لعلم التاريخ من الداخل ومن خلال المؤلفات التاريخية ملامحه الرئيسية . ولكنه اقتصر على مناهج وملامح التدوين خاصة فلم يعرض لتاريخ هذا العلم في العصور المختلفة ولا الرواد الأساسيين في بنائه وتكوينه وتطوره ولم يستخدم هذا وذاك في إقامة تاريخ متكامل متوازن متصل لهذا العلم .

جعل روزنتال كتابه قسمين : خصص الأولى للدراسة والثانية للنصوص . أما الدراسة فتناول في الفصل الأول منها بعض الملاحظات التمهيدية عن علم التاريخ ومعنى كلمة تاريخ بالعربية . ثم تكلم في الفصل الثاني عن الوعي التاريخي في جزيرة العرب قبل الإسلام وعن الأنساب والأيام ، وعن نظرة الرسول التاريخية وأثرها في ظهور علم التاريخ . ثم بحث مكانة التاريخ في العلم

الإسلامي وفي التربية الإسلامية ثم حلل المؤرخ المسلم ومكانته . وتكلم في الفصل الثالث عن الصور الأساسية لعلم التاريخ : الخبر والصور الحوليـة والصور الثانوية الأخرى (تاريخ الدول ، الطبقات ، الأنساب) . ثم درس في الفصل الرابع محتويات الكتب التاريخية (من أنساب وتراجم وجغرافيا وتنجيم وفلسفة وعلوم سياسية واجتماعية واستخدام للوثائق والنقوش) ودرس في الفصل الخامس الصور المنوعة للتلون التاريخي (التواريخ العالمية ، والمحلية الاقليمية ، والتاريخ المعاصر أو المذكرات) وأنهى البحث بدراسة للصور الفنية في صياغة التاريخ .

استغرق هذا البحث زهاء ١٧٥ صفحة . وقد خصص روزنتال القسم الثاني من الكتاب (أي حوالى ٤٥٠ صفحة) لمجموعة هامة من النصوص المتعلقة بالموضوع ولعل أهمها :

– رسالة الكافيجي ، المختصر في علم التاريخ .

– كتاب السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (مع نصين آخرين له من مقدمات كتبه) .

– فصل من كتاب طاش كبري زاده : مفتاح السعادة ومصباح الريادة .

وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية الدكتور صالح أحمد العلي بعنوان : علم التاريخ عند المسلمين ، وطبع في بغداد سنة ١٩٦٣ في ٨٦٠ صفحة منها ٢٧٢ صفحة للدراسة و ٥٠٠ صفحة للنصوص والباقي الفهارس .

— **Somogyi, J., de,**

— ***The Development of Arabic Historiography;*** **in Jour. Semitic Studies, 3 (1958) pp. 373-387.**

ولم يتيسر لنا الاطلاع على هذا البحث .

— **Spies, Otto,**

— ***Beitrage Zur Arabischen Literaturgeschichte,*** **Leipzig, 1932.**

ولم نتمكن من الاطلاع على هذا الكتاب أيضاً . وصاحبه من المستشرقين ذوي الدراسات العميقة والاطلاع الواسع على التراث العربي .

— **Shamseddin, Mohammed,**
— ***Islamda Tarih ve Muverrihler,***
(Istanbul 1940-1943)

وهو دراسة هامة ولكنها باللغة التركية للتاريخ والمؤرخين المسلمين ومثلها الكتاب التالي :

— **Togan, A. Fehl,**
Tarihde Usul, **(Istanbul, 1950)**

— **Ulrigh Haarmann**
— ***Quellenstudien zur fruhen Mamelukenzeit,***
(Freiburg, 1969) VIII + 288 p. + 118 p. in arabic)

إنه رسالة كتبها صاحبها تحت اشراف الأستاذ رويمر Hans Roemer ودرس فيها كتابة التاريخ في العصر المملوكي الأول . وقد كانت الدراسة في الأصل متطابقة مع دراسة الباحث الأمريكي ليتل (مدخل إلى التاريخ المملوكي) ولكن هارمان عدّل في خطة البحث قليلاً ، حين علم ذلك ، واتبع منهجاً مختلفاً وإن ظل البحثان في النهاية متوازيين .

اهتم هارمان تحت تأثير أستاذه رويمر بالمؤرخ ابن ايبك الدواداري ، وكان رويمر قد نشر الجزء التاسع من تاريخه (٠) ، كما جرته الدراسة إلى اكتشاف شأن المؤرخ الدمشقي المغمور : الجزري وهكذا فقد اختار وترجم وطبع بصورة متقابلة أخبار السنوات من ٦٨٢ إلى ٦٨٧ لدى المؤرخين الاثنين . ومن خلال هذه المقارنة وغيرها قدم المؤلف حوالي مائة صفحة من البحث

---

(٠) نشر رويمر الجزء التاسع من كنز الدرر الدواداري وهو (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر) سنة ١٩٦٠ وقد تابعه أولريخ هارمان فنشر بتشجيعه وتحت إشرافه الجزء الثامن (الدرة الزكية من أخبار الدولة التركية) سنة ١٩٧١ .

بحدي اعيد حول ملامح وميزات التأريخ في العصر المملوكي الأول .

وهناك عمل المستشرق الفرنسي دى فو (مفكرو الإسلام) :

— **De Vaux, Carra,**

— ***Les Penseurs de L'Islam*, Paris, 1921 (2 vols.)**

وقد لخص دى فو في كتابه هذا تاريخ الفكر الإسلامي في نواحيه المختلفة وخصص الفصل الثاني من المجلد الأول لبحث (المؤرخين العرب) وقد توقف خاصة عند ابن خلدون معتبراً اياه قمة الفكر التاريخي الإسلامي .

— **Wustenfeld, F.,**

— ***Die Geschichtschreiber der Araber und ihr werke*,**

(Goettingen, 1882).

(مدونو التاريخ العرب وأعمالهم)

ومع أن اهتمام وستنفلد ، في كتابه القديم هذا ، كان منصباً على احصاء الإنتاج التاريخي والمؤرخين إلا أنه حوى دراسة أولية كانت ذات شأن في وضع بعض الخطوط لدراسة علم التاريخ الإسلامي .

ولعلنا نشير ها هنا إلى أننا أهملنا عامدين كتابين من أعظم الكتب الجامعة التراث هنا :

— تاريخ الآداب العربية لكارل بروكلمان

— تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين

والكتابان مكتوبان في الأصل بالألمانية ورغم فائدتهما في تتبع كتب التراث التاريخي إلا أنهما لا يحويان إلا أقل الدراسة الممكنة . وقد وجدنا أن مكانهما الأصح هو مطلع كتابنا الآخر حول : مصادر التاريخ الإسلامي . ونكتفي هنا الاشارة العابرة إليهما .

٤ ـ الأبحاث المساعدة والثانوية الأخرى

تلك هي بصورة عامة جمهرة الأبحاث العربية والأجنبية التي تحدثت في علم التاريخ الإسلامي ولا بد كي تكتمل الصورة من أن نضيف اليها ثلاث مجموعات أخرى من الأبحاث والكتب :

أولاً ـ المؤلفات الباحثة في مناهج البحث التاريخي :

ـ حسن ، علي ابراهيم

ـ استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ المصري الوسيط ، القاهرة ١٩٤٩ . وهو بالاضافة الى اقتصاره على تاريخ مصر يستهدف مناهج البحث، وان ذكر في كتابه الكثير من المصادر المتعلقة بذلك التاريخ .

ـ رستم ، أسد

ـ مصطلح التاريخ ـ بيروت ١٩٣٩ أعيد طبعه سنة ١٩٥٥) .

وهو في مناهج وطرق البحث في التاريخ . وقد وفق صاحبه في الربط ما بين الأصول التاريخية الإسلامية المعروفة في التراث وما بين المنهج العلمي التاريخي الحديث، وأورد على ذلك الكثير من النصوص والأمثلة التي تجعل منه كتاباً هاماً جداً في فهم علم التاريخ الإسلامي ومناهجه وصلتها بمناهج علم الحديث .

ـ عثمان ، حسن

ـ منهج البحث التاريخي ، القاهرة ١٩٤٣

وهو كتاب عام في أصول البحث التاريخي يدرس العلوم المساعدة وجمع الأصول والمراجع ونقدها واثبات الحقائق التاريخية وتنظيمها ويدرس الاجتهاد والتعليل والصياغة التاريخية . ويستشهد خلال ذلك بشواهد يتصل معظمها بالتاريخ العثماني والحديث ولكنه لا يخلو من لفتات كثيرة موزعة في ثنايا الكتاب إلى مناهج البحث التاريخي لدى المسلمين .

ثانياً – الأبحاث المقتضبة أو المطولـة بعض الطول التي وردت في ثنايا بعض المؤلفات المعروفة مثل :

– أمين ، أحمد :

– فجر الإسلام (أنظر منه الطبعة العاشرة – القاهرة ١٩٦٥) صفحة ٤٠ وما بعدها .

– ضحى الإسلام (أنظر منه الطبعة السادسة – القاهرة ١٩٦١ في الجزء الثاني) التاريخ والمؤرخون في العصر العباسي الأول صفحة ٣١٩ – ٣٣٦ .

– ظهر الإسلام ، أنظر منه (الطبعة الثالثة – القاهرة سنة ١٩٦٢) في الجزء الأول صفحة ٢٠١ – ٢٠٩ في لجزء الثاني صفحة ٢٠١ – ٢٠٥ ، في لجزء الثالث عن التاريخ في الأندلس صفحة ٢٧٤ – ٢٩٥ .

– حسن ، ابراهيم حسن

– تاريخ الإسلام السياسي وله عدة طبعات . أنظر منه الطبعة السابعة (القاهرة ١٩٦٥) الجزء الأول صفحة ٥١٣ ، والجزء الثاني صفحة ٣٤٩ – ٣٥١ ، والجزء الثالث صفحة ٣٩٨ – ٤٠٦ والجزء الرابع (الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧ القاهرة) صفحة ٥٥٠ – ٥٨٣ .

– تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة – القاهرة) صفحة ٥٥٩ – ٥٦٩ .

- زيدان ، جرجي

- تاريخ التمدن الإسلامي ، طبعة دار الهلال - القاهرة (دون تاريخ) مع تعليقات للدكتور حسين مؤنس .

وانظر منه بحث التاريخ عند المسلمين في الجزء الثالث صفحة ٦٩ - ١١١ .

- الشيال ، جمال الدين

- في التاريخ ، (فصل من كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية) اصدار : مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع اليونسكو - القاهرة ١٩٧٠ .

ويشغل الفصل ما بين الصفحتين ٣٥٥ - ٤٠٠ من الكتاب ويتحدث عن أثر التاريخ والمؤرخين في اسبانيا وصقلية والمشرق في علم التاريخ الأوروبي في العصور الوسطى ، كاشفاً بذلك بعض العلاقات الهامة ما بين عدد من المؤرخين العرب في هذه الأقطار وبين المؤلفات الأوروبية التاريخية المعاصرة لهم أو التالية لعهودهم . والبحث خصب لاسيما في الأفق الجديد الذي يفتحه للباحثين .

- العبادي ، عبد الحميد

علم التاريخ عند المسلمين (فصل ضمن كتاب علم التاريخ - تأليف هرنشو ، القاهرة ١٩٣٧) .

وكاتب هذا الفصل ترجم كتاب علم التاريخ إلى العربية ورأى أن صاحبه لم يعرض للتأريخ الإسلامي فأضاف اليه فصلاً يكمل البحث (ما بين الصفحتين ٥١ - ٦٩) وهو استعراض موجز محدود لتطور علم التاريخ عند المسلمين وأبرز رجاله ولعله يصلح بُلغة لمن ينشد فكرة سريعة عابرة .

ثالثاً ـ أبحاث المؤلفين الذين اقتصروا على دراسة مؤرخ إسلامي واحد والمؤلفين الذين نشروا بعض الكتب التاريخية القديمة أو المخطوطة، فقدموا لها بمقدمات عن أصحابها وذلك كثير، ومن أمثلته :

أحمد محمد الحوفي : الطبري، القاهرة ١٩٦٣ (سلسلة أعلام العرب رقم ١٣).

عبد القادر أحمد طليمات : ابن الأثير الجزري (القاهرة سنة ١٩٦٩ سلسلة أعلام العرب رقم ٨٣).

عبد اللطيف حمزة : القلقشندي ، القاهرة سنة ١٩٦٢ (سلسلة أعلام العرب رقم ١٢) .

عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون . القاهرة سنة ١٩٦١ (سلسلة أعلام العرب رقم ٤) .

مؤلفات ابن الجوزي ، عبد الحميد العلوجي بغداد سنة ١٩٦٥ .

أسماء مؤلفات ابن تيمية ، لابن قيم الجوزية (تحقيق صلاح الدين المنجد) طبع دمشق ١٩٥٣ .

ومقدمات حسن حبشي لابن شاهنشاه ومحمد عبد اللطيف عوض لتاريخ الفارقي ، وأبو الفضل ابراهيم لتاريخ الطبري (طبعة القاهرة ١٩٦٠) وعبد القادر طليمات لتاريخ ابن الأثير عن الأتابكة : الباهر (القاهرة ١٩٦٣) ومقدمة محمد حلمي أحمد لكتاب الروضتين ومقدمتي صلاح الدين المنجد لتاريخ ابن عساكر ولأعلام النبلاء للذهبي .... الخ .

وفي اللغات الأجنبية من ذلك فيض واسع أيضاً منه أبحاث :

— Fuck, J. : *Muhammad Ibn Ishaq*, (Frankfurt am Main, 1925).

— Krenkow, *The Two Oldest Books on Arabic Folklore*, (Islamic Culture, 111, 1928, pp. 235 off.

— Loth, Otto von : *Das Classenbuck des Ibn Sa'ad*, (Leibzig 1869).

— Cahen, Cl.,
Abdallatif Al Bagdadi, Protaitiste Et Historien Leson Temps.
Bull. Etu. Or. de l'I.F.D., Damas XXIII, (1970) pp. 101-128.

— Fahar, Caesar, F.,
Ibn Al-Najjar, A Neglected Arabic Historian.
JAOS 84, (1964) pp. 220-230

— Laoust, H.,
— *Ibn Katir, Historien;*
Arabica 2 (1955) pp. 42-88

— Mittowoch, E.,
— *Die Litterarische Tatigkeit Hamza Al Isbahanis. Ein Bertrag Sur Altern Arabischen Litteraturgeschichte.*
MSOS 12 (1909) pp. 109-169

— Peres, H.,
— *Essai De Bibliographie Sur La Vie Et L'Oeuvre D'Ibn Khaldun.*
Stud. Orientalist (Levi della Vida II) 1956, pp. 304-329.

— Rosenthal, E.I.J.,
— *Ibn Khaldun, North-African Muslim Thinker of the Fourteenth Century*. Bull. J.R. Lib. 24 (1940) pp. 307-320

— Tritton A.S.,
— *Bar Hebraeus and the History of the Earlier Caliphs.*
J.I.H. 5 (1927) pp. 51-65.

ومنه أيضاً مقدمات Cl. Cahen للمخطوطات التي نشرها من تاريخ العظيمي والبستان الجامع للأصفهاني ، ولمع القوانين المضية للنابلسي .... ومقدمة دى غويه للطبري ، وليفي بروفنسال لكتاب نسب قريش للزبيري . ومقدمة سخاو E. Sachau لطبقات ابن سعد . والقطعة الباقية من كتاب موسى بن عقبة . هذا عدا عن الأبحاث الكثيرة التي صدرت عن ابن خلدون خاصة مثلاً (وعن غيره من المؤرخين) وهي أكثر من أن تحصى .

القسم الأول

نشأة وتكون علم التاريخ في الاسلام

الفصل الاول

الوعي التاريخي وعوامل ظهور التاريخ

١ ـ الوعي التاريخي والتاريخ عند العرب قبل الاسلام

الخبر والتاريخ :

كلمة خبر التي استعملها العرب في صدر الإسلام لمعنى التاريخ لها في اللغات السامية قصة طويلة ، فيها معنى الربط والتقييد وفيها من خلال كلمة خبر معنى البحث والفحص ومعنى الأخبار أيضاً . وقد تأخرت كلمة تأريخ حتى ظهرت وفشت على الأقلام الإسلامية ، ولئن اضطربت تفاسير اللغويين لأصل هذه الكلمة وشكوا في عروبتها حتى أعطوها أصلاً فارسياً: «ماه روز» قالوا إنها حرفت عنه [1] ، والأرجح أن جذرها (ورخ) جذر سامي ولكنه مأخوذ من لغة اليمن الجنوبية وليس عن كلمة يرح أو ياريح العبرية أو السريانية كما ورد في الموسوعة الإسلامية . ومعناها الأول هناك هو القمر أو الشهر . ولعلها

---

(١) انظر حمزة الأصفهاني – تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء (طبعة مكتبة الحياة – بيروت دون تاريخ) ص ١٢ .

ما بدأت حياتها الإسلامية كتعبير فني الا بعد ظهور التأريخ الهجري في عهد عمر بن الخطاب [1] . وكان المسلمون قبل ذلك يستعملون لمعنى التاريخ كلمة « العد ». وقد روى البخاري في الصحيح قول سهل بن سعد الصحابي في ظهور التقويم الهجري « ... ما عدوا من بعث النبي ولا من وفاته . ما عدوا إلا من مقدمه المدينة » . واذا كانت كلمة تاريخ ، تحمل في العربية منذ زمن بعيد خمسة من المعاني على الأقل ، هي :

١) سير الزمن والأحداث أي التطور التاريخي ، تقابل كلمة The History of... وتعني ما يفهم من كلمة التاريخ الإسلامي أو تاريخ ايطاليا .

٢) تاريخ الرجال أو ما يقابل The Biography

٣) عملية التدوين التاريخي أو التأريخ ووصف التطور وتحليله وهي التي تقابل كلمة Historiography .

---

(١) للتوسع في هذه النقاط انظر روزنتال ، علم التاريخ عند المسلمين ، الأصل الانجليزي صفحة ١٠ - ١٤ الترجمة العربية ١٩ - ٢٥ ، ويمكن أن نذكر هنا بعض الملامح التي تعين في الموضوع أيضاً : عن معنى خبر وأخبار وتاريخ في اللغات السامية القديمة :

مادة خ ب ر - بالسريانية والعبرية والاثيوبية تعني : ربط = خابور .

ومادة ح ب ر - بالعبرية تعني : زميل ، رفيق = حبر

ومادة ح ب ر - بالعبرية تعني أيضاً : بحث ، فحص ، ومنها الحبر

فهل كلمة خبر مأخوذة من الربط كما أخذ العقل من معنى العقل = الرباط والقيد ،

وأما معنى كلمة (تاريخ) وأصلها :

فالجواليقي ولسان العرب من بعده يقولان : « الكلمة ليست عربية محضة وأن المسلمين أخذوها من أهل الكتاب . وقيل . . . ان الارخ هو الوقت والتأريخ كأنه التوقيت » ومرغليوث يقرر « أن الكلمة لم توجد في عربية الشمال ولكنها موجودة في عربية الجنوب في مادة ورخ . وتعني القمر وتوجد الحروف نفسها مجتمعة في نقش فينيقي ترجمه بعض الباحثين بكلمة ميعاد وقلب الواو همزة ليس أمراً شاذاً بالعبرية » ... والأرجح أنها ليست سريانية الأصل . وفي السريانية ارخ تعني الشهر . وهي آتية من معنى القمر واسمه في الآكادية أرخو وفي العبرية يرح أو ياريح

٤) علم التاريخ والمعرفة به ، وكتب التاريخ وما فيها وهو ما يقابل كلمة The History المفردة[١] .

٥) تحديد زمن الواقعة أو الحادث باليوم والشهر والسنة (The date)

اذا كان ذلك فقد مرت هذه الكلمة بأطوار عدة قبل أن تستقر فيها تلك المعاني وتحملها في الإسلام بدأت سيرتها أولاً بمعنى التقويم والتوقيت في صدر الإسلام الأول ، وبعد أن استعملت الكلمة فترة من الوقت بهذا المعنى ، كسبت معنى آخر هو تسجيل الأحداث على أساس الزمن . وكان يقوم مقامها في معنى هذه العملية التاريخية : كلمة خبر ، وأخبار وأخباري ، ثم بدأت كلمة تاريخ تحل بالتدريج محل كلمة خبر وأخذت تطلق على عملية التدوين التاريخي وعلى حفظ الأخبار بشكل متسلسل متصل الزمن والموضوع للدلالة على هذا النوع الجديد من التطور في الخبر والعملية الاخبارية . وكان ذلك على ما يبدو منذ أواسط القرن الثاني الهجري فما أطل القرن الثالث حتى صارت كلمة التاريخ تطلق على العلم بأحداث التاريخ وأخباره ، وبأخبار الرجال وعلى الكتب التي تحوي ذلك، وحلت نهائياً محل كلمة الخبر والاخباري اللتين انحطت قيمتهما العلمية قبل أن تختفيا من الاستعمال في القرن الرابع .

ولعله من الهامّ أن نلاحظ أن أقدم المؤلفات التي حملت اسم التاريخ كانت كتب أحداث لا تراجم بخلاف الرأي الذي ذكره روزنتال في هذا الصدد[٢] . فقد كتب عوانة بن الحكم الأخباري الكوفي المتوفى سنة ١٤٧ / ٧٦٥ أو ٧٥٨ كتاباً عنوانه : كتاب التاريخ ، يتناول أحداث التاريخ الإسلامي في القرن الأول الهجري ، وهو أول كتاب نعرفه يحمل اسم هذا العلم في الإسلام . ثم كتب هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٨١٩/٢٠٤ أيضاً كتاب

---

(١) يمكن أن نضيف معنى سادساً استمر فترة حسنة خلال التاريخ الاسلامي وكانت كلمة تاريخ تستعمل فيها بمعنى تراث القوم وتمثيل الشمائل الأساسية فيهم وكانوا يقولون : فلان تاريخ قومه .

(٢) انظر روزنتال ، علم التاريخ عند المسلمين : الأصل الانجليزي ص ١٣ ، (الترجمة العربية ص ٢٤) .

التاريخ وكتاباً بعنوان أخبار الخلفاء. وكتب في الوقت نفسه الهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٦ / ٨٢١ كتاب التاريخ على السنين وكتاب تاريخ الأشراف الكبير. واستقرت من بعد ذلك التسمية وانتشرت واحتلت عناوين العشرات من الكتب في القرن الثالث الهجري. ويبدو أن كتب التراجم حملت بدورها عنوان التاريخ في تلك الفترة مع أن بعضها كان يدعى من قبل بالطبقات. وبالرغم من أن هذه التسمية الأخيرة استمرت وانتشرت إلا أن تسمية الامام البخاري (محمد بن اسماعيل) المتوفى سنة ٢٥٦ لكتابه عن رجال الحديث باسم (التاريخ) تمثل مزجاً نهائياً ما بين علم التراجم والأحداث في علم واحد.

التاريخ العربي قبل الإسلام

التأريخ أي الاحساس بمرور الزمن والأحوال عبر جيل بعد جيل وتسجيل ذلك الاحساس على صورة من الصور (قد تكون أسطورة أو قصة أو نسباً أو أغنية أو نقشاً أو سجل أحداث) هو ممارسة انسانية تعمق وتتبلور مع الارتقاء في الدرجة الحضارية. وعرب ما قبل الإسلام لم يكونوا بعيدين عن التأريخ، وكل جماعة منهم كان لها على طريقتها وبمقدار سويتها الحضارية تأريخها الخاص بعضه مدون أو منقوش وبعضه شفهي. وهو تراث واسع من الكتابات والنقوش والأخبار العديدة جداً والمتفاوتة في الأهمية تفاوتها في الصحة والصدق وما كانت كلها بالطبع مدونة بلغة قريش والقرآن الكريم.

فعرب اليمن، في الجنوب ... لهم على أوابدهم الأثرية والمعابد والقلاع والسدود نقوشهم بالمسند، خطهم الخاص، وبلغة الجنوب خاصة، يذكرون فيها مختلف الفعاليات من أعمال الدين والخير والجزية وبناء الأسوار والمعابد والحصون والحملات العسكرية. وقد دخل اليهم بعد سنة ١١٥ ق. م تقويم ثابت [١].

(١) انظر الدوري. نشأة التاريخ ص١٤ نقلا عن ريكمانز، النظام الملكي في بلاد العرب الجنوبية –

ويشير الهمداني في كتابه الاكليل إلى « ما أدخرته ملوك حمير في خزائنها من مكتوب علمها والى « زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية » والى « ما قيده آباء المرانيين من نسبهم وما حفظوه كابراً عن كابر ورآه عندهم بخط أبي علكمة المراني علامة اليمن في عصره » والى « ما نقله هو بنفسه » من « نسب العويين المقيد الأصول » رواية عن زبور قديم بخط أحمد بن موسى بن أبي حنيفة المعروف بالندان »[1] ... الخ ، بمعنى أن ثمة تسجيلات لدى بعض الملوك والقبائل والأسر وأن ثمة عادة مألوفة بذلك استمرت بعد الإسلام حتى القرن الرابع الهجري . بل يذكر الدينوري نسخة حلف بين اليمن وربيعة في الجاهلية نقلها أحدهم عن حفيد آخر الحميريين[2] مما يدل على أنه كان ثمة تسجيل وحفظ لوثائق الأمور العامة ، على أنه كان من الغريب بعد هذا أن لا يبقى لنا من تاريخ اليمن السابق للاسلام كله ، مع طول عهده، سوى بعض أسماء للملوك القدماء وقصصاً غامضة « سداها ولحمتها المبالغة والتهويل والاختراع ».

وكان لدى عرب الحيرة المناذرة : « كتب » تحوي أخبارهم وأنسابهم أشار اليها الطبري وابن هشام ويعرفون تاريخ الفرس . كما كانت لهم نقوش حاول ابن الكلبي قراءة بعضها لاستخلاص أمور تاريخية منها . ولدى العرب في الشام من تدمر إلى بطرا فمدين وجماعة ثمود وأهل الصفا (شرقي حوران) نقوشهم التسجيلية المعروفة المقروءة اليوم، وفيما عدا ذلك لم يؤثر عن الغساسنة بدورهم مؤلفات تاريخية أو نشاط تاريخي محدد مما جعل تاريخهم متأرجحاً

= صفحة ٢٨٢ . وقد توصل ريكمانز إلى هذا الاستنتاج بالاستناد إلى نقش أبرهة المؤرخ بشهر ذوقيازان من سنة ٦٥٧ وانما جرى الحادث الذي يتعلق النقش به في سنة ٥٤٢ م . أما سنة ١١٥ ق. م فهي سنة وصول حمير إلى السلطان الواسع في اليمن .

(١) انظر من كتاب الهمداني - الأكليل ج ١ (طبعة الأكوع - القاهرة ١٩٦٣) ص ٩ و ص ١٢ ، ثم ج ١٠ (طبع محي الدين الخطيب - القاهرة ١٣٦٨ ه) ص ٣٠ - ٣١ ثم ص ١١١ .

(٢) انظر الدينوري ، الأخبار الطوال صفحة ٣٥٣ - ٣٥٤ ، وبالرغم من أن نص الحلف واضح الوضع والزيف بما فيه من سجع واصطناع إلا أنه يدل على أن الناس كانوا يعرفون وجود نصوص مكتوبة ووثائق محفوظة ولولا ذلك لما اجترأوا على التزييف .

بين ما يضم تاريخ البيزنطيين منه وما تروي الأخبار العربية البدوية .

أما عرب الحجاز وبدو نجد فكان لهم في تراثهم الثقافي الشفهي قصص تاريخي يتمثل في « الأيام » المعروفة ولهم حفظ الأنساب وما يتعلق بها . لكن التاريخ العربي بعد الإسلام لم يكن تطوراً لتلك الأسس التاريخية الأولى في اليمن أو الجزيرة أو الشام . ثمة انقطاع بين العهدين لكن صلة عملية التدوين التاريخي الإسلامي بالقصص التاريخي الجاهلي وأيام العرب وبعلم الأنساب تفرض التساؤل عن مدى صلة التطور والاستمرار بين الطرفين ؟

أ ـ فأما المادة التاريخية الجاهلية فنوعان : بعضها قصص ديني وثني أو يهودي أو مسيحي نقله الأحبار والرهبان معهم أو أخبار من التاريخ الفارسي كالذي جلس يرويه الحارث بن كلدة لقريش منافسة منه للنبي في القرآن ، وما يحكى من أخبار الأولين ،ونجد شيئاً من أصداء هذه المعارف ولا سيما ما يتعلق بأهل الكتاب في القرآن الكريم . وأما النوع الآخر فروايات جماعية ، بدوية المنشأ تروي النزاع القبلي ، وتحمل اسم « الأيام » وتضم ذكريات التاريخ البدوي للقبائل . وبالرغم من أن هذه الأشكال من القصص ذات جذور تاريخية إلا أن صلتها بالتأريخ بالمعنى المعروف للكلمة صلة بعيدة . انها قصص مرسل مقطوع الصلة بالزمن أو يحمل فكرة جد غامضة عنه ويقدم بروايات مسجلة هي بين الأسطورة والواقعة التاريخية . وما من شك في أن هذا القصص يحمل الكثير من الحقائق التاريخية ولكن ما من شك في الوقت نفسه في أن الكثير من التحوير والزيادة قد دخل على أشكاله الأولى والتالية . واذا كان ثمة شبه بينه وبين القصص السامي العبراني والآرامي والبابلي في الطور البدوي لهذه الجماعات فإن نقله الشفهي وتأخر تسجيله بعد العهد الإسلامي أكثر من قرن قد أدخل عليه الكثير من الانطباعات الإسلامية ... الدينية والسياسية ... كما تبلورت فيه خاصة صور جديدة بدوية مخترعة لعرب اليمن ولعلاقاتهم مع عرب الشمال، وللأخبار العربية وللشعر العربي ، كما سادت فيها لغة قريش والخط الذي

كتبت به : فتراجعت لغات المناطق وألغيت الخطوط الأخرى وتطوراتها فلم يبق سوى تطور الخطين النبطي والحيري. ثم أصاب ذلك القصص كذلك، من خلال النقل ، اضطراب تاريخي قوامه الاختلاط الحادثي . فاختلط حادث بآخر ، والانزلاق الزمني فانتقل الحدث من زمن إلى زمن ، والتضخيم مع تباعد العهد فكبرت على الأيام بعض أشخاصه وصوره . ثم فرضت السياسة ومنازعات الحكم نفسها خلال « الأيام » واستخدمتها فهي صور إسلامية منسحبة على الماضي ... إن الصورة الإسلامية التي أعطيت « الجاهلية » في أيام التدوين التاريخي ، في القرن الثاني للهجرة ، لم تشوه ذلك العصر كله فقط ولكنها كانت كافية أيضاً لإسدال حجاب كثيف على ما سبقه من عصور عربية . ولنلاحظ من بعد أن هذه الأيام والقصص لم تستطع أن تدل ، حتى في العهد الإسلامي ، على نمو في الشعور التاريخي لدى ناقليها . لم تعاونهم على التطور في المفهوم الزمني التسجيلي ولا التسلسل في الأحداث أي على « التاريخية » فظلت جزءاً من الأدب ومن فكاهة الأسمار ... حتى ما بعد قرون .

ب — وأما الأنساب فهي سلاسل أسماء تدعو لها الحاجة الاجتماعية القبلية للتعارف والتمايز . انها كالأعمدة تنسج من حولها بعض القصص التي يحفظ تكوينها . هي في الواقع : التاريخ الانتروبولوجي التقليدي والهيكل العظمي للفكرة التاريخية . وبالرغم من أنها أكثر تاريخية من القصص باعتبارها شكلاً من أشكال التعبير التاريخي يسجل إطار التكون القبلي إلا أن المعلومات النسبية الجاهلية بقيت شفهية فترة طويلة بعد الإسلام ، وتحوم حول شكلها المسجل لدينا من بعد شكوك كثيرة ، منها أنها تقسم العرب أفقياً تقسيماً ثلاثياً أو ثنائياً ، (عاربة ومستعربة وبائدة) ثم تقسمهم شاقولياً إلى أقسام منفصلة بمعنى أن العرب ليسوا شعباً واحداً ولكنهم تركيب مزجي استمر خلال العصور الطويلة محتفظاً بعناصره المكونة دون تفاعل أو امتزاج وهو إن صح في بعض القبائل البدوية المنعزلة فليس يصح لعرب الجنوب الذين قضوا في حياة الاستقرار حوالى عشرين قرناً قبل الإسلام ولا لعرب الشام أو الحيرة . ومن العجيب

أن لا يذكر الشعر الجاهلي اطلاقاً عدنان ولا قحطان وأعجب منه أن لا نجد ذكراً لأي منهما في أي نقش أو أثر يمني قديم أو ثمودي أو صفوي وهي نقوش تعد بعشرات الألوف . هذا إلى اضطراب الناس في مفهوم العاربة والمستعربة والبائدة وفي ارتباط القبائل بعضها مع بعض ... واضطرابهم في تفسير أسماء القبائل التي قد تدل على تقسيم جغرافي لا انثروبولوجي وعلى تباين مكانيّ لا عرقي واختلاف حضاري لا في الأصل والجنس.ولو حسبنا أجداد القبائل حتى ظهور الإسلام على أساس معدل معقول للأعمار لوجدنا أن أقدمها لا يجاوز في الوجود ٣٠٠ ــ ٥٠٠ سنة وكفى بذلك ريبة .

ثم إننا لا نعرف من الأنساب بشكل فيه بعض السعة إلا ما اتصل بقريش وبعض الحجاز،وتصنف المعلومات بوضوح ثم تضطرب ثم تختلط كلما ابتعدنا عن هذا المركز وخاصة ان وصلنا اليمن ، ثم تموت في مناطق عمان فهي الضباب والإبهــام .

وقد انتقلت الأنساب بالرواية عبر القرن الإسلامي الأول إلى عصر التسجيل ، في القرن الثاني . ولم يضعف اهتمام العرب بها كثيراً رغم استقرارهم الحضري لأنها ركبت السياسة أو أن السياسة ركبتها فأخذ النسب شكل النزاع القائم ، وكان قناعاً للأطماع وتنازع النفوذ والتنافس في الرزق والمركز . ولم يبق شيء من سجلات عُمَر التي سجلها للدواوين. وما من شك في أن سجلات أخرى قد وجدت في بعض الأمصار ــ فهي من مستلزمات الغنائم والعطاء والأرزاق ــ ولكنها بدورها ضاعت وانما بقي لنا روايات النسابين . ولكنها حين سجلت لم تحمل معها الكثير من المادة التاريخية وظلت حتى في القرون التالية وحتى القرن السابع وما بعده علماً مستقلاً يرفد التاريخ لكن لا يندمج فيه . وهذا يعني أن النسب لم يسهم إلا قليلاً في ايجاد الأدب التاريخي ، وفي تكوين صورة التاريخ الإسلامي . وهذا التاريخ لم يقم بالاعتماد عليه ولكن بالاعتماد على أسس وعوامل أخرى .

٢ ـ العوامل الأولى لظهور التأريخ في الإسلام

فكرة التأريخ في الإسلام :

إذا كان القصص الأيامي «والأنسابي » في الجاهلية قد أعطى الثقافة الإسلامية من بعد مادة قصصية للعظمة الدينية من جهة ومادة سياسية ـ اجتماعية للحفاظ على الصور القبلية ، ومادة لغوية ـ أدبية من خلال ما حمل من شعر وقصص لدعم لغة القرآن الكريم وقريش، فان نشأة التأريخ وتدوين الأخبار التاريخية تدين في تكوينها إلى عناصر ثقافية أخرى ظل الكثير منها مرافقاً لهذا العلم وداعماً ومبرراً لوجوده خلال التاريخ الإسلامي كله ، ولعل أهمها :

أولاً « تاريخية الإسلام » ...

١ ـ فالاسلام دين تاريخي الروح . يحمل في ذاته فكرة تاريخية عميقة . العقيدة الإسلامية لا تعتبر نفسها جديدة ولكنها عريقة الجذور في التاريخ . إنها « ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » ... فالوحدانية فكرة أزلية الوجود في النفس الإنسانية ، وما الحنيفية واليهودية والمسيحية والإسلام سوى دين واحد متصل الحلقات أبداً .

٢ ـ ان ما جرى ويجري من أحداث البشر على الأرض منذ بدأ الخلق إلى يوم القيامة انما هو قدر مقدور وخطة أرادها الله لمن خلق . « والله خلقكم وما تعملون »؛« بل لله الأمر جميعاً واليه يرجع الأمر كله »؛« يدبر الأمر من

السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه »؛ « وقد جعل الله لكل شيء قدراً »؛ « انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » . ؛ « وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها » ؛ « وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح » ؛ « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » ... ومن هنا كانت معرفة الماضي نافذة للاطلال على ارادة الله التي تمت في الناس، وتعبيراً عن تلك الارادة ، وكشفاً للمستقبل عن طريق ذلك الماضي ... وها هنا كل روح التاريخ !

٣ ـ أعطت العقيدة الإسلامية تصوراً تاريخياً واضحاً للكون منذ الخلق حتى يوم القيامة . وربطت بين المبدأ والمنتهى بحلقات الأنبياء وأعطت لمبدأ الخلق صورة لا تقل عنها وضوحاً صورة الآخرة. وجعلت ما بين الطرفين،فترة عبور « فما الحياة الدنيا، الا لعب ولهو »؛« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » فلا بد اذن من العظة والتأمل والتفكر في ذلك . « ... وفي أنفسكم أفلا تنظرون »، « أفلا تفكرون » ؟ « أفلا تعقلون » ؟".

٤ ـ ثم ان شؤون الحياة الدنيا هامة وأساسية في مصير الانسان وآخرته . وان حياة المسلم مرحلتان يفصل بينهما الموت ولكنهما متصلتان أقوى الاتصال : لأن الأولى بأحداثها ودقائقها أساس الثانية الباقية ودليلها ... ولهذا فالانسان ليس بمنبوذ وحيداً على الأرض ولا خارج الزمن . وأفعاله مسجلة عليه في اللوح المحفوظ . وكل شيء خالد الحساب لا يندثر . فإن مسجّله فليس يبتكر في ذلك من جديد « لكل نفس بما كسبت رهينة » « وان كل نفس لما عليها حافظ». « ... ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » ... هو التاريخ ! والسجل الكلي .

٥ ـ ثم ان الانسانية كلها واحدة : « الله رب العالمين »؛ « هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ».والاسلام يخاطب البشر جميعاً ويكرر خطابه للناس دوماً

« يا أيها الناس »، « يا أيها الانسان » مما يوحي ويؤيد الايمان بالترابط العميق الجذري في الصورة الكونية للانسانية. وجميع الأحداث والأعمال بالتالي ذات أهمية دينية لأن الانسان يصنعها فهي تاريخية وهو مسؤول عنها. مرتبط بها ارتباطها به. ولا فكاك من التاريخ.

٦ — ظهور الرسول الأعظم كان خطاً فاصلاً في مسيرة التاريخ. هو خاتم الأنبياء. برزخ بين عالمين. عهد جديد نهائي للانسانية [1] ولعل ادراك عمر بن الخطاب لهذه الحقيقة الإسلامية الكبرى هو الذي دفعه — بين عوامل أخرى — أولاً إلى وضع التأريخ (أي التقويم) وثانياً إلى تدوين الدواوين والتأريخ بالهجرة لإبراز شخصية الرسول من جهة وتأكيد أهمية ظهور الإسلام وتسجيل العطاء في الدواوين على أساس المسلمين الأولين وأنسابهم وإثبات قيمهم في المنطلق الانساني الجديد.

٧ — وقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن أساطير الأولين [2] ولا يعني ذلك الأسطورة الخرافية ولكن ما هو مسطور مكتوب لدى الناس. أي ليس بجديد ولكنه مؤرخ معروف من قبل. وهذا يعني أن الجاهليين قد أدركوا ما في القرآن من صلة مع الفكر الديني السابق وما يملأ الجو القرآني بوضوح منه وأنه يروي قصصاً وأموراً تاريخية لها كتبها وذكرها المسطور.

٨ — انتزع الإسلام العرب من الاطار القبلي ومن الجو الوثني ولهذا استخف بالأنساب وبقصص الأيام وبمثل الجاهلية وبلدهم منها جواً ثقافياً آخر ربطهم بسلسلة التاريخ الوجداني البشرية. أي أعطاهم بعداً زمنياً جديداً قوامه التاريخ الماضي كله من خلال سلسلة الأنبياء المتمادية منذ مبدأ الخلق.

---

(١) الفرقة الاسماعيلية وحدها — في الاسلام — ترى نظام الدورات السبع والفترات ، ولكنها على أي حال قد تأخرت في الظهور عن العهد الذي نتكلم عنه.

(٢) في القرآن الكريم تسع آيات تتحدث عن أساطير الأولين من أوضحها في هذا المعنى الذي نقصد قوله تعالى « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً » (الفرقان آية ٥).

٩ ـ وأخيراً قدم القرآن الكريم مادة تاريخية هامة وان تكن مجملة وتكتفي بالاشارة واللمحة وتسمى بالقصص. « ذلك من أنباء القرى نقص عليك منها قائم وحصيد »؛« كذلك نقص عليك من أنباء ما قد مضى»؛« نحن نقص عليك أحسن القصص». وبالرغم من أن الغرض منها هو الموعظة والاعتبار (أفلم يروا) « ألم تر كيف فعل ربك بـ » ... إلا أن الرغبة في معرفة تفاصيل ما أجمله القرآن الكريم من ذلك القصص فتحت باباً من أبواب المعرفة الدينية دخل منه التاريخ . ودخل كرديف ديني شرعي لعمليات التفسير القرآني . واذا كان الكثير من الاسرائيليات قد دخلت عن هذا الطريق إلى التاريخ الاسلامي كما دخله الكثير من الأخبار القبلية والأجنبية فأهم من ذلك أن القرآن الكريم منح بذلك نظرة جديدة إلى الماضي كرسته كأساس فكري للعقيدة، ردت قيمتا كجزء أساسي من المعرفة الانسانية الموصلة إلى الله .

ثانياً : الحاجات الفكرية (الروحية ـ الثقافية) :

١ ـ شعر المسلمون ومنذ الأيام الأولى أن الاسلام كعقيدة غيّر مسيرة الانسانية الدينية وأعطاها مساراً جديداً ودخل بها في طور مختلف. وهذا الحدث يستحق التسجيل في دقائقه لفهمه واعطائه شأنه الانساني. وتجارب « الأمة » الإسلامية جديرة بأن تدون وتعرف في تطور أحداثها وأمورها وتقارن مع تجارب « الأمم » الأخرى [1] .

٢ ـ وبالمقابل فقد ظهرت في العالم دولة إسلامية كبرى غيرت مسيرته التاريخية والسياسية . وفتوحها الصاعقة ثم سيطرتها السياسية وجديدها الحضاري لم تفاجىء الشعوب الأخرى فقط ولكنها ألغت الدول الكبرى التي كانت لقرون طويلة ،في ما يسمى بالعصور القديمة،تسير شؤون العالم وبرزت وحدها بدلاً منها . ان هذا الحدث لا بد أن يشده الأنظار لا سيما في الشعوب المهزومة

---

(١) لعلنا ننبه إلى أننا نستعمل كلمة « أمة » هنا و « أمم » بالمعنى الإسلامي القديم للكلمة الوارد في الآية الكريمة : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

ويدفعها إلى التحليل والتعليل والوصف وتقصّي الأخبار لتقييم الحادث ووضعه في موضعه من مسيرة الجنس البشري وتاريخ دوله والمقارنة بينه وبين دول العالم السابقة ونظمها التي بادت أو بقيت .

٣ - ان التجارب الانسانية والأمثلة أساسية في التوجيه إلى السلوك الطيب وفي التقويم الخلقي.ومستودع تلك التجارب هو التاريخ الذي يجب أن يمشي أمام الانسان مصباح هدى، لا وراءه ، باعتباره في المطاف الأخير تعبيراً واقعياً عن ارادة الله وهدايته . وهذه التجارب الانسانية هي بدورها أساس في الثقافة الفكرية والسياسية . انها هي المعرفة والعلم وكان تسجيلها وروايتها يشكلان جانباً حيوياً من التطور الثقافي للجماعة الإسلامية . وقد لعب الاخباريون دورهم الرئيسي في هذه الناحية ، ولم تكن كتب الأخبار الأولى ولا الكتب التاريخية التالية من أمثال : الأخبار الطوال ، والمعارف وغيرها سوى التعبير عن هذه الحاجة الفكرية . كما لم تكن عناية الخلفاء الأمويين كمعاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والوليد الثاني سوى نتيجة من نتائج هذه الحاجةللتاريخ .

٤ - ومهما بالغنا في تقصي العوامل النفعية أو الدينية وراء ظهور التاريخ فانا لا نستطيع أن نغفل وجود الرغبة العلمية الخالصة أيضاً بين تلك العوامل . الرغبة في المعرفة لمجرد المعرفة والاطلاع ، وهي بدورها حاجة فكرية انسانية ، لا تغيب عن أي عمل علمي . ونستطيع أن نرى في أعمال الكثير من المؤرخين والاخباريين الأوائل ما يكشف وجودها الواضح . كانت بالنسبة إلى الكثيرين منهم كالسوط يلاحقهم ويدفعهم إلى السؤال المتكرر الناس والى زيارة أماكن الأحداث والسفر في تقصي الأخبار وسؤال النساء .... لتسجيل كل أولئك .

يقول أبو شامة : « ... ولم يزل الصحابة والتابعون من بعدهم يتفاوضون في حديث من مضى ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى ويتطلبون الآثار والأخبار . وذلك بيّنٌ من أفعالهم لمن اطلع على أحوالهم »[1]...

(١) أبو شامة – كتاب الروضتين (طبعة محمد حلمي أحمد) ج ١ ص ٢ .

ثالثاً : الحاجات العملية الحياتية :

لم تكن تاريخية الإسلام ولا الحاجات الفكرية – الروحية – الثقافية بالكافية لظهور علم التاريخ بتلك السعة التي ظهر فيها لولا وجود حاجات أخرى من نوع عملي – حياتي معها . وبعض هذه الحاجات ديني تشريعي ويدخل في الجو الثقافي في تفسير القرآن والحديث، وبعضها سياسي اقتصادي مما يتصل بإدارة الدولة ونظاميها المالي والقضائي، وبعضها ذو طابع سياسي اجتماعي مما يتصل بعناصر الدولة القومية وتياراتها السياسية . وقد كانت معرفة التاريخ عنصراً حيوياً في هذه النواحي كما كان التاريخ وحده يعطي الجواب عليها . ومن هذه الحاجات :

١ – الحاجة إلى معرفة أسباب النزول وتفسير آي القرآن وحدوده وأحكامه من خلال تاريخه . انه المصدر الأول الأساسي التشريع الذي يحكم الجماعة الإسلامية ، وقد أدى البحث في ذلك إلى تسجيل الكثير من أخبار الجاهلية وعصر الرسالة .

٢ – الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول الأعظم – ثم الصحابة من بعده – لا كقائد ديني أكبر فقط ولكن كثاني اثنين من مصادر التشريع الإسلامي الأساسية ولمعرفة الخبرات والتوجيه النبوي كل « حديث » منه قانون وكل عمل سنة . وكذلك أعمال الصحابة الذين ارتضى من حوله . فلا بد من تسجيل كل ذلك ليكتمل قانون الإسلام في مسيرة الجماعة ، وقد أدى ذلك إلى تسجيل السيرة بدقائقهـــا .

٣ – ولقد تكونت بنتيجة ظهور الإسلام كعقيدة والفتح الإسلامي كحدث سياسي أمبراطورية واسعة تحتاج إلى معرفة مسيرتها وتبرير تلك المسيرة وتفسيرها ، كما تحتاج إلى حفظ خبراتها كأمة جديدة تعبيراً عن وحدتها وهذا يعـــني :

أ – القاء الضوء على أساس من السنة وعمل الصحابة على مشكلة الامامة

والخلافة في المسلمين وهي المشكلة الأمّ والحكم فيها خاصة بين الأمويين والعلويين والخوارج .

ب ـ تسجيل وإثبات الأحداث الكبرى : معارك بدر وأحد وفتح مكة واليرموك والقادسية والخلفاء ووقعة الجمل ويوم صفين والتحكيم وغيرها من أسباب ومبررات التفاضل السياسي والاختلاف بين الناس على الحكم السياسي .

جـ ـ معرفة الاجماع الاسلامي وما انتهت اليه الجماعة في عصر الصحابة والتابعين ومن تلاهم في مختلف الأمور لأن الاجماع بدوره من مصادر الفقه والسياسة الإسلامية وعليه اعتمد الحكم الأمــوي في شرعيته .

د ـ كشف أسباب النزاعات الدينية والخصومات السياسية والقبليــة والتيارات الفكرية وأسباب ظهور الفرق والمذاهب ، والحركــات المنحرفة وتطوراتها مع الزمن .

هـ ـ ايضاح النظام القضائي في الإسلام وفلسفة العدالة ومناهج الفقه والحق وأسبابها وركائزها في الأعمال وتراكم الخبرات فيها .

و ـ تبرير النظام المالي في الدولة الإسلامية (وقد ظهرت بنتيجة ذلك كتب الفتوح للواقدي وابن عبد الحكم والبلاذري) وتفسير أسباب « العطاء » والزكاة والجزية ووجوه الموارد والنفقة في الدولة (وقد ظهرت نتيجة ذلك كتب الخراج من مثل الخراج لأبي يوسف والأموال لابن سلام) .

ز ـ اثبات السابقات في الادارة والتنظيم السياسي لإقامة النظام الاداري الإسلامي باستمرار على هديهـــا .

ح ـ تحديد العلاقات الاجتماعية والسياسية والمالية مع غير المسلمين في الدولة ، على أساس معاهدات الفتح ونصوص الشرع الإسلامي .

كل هذه الحاجات من سياسية وتشريعية ومالية في الدولة الجديدة كانت

دوافع وعوامل داعية إلى التدوين التاريخي . وليس الا في التاريخ تجد هذه الحاجات جذورها وأسباب وجودها وتفسير ذلك الوجود .

٤ ـ تنافس الأحزاب السياسية والفرق والتيارات الدينية أدى بدوره إلى تسجيل الأحداث ومعرفتها لاستخدام ذلك في تأييد وجهات نظرها أو في الدفاع عنها . ان النزاع القوي على الخلافة والتنافس بين الأفكار الدينية كان يجد سنده دوماً في وقائع التاريخ وأحياناً في اختراع المواقف التاريخية المؤيدة أو المناهضة لاجتذاب التأييد من أكبر عدد من المسلمين .

٥ ـ وبالمقابل فان العصبيات القبلية (وخاصة بين عرب الشمال واليمنيين) وهي ذات طابع سياسي ، والاختلاف بين عناصر الدولة (وخاصة بين العرب عامة والفرس) وهي ذات طابع قومي ومنافسات الأقاليم المختلفة (وخاصة بين الشام والحجاز واليمن والعراق وفارس) كلها أدت إلى محاولات تسجيل الأحداث والمفاخر ... ووقائع التاريخ أو إلى اختلاقها أيضاً،لهذه العصبيات والعناصر والأقاليم . ومن هذا الباب دخلت قصص تاريخ اليمن وأيام العرب والروايات المتعارضة لأخبار الفتوح والخلافات السياسية وتواريخ المدن والأمصار ، كما دخلت الأخبار والكتابات الشعوبية .

رابعاً : العوامل المساعدة :

وقد أعان على ظهور التاريخ وتوطده كمعرفة لها حاجتها ومكانتها في منظومة الفكر الإسلامي عوامل مساعدة عديدة أيضاً خدمت التاريخ وتدوينه خدمة كبرى ، ولقد يصل بعضها لدرجة أن يكون من العوامل الأساسية في ظهوره ومنها :

١ : وضع التقويم الهجري [1] : فان وضع هذا التقويم في ذلك الوقت

---

(١) تعمدنا أن نهمل في هذا المجال أي توسع في قصة وضع التقويم الهجري من قبل الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب وذلك كي نتدل على أن هذا الحدث الرئيسي ، وان كان عنصراً هاماً جداً من عناصر ـ

المبكر من عهد عمر بن الخطاب أدخل عنصراً حيوياً على الفكرة التاريخيــة الإسلامية وكان خطوة هامة جداً في توطيدها. أعطاها عنصر التنظيم الخاص بالاسلام وثبت عليها الطابع الإسلامي. كانت ثمة تقاويم أخرى قبله ولكن ظهوره كان تعبيراً عن الشعور بجدة وقيمة وأصالة المسيرة الانسانية الجديدة أي بتاريخيتها، ومن ثم أضحى التقويم الهجري، منذ وضع، « العمودَ الفقري » — كما قال الدكتور الدوري [1] — للروايات والأبحاث التاريخية. وكان العامل الأساسي في تنظيم تاريخ الإسلام وفصله الواضح عن التواريخ الأخرى وفي اعطائه أيضاً عنصرين هامين من عناصر التدوين التاريخي هما :

أولاً — الثبات أي الارتباط بالزمن والخلاص من القصص المرسل وانقياد الأحداث لقيد التسلسل الزمني.

ثانياً — النجاة من الاختلاط الحادثي أي منع الأحداث من أن يختلط بعضها ببعض بين عصر وعصر ومكان وآخر وشخص وثان.

٢ : الاهتمام بالأنساب : فان الاسلام وان ألغاها من حيث المبدأ الا أنها عادت فوجدت حوافز جديدة لظهورها عند تدوين الدواوين ومشكلة العطاء. فان تنظيم الدواوين والعطاء وسكن القبائل وفرق الجيش انما تم على أساس قبلي. وهذا ما أعطى الأنساب شأناً مادياً، أضيف إلى شأنها القبلي السياسي في التنافس بين العرب أنفسهم بعد ظهور أرستقراطية جديدة في الإسلام وتوزع

— تنظيم الفكر التاريخي، إلا أنه لا يتعلق بعلم التاريخ. وثمة بون شاسع بينه وبين ما نعنيه هنا من فن التدوين التاريخي. فالتاريخ باليوم والشهر والسنة ليس هو التاريخ الذي يحدث في الوقائع والأحداث والناس. ومن شاء تفصيلا في معنى كلمة تاريخ لغوياً وفي وضع التقويم الهجري فاله واجد ذلك في الكثير من المراجع وأقربها على سبيل المثال : البيروني — الآثار الباقية ص ٣٠، أدب الكاتب لابن قتيبة ص ١٧٩، السخاوي (طبعة روزنتال — الترجمة العربية) ص ٣٨٢ و ص ٥٠٩ — ٥١٧، الكافيجي — مختصر علم التاريخ (طبعة روزنتال — الترجمة العربية) ص ٣٢٦ — ٣٣٢ وكتاب روزنتال نفسه (الترجمة العربية) ص ١٦ — ٢٥ وكتاب عبد العزيز سالم — التاريخ والمؤرخون العرب ص ١٧ — ٢٥ . . . الخ.

(١) الدوري — نشأة علم التاريخ ص ١٩.

القبائل في الأمصار وتنازعها المفاخر والمناصب، ويضاف أخيراً النزاع الاجتماعي مع الموالي وظهور الأفكار والحركات الشعوبية وحاجة العرب إلى الدفاع عن مراكزهم وأوليتهم الاجتماعية ... وكان ذلك كله من أسباب قبول الأنساب « إسلامياً » واعطائها مكانها بين المعارف الإسلامية الهامة المطلوبة. وبهذا الشكل أضحى حفظ الأنساب وما حولها، وتدوين كل أولئك، فرعاً أساسياً من فروع التاريخ حتى لقد ظهرت تواريخ خاصة على أساسه (كأنساب الأشراف للبلاذري). وكان من الطبيعي أن يكون النسابون الأول هم في الوقت نفسه من الاخباريين الأولين كمحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام ومصعب الزبيري والهيثم بن عدي.

٣ : شاركت بعض العلوم العربية في نشأة التاريخ ودراسته وكانت هذه المشاركة من السعة أحياناً بحيث لا يمكن فهم تلك النشأة الا في اطار الفعاليات الثقافية الأخرى.

فلدراسات الشعر العربي وجمعه بخاصة ودراسة اللغة والأدب والنحو وأسرار البلاغة كلها أدت بشكل أو بآخر إلى حفظ الكثير من الأخبار والأحداث المتعلقة بذلك الشعر وبمفردات اللغة والنثر الفني الأدبي. وتكونت من حصيلة تلك الأخبار للمادة التاريخية الأولية التي خدمت المؤرخين خدمة هامة. وفي هذه الناحية أيضاً كان طبيعياً أن نجد بين كبار اللغويين والرواة من كانوا في الوقت نفسه من الاخباريين البارزين ويمثل هؤلاء خاصة : أبو عبيدة (المتوفى سنة ٢١١/٨٢٦) تلميذ عمرو بن العلاء الذي شمل باطلاعه كافة المعارف العربية فكان كما أجمع الجاحظ وأبو الفرج الأصبهاني وابن النديم « من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها » وقد ألف عدداً من كتب التاريخ التي تغلب عليها العناية اللغوية، كما كتب في المثالب والمفاخر والأخبار.

٤ : تشجيع الخلفاء والحكام : فلقد كانت رغبة بعض الخلفاء الأمويين والولاة في المعرفة التاريخية – وان كانت لها أسبابها بالنسبة اليهم – مشجعاً

لإدخال هذه المعرفة بين المعارف النبيلة المطلوبة في المجتمع الإسلامي . واذا كان معاوية قد استدعى عبيد بن شرية من صنعاء ليسأله عن ملوك العرب والعجم [1] ويأمر بتسجيل ما يقول ، ويجلس كل مساء لسماع أخبار التاريخ ، وكان مروان بن الحكم يدني مجلس حكيم بن حزام ليسمع منه أخبار المغازي وعبد الملك يطلب أخبارها من التابعين وكان عروة بن الزبير راوية التاريخ على صلة بعبد الملك وابنه الوليد وبعمر بن عبد العزيز ، فقد عرفنا أيضاً أن هشام بن عبد الملك وضع لابن شهاب الزهري كاتبين يكتبان عنه سنة فلما مات الزهري وجدت له أكوام من الكتب في خزائن الأمويين . وذكر المسعودي أن هشاماً نفسه أمر سنة ١١٣ فكتب له كتاب يحمل هذا التأريخ في تاريخ ملوك فارس ، وقد ترجم إلى العربية مما وجد في خزائن أولئك الملوك وهو بالأصباغ والذهب والفضة والصور والورق الرائع ... وقد رآه المسعودي سنة ٣٠٣ ورأى فيه من الأخبار ما لم يره في كتاب فارسي غيره [2] وأورد صاحب الأغاني أن خالد بن عبد الله القسري طلب من الزهري أن يكتب له الأنساب فلما بدأ بنسب عرب الشمال أمره أن يقطعه ويبدأ بالسيرة ، عصبية يمانية منه ضد العدنانيين وضد آل علي خاصة ... ويروي ابن النديم أن الوليد ابن يزيد بن عبد الملك جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ورد الديوان إلى حماد (أبي القاسم بن سابور ، وقد توفي سنة ١٦٥ هـ) ، وإلى جناد (أبي محمد بن واصل الكوفي) [3] .

ومن الكتب التاريخية الأولى التي ألفت بأمر الخلفاء العباسيين أيضاً بعد ذلك : كتاب السيرة لابن اسحاق فانه كتب بطلب من الخليفة المنصور لتثقيف ابنه المهدي ، ومن هنا — فيما يقولون — جاءت محاباة ابن اسحق العباس .

---

(١) ابن النديم — الفهرست ص ٨٩٠ .
(٢) انظر المسعودي — التنبيه والإشراف (طبعة الصاوي — القاهرة ١٩٣٨) ص ٩٢ — ٩٣ .
(٣) انظر ابن النديم — الفهرست ص ٩١ — ٩٢ .

كما أمر الخليفة المهدي بجمع كتاب في الأغاني ... وألفت كتب عديدة بعد ذلك للرشيد والمأمون .

ه : الحركة الشعوبية : وهذه الحركة الديناميكية العنيفة التي أفرزتها عوامل عديدة ، في المجتمع الإسلامي ، بين القرنين الأول والثاني خاصة كانت رغم ظاهرها الفكري العاطفي إنما تستقي جذورها من عوامل مادية اقتصادية، وهذا هو في الواقع السر في فاعليتها النشيطة . فإن تمييز العرب عرقياً وسياسياً وعسكرياً كان يمنحهم امتيازات ومصالح ومنافع مادية واقتصادية واسعة . وهذا ما دفع أبناء الشعوب الأخرى ، أكثر مما دفعتهم العوامل الرومانسية والعاطفية بل والدينية إلى محاولة تحطيم ذلك التمييز للمشاركة في المكاسب المادية وفي العطاء وغنائم الحكم واستغلال الطبقات الدنيا في المجتمع . كانت الشعوبية إذن صدى فكرياً قومياً لمزاحمة اقتصادية عنيفة . وقد كان من همّ الشعوبيين المهم تشويه الهالة التي وضعها الدين الإسلامي والحكم الإسلامي من حول العرب : بتشويه تاريخهم والدس عليه والأخذ بأخبار المثالب وابراز النقائص وتقصيها . وقد أدى هذا إلى تسجيل الكثير منها كما يتجلى ذلك في أعمال الهيثم ابن عدي وأبي عبيدة خاصة وعلان الشعوبي وحماد الراوية ، كما أدى ذلك في الوقت نفسه إلى ظهور ردود الفعل لدى العرب للدراسة وتسجيل تاريخهم الخاص وأدبهم [1] كما فعل الجاحظ والمسعودي ، وكسب التاريخ في الحالين ثروة تاريخية هامة بالاضافة إلى ما كسب من رواج علمي .

وقد أضافت الشعوبية إلى ذلك أنها أنزلت إلى السّوق الفكرية وإلى ثقافة الناس للمضاهاة والمفاخرة ، بعض التراث الفارسي الذي يبرز قيمة الفرس ، وبخاصة : كتاب (خداينامه) الذي وجد له حمزة الأصبهاني ثماني ترجمات ، ورجع البيروني إلى ست منها ، بينما جمع بهرام بن مروان شاه الموبداني نيفاً

(١) من أمثلة ذلك كتاب البيان والتبيين للجاحظ . . . وبعض ما كتب المسعودي عن مقاتل فرسان العجم رداً كما قال على كتاب أبي عبيدة مقاتل فرسان العرب (انظر التنبيه والإشراف ص ٩٠).

وعشرين نسخة ... (وشهد عيسى الكسروي أنه ليس منها نسختان متطابقتان)[1] واحدى التراجمات كانت لعبد الله بن المقفع بعنوان سير الملوك. وكان السر في هذه الكثرة من التراجم وفي هذا الاختلاف بالنسخ والتزيد فيها هو دون شك رغبة الموالي الفرس، من أسلم منهم ومن بقي على زارادشتيته الأولى، في اثبات التاريخ الفارسي وعظمته تجاه الملك العربي القائم، لأن خداينامه تحكي قصة التاريخ القومي لهم، كما يراه الأشراف ورجال الدين وتختلط فيها الأسطورة مع الحقائق والحديث الديني مع الأنساب الخيالية أحياناً كثيرة.

وقد ترجمت مع خداينامه كتب أخرى تاريخية وشبه تاريخية مثل آيين نامه أي كتاب المراسم والتقاليد، والكاه نامه أي طبقات العظماء[2]. وقد كانت خداينامه مع هذه الكتب مورداً للمؤرخين أعانهم على تكوين فكرة واسعة وان تكن مشوشة عن التاريخ العالمي، وقد استفاد منها كافة ذلك الخط الطويل من المؤرخين اللذين كانوا الرواد الأوائل لعلم التاريخ من ابن قتيبة الدينوري واليعقوبي إلى الطبري وحتى المسعودي.

٦ : ظهور الورق : ولا بد أن نضيف إلى العوامل المساعدة أخيراً مادة علمية أعانت بشكل واضح حاسم على نقل التدوين الفكري (والتاريخي في جملته) من الذاكرة إلى الشكل المكتوب. وهذه المادة هي الورق الذي عرفت صناعته في العالم الإسلامي منذ أوائل القرن الثاني للهجرة. وما من شك في أن الحركة الثقافية الإسلامية قد وقعت بمعرفة الورق وصنعه على أداة ثورية في تثبيت الفكر وفي نشره وفي توسع مادته.

---

(١) انظر في هذا كله : حمزة الاصبهاني تاريخ سني ملوك الأرض ص ١٤ و ٢٦ والبيروني الآثار الباقية ص ٩٩.

(٢) وهناك كذلك مزدك نامه، بهرام جوبين نامه، (انظر في ذلك ايران في عهد الساسانيين الترجمة العربية ص ٥٥ - ٥٧. وكلمة نامه تكتب حسب اللفظ الفارسي نامع أو نامك، وانظر كذلك ابن النديم - الفهرست ص ٣٠٥ - ٣١٦).

وقد كانت المادة التي يكتب عليها الناس متنوعة من قبل ... يقول ابن النديم « ... كتب أهل مصر في القرطاس المصري ويعمل من قصب البردي ... والروم تكتب في الحرير الأبيض [1] والرق وغيره وفي الطومار المصري وفي الفلجان وهي جلود الحمير الوحشية . وكانت الفرس تكتب في جلود الجواميس والبقر والغنم ، والعرب تكتب في أكتاف الابل واللخاف (وهي الحجارة الرقاق البيض) وفي العسب عسب النخل ، والصين في الورق الصيني ويعمل من الحشيش ... فأما الورق الخراساني فيعمل من الكتان ويقال انه حدث في أيام بني أمية . وقيل في الدولة العباسية ... وقيل ان صناعاً من الصين عملوه بخراسان على مثال الورق الصيني ... » [2]

وقد تحتاج كلمة ابن النديم هذه إلى بعض الايضاح والإضافة ، فيبدو أن عرب الجاهلية قد عرفوا القرطاس والكتابة على القرطاس وأخذوه باسمه نفسه من اللاتينية . يقول طرفة بن العبد في معلقته :

وخدٌ كقرطاس الشآمي ومشفر كسبت اليماني قده لم يجرد

وقد نستطيع أن نستنتج من هذا البيت أن القرطاس كان يعمل في الشام قبل الإسلام ولكنه ليس بالورق وإنما هو ضرب من النسيج الرقيق المصبغ ، المصقول ، الأبيض وقد كان من الحرير .

واستمر صنع هذه القراطيس في العهد الأموي ويبدو أن رجلاً اسمه يوسف بن عمرو قد استبدل بالحرير نسيج القطن لأنه أرخص وذلك سنة ٧٠٦ م (في مطالع عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ) .

ولعل حاجة الدواوين التي عربت في تلك الفترة هي التي دفعت إلى هذا

(١) ويدعى المهرق وهو ثوب حرير ابيض يسقى بالصمغ ويصقل . وثمة منه نوع خاص من القماش كان يصنع في أبو صير وسمنود بمصر . وتحفظ دار الكتب المصرية حججاً كثيرة كتبت عليه .
(٢) ابن النديم – الفهرست صفحة ٢١ .

الابتكار الذي صار القرطاس الدمشقي من بعده قطنياً [1] ... لكن هذه الطريقة الجديدة ظلت – فيما يبدو – غالية التكاليف أو على الأقل أغلى من البردي . ولهذا فقد فضل الخلفاء الأمويون استعمال ورق البردي ، وكانت مصانعه في الوجه البحري من مصر . وبلغ من حاجتهم إليه أن منعوا تصديره إلى الروم ، منذ عهد عبد الملك بن مروان وتدوين الدواوين بالعربية . وأمر عمر بن عبد العزيز بالاقتصاد في استعماله . وكان القرطاس يصنع على شكل أدراج (جمع درج أي الورقة الملفوفة) قد يبلغ طول بعضها ١٥ متراً . وكان غالي الثمن لاسيما إن كان ناعم الصنع وقد بلغ ثمن الدرج في عهد الرشيد سنة ١٨٤ ديناراً ونصف الدينار . وقد شكا أبو نواس في ذلك العهد قلة الورق قال :

أريد قطعة ·قرطاس فتعجــزني وجلُّ صحبيَ أصحاب القراطيس

والقراطيس المصرية ، من البردي ، أعطت اسمها لدرب من دروب بغداد سمي درب القراطيس ، ولعدد من الباعة عرف بعضهم بالقراطيسي . لكن هذه القراطيس تركت مكانها للورق الصيني حين بدأ الانتشار من المشرق أواخر القرن الثاني وظهرت إثر ذلك الوراقة والوراقون فلم يمض قرن على الأمر حتى صار يوجد في بغداد أكثر من مائة وراق . ويكتري بعض الدارسين دكاكينهم في الليل كما فعل الجاحظ للمطالعة .

ويبدو أن انتشار الورق كان تدريجياً لأنا نجد أن عراقياً جماعاً للكتب في القرن الرابع كان لديه حسب رواية ياقوت في خزانة كتبه مخطوطات ، فيها الجلود والصكاك وقرطاس مصر والورق الصيني والورق الت ·ي وجلود آدم

---

(١) ذكر محمد كرد علي (خطط الشام ج ٤ ص ٢٢٣ – ط . دار العلم . بيروت ١٩٧٠) أن هذه القراطيس هي الورق . وأن يوسف بن عمرو استبدل بالحرير ورق القطن الذي منه الورق الدمشقي . وفي هذه النقلة من كلمة قرطاس إلى الورق وفهم القرطاس على أنه الورق شيء من المجازفة .

وورق خراساني . [1] ... كما نجد أن الناس أقاموا ببغداد سنين لا يكتبون إلا في الطروس (في مطالع القرن الثالث) لأن الدواوين نهبت في أيام محمد بن زبيدة (الأمين) وكانت في جلود فكانت تمحى ويكتب فيها » [3] ... وقد ذكر الخطيب البغدادي عن أبي جعفر القرطبي قوله : « لما مات ابن الأعرابي (أبو عبد الله محمد بن زياد) سنة ٢٣١ هـ ذهبنا نشتري كتبه رقاقاً وأوراقاً ورقاعاً [2] » ... وابن الأعرابي فيما هو معروف من كبار الرواة في تلك الفترة .

ولا شك ان رخص الورق عن البردي والجلود والحرير جعله أوسع انتشاراً وأسهل استعمالاً عملياً . ويبدو أن بعض الأسرى من الصين أدخلوا صناعة الورق إلى البلاد الإسلامية وإلى سمرقند خاصة سنة ٧٥١/١٣٣ أو قبل ذلك . وصنعوه من القنب والكتان وألياف الحشيش. ولعل اسمه القديم (الكاغد) صيني الأصل جاء العربية عن طريق الفارسية. ومن سمرقند انتقلت هذه الصناعة إلى العراق بعد أن اشتهرت بها خراسان كلها . وكان أول من أدخل صناعة الورق إلى بغداد الفضل بن يحيى البرمكي عامل خراسان سنة ١٧٨ / ٧٩٤ ثم استعمل أخوه جعفر الورق بدل الرقوق في الدواوين . وكان مصنعه بدار الخز في بغداد . ثم عرفت مدن أخرى سر الصناعة فأنشأت لها المصانع : نشأ مصنع في تهامة يصنع الورق من ألياف الحشيش ، وآخر في دمشق وثالث في طبرية ورابع في طرابلس ، وفي حماة ومنبج . وبالرغم من أن سمرقند حافظت على شهرتها في جودة الصناعة إلا أن ورقاً جديداً من الخرق ظهر منذ أواخر القرن الثاني الهجري وذاع استعماله وفاق غيره من أنواع الورق . كما تعددت تلك الأنواع [4] حسب مناطق صنعها ، غير أن ورق طرابلس وبلاد الشام كان

(١) ياقوت – معجم الأدباء . ج ٢ صفحة ٤٠ .
(٢) ابن النديم – المصدر السابق .
(٣) الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد . ج ٣ ص ٢٨٢ .
(٤) كان من أنواع الورق في العهد العباسي : السليماني (نسبة إلى سليمان بن راشد عامل الخراج في —

مشهوراً بالجودة في القرن الخامس / ١١ م. وقد كانت هذه الصناعة قد وصلت اليمن كما قد غزت مصر أيضاً منذ أواخر القرن الثالث الهجري وقامت مصانعها في الدلتا ونافست البردي وصناعته منافسة انتهت بموته. ولم يأت آخر القرن الرابع حتى حل الورق محل البردي والرقوق في كافة أنحاء البلاد الإسلامية وفي الأندلس وانتقل أيضاً إلى أوروبا ...

واذا كانت قصة الورق هذه وانتشاره التدريجي قد أعانت على إلغاء دور الرواة في علم التاريخ وفي غيره فإنها أورثت الشك في بعض ما دوّن. لأن بقاء الرواية الشفهية أساساً في نقل العلم حتّى مطالع القرن الثالث جعل بعض الباحثين يشك في أن يكون القسم الأوفى من المائتين والثلاثين كتاباً وبحثاً التي ألفها المدائني (ومثله ابن الكلبي أيضاً) قد كتب في حياته فعلاً[1] وعلى أي حال فان ظهور الورق وانتشاره قد واكب تزايد المادة التاريخية الإسلامية والرغبة في تدوينها، كما نما وانتشر معها. وكان بهذا عملاً ثورياً في التدوين التاريخي وفي توسعته.

= خراسان للرشيد) والجعفري (نسبة لجعفر البرمكي) والطاهري (نسبة إلى طاهر بن الحسين) والطلحي (نسبة لطلحة بن طاهر) والفرعوني (نسبة إلى فرعون مصر).

(١) انظر جب، الموسوعة الاسلامية – مادة تاريخ (في الترجمة العربية ج ١ صفحة ٤٩٠).

الفصل الثاني

البواكير الأولى للتدوين التاريخي

أ ـ بدء التدوين التاريخي الأول
(مشكلة التدوين والرواية الشفهية)

تلك العوامل والحاجات التي أوجدت علم التاريخ في الإسلام لم تأت كلها مجتمعة في وقت واحد ولكن سبق بعضها بعضاً وتعاون بعضها مع بعض على مدى يزيد على قرنين ما بين أواسط القرن الأول الهجري حتى أواسط القرن الثالث. كما أنها لم تكن متساوية في التأثير فبعضها لعب دوره في ناحية من نواحي التاريخ وبعضها لعب الدور في نواح أخرى. وبعضها كان واضح الأثر في عصر بذاته أو تحت ضغط حادث معين أو بنتيجة عمل أحد الرواة أو الرجال أو مجموعة منهم، وبعض كان دائم التأثير متكرر الحاجة خلال القرون الأولى للهجرة كلها وفيما بعدها من القرون أيضاً ... ولم تكن تلك المؤثرات والعوامل من نوع واحد فإنها كانت تصدر عن جذور سياسية ودينية، صدورها عن أسباب اقتصادية وقومية واجتماعية، وبعض هذه العوامل كان ينشىء فروعاً من التاريخ من منابع جديدة وبعضها كان يزيد في خصبه أو يضيف

اليه روافد أخرى مستحدثة أو من ألوان شتى . وعلى هذا فان ظهور التاريخ نشأ عن ميول موجودة في المجتمع الإسلامي أضيفت اليها مع تطور الزمن دوافع جديدة بعد دوافع . وقد أخذ شكله وتطوره نتيجة عدد كبير متغير من العوامل والمؤثرات : المتفاوتة في طول الأعمار والتأثير ، المختلفة في الأنواع أيضاً اختلافاً واسعاً . وقد نجم عن ذلك كله أن الحصاد التاريخي لفترة نشوء التاريخ قد تميز بعدد من الملامح . ولعلنا قبل أن نعرض لها مضطرون لأن نقف عند نقطة إشكالية أحاطت بداية التدوين التاريخي (والعلمي عامة) عند العرب بالكثير من الغموض وأوجدت الوهم العلمي الشائع بأن التاريـخ والحديث والعلوم الأخرى إنما كانت تروى في البدء الرواية الشفهية وأنها لم تكتب وتدون حتى أواسط القرن الثاني الهجري . والسبب في هذا الوهم المغلوط هو الخلط ما بين ثلاث عمليات متتالية كانت تمر بها المعلومـات والمعارف التي يتداولها الناس وتشكل بالتدريج تراثهم الثقافي . والتحليل هو الذي يكشف عنها :

العملية الأولى – عملية استماع الشهادة من الشهود المباشرين للحدث التاريخي . وهي عملية شفهية خالصة كانت تتم بشكل مباشر بين « الشاهد » الذي هو المصدر الأولي والأساسي للمعلومات ، وبين جامع تلك المعلومات من الأفواه . ومعظم معلومات التاريخ الإسلامي الأولية . إنما جاءت عن هذا الطريق الشفوي .

العملية الثانية – عملية حفظ المعلومات . ولم تكن تتم عن طريق الذاكرة ولا بها وحدها أبداً ولكن تتم في الكثرة الساحقة من الأحوال بالتسجيل والتدوين الكتابي الشخصي . وهذه العملية كانت تجري باستمرار منذ عهد الرسالة نفسه إذ يدون المستمع ما يهمه من المعلومات لنفسه . ومهمة التدوين هنا هي معونة الذاكرة على دقة النقل وصحته ، وحفظ السمعة بذلك خوف التضعيف أو التحريف أو خيانة الذاكرة .

العملية الأخيرة – عملية نقل المعلومات إلى الآخرين . وهي بدورها عملية شفهية . إن رغبة العلماء في التوثيق ومنع اللبس والتحريف والزيف كانت تدفعهم إلى أن لا يعتبروا « المعلومات » جديرة بالثقة ما لم تأت بالنقل المباشر والسماع الشخصي عن أصحابها العارفين بها والحافظين لها . وهذا ما كان يؤخر الصحف المكتوبة إلى مستوى الاهتمام الثانوي ويدفع من جديد بالرواية الشفهية إلى مستوى الاهتمام الأول .

ومن المؤسف أن الباحثين . حتى المحدثين منهم قد فاتهم . في الواقع ، وجود هذه العملية الوسطى الهامة بين العمليات الثلاث مع أنها العملية التي يرتبط بها لحد كبير صدق التدوين التاريخي وصحة نصوصه وعدم التحوير فيه . وقد تجاوزوها في قفزة وهم بين العمليتين الأولى والأخيرة الشفهيتين مهملين بذلك العملية المركزية التدوينية التي تسجل عملياً ظهور العلم المكتوب في الإسلام وتؤكد حقيقة التدوين المبكر جداً منذ الأيام الأولى منه .

ومع أن البحث في مطالع التدوين التاريخ والحديث والعلوم قد بدأ منذ أكثر من قرن فإن أحداً لم يتنبه إلى وجود هذه المرحلة الوسطى وإلى الفصل بوضوح بينها وبين المرحلتين السابقة واللاحقة لها ، كما أن الكثيرين لم يرجعوا إلى المادة المدونة نفسها وإلى الوثائق التاريخية لكشف الحقيقة في هذا الوهم الكبير ، ولبيان أن العلماء الأوائل المؤسسين كانوا جميعهم تقريباً يسجلون معلوماتهم وما يجمعونه من الروايات الأصلية الأولى للأحداث من شهودها . ويسجلون ذلك لأنفسهم ويرجعون إلى استذكاره كلما احتاجوه . فإذا نقلوا تلك المعلومات إلى التلاميذ والسائلين نقلوها دوماً بالرواية الشفهية التي لا تعتمد في الأصل على الذاكرة ولكن على الصحف المحفوظة . وكان التلاميذ بدورهم يدونون ما يسمعون ولكنهم يعودون عند النقل إلى رواية المعلومات والأخبار الرواية الشفهية ، بالاستناد إلى التسجيلات الشخصية التي سجلوها بأنفسهم لأنفسهم والتي كثيراً ما تحمل في المصادر اسم « الأصول » . فإذا أملى أحد العلماء من الذاكرة موضوعاً واسعاً أو جعل مجلسه إملاء من غير كتاب مضوا

على ذلك معجبين. كالذي ذكروه عن الشعبي حين أملى أمام قتيبة بن مسلم كتاباً عن الفتوح دون «مسودات» أو دون الرجوع إلى أوراقه [1]. وكالذي ذكره ثعلب عن ابن الأعرابي (أبي عبد الله محمد بن زياد المتوفى سنة ٢٣١ عن نيف وواحد وثمانين عاماً) قال: «شهدت مجلس ابن الأعرابي وكان يحضره زهاء مائة انسان. وكان يُسأل ويُقرأ عليه فيجيب من غير كتاب. قال ولزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتاباً قط» [2] ... مع أن الحافظ البغدادي يذكر أنه كانت لدى ابن الأعرابي كتب في رقاق وأوراق ورقاع [3].

وهكذا فإن الذاكرة لم يكن لها في حفظ العلم إلا أضأل الأثر ولا كان لها في نقله إلا الدور القصير المحدود. وقد لا يكون كشف هذه الحقيقة هاماً بقدر أهمية الحقيقة الأخرى التي تترتب عليها وهي أن تلك العملية المنسية المهملة بين حدي الروايتين الشفهيتين إنما تسجل وتؤكد بدء التدوين التاريخي (والعلمي بصورة عامة) منذ زمن مبكر جداً في الإسلام.

وإذا عملت أبحاث غروهمان في أوراق البردي الإسلامية على إثبات وجود الوثائق من العهد الأموي في خلفيات وفي جذور ونصوص الروايات — أي المدونات — التاريخية الأولى وهي نصوص لا يمكن ضبطها الدقيق إلا بالتدوين فقد عملت أبحاث شبرنجر ودراساته «للأسناد» التي أوردتها المؤلفات التاريخية المتأخرة كمصادر لمعلوماتها على ايضاح الحقيقة في هذه الناحية أيضاً إذ أثبتت وجود صحف ونصوص مكتوبة بين أيدي الرواة الأول. وتقاطعت مع هذه النتائج بعد ذلك الأبحاث التي قدمها هوروفيتش حول أقدم كتب السيرة ومؤلفيها والتي بينت أن الكتب التي وصلتنا إنما تضم في حناياها كتباً أخرى سبقتها بعد كتب ... وقد قام هوروفيتش بإعادة تكوين تلك الكتب الأقدم

---

(١) انظر الذهبي – تذكرة الحفاظ ص ٨٦.
(٢) ابن النديم – الفهرست ص ٦٩.
(٣) الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد ج ٢ ص ٢٨٣.

معتمداً على بقاياها المحفوظة في المصادر المتأخرة والتي كانت تحسب خطأ من الروايات الشفهية . ثم جاءت أخيراً أبحاث فؤاد سزكين في كتابه : تاريخ التراث العربي [1] فوضحت ما نستطيع أن نعتبره النقطة الأخيرة في الموضوع ودفعت إلى فترة أبعد وأقدم بكثير مما كنا نظن ، بداية التدوين التاريخي (والعلمي عامة) عند العرب .

والشواهد والقرائن على هذه الحقيقة كثيرة . فإذا تركنا جانباً ما يؤكد تاريخ الشعر ، والحديث والفقه من وجود نصوص أولية مكتوبة لها فان ما يتصل بالتاريخ وحده قد يكفي لربط تدوينه الأول أو على الأقل تدوين نصوصه الأولى بعهد الرسالة نفسه .

فثمة إشارات إلى أن بعض الصحابة كانوا يروون رسائل الرسول، كرواية عمرو بن حمزة بن زيد لرسالة النبي في الفرائض والزكاة والديات [2]. أو يروون أوامر الخلفاء إلى الولاة ككتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري حول الصلاة الذي رواه الحارث بن عمرو الهذلي [3] . أو كانت لهم صحف تروي عنهم : كصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص المعروفة بالصادقة وصحيفة سمرة بن جندب الصحابي وصحيفة أبي سلمة نبيط بن شريط الأشجعي، وكصحيفة عبد الله بن جابر التي رُمِيَ التابعي مجاهد (المتوفى سنة ١٠٤ / ٧٢٢) بأنه كان يحدث نقلاً عنها [4] ...

وكان بعض أبناء الصحابة يقول في روايته للأخبار « وجدت في كتاب

---

(١) انظر سزكين – تاريخ التراث العربي (الترجمة العربية – القاهرة ١٩٧١) ج ١ ص ٢٢٥ فما بعد فيما يتعلق بتدوين الحديث . وانظر النص الألماني (ج ١ ص ٢٥٧ فما بعد) فيما يتعلق بتدوين التاريخ .

(٢) انظر ابن حجر – الاصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ص ١٢٦٤ .

(٣) انظر ابن سعد – الطبقات (طبعة سخاو) ج ٥ ص ٤٢ .

(٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٤٤ وهذه الصحف مشهورة معروفة للمحدثين .

أبي فلان » أو كتاب آبائي » [1] ... كما كان لدى بعض أحفاد الصحابة نسخ مما ألف أجدادهم أبناء الصحابة عن حياة الرسول : فلدى حفيد سعيد بن سعد بن عبادة نسخة جده في المغازي ومثل ذلك لدى حفيد سهل بن أبي خثمة الصحابي الذي كان كتابه بخطه أحد مصادر الواقدي فيما بعد.

وحين ظهر الإسناد في الثلث الأخير من القرن الأول الهجري فإنما كان سببه ضرورة « الشهادة » على الرواية نقلاً عن مصدرها الأول. وهكذا فإن الأسماء الواردة في الاسناد لدى الطبري أو الواقدي أو البلاذري مثلاً إنما تكشف في الواقع عن أسماء المدونين الأولين والمدونين التالين لهم. وعلينا أن ننظر إلى النصوص التي وردتنا في المؤلفات المسندة خاصة على أنها مجموعة من مصادر مدونة تعود بدورها إلى مصادر أقدم منها. وبهذا الشكل فإن دراستها الدقيقة قد تسمح برسم « شجرات » التدوين والتأليف كما تسمح التفرعات المتكررة بعد أسماء معينة بتحديد أسماء المؤلفين الأساسيين وتسمح لقاءات هذه الفروع عند عقد محددة ببيان نقل المؤلفين بعضهم عن بعض.

وإذا كانت بعض أخبار التدوين في العصر الراشد مجالاً للشك والتأويل فإن ثمة خبراً مؤكداً فيها على الأقل هو تسجيل أنساب العرب. فقد شكل عمر بن الخطاب لجنة ثلاثية من أبي عدي جبير بن مطعم، أحد مشاهير علماء النسب. ومخرمة بن نوفل، وعقيل بن أبي طالب كلفها وضع ثبت بأنساب العرب يقوم على أساسه الديوان. وهذا دون شك أول تدوين تاريخي للأنساب في العرب وفي الإسلام « دون للناس في الإسلام الدواوين ... وكتب الناس على قبائلهم » [2]. وليس من شك في أنه كان المثال والأساس الذي دونت على أساسه الأنساب وأخبارها من بعد باعتباره السجل الرسمي المكتوب. وهذا

---

(1) المصدر نفسه ج ١ - ص ٢٩ و ٦٦ وانظر كذلك ابن حجر - الاصابة ج ١ ص ٦٣٠ - ٦٣١.

(2) الطبري ج ٤ ص ٢٠٩ - ٢١٠ (طبعة أبي الفضل ابراهيم) ١/٢٧٥٠.

يعني أن علم النسب وما يتصل به من أخبار العرب لم يكن متروكاً للذاكرة النسابين وروايتهم الشفهية مع وجود هذا النص – الأمّ الذي تتبعه الدولة رسمياً .

وثمة زاوية أخرى تكشف التدوين المبكر والدائم للأخبار والحديث هي ما نجده في ثنايا الكتب عن طريقة التعلم وعن تلك التسجيلات الشخصية التي تحمل اسم « الأصول » أو « الكتب » أو الصحف . قال سعيد بن جبير « ... ربما أتيت ابن عباس فكتبت في صحيفتي حتى أملأها . وكتبت في نعلي حتى أملأها وكتبت في كفي »[1] ... وروى أحد التابعين عن دراسة بعض أصحابه قال « رأيتهم يكتبون على أكفهم بالقصب عند البراء (بن عازب) الصحابي »[2] . وروت الصحابية سلمى أن عبد الله بن العباس قد كتب عن زوجها أبي رافع الصحابي بعض أعمال الرسول على ألواح[3] وكان من يكتب أدعى الثقة ممن لا يكتب . وقد سأل أحد التابعين تابعياً آخر : لماذا لم يرو عن الصحابي جابر بن عبد الله على نحو ما روى عن سليمان اليشكري ؟ فأجاب : لأن سليمان يكتب[4] ... وروى ابن أبي ليلى (المتوفى سنة ٨٢ / ٧٠١) أنه سأل الحسن بن علي بن أبي طالب عن رأي والده في الخيار أي أولي الفضل فأمر بإحضار صندوق وأخرج منه صحيفة صفراء تضم آراء الإمام علي في ذلك[5] ... والأنباء في هذا الباب متواترة كثيرة .

فإذا انتقلنا إلى زاوية أخرى ودققنا في أخبار التأليف والكتب في العصر الأموي وجدنا إلى هذا أنا نملك العديد من الإشارات إلى جملة واسعة من المؤلفات المكتوبة منذ مطالع العهد الأموي . إن وجود تلك المؤلفات المبكرة

---

(١) ابن سعد – الطبقات ج ٦ ص ١٧٩ .
(٢) ابن حنبل – العلل ج ١ ص ٤٢ .
(٣) ابن سعد – الطبقات ج ٢/٢ ص ١٢٣ .
(٤) ابن حنبل – العلل ج ١ ص ٣١٦ .
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٠٤ .

سواء في النسب أو الأخبار أو غيرها يكفي دليلاً على التدوين المبكر كما يكفي لإبعاد فكرة العلم الشفهي الخالص عن القرن الأول .

فلدينا من هذا القرن أولاً كتابان يتناولان تاريخ اليمن وحمير . أحدهما لعبيد بن شرية الجرهمي (أخبار اليمن وأشعارها) والآخر لوهب بن منبه (كتاب الملوك والتيجان)؛ وبالرغم من طابعهما الأسطوري والقصصي الذي يمكن أن يلحقهما بفترة « ما قبل التأريخ » الإسلامي فإنا نجد فيهما جهداً تدوينياً لأساطير وقصص موجودة، كما نجد وهب بن منبه يذكر أن الإمام علياً بن أبي طالب قد حثه على تعلم تاريخ حمير . ويذكر أنه ضم في كتابه مؤلفات سابقيه [1] . وقد جمع يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري الشاعر (المتوفى سنة ٦٩ / ٦٨٨) (سيرة تُبّع وأشعارها) [2] .

وتكثر إلى هذا أخبار « كتب » النسب . ونجد من ذلك الكثير الذي يدل على انتشار كتابتها وتسجيلها بين الناس . فثمة ذكر لكتاب عبد الله بن عمرو اليشكري (المتوفى حوالى سنة ٨٠ / ٦٩٩) في الأنساب. ومن المرجح أن ابن حجر قد استخدمه [3] . وقد أشار ابن سعد في الطبقات أكثر من مرة إلى مراجعته كتاب (نسب الأنصار) لفحص المعلومات الخاصة بالأنصار [4] كما راجع كتاب نسب النبيط [5] وقد ذكر الجاحظ كتاباً في الأنساب كان متداولاً في عهده من وضع مجور بن غيلان الضبي البصري المتوفى حوالى سنة ٨٥/٧٠٤ [6] كما ذكر ابن النديم كتاباً لخراش بن اسماعيل الشيباني ؛ أستاذ محمد بن السائب الكلبي (المتوفى سنة ١٤٦) عنوانه (كتاب أخبار ربيعة

---

(١) انظر كتاب التيجان لوهب بن منبه ص ٨٢ وص ١٧٥ و ص ١٤ .
(٢) الاصبهاني – الأغاني (طبعة دار الكتب) ج ١٨ ص ٢٥٥ .
(٣) انظر ابن حجر – الاصابة ج ١ ص ١٠٣ .
(٤) انظر ابن سعد – الطبقات (سخاو) ج ٣/٢ ص ١٥١ وص ٤٥ و ج ٥/١ ص ٥٣ .
(٥) المرجع السابق ج ٤ ص ١٢٥ – ١٢٦ .
(٦) الجاحظ – الحيوان ج ٣ ص ٢١٠ .

وأنسابها) [1] . وكان (كتاب قريش) و (كتاب ثقيف) من الكتب المتداولة في العصر الأموي [2] ، ولعل الكتب التي يبلغ عددها حوالى الستين والتي كانت تسمى بكتب القبائل والتي ذكرها الآمدي في المؤتلف ترجع في قسم منها إلى العصر الأموي [3] .

ويمكن أن نضيف إلى هذه الإشارات، إشارات أخرى إلى كتب من نوع آخر : فقد نقل أبوالفرج الأصبهاني في الأغاني مقتبسات هامة عن كتاب حول الشعراء الأمويين للقصاص المحدث أبي عمر ذر بن عبد الله المرهبي الكوفي (المتوفى في أوائل القرن الثاني الهجري) وكانت النسخة بخط المؤلف نفسه [4] ، وقد ألف يونس بن سليمان الكاتب الذي عاش في العصر الأموي وتوفي سنة ١٤٨ كتاب النغم وقد بقيت لنا منه قطع في كتاب الأغاني . كما بقيت لنا في هذا الكتاب نفسه قطع أخرى من كتاب مقاتل بن الأحول بن سنان بن مرثدة الذي عاش في العصر الأموي وكتب هذا الكتاب حول النابغة الجعدي [5] ولو دققنا في أسانيد ابن اسحق لوجدنا أنه يستخدم في رواية بعض الأحداث كغزوة الخندق مثلاً كتباً لعدة مؤلفين لا يقل عددهم عن سبعة وصفهم بأنهم « علماؤنا » وبعضهم من المؤلفين المعروفين ولكن نصفهم غير معروف في التأليف [6]... وقد كانت كتب المغازي منتشرة في أواسط العصر الأموي. ويروي البلاذري أن عبد الملك بن مروان أمر بحرق كتاب في المغازي وجده بيد بعض أبنائه لأنه يشغله عن القرآن والسنة وقد توفي يزيد بن أبي حبيب

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص ١٠٨ (طبعة فلوجل) .
(٢) الأغاني – (ط دار الكتب) ج ٦ ص ٩٤ .
(٣) سزكين – تاريخ التراث العربي (النص الألماني) ج ١ ص ٢٣٥ – ٢٥٧ .
(٤) الاصبهاني – الأغاني (ط. دار الكتب) ج ١٤ ص ٢٧١ – ٢٨٠ .
(٥) المرجع السابق ج ٥ ص ٣٤ ، ٣٥ .
(٦) سزكين – تاريخ التراث (النسخة الألمانية) ج ١ ص ٢٤٩ .

في العهد الأموي (سنة ١٢٨ / ٧٤٥) تاركاً عدة كتب في أخبار مصر وفتوحها . كما كتب الشعبي كتاب الشورى ومقتل عثمان .. وهو بدوره أموي العصر .

وقد يطول الاحصاء والاستقصاء لو تابعناهما ولكنها جميعاً قرائن ودلائل على أن بداية التدوين والكتابة التاريخية إنما بدأت أشد بكوراً بحوالى القرن على الأقل مما كان يظن الباحثون وأن قضية « العلم » العربي الذي ظل محفوظاً في الصدور والذاكرة حتى أواسط القرن الثاني إنما هي محض خرافة .

ب ـ ميزات التدوين التاريخي الأول

بنتيجة كل تلك الأسباب والعوامل السابقة تميز المصاد التاريخي في فترة نشوئه بعدد من الملامح أهمها :

١ ـ أن الأبحاث التاريخية (من الكتب والرسائل) التي صدرت في فترة القرون الثلاثة الأولى كانت وفيرة جداً تزيد على ٦٠٠ بحث ورسالة، وحوالى الثلثين منها كتبه أربعة أو خمسة رجال (كالمدائني وأبي مخنف وأبي عبيدة وابن الكلبي) وهي مادة تاريخية واسعة أقامت هذا العلم على قاعدة واسعة من المعلومات الأولى .

٢ ـ ولكن هذه المعلومات كانت على مستويات مختلفة من الدقة والصحة والسعة والشمول، حسب المؤرخين والرواة ، كما أن الكثير منها قد لعبت به الأهواء الاجتماعية والسياسية والمذهبية الدينية والقبلية لما يحمل من وجهات نظر أصحابه ، فهي أيضاً على مستويات مختلفة من التأثر بالمواقف السياسية والدينية والقبلية والشعوبية .

٣ ـ ولم تشترك كافة الأمصار في الإسلام ولا كافة القبائل العربية ولا

كافة العناصر التي تتكون منها الدولة في كتابة التاريخ، وإن وجدت روايات تاريخية أو كتبت أحياناً مؤلفات تحمل وجهات نظر الفرق السياسية والمذهبية الدينية المختلفة. ومن الملاحظ أن المدينة: والبصرة، والكوفة كانت وحدها أمصار تدوين التاريخ، وقد تلتها في هذا الباب دمشق وكُتِبَ شيء من التاريخ في مصر. فلما ظهرت بغداد استقطبت الفكر الثقافي كله. وكان بين ما استقطبته عملية التدوين التاريخي، فاختفت المدينة ودمشق وخفتت لحد ما الفعاليات العلمية في البصرة والكوفة لحساب بغداد. وكان من نتيجة تركز كتابة التاريخ في بعض الأمصار أو عن بعض القبائل أن ظهرت ميول محلية أو قبلية في التدوين التاريخي، وتأثرت الكتابات بالرأي العام السائد في المصر نفسه. فنرى مؤرخي المدينة يميلون إلى السيرة وعلم الحديث وأهل مصر إلى النسب والأيام، وفي الشام يسجلون الرأي الأموي. وأما الاخباريون اليمنيون فيهتمون بذكر اليمن، وكان للمدائني ولع خاص بتاريخ البصرة وخراسان وقد اعتمد عليه في ذلك الطبري. أما أبو مخنف فكان يسجل روايات القبائل الأزدية في العراق: وكان لعوانة بن الحكم رواية كلب في الشام ولسيف بن عمر رواية قبائل تميم كما روت قبائل باهلة حروب قتيبة بن مسلم في ما وراء النهر ... مما نجم عنه ظهور مدارس وكتب تاريخية تحمل هذه الاتجاهات.

ومن الملاحظات الهامة في هذا الصدد أن البصرة ورواتها الذين تأثروا بمذهب المدائني ومذهب أهل المدينة، تأثروا كذلك بآراء الصنعانيين ومدرسة اليمن الذين عرفوا بروايتهم للأساطير والاسرائيليات. ولا شك أن السبب في ذلك هو العلاقات التجارية البحرية خاصة والبرية بين البصرة واليمن. ولعله لهذا السبب نجد روايات البصرة في الجملة أخف حدة من روايات الكوفة وأقرب منها إلى مذاهب المحدثين وأقل تعصباً على بني أمية.

ومن جهة أخرى فإن الذين شاركوا في هذا النشاط الثقافي كانوا إما من العرب (في الشام والعراق والحجاز واليمن) أو من الموالي الفرس (في العراق

وايران) ولم يسجل في تلك الفترة الأولى من نشاط في مصر، كما لم يكتب البربر شيئاً ولا كتب أهل اللغة ضمن الأراضي الإسلامية شيئاً من التاريخ يجاوز ما نقله بعضهم نقلاً عن تواريخ الروم المكتوبة : اليونانية أو السريانية .

٤ – كافة الكتابات التاريخية التي ظهرت انما وضعت على أساس إسلامي بحت ؛ كما نظمت على أساس التقويم الإسلامي الهجري الذي ظهر مبكراً ليعين على تنظيمها . والمعنى الهام في هذا أن عملية التدوين التاريخي نشأت مستقلة تمام الاستقلال لا في موضوعها واهتمامها ورجالها فحسب ولكن حتى في تقويمها الخاص عن تواريخ الأمم الأخرى . نشأت في اطار الإسلام نفسه ومن أجله أي على أساس فكري جديد ومنطلق جديد وتقويم جديد . لم يكن الاخباريون من العرب والموالي على السواء عالة في ذلك على مؤرخي أي أمة فيما يتعلق بتاريخهم الخاص على الأقل . والموالي الفرس الذين أضافوا إلى عملية التدوين تاريخهم الخاص . انضافوا إلى الجوقة العربية في هذا السبيل ولم يقودوها . ورفدوا تيار الفكر التاريخي بعد أن ظهر واشتد ولكنهم لم يكونوا لا هم ولا مثقفو الشعوب الأخرى ذات الحضارة السابقة . كالسريان والروم . وراء نشوء هذا العلم وإن منحوه بعض الأبعاد حول الفترات السابقة للإسلام ، في نوع من استكمال المعرفة وسد الفراغ بين مبدأ الخلق وظهور البعثة النبوية . وحين أعطوه ما عندهم دخلوا ضمن اطاره الخاص ومنطلقاته ولم يستطيعوا كما فعلوا في العلوم الأخرى . كالفلسفة مثلاً والعلوم ، أن يفرضوا عليه أي اطار أو منطلق . أعطوه – زمنياً – بعد أن ظهر التدوين التاريخي بكثير لا قبل ذلك .

وهكذا لم يكن التأريخ الإسلامي استمراراً أو صلة للتواريخ القديمة وانما هو تأريخ اسلامي خالص ؛ وقد نما النمو المستقل الطبيعي ضمن حدود التطور الثقافي الإسلامي ، وأبعاده ، وفي اطار حاجات المجتمع الإسلامي وخصائصه .

٥ – ولعل من نتائج هذه النقطة السابقة أن نشأة علم التاريخ وتطوره لا يمكن أن يُفْهَما إلا ضمن التطورات والفعاليات الثقافية الأخرى . انه لم ينشأ

وحده كالزهرة في صحراء ولكنه كان زهرة في ربيع واسع . في الوقت الذي كانت الثقافة العربية الإسلامية فيه تنمو وتنضج كان التاريخ جزءاً منها وكان ينمو ويشتد عوده بدوره معها ، فهو ابن تلك الحركة الثقافية الواسعة التي امتدت منذ أواسط القرن الأول الهجري في دمشق وبلغت شبابها في عهد المأمون في مطلع القرن الثالث .

وأشد روابط التاريخ قوة انما كانت مع علم الحديث والسيرة من جهة ومع علوم النسب واللغة والأدب لأنه إنما اشتق من ضلعها . وقد مشى خطواته الأولى خاصة مع السيرة النبوية ومع الأنساب والقصص الأدبي كما اقتبس معظم مناهجه عن علم الحديث . ثم رفدت التاريخ مع الأيام فيما بعد علوم أخرى كالجغرافيا والفلك والفلسفة والنجوم فأعطته الكثير من الآفاق الجديدة وظهر أثرها الواضح في مؤلفاته .

٦ — ومن نتائج النقطة السابقة نفسها أيضاً : أن الاخباريين والمؤرخين الأولين بدافع من التقوى أو من الانبهار بالاسلام أو من الاكتفاء به لم يهتموا كثيراً بتواريخ الأمم الأخرى إلا متأخرين، بل لم يوجهوا الا أقل العناية للتاريخ العربي السابق للاسلام . أهملوا التاريخ الجاهلي وتركوا :

— لأمثال وهب بن منبه وعبيد بن شرية أن يُحلوا الأساطير والاسرائيليات محل التاريخ اليمني القديم لعرب الجنوب وينسجوه على منوال التاريخ القبلي للشماليين .

— ولأخبار « الأيام » و « الأنساب » أن تسد مسد التاريخ الجاهلي الشمالي .

ولعل السبب في ذلك يعود إلى عدم توفر المواد الكافية من المعلومات المنقولة ، والى أن تلك المعلومات لم تكن مكتوبة ولكنها شفهية في كثرتها الكاثرة . وإلى أن العصبيات القبلية كانت تلعب دورها في اخفاء جانب من المعلومات ونبش جانب والتزيد في ناحية واهمال ناحية أخرى . بالاضافة الى

أن معظم ما كتب عن ذلك التاريخ فإنما كتبه الباحثون عن النثر الفني والشعر والأدب وعلوم الدين ولم يكتبه الباحثون عن معلومات التاريخ خاصة ؛ وإلى أن أصحاب الأخبار والناس على السواء كانوا يهتمون بتاريخ العرب بعد الإسلام لا قبله باعتباره هو المرحلة الحاسمة والمتألقة وأما الجاهلية فقد حكم عليها الإسلام وعلى مثلها بالبوار .

٧ – ويمكن أن نضيف هنا أن عدداً كبيراً من الأقلام التي كتبت الأبحاث التاريخية – حتى فيما بعد الفترة الأولى – كانت من الموالي ، وهؤلاء وان كانوا مسلمين الا أنهم ليسوا من العرب ، واذا نجم عن هذا أنهم قلما كانوا يتحمسون التاريخ العربي كله أو يهتمون بقديمه فقد نجم عنه أيضاً أنهم غالباً ما كانوا يجمعون في عملية التدوين كافة الأخبار بما فيها من مثالب أو أساطير أو مفاخر دون تفريق أو تمييز . وقد كان للذلك عقابيله السلبية والايجابية على السواء . ومن أبرز هؤلاء الموالي : في الأولين ... شرحبيل بن سعد ، وابن اسحق . وأبو معشر السندي ، ثم في التالين الواقدي وأبو عبيدة وأبو مخنف وعوانة بن الحكم والمدائني وذلك قبل أن يظهر المؤرخون منهم كابن قتيبة الدينوري والبلاذري وابن طيفور وأبي حنيفة الدينوري واليعقوبي والطبري .

٨ – لم يكن التدوين التاريخي الأول نقلاً كله عن الرواية الشفهية وحدها. ويبدو مؤكداً أن بعض الوثائق والسجلات والأسفار والكتب الأصلية قد اشترك في ذلك التدوين. فإن الدقة التي اتسمت بها الأخبار التاريخية المتعلقة بالخلفاء الراشدين والواردة في الحديث المدني والتي استفاد منها بعض المؤلفين كالواقدي ، توحي بوجود وثائق مخطوطة في المدينة كانت في ذلك العهد المبكر مراجع يرجع اليها الناس . ولم يعد هذا الأمر الآن رجماً بالظن لان دراسة غروهمان [1] لأوراق البردي العربية وفرت الدلائل على وجود وثائق في العصر

---

(١) أشار جب إلى هذه النقطة وإلى هذه الدراسة في مقاله عن التأريخ الإسلامي بالموسوعة الإسلامية –

الأموي بدمشق والعراق معاً . و « من المحتمل أن يكون المصنفون المتأخرون قد اعتمدوا على مواد من هذا القبيل في ترتيب مجموعة دقيقة للحوادث حسب تسلسل الزمن ترتيباً تناول ذكر أسماء الولاة والحكام وأمراء الحج (والقضاة وأصحاب الشرطة) وما جرى هذا المجرى عاماً بعد عام ... »

أما في التواريخ غير الإسلامية فاذا كان اخباريو اليمن قد أضاعوا فرصة هامة لتسجيل تاريخ اليمن الحقيقي . من أفواه أو وثائق العارفين به بدل ذلك التاريخ الوهمي الذي ابتكروه تاركين سجلات القبائل ونقوش اليمن بالمسند دون استغلال فان أصحاب الحيرة كانت لهم سجلاتهم وأسفارهم التي عرفها ونقل عنها الاخباريون العرب . يقول الطبري : « ... وكان أمر آل نصر بن ربيعة ومن كان من ولاة ملوك الفرس وعمالهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق عند أهل الحيرة . متعالماً مثبتاً عندهم في كنائسهم وأسفارهم »[1] وممن وقع على هذه السجلات وأخذ عنها هشام بن محمد الكلبي الذي قال في رواية الطبري أيضاً : — « اني كنت أخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر ابن ربيعة . ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة وفيها ملكهم وأمورهم كلها »[2] ...

وأما في تواريخ بني اسرائيل فان ثمة أدلة تدل على ترجمة التوراة والانجيل العربية في عصر الفتوح وفي العصر الأموي[3] وهي تكفي للايحاء باعتماد بعض الاخباريين على الأقل على هذا المصدر الأصلي . تماماً كما يكفي الخبر المروي عن ترجمة كتب الفرس وتاريخهم لهشام بن عبد الملك في كتاب مصبغ ملهب دليلاً على اتصال بعض الاخباريين الآخرين بالمصادر الأصلية لتاريخ الفارسي.

= (انظر الترجمة العربية ج ٤ ص ١٨٨) وأنظر دراسة لجروهمان فوردت في كتابه :
Grohmann, *Algemeine Einfuhrung in die Arabischen Papyrie*, Vienne, 1924, p. 27-30.

(١) الطبري ج ١ ص ٦٢٨ (١/٧٧٠) .
(٢) الطبري ج ١ (١/٧٧٠) .
(٣) جواد علي — مصادر تاريخ الطبري (مجلة المجمع العلمي العراقي لسنة ١٩٥٠ ج ١ ص ١٩٩) . وانظر بحثنا حول حركة التعريب عن طوم الأوائل في مجلة كلية الآداب — الكويت العدد ٧ .

٩ ـ ثم ان تعدد العوامل والحاجات التي أوجدت علم التاريخ هو الذي يفسر تنوع وسعة الكتابات التاريخية التي ظهرت. ولو استعرضنا الأعمال الست مائة التي كتبت في تلك الفترة لوجدنا أنها تناولت كافة أنواع وفروع التدوين التاريخي فهناك: كتب عامة في « التاريخ» تقارب الخمسين، وكتب في السير والأخبار تزيد على التسعين نصفها في سيرة الرسول، وكتب عن الخلفاء وعن الأمويين والعباسيين وأحداث عصرهم تصل إلى المائة، وكتب في الفتوح، وأخرى في مقاتل الرجال وفي الفرق، وكتب في البلدان والمسالك وتواريخ المدن المختلفة النظم وخططها (البصرة والكوفة والمدينة وبغداد والحيرة وأصبهان ومكة ومصر والموصل)، وكتب في الادارة وفي النظم المالية وفي السياسة وأدب السلطان وفي الولاة والكتاب والعهود، عدا كتب النسب الكثيرة التي تزيد على المائة وكتب الطبقات وتراجم الأشخاص والشعراء والمغنين، وكتب عن الروم والفرس وأهل الكتاب. بل كتبوا في شؤون حضارية كثيرة أيضاً. لقد ولدت. مع التاريخ كافة فروع التدوين، كما ولدت أيضاً كافة مناهج التدوين في وقت معاً، وقد حدد هذا مسيرة علم التاريخ فيما بعد وتطوره. فلا يكاد هذا العلم يحيد، في القرون التالية، عن هذه الخطوط التي نشأ عليها في فترة ولادته الا في القليل القليل. وانا لنستطيع بصورة عامة أن نجد جذور كافة كتب السير والطبقات في كتب السيرة الأولى ونجد الصور الأولى للتواريخ المعروفة في كتب الأخبار. كما نستطيع أن نعيد فكرة التواريخ العامة والتواريخ على السنين إلى نمو فكرة الأمة عند المسلمين من جهة والى النظرة العالمية الواحدة لديهم من خلال سلسلة الأنبياء وتساوي البشر من جهة أخرى.

١٠ ـ لم يكن تدوين التاريخ عملاً « رسمياً » أبداً. لم يعرف هذا العمل أبداً في التاريخ الإسلامي كله الا مرة واحدة في أواخر القرن السابع (عند تعيين ابن الفوطي مؤرخاً للمغول الايلخانيين في العراق). واذا جرى أن شجع الخلفاء الأمويون ثم العباسيون تدوين التاريخ فلم يكن ذلك بغرض الوصول

إلى اقامة تاريخ رسمي للدولة . ولكن لمجرد اثبات المعارف العامة وتسجيل ما كان يهم أو يشوق الخليفة أو الوالي معرفته . ولم يكن التشجيع يجاوز ذلك الحد إلى فرض وجهات نظر الدولة أو رأي السلطان على التاريخ الا فيما ندر (كحادثة الزهري مع القسري) . وليس يعني هذا براءة التاريخ الذي دوّن في تلك الفترة من الأهواء ولكنه يعني فقط أنه كان يستند إلى رأي الكاتب نفسه والى الرواة الذين رووا له الأحداث والى هواه الخاص في تفضيل أو الغاء أو ابراز رواية دون رواية ... نشأ التاريخ في الواقع في معزل عن الشكل «الرسمي» وعن سلطة الدولة . وكان ، حتّى في استناده إلى وثائق الدواوين والأنساب أو الكتب الرسمية أحياناً انما يفعل ذلك بشكل شخصي . وقلما كان الاخباريون والمؤرخون الأولون يطلعون على ذلك بطريقة رسمية أو يمهد لهم سبيل الحصول عليها إلا لغرض . بل لقد نرى اتهام بعض المؤرخين ان هم كانوا على علاقة طيبة مع السلطة . ولقد قال مكحول العالم الفقيه المعروف في الزهري : « أي الرجال الزهري لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك » ...

١١ — وظهرت في الفترة المبكرة من تاريخ التدوين عمليات التفسير التاريخي ، والتحليل والتعليل السياسي . بدأت فلسفة التاريخ بشكل أولي وكان طبيعياً أن تكون « ارادة الله » هي محور هذه الفلسفة .

وانا لنرى فكرة الجبر كما كان يروج لها الأمويون واضحة في بعض أعمال عوانة بن الحكم حيث يثبت دفاع بعض الأمويين عن حقهم ودفعهم مسؤولية بعض الأعمال عن أنفسهم (يزيد ومقتل الحسين مثلاً [1]) وينسبون ذلك إلى

(١) انظر في الطبري (ج ٥ ص ٤٦١) قول يزيد لابن الحسين : « ـ أبوك نازعني سلطاني فصنع الله به ما قد رأيت ـ » وقوله أيضاً في الطبري (٥/٤٦٤) ان الحسين لم يقرأ قوله تعالى : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك من تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير ـ » .
وانظر كذلك لدى البلاذري – أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٤٠ حيث يقول راوياً قول عوانة : « ان قدر الله لابن الزبير شيئاً فهو كائن » .

ارادة الله ويرون في سلطانهم أمراً إلهياً فيه مظاهر الجبر الالهي وارادة الله الغالبة لكل شيء . ونجد بالمقابل فكرة حرية الارادة ومسؤولية البشر عما يقترفون ، وهو رأي الأحزاب المعارضة للأمويين ، واضحة في بعض ما كتب أبو مخنف وخاصة فيما يورده عن حركة الحسين وحركة التوابين .

ونجد في الوقت نفسه ظهور فكرة «الأمة» الإسلامية و « الدولة » وبروز حقوق « الإمامة » و « الخلافة »، وأفكار « الطاعة » لأولي الأمر ، و «الجماعة» الإسلامية،وهي انما تظهر إلى همود الأفكار الأولى القبلية أو المحلية التي تميز بها الاخباريون الأوائل . فكان حزب بني أمية هو حزب الدين والنظام وحزب « أهل السنة والجماعة» . وكان يزيد « إمام المسلمين » وعبد الملك « إمام الإسلام » و « أمين الله » و « جنة الدين » [1] ... وقد ذكر حمزة الأصفهاني جماع الفلسفة الأموية السياسية حين ذكر أن الأمويين صوروا العلويين في صورة : « ... الخوارج على أئمة العدل وقرروا عندهم أنهم شقوا عصا الطاعة وأخرجوا أيديهم من الجماعة وحاولوا انتزاع الامامة من إمام وولي عهد إمام طامعين في أن يغصبوه على حق موروث جعله من تقدمه أولى به منهم حتى مال أولئك الأعتام (أهل الشام) باللعن والافتراء وقالوا لهم : تباً لكم من معشر مفارقين للسنة والجماعة عاصين لخليفة الله ... ثم غيروا قريباً من مائة سنة يحذرون الناس ناحيتهم ... وينهون عن الاختلاط بهم ... حتى ... (ظهر العباسيون) [2] » .... وهذا كله انما يلخص صدى ما كتبه الاخباريون ذوو الميول الأموية في تفسير التاريخ والأحداث مع العلويين . وقد ورث العباسيون ذلك من بعد فكان موقفهم ، الذي سجله الاخباريون ثم المؤرخون هو

(١) ذكر هذه الألقاب البلاذري – أنساب الأشراف (طبعة آلوارودت) ص ١٢ وص ٣٠٢ وابن عبد ربه في العقد الفريد ج ١ ص ١٢٢ .

(٢) حمزة الأصبهاني – تاريخ سني ملوك الأرض (طبعة دار الحياة – بيروت) ص ١٦٠ – ١٦١ .

هذا الموقف مع تأكيد أوسع على الصفة الدينية والقرآنية لآل الرسول وعلى حق الامامة لبني العباس من جانبي القرابة والجماعة .

حـ ـ مراحل التدوين

يحدد الذهبي : في نص هام يرد في كتابه تذكرة الحفاظ وينقله عنه ابن تغري بردي والسيوطي ، السنة التي بدأ فيها تدوين العلوم العربية في الإسلام بأنها سنة ١٤٣ هـ . يقول : « ... في سنة ثلاث وأربعين (ومائة) شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث ، والفقه ، والتفسير . فصنف ابن جريج بمكة ، ومالك (ابن أنس) الموطأ بالمدينة ، والأوزاعي بالشام ، وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ، ومعمر باليمن ، وسفيان بالكوفة . وصنف ابن اسحاق المغازي . وصنف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأي . ثم بعد يسير صنف هشيم والليث (بن سعد) وابن لهيعة ثم ابن المبارك وأبو يوسف وابن وهب ... وكثر تدوين العلم وتبويبه . ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس . وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم ، أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة »[1] ...

وينتبه الذهبي في هذا النص إلى عدد من الحقائق المتصلة بنشأة العلوم الإسلامية ولعل أهمها مرورها في القرن الثاني ــ في سنة ١٤٣ كما يقول ــ من مرحلة التسجيل « غير المرتب » إلى التصنيف المبوب ، وتوافق تصنيف مختلف العلوم بعضها مع بعض في عصر واحد ، وظهور التصنيف في مختلف البقاع

(١) الذهبي ــ تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٥١ و ص ٢٢٩ ؛ ابن تغري بردي ــ النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٥١ ؛ السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص ٢٦١ .

الإسلامية معا ... وإذا نحن تجاوزنا تحديد سنة ١٤٣ كسنة انقلابية – وهو تحديد ليس بالخاطىء تماماً على أي حال – وضيقنا الدائرة حتى لا تشمل غير علم التاريخ وما يتصل به من المغازي وأيام الناس والفتوح ... الخ . فإننا يمكن أن نلاحظ في نشأة التدوين التاريخي مروره بمراحل ثلاث توازي إلى حد كبير ما مر به علم الحديث أو غيره من علوم العرب . ولكنها ليست مراحل منفصلة بقدر ما هي مترابطة متشابكة :

المرحلة الأولى : ونستطيع أن نسميها مرحلة التدوين الأولي . ويتسم التدوين فيها بالطابع الشخصي بالنسبة للهدف من استخدام التدوين وبطابع العفوية والفضول العلمي والمنفعة الدينية أو الاجتماعية بالنسبة للدوافع العامة . وقد بدأت عملية التدوين نقلاً عن الشفاه ؛ وعن غيرها من المسجلات (كالوثائق والكتب) مبكرة جداً . وبعضها يرقى إلى العهد النبوي لكنها ما اتسعت ولا وضحت إلا في العصر الأموي وقد أخذت فيه عدداً من الاتجاهات فبعضها للسيرة النبوية وبعض لتاريخ اليمن وبعضٌ للأنساب وبعضٌ لأخبار الفتوح... الـــخ .

وقد رافق هذه المرحلة الأولى كما سوف يرافق التأريخ الإسلامي في جميع جميع مراحله وتطوراته المقبلة وجود جمهور واسع من رواة التاريخ والأخبار والأنساب يحدثون بما يعرفون . ومن هؤلاء مثلاً ، في هذه المرحلة الأولى، أبو يزيد عقيل بن أبي طالب ، الأخ الأكبر لعلي ، الذي كان يروي في مسجد المدينة والمستمعون من حوله ؛ أيام العرب ومعاركها ومثالب قريش . ومنهم عمرو بن خولة « الراوية الفصيح» وأبو الخنساء عباد بن كسيب «الشاعر العلامة والراوية النسابة » ومكي بن سوادة « الجامع العلم » وأبو الجهم بن حذيفة العدوي « الناسب الشديد العارضة » وأبو بكر بن الحكم « الناسب الراوية الشاعر»[1] ... وغيرهم كثير . ألفوا ما يمكن أن نسميه جمهور التاريخ وجوه

(١) انظر في خبر هؤلاء مثلا : الجاحظ – البيان والتبيين (طبعة دار الفكر – بيروت ١٩٦٨) ج ١ ص ٢١٤ – ٢١٦ .

الأوسع واشتهر منهم الأقرع بن حابس التميمي « عالم العرب في زمانه» (توفي سنة ٣١ / ٦٥١) ومخرمة بن نوفل (المتوفى سنة ٦٧٤/٥٤) وجبير بن مطعم (المتوفى سنة ٦٧٩/٥٩) وحويطب بن عبد العزى أحد أربعة من قريش في العلم بالشعر والأخبار والأنساب . والنخار بن أوس العذري أعظم علماء العرب في الأنساب في نظر ابن الكلبي [1] .

وما من شك في أن هذا الجمهور الواسع من رواة التاريخ كان يشكل الإطار العام من اهتمامات الناس التاريخية، كما أنه ضمن هذا الجمهور وعلى يد عدد من أفراده كانت تجري الخطوات الأولى للانتقال بالتاريخ من حالة المعرفة الشفهية إلى المعرفة الكتابية ، من التاريخ المروي إلى التاريخ المكتوب . وهذه النقلة إنما كانت تتم كنوع من التنظيم والاعتراف العام « بالأصول » والمسجلات الشخصية التي سطرها لنفسه كل واحد من هؤلاء الرواة .

وقد امتدت المرحلة الأولى هذه حتى مطالع القرن الثاني : وكان اهتمام التدوين فيها متوجهاً بصورة خاصة ، وتحت ضغط المتدينين والحاجة الدينية — السياسية إلى مواضيع محددة من السيرة النبوية . وقد ظهر في هذه الفترة عبد الله ابن عباس (المتوفى سنة ٧٨) ثم أبان بن عثمان بن عفان (المتوفى سنة ٩٥ أو سنة ١٠٥) ، وعروة بن الزبير (المتوفى سنة ٩٤) اللذان رويا جوانب من السيرة سميت« بالمغازي» لأنها تهتم بهذه الناحية من حياة الرسول . ثم تلاهما شرحبيل بن حسنة (المتوفى سنة ١٢٣) وابن شهاب الزهري (المتوفى سنة ١٢٤) اللذان طورا فكرة السيرة محاولين جعلها — كما فعل شرحبيل في كتـــاب المبتدأ — أساساً لكتابة تاريخ عالمي من خلال سلسلة الأنبياء وخاتم النبيين ، أو جعلها أساساً لكتابة تاريخ « الأمة » الإسلامية الذي يبدأ بسيرة الرسول .

وخلال هذه المرحلة ظهر الاهتمام بالمعارف التاريخية بوضوح لدى الخلفاء

---

(١) انظر ابن حجر — الاصابة ج ٣ ص ١٢٠٢ .

الأمويين منذ عهد معاوية وطلبوا تسجيل ذلك لهم من أفواه الناس: فحين سمع معاوية ما يرويه عبيد بن شرية عن تاريخ اليمن طلب فوراً تسجيله، كما جمع الوليد بن يزيد أخبار العرب على يد حماد في ديوان يختص بذلك، ووضع هشام بن عبد الملك من يكتب أخبار الزهري عنه ويكتب أيضاً تاريخ ملوك الفرس ، ولكن هذه الكتابات تظل تسجيلاً لأحداث تاريخية متفرقة غير متصل بعضها ببعض وتخضع لاهتمامات من يهتم بها . واذا كتب مثلاً زياد ابن أبيه (المتوفى سنة ٥٤) كتاباً في مثالب العرب فلأنه كان يريد الدفاع عن نسبه المجهول . وإذا كثرت الاشارات ، في هذه الفترة ، عن وجود صحف لفلان وفلان فإن ذلك يعني أن الرغبة في تدوين الأخبار (والأحاديث والأدب أيضاً) على اختلافها قد أضحت شائعة معروفة . ولكن النشاط في تسجيل مثل هذه الأمور التاريخية لم يكن بعد قد أخذ انطلاقته الواضحة ، لأنه بقي رسمياً لحد ما أو دينياً ولم يصبح تياراً فكرياً ثقافياً واضح التدوين . كما أن ما جرى تدوينه في هذه الفترة كان من المعارف المتفرقة ولم يكن محاولة للاحاطة بكل الأخبار لكافة المواضيع . ولعل النموذج الواضح لهذه الفترة يتمثل في عبد الله بن عباس (المتوفى سنة ٧٨). فقد ذكر ابن سعد في الطبقات خبراً يقول : « ... رأيت عبد الله بن عباس معه ألواح يكتب عليها عن ابن رافع شيئاً من فعل رسول الله » ... وذكر أيضاً أنه كان لدى كريب بن أبي مسلم من كتب ابن عباس ، مولاه ، ما يبلغ حمل بعير فكان علي بن عبد الله ابن عباس إذا أراد الكتاب كتب اليه ابعث إلي بصحيفة كذا فينسخها ويبعث اليه باحدى النسختين [1] .

أما في جيل الزهري (ت ١٢٤) التالي لابن عباس فانتشر التدوين بوضوح . يروي الذهبي قول أبي الزناد : « كنا نطوف مع الزهري على العلماء ومعه الألواح يكتب كل ما سمع»[2] . كان ذلك في مطالع القرن الثاني الذي وجد

(١) ابن سعد ـ الطبقات ج ٢ – ٢ ص ١٢٣ و ج ٥ ص ٢١٦ .
(٢) الذهبي ـ تذكرة الحفاظ (طبعة حيدر آباد) ج ١ ص ١٠٣ .

فيه في دار أبي عبيدة من الكتب ما جعل بعضهم يقول : « إن ديوان العرب كان في بيته »[1] .

وذكر الجاحظ عن أبي عمرو بن العلاء أن « كتبه التي كتبت عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ثم إنه تقرأ فأحرقهـــا كلها »[2] ...

المرحلة الثانية : وقد امتدت خلال القرن الثاني كله تقريباً . واهتمّ الاخباريون خلالها بجمع أخبار الأحداث المختلفة والمواضيع المتنوعة كلها ، ومن جميع الأفواه والرواة ، كل منها على حدة وفي كتاب يحمل عنوانـــه الخاص . ومع أن الاهتمام بالسيرة النبوية لم ينقطع في هذه المرحلة ان لم يتسع وينتظم ويعطي السيرة شكلها النهائي المنتظم على يد ابن اسحق (المتوفى سنة ١٥١) صاحب أقدم وأكمل سيرة نعرفها الآن ، الا أن العناية بالأخبار التاريخية الأخرى صارت أكثر وضوحاً ، بل لقد واكبت وزاحمت أحياناً كثيرة الاهتمام بالسيرة نفسها . ولعل السبب في ذلك أن السيرة كانت قد استكملت المعارف عنها واستنزفت كافة المصادر والمعلومات المتعلقة بها وانتظمت في كتب معروفة بينما وجد الاخباريون ميادين أخرى لفعالياتهم الفكرية والثقافية ما تزال بكراً ، ومواضيع مما يهم الناس اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً لم تطرق . أو طرقت من وجهة نظر معينة فلا بد من كشف الآراء الأخرى فيها . وهكذا اندفع رجال هذه الفترة من الاخباريين في تأليف عشرات من الكتب أو مئات لا شك في أن معظمها أشبه بالرسائل الصغيرة والمقالات الموسعة ، وكانت تشكل في مجموعها المادة التاريخية الأساسية لكتابة التاريخ .

وقد استقصت في مجموعها أيضاً كافة ما يهم المؤرخ معرفته من المعلومات

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص ٥٢ .
(٢) الجاحظ – البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٥ (طبعة دار الفكر – بيروت ١٩٦٨) .

عن مختلف مواضيع التاريخ الإسلامي خاصة وتاريخ العرب الجاهلي وبعض تواريخ الأمم . ومن هؤلاء الرجال :

ـ أبو مخنف (المتوفى سنة ١٥٧) الاخباري الذي كتب ٣٢ كتاباً تحمل عناوين الردة ، الفتوح ، الشورى ، صفين . الخوارج ... وكتب عوانة بن الحكم في الوقت نفسه سيرة معاوية وبني أمية وكتاباً في التاريخ فيه شيء عن الردة والفتوح والخلفاء الراشدين . ثم جاء سيف بن عمر (المتوفى سنة ١٨٠ هـ) فكتب في الردة والفتوح والفتنة وواقعة الجمل . ثم هشام بن محمد بن السائب الكلبي النسابة المتوفى سنة ٢٠٤ فكتب أكثر من ١٥٠ كتاباً في مختلف المواضيع : في المآثر والكنى والمثالب وأخبار الأوائل واليمن والخلفاء وصفاتهم وأولادهم ونسائهم ... لكل موضوع منها عنوانه المفرد .

وكتب مثل ذلك ، في الوقت نفسه ثلاثة مؤلفين آخرين هم :

ـ الهيثم بن عدي (المتوفى سنة ٢٠٨) والذي يعدون له ٥٠ كتاباً : في أنساب القبائل ، والخوارج وولاة الأمصار وخطط البصرة وخطط الكوفة ... الـــخ .

ـ الواقدي (المتوفى سنة ٢٠٧) والذي ألف ٢٨ كتاباً . من عناوينها : أخبار مكة ، أزواج النبي ، السقيفة : سيرة أبي بكر ، الردة ، يوم الجمل ، صفين ، مقتل الحسين ، وضع الدواوين . ضرب الدنانير ، أمر الحبشة والفيـــل ...

ـ أبو عبيدة معمر (المتوفى سنة ٢١١) وكان من كتبه : كتاب المثالب ، الفتوح ، الأيام ، مقاتل الفرسان ، صفين : قضاة البصرة ، أخبار الحجاج . كتاب الأوس والخزرج ...

ـ نصر بن مزاحم الذي توفي سنة ٢١٣ عن ٥٠ كتاباً تحمل عناوين : الجمل ، صفين ، مقتل الحسين ، مقتل حجر بن عدي ، أخبار المختار ،

الأئمة ... الخ وقد بلغت المرحلة أوجها ونهايتها بأعمال المدائني (المتوفى سنة ٢٢٥) الذي ترك مجموعة ضخمة من الكتب تكشف مجموعة عناوينها أنهـا تغطي أخبار الجاهلية وأحداث الإسلام وأخبار الخلفاء والتاريخ الأدبي والحضاري للدولة العربية الإسلامية ولكنها لا تؤلف كتاباً واحداً ولا عشرة وانما تؤلف ٢٤٠ كتاباً منفصلاً .

ومما يلفت النظر أن ينتشر ما بين أواخر المرحلة الأولى (نهاية القرن الأول) ونهاية المرحلة الثانية (أواخر القرن الثاني) عنوان يطرقه الكثير من الكتاب هو كتاب النوادر : فقد كتب تحت هذا العنوان الكثيرون ومنهم : رهمج بن محرز البصري ، أبو مسحل ، أبو المضرحي ، عبد الله الأموي ، اللحياني ، أبو محمد اليزيدي ، قطرب ، أبو عمرو الشيباني ، أبو اليقظان النسابـة وآخرون [١] ... وقد يدل العنوان على أفكار التنوع والطرافة والانتقائية التي كانت تحكم الجو الثقافي في تلك الفترة وتلتقي مع فصل المواضيع التاريخية بعضها عن بعض في كتب منفصلة للأخبار .

ولعلنا نلاحظ أن علم النسب أيضاً قد مرّ بهاتين المرحلتين الأولى والثانية في هذه الفترات نفسها . فبعد أن دونت بعض الأنساب اتفاقاً ومن أفواه رواتها وبأقلام من اهتموا بها ، عن هذه القبيلة أو تلك ، كما فعل الفقعسي الذي كتب مآثر بني أسد [٢] وغيره جاء النسابون في المرحلة التالية ، فكتبوا أنساب كافة القبائل ولكن في كتب منفصلة أيضاً وفي محاولة لاستقصائها جميعاً وتدوينها ، ومن أهم هؤلاء : محمد بن السائب الكلبي (المتوفى سنة ١٤٦) والـذي جمع – كما قالـ ابن النديم – « أنساب كل قبيلة على حدة . وبالرغم من أن ابنه هشاماً قد كتب كتاب النسب الكبير جامعاً فيه كل الأنساب الا أنه أفرد داخل

---

(١) انظر ابن النديم – الفهرست بالترتيب صفحات ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٦٨ ، ٩٤ – الخ وانظر خاصة ص ٨٨ ففيها ٢٢ كتاباً في النوادر .

(٢) انظر ابن النديم – الفهرست ص ٤٩ وقد أدرك الفقعسي أيام المنصور .

الكتاب مجموعة من الكتب للأنساب مفردة ومنها نسب قريش ، ولد العباس ، نسب بني عبد شمس ، كتاب سهيم بن عمرو ، كتاب بني محارب [1] ... وممن كتب على هذا النسق نفسه أبو اليقظان النسابة (المتوفى سنة ١٩٠) فان له كتاب أخبار تميم وكتاب نسب خندف وأخبارها [2] وكتب على الطريقة اياها أيضاً عبد الرحمن بن عبده [3] وتقرأ في ثبت كتبه : كتاب نسب بني قعس ، نسب كنانة ، أشراف بكر وتغلب ، نسب ولد أبي صفرة ... الخ على أن كلاً من ابن عبدة وأبي اليقظان كتب مجموعة الأنساب في كتاب واحد ممهداً بذلك للمرحلة الثالثة التالية وسمى كتابه « النسب الكبير » كما كتب هشام بن محمد الكلبي بدوره كتاب : النسب الكبير أيضاً وجمهرة النسب ... جامعين بذلك ، على الأساس الاثنوغرافي ، كافة أنساب العرب في مجموعة واحدة وهي المرحلة الثالثة لتدوين النسب التي تقابل مرحلة التدوين الثالثة في التاريخ .

على أنه بالرغم من ذلك الجمع « التوزعي » المفرق لمواضيع التاريخ في هذه المرحلة فقد ظهرت خلالها ومن رحمها ، وفي وقت مبكر مطالع :

المرحلة الثالثة ، مرحلة تدوين التاريخ على الأساس الزمني المتسلسل وجمع المواضيع المتعاقبة على التوالي في كتاب واحد وهي تستند في فلسفتها العميقة إلى فكرتين أساسيتين :

- وحدة التاريخ الإسلامي وأهمية تجارب الأمة الإسلامية .
- وحدة تاريخ البشرية من خلال سلسلة الأنبياء .

وقد امتدت هذه المرحلة حتى نهاية القرن الثالث حتى استقرت وتوطدت ،

---

(١) انظر تفصيل هذه الكتب لدى ابن النديم – الفهرست ص ٩٨ .
(٢) انظر ابن النديم ص ٩٤ .
(٣) المصدر ذاته ص ١٠٥ .

فتوطد بها علم التاريخ الإسلامي ومناهجه في التدوين. وانا لنجد بواكير ذلك لدى ابن اسحق صاحب السيرة في أواسط القرن الثاني اذ ينسب اليه كتاب ضائع في (تاريخ الخلفاء)، ثم لدى عوانة بن الحكم الذي كتب، مع كتبه الأخرى مؤلفاً في «التاريخ» جمع فيه الحديث عن الردة والفتوح وعهد الراشدين – حسب ما تدل النصوص الباقية المنقولة عنه – ثم جاء أبو اسحق ابراهيم بن محمد المتوفى سنة ١٨٨ فكتب «كتاب السير في الأخبار والحوادث»[1] وهو خطوة أخرى نحو جمع السير والأخبار في كتاب واحد. ثم جاء الهيثم بن عدي ليوضع أول كتاب في التاريخ على أساس السنين محققاً بذلك ثورة في المنهج التاريخي على مطالع المائة الثالثة للهجرة. كما وضع أول كتاب في التاريخ على أساس الطبقات لتراجم الرجال... وهاتان الخطوتان هما اللتان قدر لهما أن تكونا أساس مناهج التدوين التاريخي في الإسلام فيما بعد.

وقد أتيحت للحركة الثقافية الإسلامية الأداة الثورية في الفكر بمعرفة الورق وصنعه في المشرق، ولا شك أن ظهور الورق وانتشاره، بعد أواسط القرن الثاني الهجري، وكثرة صناعته قد أعانا على التوسع في التدوين التاريخي كما أعانا على جمع المؤلفات التاريخية الصغيرة ذات الموضوع الواحد في مجموعات تاريخية واسعة تضم مختلف المواضيع، في نسق زمني متصل. بالاضافة إلى أن العمق الفكري الذي أصاب الحياة الثقافية، مع حركة الترجمة واستبحار الحضارة. في العصر العباسي الأول وما بعده قد منح المؤرخين السعة اللازمة في الأفق والتوازن في النظرة التاريخية لمختلف الحضارات وتسلسلها.

وبالرغم من أن تأليف الكتب التاريخية كان يكسب مع الأيام أكثر فأكثر من الأنصار منذ خليفة بن خياط (المتوفى سنة ٢٤٠) إلى ابن قتيبة الدينوري (سنة ٢٧٠) ثم البلاذري (سنة ٢٧٩) وابن طيفور (سنة ٢٨٠) وأبي حنيفة

---

(١) انظر ابن النديم – الفهرست ص ٩٢.

الدينوري (سنة ٢٨٢) واليعقوبي (سنة ٢٨٤) والطبري (سنة ٣١٠) ، فان النمط الأول للمرحلة السالفة ظل قائماً مدة طويلة لم يمت حتى أواخر القرن وكان من ممثليه الأخيرين: عمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ عن تسعين عاماً وعن ٢٢ كتاباً منها كتب : البصرة ، الكوفة ، مقتل عثمان ، أخبار المنصور ، أمراء الكوفة ، كتاب السلطان ، كتاب بني نمير ... الخ .

على أن علم التاريخ كان قد استقر اذ ذاك وكان التدوين التاريخي المنظم قد أخذ مسيرته الطويلة .

د ـ مادة التدوين التاريخي الأول ومواقيت التدوين لكل مادة

ماذا دون الاخباريون المؤرخون الأول ؟ ومتى دونوا المواضيع المختلفة التي طرقوها ؟ ومن أين استقوا المادة التاريخية لمؤلفاتهم ؟

يمكن الاجابة عن هذه الأسئلة اذا نحن استعرضنا مؤلفات الاخباريين الأوائل ومواعيد تأليفها وما تحوي من المادة ومن المصادر . واستعراض عناوين المؤلفات لدى ابن النديم مثلاً ومحتويات ما بقي منها قد يسمح لنا أن نلخص تلك المادة في النقاط التالية :

١) السيرة والمغازي .

٢) أحداث التاريخ الإسلامي منذ وفاة الرسول حتى عهودهم لا الأخبار السياسية فقط ولكن الحضارية أيضاً (من خطط ونظم مالية وقضائية وولاة ونقود ورجال علم وفرق ومن غناء وجوار وقيان) وتوسعوا خاصة في أخبار الأدب والشعر .

٣) أخبار الجاهلية وخاصة من الأنساب والأيام والمرويات الأدبية ، ولم ينسوا الأمور الحضارية (من أديان وأحلاف ومنافرات وأسواق) ...

٤) أخبار العرب قبل الإسلام وخاصة في اليمن والحيرة .

٥) تاريخ الأنبياء السابقين والأديان .

٦) تاريخ الفرس وملوكهم وأخبارهم ونظمهم .

٧) بعض تاريخ الروم والأمم الأخرى (من هند وصين وقبط... الخ) .

ولم يحتج المسلمون إلى هذه المادة التاريخية كلها في وقت معاً ، وهذا يعني أنها لم تدون كلها في وقت واحد . ولعل ترتيبها الذي أعطيناها اياه في هذا التعداد السابق يكشف تقريباً ترتيب تدوينها الذي كان يعكس في الواقع ترتيب ظهور الحاجة اليها . الفرق الوحيد هو أن تدوين تاريخ الأنبياء رافق تدوين التاريخ الجاهلي السابق للاسلام .

فقد اهتم المسلمون أولاً بالسيرة وتفسير القصص القرآني واشاراته فكتبت السيرة منذ النصف الثاني من القرن الأول وكتبت بعض أمور الجاهلية ، كما نُقلت بعض الاسرائيليات وأخبار الأنبياء . وترتبت على الردة والفتوح أمور هامة في التشريع والحياة الإسلامية فرويت ودونت أخبار الردة والفتوح في الوقت الذي ظهرت فيه الخلافات الشديدة حول الامامة ورئاسة الدولة الإسلامية ، فتتبع الناس وقائع الخلاف وآراءه وما نجم عن ذلك من وقائع حربية وجدل سياسي ودونوها ، ثم احتاجوا ، منذ أوائل القرن الثاني الهجري ، إلى معرفة خبرات الأمم الأخرى فتطوع الفرس لتقديم تلك الخبرات . وأخيراً في مطالع القرن الثالث بحث المسلمون أنفسهم عن أخبار الرومان والروم وباقي الأمم إحقاقاً للتوازن في التاريخ العام القديم ونقلوا ذلك إلى التواريخ العربية .

أما في مصادر المعلومات فاذا كان من السهل أن نعرف ينابيع المعلومات في السيرة والمغازي وقد أخذت عن الصحابة والتابعين ، وفي أحداث التاريخ

الإسلامي التي أخذت عن شهودها ورواة أخبارها أولاً بأول فإن تأريخ الأمور السابقة للاسلام كان يشكل مشكلة هامة في التدوين التاريخي. فليس في اللغة العربية من تراث مكتوب تقرأ به تلك الأمور ولا كان في تواريخ الأمم الأخرى وهي مكتوبة بلغات غريبة (فارسية ويونانية وسريانية) من القيمة الفكرية والسياسية بالنسبة العالم الإسلامي ، ما يدفع إلى معرفتها والتبحر الواسع فيها. ظلت معرفتها إما قاصرة على أصحابها من السكان الأصليين في مصر والشام والعراق وايران ومكتوبة بلغاتهم السابقة نفسها واما ترفاً فكرياً لا يطلبه ويبحث عنه الا أصحاب التوق العلمي لمجرد استكمال المعرفة.

وقد حلت هذه المشكلة بالنسبة لكل موضوع على حدة :

فأما أخبار الجاهلية بما فيها فقد أخذت مباشرة عن العارفين بأمورها وخاصة ما تعلق منها بتفسير اشارات القرآن الكريم والحديث ، وقد وجد من هؤلاء الرواة جماعة كثيرة منذ العهد الراشد وعهد الأمويين الأوائل وقد يكون معظمهم ممن يهتم بالنسب ولكنهم حملوا معه الأخبار المختلفة ومنهم : النسابة دغفل السدوسي الذهلي ، الذي أدرك عهد معاوية ووفد عليه ، والنسابة البكري النصراني (وقد أخذ عنه رؤبة بن العجاج) ولسان الحمرة : أبو كلاب ورقاء بن الأشعر ، وعلاقة بن كريم الكلابي « من أيام يزيد بن معاوية ، وكان عارفاً بأيام العرب وأحاديثها ، وهو أحد من أخذت عنه المآثر » وصحار العبدي الخارجي. والشرقي بن القطامي « أحد النسابين الرواة للأخبار والأنساب والدواوين » وصالح بن عمران المعروف بالصفدي « وكان عارفاً بأخبار الرسول وله كتب » ومجالد بن سعيد الهمداني الذي روى عنه الهيثم بن عدي الكثير لأنه كان راوية للأخبار . وقد توفي سنة ١٤٤ ، وسعد القصير مولى بني أمية الذي « أخذ عنه العتبي أخبار أهله ومناقبهم وشعرهم »، ويزيد بن دأب « العالم بأخبار العرب وأشعارها » وولداه عيسى ويحيى « وكان الغالب على آل دأب (جميعاً) الأخبار » وزهير بن ميمون الهمداني القرقبي المتوفى سنة ١٥٥ « وكان عالماً بالأنساب والأخبار وأيام الناس » وأبو محمد جناد بن واصل الكوفي مولى بني

أسد « وكان أعلم الناس بأشعار العرب وأيامها »[1] .

وثمة ما يشير في عدد من الأخبار إلى أن ما حمله هؤلاء الرواة وأمثالهم من المعلومات كان يسجل من قبلهم أنفسهم ، ومنذ أواخر العصر الراشد في بعض الصحف . كما أن ثمة ما يشير إلى وجود صحف محفوظة لدى كل قبيلة تضم أنسابها الخاصة . وقد تعاون مع التاريخ على جمع أخبار الجاهلية ، علوم القرآن والحديث والشعر واللغة والأدب وما أثر وسجل منها .

وأما تاريخ اليمن القديمة والحيرة فبالرغم من وجود الآثار وبعض المسجلات في البلدين ومن استخدام بعض الأخباريين الأول (كهشام بن الكلبي) لبعض سجلات الحيرة فان تاريخ الجماعتين القديمتين وخاصة اليمن انما تطوع لوضعه واضافته إلى التأريخ العربي بعض الرواة اليمنيين وبعضهم ليسوا من اليمن الأقحاح ومنهم عبيد بن شرية الجرهمي (المتوفى زمن عبد الملك) ثم وهب بن منبه (المتوفى سنة ٧٢٨/١١٠ أو سنة ١١٤) وهو من الأبناء وأبوه منبه من هراة بخراسان . وقد روى بعض تاريخ اليمن أيضاً ابن القرية ، وعامر الشعبي الراوية القديم .

ويذكر ابن النديم أن عبيد بن شرية نقل رواياته عن عدد من الرواة اليمانيين ويذكر منهم « ... الكيس النمري ؛ والسين الجرهمي ؛ وعبدود، والجرهمي واسمه زيد بن الكيس ، وعلاقة بن كريم الكلابي من بني عامر بن كلاب (وهو) من أيام يزيد بن معاوية » .

واذا كان هؤلاء ممن يروون الأخبار شفاهاً فلعلهم انما كانوا يعتمدون على شيء مكتوب. وقد رأينا من الأدلة ما يشير إلى وجود « زُبر » ووثائق ملكية وسجلات حميرية و « صحف » مكتوبة في اليمن ظلت معروفة محفوظة لدى الأسر البارزة والناس حتى زمن الهَمْداني الذي أشار اليها ونقل عنها في كتابه الاكليل[2] على أن معظم ما سجل من التاريخ اليمني القديم عن لسان الرواة

(١) انظر في هؤلاء جميعاً ما ذكر ابن النديم في الفهرست ص ٨٩ – ص ٩٢ .

(٢) يذكر الهمداني نقله نسب الصويين « عن زبور قديم بخط أسعد بن موسى (الاكليل ج ١٠ —

كان مع الأسف أسطورياً ومن نوع القصص الشعبي ، ولا شك أنه كان ثمة في اليمن غير هؤلاء الرواة القصصيين جماعة من العارفين بتاريخ اليمن الحقيقي ممن عاشوا في عصر الراشدين والأمويين الأوائل بعلمهم . ولا شك أن بعضهم كان يعتمد في معارفه على صحف مكتوبة بالخط المسند الشائع هناك ، غير أن حلول الرواة القصصيين محل هؤلاء العارفين قد أضاع على التاريخ العربي فرصة ذهبية كان بإمكانها أن تساعد في فهم وايضاح وإغناء النقوش الأثرية التي نستنطقها اليوم عن ذلك التاريخ [1] .

وأما تاريخ الأنبياء فقد ورد بعضه في القرآن الكريم وأما تفاصيله والتوسع فيه وفي أخبار الأديان الأخرى وخاصة اليهودية والمسيحية فكان لا بد في ذلك من الاعتماد على أهل تلك الأديان وخاصة ممن أسلم منهم وكان على شيء من العلم بكتب وأخبار دينه السابق . وقد أخذ الاخباريون والمؤرخون المسلمون من تلك الأخبار ما توافق منها مع المعتقد الإسلامي خاصة . وكانت في البدء ذات مهمة تفسيرية ثم توسعوا فيها وأخذوها أحياناً عن الكتب المقدسة نفسها وعن شروح تلك الكتب . ومن أقدم من نقلت عنهم تلك المعلومات كعب الأحبار ، وعبد الله بن سلام (المتوفى سنة ٤٠ / ٦٦٠) ثم محمد بن كعب القرظي ووهب ابن منبه . ولعلنا نلاحظ هنا أن أخبار الأنبياء والأديان السماوية السابقة للاسلام كانت معروفة في الجزيرة العربية قبل الإسلام وكانت مسطورة أيضاً لدى أصحابها وهي « أساطير الأولين » التي اتهم الرسول بالنقل عنها . كما كان في مكة نفسها والمدينة وخيبر ونجران وصنعاء وغيرها من كان يعرفها . وقد غمز

= ص ١١١) ويروى مثل ذلك عن وجود أنساب المروانيين مقيدة من قبل آبائهم ومحفوظة كابراً عن كابر (الاكليل ١٠ ص ٣٠ - ٣١) ويذكر أنه قرأ زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية (ج ١ ص ٩ و ١٣) .

(١) في دراسة قامت بها نبيهة عبود (جامعة شيكاغو ١٩٥٧) حول أوراق البردي الإسلامية تدافع الباحثة عن الحقائق التاريخية التي قدمها هؤلاء الرواة وعن صدقهم في تقديمها وبخاصة كعب الاحبار ووهب بن منبه في الأمور الاسرائيلية وعبيد بن شرية في أخبار اليمن القديمة وتذكر أنها كانت مادة مكتوبة وكانت تنشر بشكل تجاري في العهد الأموي الأول .

المشركون من صدق الرسول في الوحي وادعوا أنه إنما يأخذ عن بعض المسيحيين الغرباء في مكة فتحداهم « ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » (سورة النحل – آية ١٠٣) .

على أن الرسول نفسه كان يعرف على ما يبدو الكثير من الأخبار الدينية التاريخية . يروي أبو شامة ذلك نقلاً عن السنن لأبي داود . يقول : « ... وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر قال كان نبي الله ﷺ يحدثنا عن بني إسرائيل حتى نصبح . ما يقوم إلا إلى عظم صلاة »[1] ...

ويلفت النظر خبر هام من ناحية المعارف التاريخية الجاهلية اذ يذكرون أن قريشاً أرادت التثبت من صدق رسالة الرسول فأرسلت النضر بن الحارث وهو العالم للنيا بعلم الفرس وكتب أهل الكتاب مع عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ ان وردت صفاته في كتبهم « ... فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء » فذهب الرجلان ثم عادا بأسئلة سألاها الرسول وضعها الأحبار لامتحانه . واثنان من الأسئلة الثلاثة تاريخيان ويتعلقان بمعلومات من التاريخ : سألوه عن أهل الكهف ، وعن رجل طواف الدنيا وفتح العالم وعن الروح . وقد أجاب عن ذلك . جاء في القرآن الكريم عن أهـل الكهف : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا » وعن الرحل الطواف « ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً » أما الروح فجاء : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » ... وامتحان النبوة بمعلومات من التاريخ يعني قيمة هذه المعلومات فكرياً ودينياً في ذلك الوقت . ولا شك أنه مع الأخبار التوراتية والاسرائيليات كانت اذن هناك بعض المعلومات التاريخية أو المعارف المختلطة بها في عصر الرسالة واشارات القرآن الكريم واضحة في ذلك ، كما أن هذه المعارف ذاعت ثم استفاضت في العهد الراشد ، ثم الأموي بسبب تلك الاشارات خاصة . ولما

---

(١) ابو شامة – كتاب الروضتين (طبعة محمد حلمي أحمد) ج ١ ص ٢ – ٣ .

كانت معلومات أهل الكتاب من اليهود والنصارى واسعة في هذه القصص فقد ظهرت جماعة منهم تتصدى – بعد إسلامها – لإذاعة تلك المعارف ، ويسميهم ابن اسحق أهل العلم الأول . ويذكرون عن وهب بن منبه أنه قرأ من كتب الأنبياء كتباً يختلف عددها في الروايات بين ثلاثين وبضعة وسبعين أو اثنين وتسعين كتاباً [1] وهذا على الأقل يعني توفر هذه الكتب في المناطق العربية من الجزيرة والشام والعراق ، في القرن الأول الهجري ولو أنها كانت في معظمها على ما يظهر بالسريانية والعبرانية . وقد دخل الكثير من معلومات هذه الكتب على التاريخ العربي حتى لقد عرفت آثارها في التاريخ وفي علوم الدين باسم خاص هو : الاسرائيليات . ويبدو مما وجد من أوراق البردي الإسلامية أن ترجمة هذه الأمور والنصوص إلى العربية قد تمت في أوائل القرن الثامن الميلادي أو أواخر القرن الأول الهجري [2] .

وقد حاول المستشرق روزنتال [3] في بحث كتبه حول « أثر التقاليد التوراتية الإنجيلية في التاريخ لدى المسلمين » أن يبين أن فكرة التاريخ في الكتاب المقدس قد أثرت في النبي ، وأن العلماء المسلمين قد استخدموا هذه النظرة التاريخية العالمية في انتاج مؤلفات تاريخية شاملة وأنهم أغنوا تلك المؤلفات بمواد تاريخية مأخوذة عن الكتاب المقدس والآثار التوراتية – الانجيلية ، وأن ثمة

---

(١) يذكر وهب بن منبه نفسه في مطلع كتابه التيجان (ص٢) أنه قرأ ٩٢ كتاباً مما أنزل على الأنبياء . وانظر ابن قتيبة – المعارف ص٢٣٢ . وابن سعد ج٥ ص٣٩٥ (وفيه رواية يجعلها ٩٢ كتاباً كلها أنزلت من السماء . ومثله في ذلك حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (ج ١ ص ٢٤) . وانظر أيضاً ياقوت الذي ينقل (أدباء – ج ٧ ص ٢٧٢) أنها بضعة وسبعون ، وانظر السخاوي الذي يجعلها ثلاثين كتاباً – (الاعلان ص ٤٨) وانظر كذلك ابن حجر – تهذيب ج ١١ ص ١٦٧ .

(٢) من دراسة لنبيهة عبود لبعض الكتابات على البردي من العهد الإسلامي الأول وقد نشرتها باسم :
Studies in Arabic Literary Papyri I, Historical texts, Chicago 1957.

(٣) انظر بحثه في كتاب « مؤرخو الشرق الأوسط » (بالانكليزية) ص ٣٥ – ٤٥ . ولعلنا نشير إلى أن روزنتال يهودي النحلة .

أخيراً توازياً وتشابهاً في « شكل » تقديم تلك المواد بين النصوص التاريخيــة التوراتية والإسلامية .

وقد استنتج روزنتال من كل أولئك أن ثمة مكاناً خاصاً تحتله تلك المواد التوراتية في علم التاريخ الإسلامي . وأنها أعطته بعضاً من أهم عناصره معنى . وإن كانت حرمته من الفرصة في أن يحقق تطوراً كبيراً في الفكر التاريخي [1] .

ويثير روزنتال بعض التساؤلات حول أي نوع من النصوص التوراتية — الانجيلية نقل إلى العربية هل هو لبعض الفرق المسيحية أو اليهودية المعنية أم هو أشكال محورة عن النصوص الأصلية لتلك القصص القديم ، ويضيف أنه من المقبول عامة لدى الباحثين المحدثين أن معظم المواد التاريخية التي أخذها المؤرخون (منذ أواخر القرن الثالث فما بعد) كما اتضح لدى الطبري وحمزة الأصفهاني والبيروني واليعقوبي انما ترجع إلى كتابي المدراش والهاغاداه لدى اليهود والنصارى [2] . ولكنها خضعت للكثير من التعديل . ومثل ذلك قصص الأنبيـــاء .

وما أراد روزنتال أن يعتبره تأثراً ونقلاً انما يرجع في الواقع إلى حقيقة مسبقة وهي أن القرآن جاء « مصدقاً لما بين يديه من الكتاب » وأن الإسلام لم ينكر وجود العقائد الدينية السابقة ولكنه رفض استمرار الايمان بها بعد ظهوره . ووحدة الرسالة منذ ابراهيم أبي الأنبياء وعبر الأنبياء المتعددين حتى محمد آخر النبيين انما كانت تقتضي هذا النوع من التطابق مع الفكر التاريخي للتوراة والانجيل وهذا النوع من القبول للمادة التاريخية الناجمة عنها .

---

(١) مؤرخو الشرق الأوسط (نشر برنارد لويس وهولت) اكسفورد — نيويورك ١٩٦٢ ص ٤٥ .

(٢) المصدر ذاته ص ٤١ ثم ص ٤٢ والمدراش هي التفاسير الأولى للتلمود وهي أساس المشنا التي نسقه الحاخامون بعد القرن الثاني الميلادي واما الهاغاداه فكتب التهجد والوعظ . وهناك الهمارة وهي جمهرة المناظرات والتعاليم والتفاسير التي جرت في المدارس أي أماكن تدريس الكتاب المقدس في الكنيس (وجذر كلمة مدراش = دراسة ومدوسة) وذلك بعد انتهاء جمع المشنا .

وثمة ملاحظة أخيرة تتعلق بدخول تاريخ الأنبياء والأديان والاسرائيليات إلى التاريخ الإسلامي هي أن الاخباريين أخذوها في القرن الأول والثاني عن أهل الكتاب ترجمةً أو بالرواية ومن ثم أهم الرواة لهذه الأمور بعد كعب الأحبار وهما وهب بن منبه ومحمد بن كعب القرظي فقد دخلت الكثير من الاسرائيليات وقضايا اليهود إلى الثقافة الإسلامية عن طريقهما. واذا كانت ثمة أدلة على أن الكتاب المقدس ترجم في العصر الأموي إلى العربية فانه ما من شك في أنه ترجم للرشيد عن أهل الكتاب، فقد ذكروا عن المترجم أحمد بن عبد الله بن سلام مولى الرشيد أنه ترجم كما قال عن العبرانية واليونانية والسريانية أخبـــار الصحف والتوراة والانجيل والأنبياء [1] . على أن معظم ما نقل انما كان أولاً بالرواية المنقولة عن أهل الكتاب الذين ما لبثوا أن ظهر منهم في القرن الثالث والرابع مؤلفون كتبوا بالعربية بعض التاريخ اليهودي والمسيحي أو ترجموا الكتب المقدسة للعربية كما هي. وقد أشار ابن النديم إلى كتاب ديوان الأيام وفيه سير الملوك من اليهود وأخبارهم وإلى كتاب العبور « وهو التاريخ » كما قال. كما أشار حمزة الأصفهاني إلى كتابي تاريخ لمؤلفين يهوديين مجهولين، وإلى كتاب منسوب إلى فنحاس بن باطا العبراني. وأشار أبو الفداء بين مصادره إلى كتاب البيان عن تاريخ سني زمان العالم على سبيل الحجة والبرهان لأبي عيسى المغربي أحمد بن علي المنجم [2] (من القرن الرابع) هذا بالاضافة إلى أن عدداً من المؤرخين لجأ إلى التوراة نفسها يأخذ عنها. وقد كتب المسيحيون بدورهم بعض التواريخ التي ركزوا فيها على أمرين خاصة تاريخ الروم وتاريخ الكنيسة والبطارقـــة، لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم ما يزالون روحياً تابعين للأمبراطورية البيزنطية، وقد أخذ عنهم بذلك لا التاريخ المسيحي فقط ولكن الرومي أيضاً إلى التاريخ الإسلامي.

---

(١) انظر ابن النديم ووصف الكتاب وما فيه ص ٢١ – ٢٢.

(٢) انظر أبا الفداء – المختصر في أخبار البشر (ج ١ ص ٣، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٦٥ م ص ٨١ وما بعدها).

وأما مادة التاريخ الفارسي فإن عناصر منه على الأقل كانت معروفة في مكة نفسها أيام البعثة النبوية . ويذكرون عن النضر بن الحارث بن كلدة أنه « قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك فارس وأحاديث رستم واسبنديار فكان إذا جلس الرسول مجلساً خلفه فيه ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار » و « كان ينظر في كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى »[(١)] وكان يتهم الرسول بأنه يأخذ عن « أساطير الأولين » .

وكانت قريش تتابع باهتمام — وصل درجة الرهان — حروب الفرس والروم ولمن تكون الغلبة فيها ... كما كان بعض تاريخ الفرس معروفاً في اليمن فان الحملة الفارسية التي وصلت مع سيف بن ذي يزن توطنت في البلاد وولد لها « الأبناء » . ولا شك أنهم حملوا معهم بعض ثقافتهم وأخبار تاريخهم إلى الموطن الجديد . أما في الحيرة فقد كان العرب يخالطون الفرس مخالطة ، ياسية وتجارية بل واجتماعية واسعة للدرجة التي تجعلهم يعرفون الكثير من الماضي الفارسي ومن وقائع أحداث العرش الساساني .

ولكن العرب في العهد الراشد لم يهتموا بمعرفة أو بتدوين ذلك التاريخ الذي ألفوا وجوده واستمراره بفتح بلاد فارس ، ويجب أن ننتظر حتى مطالع القرن الثاني لكي يبدي هشام ابن عبد الملك اهتماماً واضحاً بالتاريخ الفارسي ولكي يأمر بكتابة مؤلف له فيه ذهب ، ملون ، مصور وعلى ورق فخم وينقل فيه ما في كتب الفرس من تاريخ الملوك وأحوالهم . ولكن هذا الاهتمام « الرسمي » لم يلق رواجاً كبيراً في الناس إلا من قبل بعض الفرس ممن أسلم أو لم يسلم بعد .

وبعض هذا الاهتمام كان لسبب شعوبي . وفي هذه الفترة من أواخر العهد الأموي ومطالع العصر العباسي (النصف الأول من القرن الأول الهجري)

---

(١) انظر ابن هشام — السيرة (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد — القاهرة ١٩٦٣) ج ١ ص ١٩٥ ، وانظر ابن الأثير ٧٣/٢ .

ترجمت كتب عديدة من الفارسية إلى العربية تحمل التاريخ الفارسي ، كان أبرزها خداي نامغ ، بقلم ابن المقفع . ثم كتبت الكثير من الرسائل في مواضيع التاريخ الفارسي مثل سيرة أزدشير وسيرة أنو شروان لأبان اللاحقي . وكتاب أخبار الفرس للهيثم بن عدي ، وأخبار الفرس وأنسابها لأبي الحسين النسابة ... ومع أن المؤرخين استقبلوا هذه المعلومات الجديدة باهتمام وأنهم أدخلوها في تواريخهم العامة الا أن الناس اهتموا أكثر منها بالأدب السياسي الفارسي وتناولوه لا في كليلة ودمنة فحسب ولكن في كثير من الكتب الأخرى التي انتثرت حكمها وأمثالها في كتب العصر وما بعده .

وأما تاريخ الروم فقد كان آخر المعارف التاريخية دخولاً إلى التاريخ الإسلامي ، وقد طلبه المؤرخون لمجرد المعرفة وفي اطار جو الترجمة وتمازج الثقافات خلال القرن الثالث الهجري ولا نكاد نجد لدى ابن النديم سوى الاشارة إلى ثلاثة كتب فيه . وهذا لا يعني عدم وجود غيرها ولكن يعني ندرتها . وقد فات ابن النديم عدد آخر على ما يظهر نستطيع أن نعرف بعضه من خلال الأصفهاني والمسعودي وغيرهما . ومن الكتب التي أخذت عنها تواريخ الروم :

– كتاب الألوف لأبي معشر جعفر بن محمد البلخي المتوفى سنة ٢٧٢ . وقد اشتهر بتوغله في علم الفلك والنجوم واسمه معروف في عالم الاستشراق بهذه العلوم ولكن ابن صاعد الأندلسي يذكر أنه كان أعلم الناس بسير الفرس وأخبار سائر العجم ، وقد ذكر بروكلمان أن في المكتبة الأهلية في باريس نسخة خطية من كتاب الأدوار والألوف [1] . واذا ذكر ابن النديم الكتاب بين كتب النجوم فان فيه الكثير من التاريخ الرومي وغيره ، وقد أخذ عنه حمزة والمسعودي .

– كتاب تاريخ الملوك لوكيع القاضي ، وقد نقله صاحبه عن ترجمة

---

(١) انظر بروكلمان – تاريخ الأدب – الملحق ١ ص ٣٩٥ (بالألمانية) .

شفهية لتاريخ ملك من ملوك الروم ، وقد ساق التواريخ من ابتداء ملك قسطنطين إلى السنة الواحدة بعد الثلاثمئة من الهجرة [1] .

— وأخبار اليونانيين من تأليف حبيب بن بهريز مطران الموصل في أيام المأمون (مطلع القرن الثالث) [2] . وهناك كذلك كتب قيس الماروني وابن القراش للمصري (ابن البطريق) ومحبوب المنبجي واثنايوس الراهب المصري ويعقوب الكسكري وأبي زكريا النصراني[3] وهناك عدا هؤلاء تاريخ يحيى بن عدي الفراماطيقي النحوي (وان يكن بالسريانية) وتاريخ هرون بن عزوز وحنين ابن اسحق واسحق بن حنين وقسطا بن لوقا ... الخ .

واما تواريخ الأمم الأخرى فلم يتم أخذها مباشرة عن تواريخ خاصة بها وانما أخذت في الغالب بشكل غير مباشر وبشكل معلومات عامة من خلال كتب الروم والاسرائيليات والزيجات الفلكية أحياناً .

---

(١) حمزة الاصفهاني – تاريخ سني ملوك الأرض ص ٦٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ٦١ و ٧٠ ثم ص ٦٢ و ٦٨ .
(٣) انظر في هؤلاء المسعودي – التنبيه والإشراف ص ١٣٢ .

الفصل الثالث

المدارس الأولى
(في الشام واليمن)

البواكير وتكوّن المدارس : منذ الأيام الأولى للاسلام ، وبخاصة عقب الفتوح ، ظهر شعور عام لدى المسلمين الأوائل بأن عهداً جديداً قد بدأ . واذا كان هذا العهد قد أنهى الجاهلية في العرب ويلحم بها عهداً من النصر والحكم والسيادة فانه في الوقت نفسه أنهى أو غير من تاريخ ومصائر الأمم الأخرى من فرس وروم وما تحت أيديهم .

وكان طبيعياً جداً أن يقبل الناس من عرب وغيرهم ، في كل مكان ، على تذاكُر أخبار هذا الانقلاب الإسلامي الضخم الذي جاء مفاجئاً ، وشاملاً ، وعميقاً في وقت معاً ، وأن يحاولوا الاحاطة بدقائقه ومعناه وأن يقارنوا بينه وبين ما يعرفون من أحوالهم السابقة ... وهكذا وجدت مجموعة كبيرة من الصحابة ومن الفاتحين ومن العارفين بأخبار الجاهلية والأمم الأخرى تروي وتتحدث . كما وجد أناس اهتموا أكثر من غيرهم بهذه الأحاديث والروايات فكانوا يتسقطونها ويحفظونها للرواية ... واذا كان بعض هؤلاء الرواة يتحدث عفواً لمجرد السمر والحديث فقد وجد فيهم من يروي لتعليم

الدين أو لتسجيل المفاخر أو لاقامة العدالة أو بيان الحقوق أو العلم والاطلاع وحفظ تجربة الأمة ... ولما كان الإسلام الجديد قد فرض نظاماً دينياً دنيوياً جديداً بكل أبعاده وحدوده على الناس فقد كان ضرورياً أن يعرف في كل أمر سابقته ويكشف في كل قضية عن ماضيها السالف وسببها التاريخي .

واختلفت باختلاف الأقاليم من جهة والحاجات من جهة أخرى أنواع المعارف التاريخية التي كان يهتم بها الناس ويروونها ويجمعونها ويدونـــون . وهكـــذا :

أ ـ أدى الإسلام بين العرب إلى التوقف عن تقارض الشعر وتذاكُر « الأيام » بعد أن ملأ عليهم القرآن كل الفراغ الديني والفكري والأدبي، ثم سرعان ما لحق به الارتباط بحديث رسول الله والسنة وأحداث عصر الرسالة وما تلاها . فأقبل الناس من العرب وغيرهم الاقبال الشغوف على تقصي كل ما يتصل بذلك ، وعلى تقصيه بدقائقه ... وهذا ما أدى إلى « التسجيل » : تسجيل القرآن مجموعاً منظماً وتسجيل الحديث وأخبار الرسول ومغازيـــه والصحابة وأعمالهم ، كما أدى في الوقت نفسه إلى تفسير بعض آي القرآن وتفصيل بعض الأخبار بل إلى بعض التزيد في تلك الأخبار . واذا كان من غير الممكن التزيد في القرآن لشيوع حفظه الكامل في الناس وشدة الحرص على حروفه فقد كان من السهل التزيد في الحديث وأخبار الصحابة ، وقد جرى ذلك بالفعل ، مما دفع الناس إلى تحري الصدق في الرواة (وهكذا ظهر السند قبل الخبر) والى معرفة المناسبات والأحداث التي تتصل بكل حديث وسنة ... ونشأ من هذا كله تيار من الرغبة التاريخية ذات الهدف الديني نجم عنه نوع خاص من المعارف الدينية ـ التاريخية تركزت في أمرين اتجه اليهما التدوين :

ـ تفسير الاشارات التاريخية العامة أو الغامضة في القرآن وهي تتصل بالأمم البائدة أو بالجاهلية .

ـ تسجيل أخبار الرسول وعصر الرسالة وهو ما عرف في اصطلاحهم « بالمغازي » .

ب – وفي الوقت نفسه وبالرغم من أن الإسلام قد ألغى القبلية والنسب كأساس اجتماعي وأنزل من قيمة « الأيام » القبلية الجاهلية إلا أن نظام الحكم الإسلامي أوجد مبدأً جديداً في تفاضل الناس يستند إلى حد كبير إلى النسب القبلي نفسه . كما أعطى العرب نوعاً جديداً من الأيام هي الفتوح ومعاركها .

واذا كان التفاضل في الجماعة الإسلامية الجديدة انما يقوم على السبق في الإسلام وعلى مدى السابقة في النضال دونه مما أوجد طبقات المهاجرين والأنصار وأهل بدر وأهل بيعة الرضوان والمبشرين بالجنة وأصحاب فتح مكة ... فان النظام الإسلامي حين سجل على يد عمر وحسب تعليماته ، انما اتبع بعد ذكر رسول الله وآله ، النظام القبلي من جديد . ودوّن المسلمون العطاء على هذا الأساس فعاد الاهتمام بالأنساب إلى سابق عهده . ولا شك أن تنظيم الجيوش الإسلامية عند الفتح على أساس القبائل هو الذي دعا إلى هذا التنظيم ولكن النتيجة العملية لذلك كانت عودة الأنساب إلى مكانتها لا كحاجة علمية – اجتماعية فقط ولكن كحاجة اقتصادية أيضاً لما ارتبط بها من العطاء والأرزاق ، لا سيما وقد نظمت المدن الإسلامية الجديدة وجرى نزول الناس فيها على أساس قبلي .

ومن جهة أخرى فقد وصلت « الأيام » الجاهلية القبلية « بأيام قومية » جديدة حققتها الفتوح وتجاوزت في أبعادها حدود الوسط القبلي لتصبح حدثاً «قومياً» و«عالمياً» . ولم يترتب على حفظ أخبارها وروايتها من المفاخر العامة بقدر ما ترتب على ذلك من نتائج مادية تتعلق من جهة بعطاء الجنود الفاتحين وأرزاقهم وإقطاعهم الذي أقطع لهم وتتعلق من جهة أخرى بالبلاد المفتوحة نفسها وشروط فتحها ومقدار ما تدفع من جزية وما يجب على أرضها من خراج أو عشر وما أعطي لبعض المدن المفتوحة أو الفئات الدينية أو الأقطار من حقوق أو عهود محفوظة .

وقد وجد من هذا وذلك تيار من الحاجات ذات الهدف السياسي

والاقتصادي نجم عنه مجموعة أخرى من المعارف التاريخية تركزت في ثلاثة أمور اتجه اليها التدوين :

١ ــ الفتوح وأخبارها وعهودها ، ٢ ــ ثم الأنساب وما يتعلق بها ، ٣ ــ ثم أخبار العرب وغيرهم قبل الإسلام .

واذا كانت النزعات الدينية قد أوجدت اتجاهاً في رواية الماضي ينطلق من التقى الديني إلى الخبر التاريخي المدون فان الحاجات الاجتماعية ــ الاقتصادية قد أوجدت الاتجاه الذي ينطلق من الحادث التاريخي إلى الخبر المسجل .

جـ ــ ومن جهة ثالثة رجعت الجماعات المختلفة التي كونت المجتمع الإسلامي من عرب شماليين وجنوبيين ومن فرس زارادشتيين وروم مسيحيين ويهود ... كل جماعة إلى ماضيها تقص من قصصه وتقرنه بالحاضر . واذا كان العرب الشماليون قد فرضوا أيامهم وما يتصل بها من الشعر ، أو فرضوها عن طريق الشعر وطريق رغبة الناس فيه وفي اللغة العربية ودوّن لهم كل ذلك فان أهل اليمن نسجوا لأنفسهم ماضيهم السابق وكتبوه، كما تحدث الفرس بأخبار ملوكهم ونقلوها إلى العربية ، وجاء اليهود والمسيحيون بأخبار الأنبياء والأيام الخالية . وقد أخذ الناس من هؤلاء وأولئك هذه المعارف بعضهم بسبب ديني وبعضٌ للمعرفة الخالصة وبعض للمنافرة القبلية أو القومية وسجلوها . وكان من ذلك أيضاً مجموعة ثالثة من المعارف التاريخية المتنوعة تركزت خاصة في أخبار ما قبل الإسلام من الأحداث .

د ــ على أن تنوع أقاليم الدولة الإسلامية في العنصر والدين والماضي وفي وجود هذه المعارف لدى بعضها دون بعض أوجد نوعاً من الاختصاص لكل اقليم بنوع من المعرفة التاريخية ، كما توطنت بهذا الشكل معارف التاريخ في أقاليم معينة دون غيرها . وقد لعبت الحاجات والتجمعات السكانية دورها في ذلك التوطن :

فلما كان الميدان الجغرافي لعصر الرسالة في الحجاز وهناك توطن الصحابة

الكبار فقد اختصت المدينة عاصمة الرسول والخلفاء الأوائل بالمعارف التاريخية الإسلامية أي بالحديث خاصة و « بالمغازي » ونشأت فيها « مدرسة » قوية الأركان عملها رواية وتسجيل ما يتعلق بذلك من التاريخ .

ولما كان التجمّع القبلي الأكبر والأهمّ للعرب إنما كان في المِصْرَين : البصرة والكوفة في جنوب العراق وهناك توطنت الأرستقراطية العربية ، ومن هناك كان المنطلق إلى الجزيرة والى ايران وخراسان والهند وتركستان ، فقد ظهرت في ذلك الاقليم طبقة الاخباريين ومدرسة العراق القبلية الاخبارية التي تهتم بالأنساب والأخبار .

ولما كان لأهل اليمن تاريخهم الماضي العريق فقد أرادوا مضاهاة عرب الشمال وتاريخهم الإسلامي الطارف الجديد فكانت لهم مدرستهم في رواية ذلك التاريخ في اليمن .

وحين انتقلت الخلافة مع بني أمية إلى الشام وحولوها ملكاً مطلقاً أرادوا معرفة سير الملوك السابقين كما احتاجوا ، في النظام المالي والاداري للدولة ، وفي ضبط أمر الجيش وعطائه وأرزاقه الدائمة إلى معرفة أمر الفتوح وعهودها والقبائل وعلاقاتها ، والرجال وانقطاعاتهم وقيمهم الاجتماعية والعسكرية والسياسية .... وهكذا تجمع في الشام من يروي للأمويين كل ذلك .

وقد اختلف الأمر بالنسبة للفرس والروم. فقد خسر الفرس ملكهم السياسي كله كما بدأ دينهم السابق في الانحسار أمام الإسلام ولكنهم بقوا موجودين في كتلة بشرية واحدة على أرض خاصة بهم هي ايران ويمتزجون مع العرب أيضاً في العراق ، ولهذا نقلوا معارفهم التاريخية وهم في أرضهم إلى اللغة العربية قدر ما يستطيعون ، وكانت لهم بذلك مدرستهم التاريخية الخاصة . أما الروم فلم يخسروا ملكهم السياسي ولا زال نفوذهم الديني ، فقد بقيت أمبراطورية بيزنطة قائمة وان خسرت جانباً من الأرض التي كانت لها (الشام ، مصر ، افريقيا) كما أن المسيحيين الذين بقوا ضمن المجتمع الإسلامي كانوا في معظمهم،

من العرب فلم يكن ثمة من ضرورة ملحة تدعوهم التكتل الدفاعي ولاثبات التاريخ الديني والقومي في وجه الإسلام والعرب . ولهذا كله لم تتوطن معلوماتهم التاريخية في اقليم محدد لا سيما وأنهم هم أنفسهم كانوا موزعين ضمن المجموعة العربية في اليمن والعراق والجزيرة والشام ومصر وافريقيا . وهكذا تسربت تلك المعلومات المسيحية والتوراتية تسرباً إلى الفكر العربي الإسلامي وكانت أحد روافده دون أن تشكل قسماً خاصاً مميزاً فيه. أو مدرسة محددة الموطن .

ولم تكن حظوظ هذه المدارس التاريخية متساوية لا في الأهمية ولا في العمر : فاذا كانت أهمها من الناحية الإسلامية مدرسة المدينة فان أطولها عمراً وأبقاها وأهمها في التاريخ كانت مدرسة العراق لأنها وصلت عمرها الأول بعمر آخر سياسي حين انتقل مركز العالم الإسلامي مع العباسيين إلى العراق والى بغداد بالذات وأصبحت هذه العاصمة لعدة قرون على الأقل سرة الدنيا ومركزهـا .

أما مدرسة اليمن فذابت بسرعة لأن اليمن معزولة جغرافياً ولأنه لم يكن لها من تاريخ إسلامي هام عالمي الأثر تصل به تاريخها القديم وتنعشه . وأما مدرسة الشام فانها رغم قوتها قد تحطمت تحت الضربات القاسية التي كالها العباسيون منذ القرن الثاني الشام وأهله حتى افتقر في الاقتصاد والفكر على السواء . وأما مدرسة فارس فالتصقت بالمدرسة العراقية زمناً ثم ما لبثت أن انفصلت عنها منذ القرن الرابع بعض الانفصال مع يقظة اللغة الفارسيـة حتى استقلت تماماً بعد القرن السابع .

وسوف ندرس هذه المدارس في مجموعتين :

المدارس الصغرى : في الشام واليمن وفارس

المدارس الكبرى : في المدينة والعـراق

المدارس الصغرى

مَدرَسَة الشَام

بدأت هذه المدرسة تستقطب عدداً من العلماء الاخباريين وتخرج عدداً آخر منذ أيام معاوية . وكانت جاذبية العاصمة السياسية من جهة ، ورغبة البيت الأموي في الثقافة التاريخية اعتباراً من معاوية حتى آخر الأمويين هما اللتان تفتحان الطريق لهذه المدرسة التي عنيت بالأنساب وبالتاريخ الجاهلي عنايتها بعهد الرسالة والفتوح على السواء فكانت وسطاً في هذه المواد بين المدرستين المدنية والعراقية . ولئن كانت في رجالها أكثر ميلاً إلى المغازي والخبر والفتوح منها إلى الأنساب والأيام . فانها تميزت عن المدرستين، فيما يظهر ، بعنايتها بأمر الفتوح خاصة والمغازي والمقاسم وتخصصها بها .

ويبدو أن مدرسة الشام كانت تتجه للتخصص في « التاريخ » والظهور بهذا المعنى قبل مدرستي المدينة والعراق على السواء كما يبدو أنها ظلت فترة طويلة تنافس المدينة ومدرستها في أمر المغازي لما غلب على أهل المدينة من العلم بالحديث والبحث عنه . وكان معروفاً لدى الناس في ذلك العصر اختصاص المدارس التاريخية الاقليمية كل منها بميدانها : فلمدرسة المدينة المغازي ولمدرسة الشام معها الفتوح أيضاً وللعراق الأيام والأنساب ، وقد عبر عن بعض ذلك ابن أبي عيينة حين قال « من أراد الاسناد والحديث ... فعليه بأهل المدينة ،

ومن أراد المناسك والعلم بها ... فعليه بأهل مكة . ومن أراد المقاسم وأمر الغزو فعليه بأهل الشام » [1] ... وفي رواية أخرى « ... وإذا أردت المغازي فعليك بأهل الشام » . وفي رواية ثالثة: « ... ومن أراد السير فعليه بأهل الشام » ...

وعبر عن جانب منه أيضاً ما نقله بن النديم قال : « قرأت بخط أحمد ابن الحارث الخزاز : قالت العلماء : أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره . والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس . والواقدي بالحجاز والسيرة . وقد اشتركوا في فتح الشام » [2] ... واختصاص الرواة هنا يكشف اختصاص المدارس .

كما يدل على ذلك استغراب الإمام الأوزاعي الفقيه الشامي المعروف (المتوفى سنة ١٥٧) تأليف كتاب في السير من قبل عراقي . قالوا « ... لما وقع (كتاب السير الصغير) لمحمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩ بيد الأوزاعي قال : لمن هذا الكتاب ، فقيل لمحمد العراقي فقال : ما لأهل العـــراق والتصنيف في هذا الباب فانه لا علم لهم بالسير . ومغازي رسول الله وأصحابه كانت من جانب الشام والحجاز دون العراق . فانها محدثة فتحاً » [3] ... ويذكر ابن تيمية أن أعلم الناس بالمغازي بعد أهل المدينة أهل الشام « ... فأهل

---

(١) انظر ابن عساكر – تاريخ دمشق (ط المنجد) ج ١ ص ٣١٦ في ثلاثة مواضع .

(٢) ابن النديم – الفهرست ص ٩٣ .

(٣) انظر الرد على سير الأوزاعي ص ٢ – ٣ (تأليف ابي يوسف يعقوب بن ابراهيم . طبعة أبي الوفا الأفغاني – حيدر آباد دون تاريخ) ، ولعلنا نشير هنا إلى أن الأوزاعي توفي سنة ١٠٧ وكان يجهل دون شك في ذلك الوقت محمد بن الحسن الذي كان على ما يمكن أن نستنتج من عمره شخصاً في الخامسة والعشرين لم يشتهر أمره بعد . فقد ولد سنة ١٣٢ مع مطلع الدعوة العباسية وهو شامي الأصل دمشقي من قرية حرستا بجانب دمشق ولكنه ولد ونشأ بواسط وكان من كبار الأذكياء والفقهاء والقضاة وقد اشتهر وأخذ مكانته العظيمة بعد وفاة الأوزاعي وكان أحد أصحاب ابي حنيفة كما أنه رعى وعلم الإمام الشافعي . وعلى هذا فلا يمكن أن يكون الأوزاعي قد قرأ أو علق على (السير الصغير) الذي لم يكن قد ألف بعد عند وفاته . ولكن مجرد وضع هذا التعليق من قبل الواضعين يدل على اشتهار مدرسة الشام بشيء لا تشتهر به مدرسة العراق .

المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم ولهذا أعظم الناس كتاب أبي اسحق الفزاري ابراهيم بن محمد الذي صنفه في ذلك وجعلوا الأوزاعي أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار »[1] ولعل السبب في هـــذا ، إلى جانب ما ذكره الأوزاعي نفسه وابن تيمية،أنه قد تجمع في الشام ، حول البلاط الأموي ، عدد من الصحابة والتابعين الذين حضروا أحداث الإسلام الأولى ورووها . وان أمر الفتوح كان يهم خاصة السلطات الحاكمة لما يحمل من نتائج سياسية ومالية تتعلق بالعطاء وادارة المدن المفتوحة والأقاليم . ولهذا اهتمّ الناس به في الشام وراجت سوقه وعرف الرواة في هذا الإقليم به .

وقد مهد لظهور المدرسة في الشام عدد من الرواة كانوا الخطوة الأولى السابقة للتدوين التاريخي ومنهم بعض الصحابة الذين اشتركوا في الفتوح مثل أبي امامة الباهلي الذي اشترك في فتح الشام وروى المؤرخون عنه بعض أحداث الفتح[2] . وعبادة بن الصامت الذي روى عنه البلاذري معركة اليرموك في دقائق تبلغ حد وصف الانفعالات التي شعر بها المسلمون أثناء المعركة[3] .

وجاء من التابعين وتابعيهم من عرف بعد ذلك برواية الأخبار التاريخية في الشام ومنهم : —

أبو عثمان الصنعاني ، شراحيل بن مرثد . وهو من التابعين أدرك أبا بكر وشهد اليمامة وفتح دمشق وروى عن سلمان الفارسي . قـــال ابن حبان هو صاحب (الفتوح) يروي المراسيل (أي الأحاديث المرسلة) . وقد أوردت له المصادر وصفه لفتح حمص وحصار دمشق وكيفية فتحها[4] .

---

(١) ابن تيمية — مقدمة في أصول التفسير ص ١٥ (طبعة جميل الشطي — مطبعة الترقي — دمشق ١٩٣٦) .

(٢) انظر الطبري ج ٣ ص ٤٠١ — ٤٠٣ — ٤٠٦ .

(٣) انظر الواقدي — فتوح الشام (مطبعة العلوم الأدبية بمصر — دون تاريخ) ج ١ ص ١١٣ — ١١٤ .

(٤) انظر ابن حجر العسقلاني — تهذيب التهذيب (طبعة دار صادر — بيروت عن طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢٥) ج ٤ ص ٣٢٠ وابن عساكر — تاريخ دمشق ج ١ ص ٥٠٠ (ط . المنجد) .

– جبير بن نفير الحضرمي المتوفى سنة ٨٠ هـ أبو عبد الرحمن : وهو بدوره من التابعين الشاميين نزل حمص وروى عدداً من أخبار التاريخ منها حوادث فتح قبرص على يد المسلمين [1] وتبعه في الرواية ابنه :

– عبد الرحمن بن جبير : الذي روى له ابن كثير نزول الروم قرب اليرموك وقدوم خالد إلى الشام وروى له ابن عساكر ارسال الجيوش من قبل أبي بكر إلى الشام [2] .

– علاقة بن كريم الكلابي : من سمار يزيد بن معاوية واسمه الأصلي حسب رواية ياقوت هو (كرسم) . كان عارفاً بأيام العرب وأحاديثها وكان أحد من أخذت عنهم المآثر . وله كتاب في الأمثال رآه ابن النديم في خمسين ورقة [3] .

– عبادة بن نسي : الذي روى غزوة معاوية لعمورية [4] في سنة خمس وعشرين .

– رجاء بن حياة : الذي روى قصة استخلاف عمر بن عبد العزيز في الطبري [5] .

– عبد الله بن الوليد : دمشقي ولعله من أواخر القرن الثاني وقد روى لدى البلاذري بعض غزوات معاوية نقلاً عن كتاب : مغازي معاوية [6] .

– عبد الرحمن بن غنم : الذي يعتبره بعضهم من الصحابة وقد روى له البلاذري بعض حوادث فتح فلسطين، وروى له الطبري بعض الأخبار عن عام الرمادة [7] .

(١) انظر الطبري ج ٤ ص ٢٦٢ .
(٢) انظر ابن كثير – البداية والنهاية ج ٧ ص ٦ (طبعة مطبعة السعادة – القاهرة ١٩٣٢) وابن عساكر – تاريخ دمشق ج ١ ص ١٩٧ .
(٣) انظر ابن النديم ص ٩٠ وياقوت – معجم الأدباء ج ١٢ ص ١٩٠ .
(٤) البلاذري – فتوح البلدان (طبعة المنجد) ج ١ ص ١٩٥ .
(٥) الطبري ج ٦ ص ٥٥٠ – ٥٥٣ .
(٦) البلاذري – فتوح البلدان ج ١ ص ١٩٥ .
(٧) فتوح البلدان (ط. المنجد) ص ١٧٣ والطبري ج ٤ ص ١٠٠ .

وقد تلا هؤلاء وظهر معهم عدد من الرواة المؤلفين كانوا رجال المدرسة الأوائل وبعضهم ليسوا من الشام ولكنهم قدموا اليها تجلبهم دعوة الخلفاء أو بلاطهم أو رغبتهم في معرفة التاريخ .

وقد لعب الدور الهام في هذه الناحية ثلاثة خلفاء أو أربعة : معاوية أولاً ، فهو أول من سأل في التاريخ واستقدم العلماء اليه يسألهم وأول من أمر بالتدوين . ثم عبد الملك وابنه الوليد ثم هشام بن عبد الملك الذي كانت تؤلف الكتب لخزانتـه في تاريخ الفرس (من قبل الفرس) وفي أحـداث الإسلام (من قبل الزهري) وفي الأنساب (من قبل العارفين بها) .

على أنه يبدو من خلال عدد من الأخبار ، أن هذا المنبع الإسلامي لم يكن المصدر الوحيد لمدرسة الشام التاريخية وأن ثمة منبعين آخرين أو مصدرين اشتقت منهما هذه المدرسة أو على الأقل تلمست منهما المعلومات الأولى :

الأول : مدرسة اليمن ورجالها . ويبدو أن معاوية خاصة وابنه يزيد ثم الخلفاء من بعده كانوا واعين أوضح الوعي لحضارة اليمنية وقيمتها ومكانها من التاريخ العربي . ولهذا فقد استقدموا رجالها إليهم . وربما كان للعصبية اليمنية الكلبية التي كانت موجودة في جنوب الشام ، والتي دعمت الأمويين، أثرها الواضح في ذلك الوعي وذلك الاستقدام . وعلى أي حال فقد عهد معاوية إلى بعض هؤلاء الرجال بتربية ابنه يزيد (ابن شرية ، ودغفل النسابة) كما طلب تسجيل معلوماتهم عنهم . وهكذا بجانب عوامل أخرى (كالتفسير القرآن والمفاخرة القبلية) دخلت التاريخ العربي عن طريق الشام عناصر تتعلق بتاريخ اليمن قبل الإسلام في ملوكها وأخبارها والأشعار !

الثاني : مصدر مجهول تماماً قد يكون من تواريخ الروم أسهم في تحرك مدرسة الشام تحركها الأول . فإن ثمة جذراً آخر غامض الحدود من جذورها يجب أن يوضع في النور هو في الغالب المعلومات التاريخية لبعض المثقفين المحليين ، من المسيحيين الذين استخدم الأمويون بعضهم في أعمال الدولة في الشام . كما يبدو

أن خبر استدعاء عبيد بن شرية إلى دمشق من قبل معاوية والأمر بتدوين معلوماته في كتب وان كان يكشف لنا أول تدوين تاريخي ثابت في الإسلام إلا أنه قد سبقه فيما يظهر أو رافقه تدوين آخر لعلـــه كان بين التأليف والترجمـــة إلى العربية ويتعلق بأخبار غير إسلامية قد تكون من أخبار الروم والفرس. وقد كان ذلك بدوره أيضاً في ظل معاوية نفسه وبطلب منه على الأرجح، وفي دمشق نفسها، حيث قضى هذا السفياني الكبير أربعين سنة في الحكم بين الولاية والخلافة. فالمسعودي يذكر من برنامج معاوية اليومي أنه «... كان ينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر، فيها سير الملوك وأخبارهـــا والحروب والمكائد فيقرأ ذلك غلمان له مرتبون. وقد وكلوا بحفظها وقراءتها. فتمرّ بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات[1]»... وأهمية الخبر ليست فقط في اهتمام معاوية بدراسة التاريخ السياسي ووعيه، ولكن في تقرير حقيقة أهم من ذلك هي وجود معارف تاريخية، واسعة بحيث تقرأ كل ليلة، كانت في ذلك العهد الإسلامي المبكر من أواسط القرن الأول الهجري معروفة مترجمة بالعربية، مصنفة في دفاتر وفي كتب ولها الحافظون الموكلون بها والقراء المرتبون. وليس ممكناً أن تكون تلك السير مما يتعلق بالمغازي والصحابة فمعاوية وهو الصحابي، وكاتب الرسول، قد عاش تلك الفترة عن كثب وكان يعرف عنها الكثير مما يغنيه عن قراءة أمورها له. ثم لم يكن في تلك الفترة مـــن العصر الراشد ومطلع العهد الأموي بعـــد من «سير الملوك» المسلمين وأخبارهم ومن الحروب والمكائد وأنواع السياسات ما هو مسجل يروى، ولا ما يروى لمعاوية على الأقل. فلا بد اذن ان صح الخبر، وهو في الأرجح صحيح الأساس، من أن تكون تلك «الدفاتر» كتباً في تواريخ الأمم السالفة. ولعل معاوية، العريق في الأرستقراطية القرشية والخليفة ذا الفكر الملكي، هو الذي طلب في دمشق من علماء الروم حوله كتابتها أو ترجمتها له ليتعرف الأحوال الملكية والسياسية السابقة له. ونحن في هذه الحالة اذن أمام

(١) المسعودي– مروج الذهب (طبعة القاهرة ١٣٤٦) ج ٢ ص ٧٢.

مؤلفين في التاريخ مجهولين كما أننا أمام دور خاص لمعاوية كان فيه المؤسس الأول لعلم التاريخ الإسلامي أو على الأقل كان فيه الراعي والعامل على أول تدوين باللغة العربية « التاريخ » بمعناه العام لا على أنه المغازي النبوية وقصص الأنبياء ولا على أنه الأنساب والأيام العربية ولكن على أنه تاريخ الأمم السالفة وسير الملوك والحروب وأنواع السياسات مما هو جدير بالقراءة عـــلى « الملوك » .

ولعلنا نضيف هنا أن عبيد بن شرية لم يكن العالم الوحيد الذي استقدمه معاوية إلى دمشق فكتب عنه رواياته وصيّرها كتباً . فان المسعودي نفسه يشير إلى أن « كثيراً من الاخباريين من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين » ... وفدوا على معاوية أيضاً[1] . وبهذا الشكل قد تكون ثمة تدوينات أخرى عديدة مجهولة ترد هي ودفاتر معاوية معها مواعيد تدوين التاريخ الإسلامي سنوات كثيرة إلى الوراء كما تضع أيدينا ، لو أتيح لنا المزيد من معرفتها ، على بعض الجذور الغامضة الأولى في تكوين مدرسة الشام التاريخية لكنها جذور ضاع مع الأيام خبرها ، كما ضاعت المعارف التي قد تكون جاءت بها ، ضمن المعارف الأخرى. فنحن لا نعرف اليوم من هم أصحاب تلك النشاطات ولا ما هي بالضبط المادة التاريخية التي قدموها ؟ وعن أي المصادر أخذوا ؟ وهل كتبوا ذلك بالعربية ــ وهو الأرجح ــ أم بغيرها ؟ ...

وعلى أي حال فانه لم يظهر لهذه المعلومات التاريخية الأولى من أثر واضح في التدوين التاريخي الإسلامي بعد ذلك . ولعلها ظلت معلومات تاريخية «ملكية» فلم تنزل للتداول بين الناس أو لعلها كانت بالسريانية أو اليونانية وكانت تفسر لمعاوية تفسيراً لا تلاوة بالعربية ولهذا أو لذاك أو لكليهما لم تترك أثراً محدداً بيّناً فيما جرى تدوينه بعدها أو في تكوين مدرسة التاريخ الشامية على الأقل . وهذا ما يسمح لنا في الواقع الحالي ــ وان سجلنا خبرها ــ باغفال أمرها .

---

(١) المسعودي (مروج الذهب) طبعة بلاج ٢ ص ٤٠٦ .

أما العلماء الذين كانوا بشكل أو بآخر نواة المدرسة فمنهم :

— عبيد بن شرية الجرهمي : وهو عالم مخضرم عاش في الجاهلية والإسلام وعرف الرسول . ومع أنه يماني الا أنه كان أساس مدرسة الشام في التاريخ ، فقد استدعاه معاوية إلى الشام فقدم عليه وجعل الخليفة يسأله أسئلة تكشف اهتمامات الناس العامة في التاريخ وما يشوقهم من النواحي فيه، وجعل عبيد يقص ما يعرف من أخبار الماضين والكوائن والأحداث وتشعب الأنساب ، « والأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد ... فأمر معاوية أن يدون (ذلك كله) وينسب إلى عبيد بن شرية »(1) ...

وهكذا فيما يظهر كان « له من الكتب كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين» فهذا أول تدوين تاريخي واضح ثابت في الإسلام وهذه مع « دفاتر » معاوية أول كتب تاريخية عرفها المسلمون . وقد عاش عبيد حتى زمن عبد الملك بن مروان . وكان له من التلاميذ الذين رووا عنه عدد منهم الكيس النمري والسبن الجرهمي وعبلود (زيد بن الكيس) الجرهمي. واذا كان هؤلاء من اليمانيين في اليمن فقد ترك في الشام من تلاميذه علاقة بن كريم الكلبي ، نديم الخليفة يزيد بن معاوية .

و (كتاب الملوك وأخبار الماضين) لابن شرية موجود مطبوع . طبع في حيدر آباد سنة ١٣٥٧ بعنوان (أخبار عبيد بن شرية) وضم إلى كتاب التيجان لابن منبه وجاء في ١٧٨ صفحة (من ص ٣١١ حتى ص ٤٨٩) . وفي المتحف البريطاني كتاب مخطوط لعبيد بن شرية في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها (رقم ملحق ٥٧٨) وقد يكون هو كتاب الملوك نفسه . ولابن شرية كذلك كتاب الأمثال . كان في خمسين ورقة وقد فقد ، ولا شك أنه كان يحوي من خلال الأمثال شيئاً من أخبار العرب في الجاهلية .

---

(١) المسعودي — مروج الذهب ٤ / ٨٩ — ٩٠ (طبعة باريس) ، ابن النديم — الفهرست ص ٨٩ .

— يزيد بن ربيعة بن مفرغ، أبو عثمان الحميري (وهو مشكوك النسب إلى حمير) يقول صاحب الأغاني : « سئل الأصمعي عن شعر تُبّع وقصته ومن وصفهما فقال : ابن مفرغ ... وذلك أن يزيد بن معاوية لما سيره إلى الشام وتخلصه من عباد بن زياد أنزله الجزيرة . وكان مقيماً برأس عين وزعم أنه من حمير . ووضع : « سيرة تُبّع وأشعاره »[1] وابن مفرغ مشترك النشاط بين مدرستي الشام واليمن وسوف نعرض له هناك أيضاً التذكرة .

— عروة بن الزبير بن العوام : ومع أنه شقيق عبد الله صاحب الثورة وأحد فقهاء المدينة السبعة إلا أنه ارتحل إلى عبد الملك بن مروان في الشام فترة وكتب له أشياء عديدة من مغازي الرسول حسب طلبه . ثم عاد إلى دمشق في عهد الوليد بن عبد الملك وكتب له جواب عدد من الأسئلة التاريخية نقلها المؤرخون . كما كان على صلة دائمة بعمر بن عبد العزيز ولكن ظروفاً كثيرة أجبرته على ترك الشام . وسوف نعود اليه في مدرسة المدينة .

— الزهري محمد بن مسلم بن شهاب الذي بقي في دمشق زمناً في عهد عبد الملك بن مروان ثم عاد فاستقر بها منذ سنة ٨١ ° سنة ٨٢ وأجرى عليه الخلفاء المتابعون راتباً حتى موته في عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٢٤ الذي وضع له كاتبين يكتبان عنه سنة وقد وجدت في مكتبة الوليد الثاني حين قتل سنة ١٢٦ أكوام من المجلدات من مؤلفات الزهري ، حملت على الدواب من الخزائن ! وسوف نقابله كرة أخرى في مدرسة العراق .

— الأوزاعي: الإمام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو (ولد في بعلبك سنة ٨٨ وتوفي في بيروت سنة ٧٧٤/١٥٧) وأصله دمشقي من الأوزاع (قرية خارج باب الفراديس بدمشق)[2] وكان إمام الشاميين في الحديث ، وانفرد بمذهب في الفقه انتشر في الأندلس فترة طويلة كما كان لا يجارى في المعرفة

---

(١) الاصبهاني — الأغاني (ط. دار الكتب) ج ١٨ ص ٢٥٥ .
(٢) الأوزاع هي الآن محلة العقيبة ، من أحياء دمشق .

بالسير والمغازي والفتوح . وحين اجتمع بالإمام مالك بن أنس في المدينة « غمره بالسير بينما غمره مالك بالحديث » ذلك أن الأوزاعي « كان أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار » على قول ابن تيمية .

— عوانة بن الحكم الكلبي (المتوفى سنة ١٤٧ أو سنة ١٥٨) : ومع أن الرجل كوفي وقد عاش حوالى ١٥ سنة أو أكثر تحت الحكم العباسي إلا أنه كان — فيما يقولون عنه — وفيما نقل ياقوت « عثماني الهوى يضع الأخبار لبني أمية » . وربما كان هواه ضد العباسيين لأن ثمة أخباراً أخرى تذكر أسفه لفشل ثورة محمد ذي النفس الزكية ضد المنصور . ومعظم أخبار المدائني إنما نقلت عن عوانة كما روى عنه الأصمعي . وبالرغم من أصله الوضيع (أبوه عبد خياط وأمه أمة سوداء) الا أنه كان ينسب نفسه بالولاء إلى قبيلة كلب التي توطنت في جنوب الشام ويقول : « انه من قوم إذا نسي الناس علمهم حفظوه عليهم » .

ونحن ندين لعوانة هذا بتسمية علم التاريخ فهو صاحب أول كتاب تاريخي يحمل اسم (كتاب التاريخ) في الإسلام . وقد كتب كذلك سيرة معاوية وبني أمية ولكن الكتابين فقدا ولم يبق منهما الا ما تناثر لدى المدائني وابن الكلبي والطبري وغيرهم .

— أبو اسحق الفزاري ابراهيم بن محمد بن الحارث المتوفى سنة ٨٠٢/١٨٦ . (أو ١٨٥ أو ١٨٨) . وهو من مواليد الكوفة ثم انتقل إلى دمشق فبغداد واستقر آخر الأمر في المصيصة أحد ثغور الشام . ويختلط عند بعض الباحثين بالفزاري الفلكي منجم للمنصور ، وهذا مؤرخ محدث . ذكر ابن قتيبة أنه « صاحب سير » . وقال سفيان ابن عيينة « ما ينبغي أن يكون رجل أبصر بالسير منه » لسعة إحاطته بها . وقد صنف في ذلك كتاباً « أعظمه الناس منه » [1] ويسمى كتاب

(١) انظر ابن قتيبة — المعارف (طبعة ثروة عكاشة — القاهرة ١٩٦٩) ص ٥١٤ ، وابن ابي حاتم الرازي — الجرح والتعديل (طبعة حيدر آباد سنة ١٣٦٠) ص ٢٨١ ، وابن تيمية مقدمة في أصول التفسير (ط. الترقي — دمشق ١٩٣٦) ص ١٥ .

السير في الأخبار ومنه قطعة في الاصابة لابن حجر .

ـ الوليد بن مسلم أبو العباس الأموي (ولد سنة ٧٣٧/١١٩ وتوفي سنة ٨١٠/١٩٥) ، وكان من مشاهير محدثي الشام[١] وقد قاسمه شهرته هذه محدث معاصر له هو اسماعيل بن عياش (المتوفى سنة ١٨٢) . وقد كتب الوليد في التاريخ ونبغ في حفظ المغازي ، أخذها عن أستاذه الأوزاعي ، كما كان صاحب أحاديث في الملاحم . وكان من المؤلفين . قيل انه ألف سبعين كتاباً . وقد روى سيرة ابن اسحق . ولعل ميزته أنه كان مع صاحبه ابن عياش أعلم الشاميين بروايات أهل الشام . وأنه كان في الوقت نفسه حسب شهادة المؤرخ أبي زرعة الرازي الدمشقي «أعلم بأمر المغازي والسير عن الأوزاعي»[٢] ولا يذكر ابن النديم للوليد بن مسلم سوى كتاب للمغازي[٣] من كتبه السبعين ، ويبدو أن هذه الكتب ، رغم أنها قد تميزت بصفتها الفقهية ـ القضائية حتى قيل : «من كتب مصنفات الوليد صلح أن يلي القضاء»[٤] إلا أنها كانت تحوي الكثير من السير والأخبار لأنه كان من المدرسة التي تؤمن بارتباط القضاء بالسير والأثر والسابقة . وقد يكون بين تلك الكتب أيضاً بعض ما يختص بالسير والتاريخ فانا نجد في المصادر الكثير من الأخبار التاريخية المروية عنه ، فقد روى ابن عساكر عنه قدوم كسرى إلى الشام وظهوره على الروم ثم رجوعه لمناصرة ملك الخزر على ملك الهند . وروى أيضاً عنه حصار دمشق كما روى تفسيراً لاقطاعات أبناء الصحابة في دمشق والغوطة[٥] ...

وقد أخذ العلم عن الوليد عدد من كبار العلماء ومنهم ابن أبي خيثمة ، والإمام أحمد بن حنبل والمديني وعلي بن محمد الطنافسي ، وتميز بين تلاميذه

(١) انظر الذهبي – تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٧٩ .
(٢) انظر السخاوي – الاعلان بالتوبيخ (طبعة روزنتال – الترجمة) ص ٥٢٧ .
(٣) ابن النديم – الفهرست ص ١٠٩ .
(٤) ابن الحنبلي – شذرات الذهب ج ١ ص ٣١٤ .
(٥) ابن عساكر – تاريخ دمشق (طبعة المنجد) ج ١ ص ٣٦١ – ٣٦٢ ، وص ٥٩٣ و٥٩٧ .

الشاميين في الرواية التاريخية :

ـ ابنه العباس بن الوليد ، شيخ الطبري وقد أخذ عنه هذا المؤرخ روايته لسيرة ابن اسحق .

ـ وسعيد بن عبد العزيز الذي روى عنه البلاذري أكثر فتوح الشام كفتح دمشق واليرموك .

ـ ويونس بن يزيد الذي روى مشاهد النبي عنه وعن الزهري ....

وثمة آخرون من غير تلاميذه منهم :

ـ ابن أبي السائب عبد العزيز بن الوليد بن سليمان من رجال ما بين القرنين الثاني والثالث وقد جاء ذكره لدى ابن عساكر في رواية أمور تتعلق بجامع دمشق وتاريخها(1) .

وأطلعت مدرسة الشام بعد الوليد بن مسلم عدداً من المؤرخين بين القرنين الثاني والثالث وفي هؤلاء بعض البارزين أو الهامّين ومنهم :

ـ أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى الغساني الدمشقي (ولد سنة ١٤٠/٧٥٧ وتوفي سنة ٢١٨/٨٣٣) . كان محدثاً ، عارفاً بالمغازي والأنساب. روى عن مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وروى عنه البخاري وغيره . اعتبره أحمد بن حنبل واحداً من أفضل محدثي عصره في دمشق . تمسك بعقيدته في عدم خلق القرآن فسجنه المأمون بين من سجن في هذا الأمر في بغداد حتى مات .

ـ أبو عبد الله محمد بن عائذ الدمشقي القرشي(2) (١٥٠/٧٦٧ـ٢٣٣/٨٤٧) وهو من الحفاظ المعروفين . كما كان من الكتاب وكان إليه النظر في خراج غوطة دمشق . روى عن الوليد بن مسلم وعن اسماعيل بن عياش وغيرهما .

---

(1) ابن عساكر المصدر السابق ج ٢ ص ٤٤ وص ٤٥ .

(2) انظر ابن حجر – التهذيب (ط. حيدر آباد ١٣٢٧) ج ٩ ص ٢٤٢ .

وصنف في المغازي والفتوح واهتم بما يتصل بالشام وأحداثها . أخذ عنه بقيّ بن مخلد راوية خليفة بن خياط كثيراً من المقتطفات فأضافها إلى تاريخ خليفة ومعظمها مما يتصل بغزو المسلمين للروم خلال العهد الأموي . وأخذ عنه كذلك فيما بعد ابن سيد الناس في سيرته[1] (عيون الأثر) ، كما أخذ الذهبي في تاريخ الإسلام . وفي الإصابة لابن حجر حوالى ١٧ قطعة مقتبسة عنه .

- أبو جعفر عبد الله محمد بن علي بن نفيل الحراني المتوفى سنة ٨٤٩/٢٣٤ ويعدّونه رابع أربعة من مشهوري الحفاظ في عصره . توفي عن سن عالية . ومع أن المصادر لا تذكر له مؤلفاً إلا أن دار الكتب الظاهرية بدمشق تحتفظ بمخطوط نادر له هو كتاب المغازي (رقم ٤٢) وفيه قطعة حسنة من السيرة .

- ابن سميع أبو القاسم محمود بن ابراهيم بن سميع الدمشقي (المتوفى سنة ٢٥٩) الحافظ وأحد الأثبات . سمع ابن أبي أويس وطبقته وقال عنه أبو حاتم ما رأيت بدمشق أكيس منه . وقد ألف : كتاب الطبقات في الصحابة والتابعين واقتبس عن هذا الكتاب كل من الذهبي في تاريخ الإسلام وابن حجر في الإصابة وفي تهذيب التهذيب[2] .

- الرملي موسى بن سهل بن قادم توفي في الرملة سنة ٨٧٤/٢٦١ وله كتاب من نزل فلسطين من الصحابة ذكره ياقوت في معجم البلدان وابن حجر في تهذيب التهذيب كما اقتبس منه ابن حجر في الإصابة[3] .

- علي بن مجاهد بن محمد بن علي من الرواة في القرن الثالث . ذكر المسعودي أنه من المشتغلين بالتاريخ وأنه صاحب الكتاب المعروف بأخبار

(١) انظر ابن سيد الناس : عيون الأثر في فنون المغازي والسير ص ٢٤٤ .

(٢) انظر الذهبي – تاريخ الإسلام ج ٣ ص ١٠٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ و ج ٤ ص ٥٢ وانظر ابن حجر الإصابة ج ١ ص ١٤٤ ، ١٥٢ ، ٣٤٣ ، ٣٥٠ وتهذيب التهذيب ج ٦ ص ١٣٩ – الخ. وانظر أخيراً ابن الحنبلي شذرات ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) انظر ياقوت – البلدان ج ١ ص ٧٠٩ وص ٧٢٩ و ٢ ص ٨١٩ وابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٣٤٧ وابن حجر – الإصابة ج ٢ ص ٢٦٥ .

الأمويين وغيرهم . وقد روى عن الشعبي كما روى عنه الطبري في خمسة وثلاثين موضعاً من تاريخه تمتد من رواية عن خلق آدم حتى زمن المنصور والمهدي ، مما يوحي بأن كتابه كان تاريخاً عاماً أو أنه ألف أكثر من كتاب في التاريخ .

ـ وأخيراً أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو بن صفوان النصري الدمشقي (المتوفى سنة ٢٨٠ أو ٨٩٤/٢٨١) ويمكن اعتباره آخر ممثلي مدرسة الشام في مراحلها الأولى . وكان شيخ الشام في وقته وقد اشتهر بالحديث وهذا ما طبع كتابه « التاريخ » بالطابع المعروف لمؤلفات المحدثين وتواريخهم ففيه سبعة عناوين تتعلق بسيرة الرسول والخلفاء والراشدين ثم يصبح الكتاب ذا طابع شامي يتحدث عن قضاة دمشق وفلسطين ومصر قبل أن يعطف مرة أخرى على وفيات الصحابة بالشام ثم بعض أخبار فاطمة وأزواج النبي . ثم من مات بالشام من التابعين والعلماء . ومن الكتاب نسخة مخطوطة في عشرة أجزاء في مكتبة محمد الفاتح (رقم ٤٢١٠) باستانبول .

ويمكن أن يضاف أخيراً إلى رجال المدرسة الشامية أولئك الكتاب الذين اهتموا بأخبار الأمويين ومنهم :

ـ أبو عبد الرحمن خالد بن هشام الأموي صاحب كتاب أخبار الأمويين ومناقبهم الذي أثنى عليه المسعودي[1] .

ـ وذلك المؤلف المجهول صاحب كتاب البراهين في إمامة الأمويين الذي كان في ٣٠٠ ورقة ورآه المسعودي في حوزة بعض موالي الأمويين في طبرية سنة ٣٢٤ ونقل موجزاً عما فيه في صفحتين[2] .

---

(١) انظر السخاوي ـ الاعلان (ط . روزنتال ـ الترجمة العربية) ص ٥٤٨ وص ٦٨٨ . والمسعودي مروج الذهب (ط. بلا) ج ١ ص ١٤ ـ ١٥ .

(٢) انظر المسعودي ـ التنبيه والاشراف ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

– وكذلك المؤلف المجهول الآخر الذي كتب كتاب : مغازي معاوية ونقل عنه البلاذري ، عن طريق عبد الله بن الوليد الدمشقي ، نصاً يتعلق بغزو معاوية للمصيصة [1] .

– سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي صاحب كتاب المغازي وقد نقل عنه ابن النديم بعض أخبار غزوة معاوية ابن أبي سفيان لدمشق [2] وقد ظهر في هذه المدرسة الشامية أيضاً بعض النسابين ومنهم :

– دغفل بن حنظلة النسابة الصحابي الذي استقدمه معاوية ليعلم ابنه يزيد ، وسأله عن أنساب العرب وأنساب قريش وعن النجوم وعن العربية [3] وسوف نعرض له في مدرسة اليمن .

– الأبرش الكلبي النسّابة التلاّبة ، صديق هشام بن عبد الملك الذي كان يصحبه قبل الخلافة ، وقد رووا عنه أنه كان حاضراً يوم أبلغ هشام بخلافته فسجد شكراً لله وسجد أصحابه إلا الأبرش فلما سأله قال : ولم أسجد ؟ وأنت اليوم معي ماشياً وغدا فوقي طائراً ... وقال هشام فإن طرت بك معي ، قال : الآن طاب السجود [4] .

وقبيلة كلب هذه التي ينسب اليها الأبرش أعطتنا أيضاً من رجال الشام النسابين عالمين من علماء النسب والأخبار هما :

– محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦ وابنه هشام بن محمد (المتوفى سنة ٢٠٤) وسوف نبحثهما فيما بعد . ونستطيع عند الاستقصاء أن نضيف آخرين من مثل منجاب بن الحارث وغيره [5] ، غير أن هذه المدرسة التاريخية

---

(١) انظر البلاذري – فتوح البلدان ج ١ ص ١٩٥ .
(٢) انظر ابن النديم – بغية الطلب (مخطوط احمد الثالث) ج ٨ الورقة ٢٠٩ وجه .
(٣) انظر ابن عساكر – تاريخ دمشق (تهذيب بدران) ج ٥ ص ٢٤٢ – ٢٤٣ وانظر ابن عساكر أيضاً الكتاب نفسه مخطوط الظاهرية الجزء ٦ (رقم ٣٤٥٠) الورقة ٤٧ وجه .
(٤) تروى الحكاية ذاتها تقريباً عن عبد الحميد الكاتب مع مروان بن محمد .
(٥) انظر ابن النديم – الفهرست ص ٩١ (خلال خبر عوانة بن الحكم) .

سرعان ما لتختنق تطورها وانقطعت بزوال الخلافة الأموية عن دمشق وتركز النشاط السياسي والثقافي في حوض الرافدين. فلم يكتمل نموها ولا تبلور رجالها ومقوماتها. ومعظم علمائها الذين ذكرناهم، يضمون في العادة إلى رجال المدرستين الأخريين خاصة في المدينة والعراق.

على أن لنا أن نلاحظ هنا أن مدرسة الشام اتجهت منذ أواخر القرن الثاني وخلال القرن الثالث في اتجاهين:

أحدهما رواية التاريخ الأموي ومناقب الأمويين وكان ذلك صدى جوها السياسي العام وبأقلام الأمويين أو المتعصبين لهم. ومن هؤلاء وهؤلاء: سعيد بن يحيى؛ وخالد بن هشام. ومؤرخون مجهولون آخرون منهم المؤلفان المجهولان اللذان كتبا كتاب البراهين في إمامة الأمويين ومغازي معاوية.

الثاني: رواية المغازي وفي ذلك بعض الصدى الديني كما أن فيه ظلاً من الرفض للعباسيين بإثبات أعمال الرسول تجاه أعمالهم. وفي هذا الباب يأتي العديدون الذين كان منهم: النفيلي الحراني، وابن عائذ وأخيراً أبو زرعة.

على أن هذين الاتجاهين سوف يضمران منذ القرن الرابع ليظهر بدلاً منهما اللون المحلي في التدوين التاريخي، وتظهر مدرسة الشام الاقليمية على أيدي مؤرخين يهتمون بأخبار العلماء المحليين ومحدثي المدن الشامية وبأخبار هذه المدن.

وبالرغم من أن مدرسة الشام لم تنل أي عناية من الدارسين بعد؛ ولم يبرز أحد دورها في نشأة علم التاريخ في الإسلام الا أننا نستطيع مع ذلك أن نسجل لها السبق في ثلاثة أمور أساسية:

١) أنها، منذ البدء، كانت أوسع نظرة إلى التاريخ وقيمته وقد توجه اهتمامها إلى الحدث التاريخي العام (الفتوح والمغازي وأحداث الجاهلية) ولم تتوقف عند بعض المواضيع الخاصة كالوقوف عند المغازي النبوية فقط أو الأيام والأنساب).

٢) إن أول تدوين تاريخي معروف في الإسلام كان في دمشق وبأمر من معاوية حين استقدم عبيد بن شرية اليه وسأله عن أخبار الأمم وأمر الكتبة أن يدونوا أقواله وأن تنسب اليه . فكان من ذلك في الأرجح كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين وربما ترجمت قبل ذلك أو معه بعض تواريخ الروم والفرس وجمعت في دفاتر .

٣) ان علم التاريخ أخذ اسمه هذا على يد أحد رجال هذه المدرسة : عوانة بن الحكم لأنه صاحب أول كتاب نعرفه يحمل هذا الاسم .

مدرسة اليمـــن :

من أسباب ظهورها ذلك التنافس القديم بين عرب الجنوب العريقين في التوطن الحضاري وبين عرب الشمال الذين صاروا بعد الإسلام حديثي نعمة وحكم وحضارة . ونفس عليهم الجنوبيون ما صاروا اليه من المجد فجعلوا يلهجون بسابق مجد اليمن . يضاف إلى ذلك الرغبة في اثبات الوجود اليمني بجانب القيسي الشمالي في العهد الأموي . وبعض الاشارات القرآنية إلى اليمن التي تحتاج إلى التفسير . ورغبة الموالي في معرفة كافة الجوانب من تاريخ العرب .

ومما يؤسف له أن هذه المدرسة قد أخذت منذ نشأتها على يد كعب الأحبار المنهج القصصي والأسطوري وسحبت نماذج تاريخ العرب الشماليين — وهو في جلوره قبلي — على اليمنيين الجنوبيين وهم ذوو حضارة زراعية تجارية مستقرة ، فأدخلت على التاريخ العربي الكثير من الزيف والخيال بينما أهملت النصوص المكتوبة : زُبراً على الحجر أو في سجلات الأقوام وذاكرة الواعين . ولا شك أن أسباباً جغرافية وسياسية واجتماعية عديدة هي المسؤولة عن ذلك التشويه الذي لم ينهض لتصحيحه الا مؤرخ متأخر هو الهمداني . فان انصراف العرب بعد الفتح نحو الشمال (الشام ومصر والعراق وخراسان) ونزوح اليمنيين أنفسهم مع النازحين إلى ديار هجرة جديدة واحتلال الخليج العربي المكان التجاري البحري الأول . عزل اليمن وقلل من الاهتمام بها وجعل

أخبارها نادرة وغير مستقاة من الموارد الأصيلة الصحيحة . وترك لنا في النتيجة « روايات ضئيلة القيمة خالية من الفكرة التاريخية » منسوجة على غرار أيام العرب الشماليين وأخبار تنظيمهم القبلي ، نحلت اليمنيين أياماً وأنساباً وفتوحات لا ظل لها من الواقع . ويمثل هذه المدرسة :

– كعب الأحبار المتوفى سنة ٣٥ هـ : وقد أسلم زمن أبي بكر ونصب نفسه بعد ذلك راوية لأخبار أهل الكتاب والأنبياء وتاريخ اليمن .

– دَغفل بن حنظلة السدوسي الشيباني : وهو من مشاهير علماء النسب في أواخر العهد الجاهلي وعلماء النجوم . أدرك النبي ولم يسمع منه ويبدو أن العمر امتد به بعد ذلك حتى أدرك معاوية أيضاً . ويروي صاحب المحبر أن معاوية ضم دغفلاً النسابة إلى يزيد ابنه معلماً »[1] ... وقيل إنه سأله : بم نلت هذا يا دغفل ؟ فقال : بقلب عقول ولسان سؤول ... قال معاوية إذهب إلى يزيد فعلمه النسب والنجوم...

وقد تناقل تلاميذ دغفل في اليمن معلوماته جيلين على الأقل أو ثلاثة ، وكان من هؤلاء التلاميذ في أواخر القرن الثاني الهجري رجل من مهرة يسمى عمرو بن مالك الشحري الذي يروى أن الرشيد استدعاه من اليمن ليسمع منه وطلب إليه تسجيل « السيرة » التي رواها عن دغفل . وفي مكتبة الأمبروزيانا في إيطاليا (تحت رقم G ٣) مخطوط من ٦٦ ورقة بعنوان « السيرة برواية الشحري » يروي في مطلعه قصة استدعاء الرشيد وسماعه منه وتسجيله بناء على طلب الخليفة ، ذلك الكتاب الذي يحوي قصص أخبار العرب القديمة وحروبها وأمر عاد وثمود وعدنان وقحطان ومن خانه من الأبناء والملوك في بلاد اليمن .

ويقول في مقدمة الكتاب : « هذا كتاب فيه قصص العرب السالفة وما كان في أعصارهم من الأمم المنقرضة وما آثرت علماء العرب في مغازيهم

---

(١) ابن حبيب – المحبر (ط. ليختن شتيتر – بيروت) ص ٤٧٨ والسويدي – سبائك الذهب ص٦ .

وحروبهم وقصصهم وأخبارهم ومـا كان من مبعث النبي » ... ولكن المخطوط لا يحوي قصة المبعث وفي آخره جملة « تمّ الجزء الأول من كتاب السيرة عن دغفل الشيباني » مما يجزم بأنه قطعة من كتاب دغفل. ولسنا نجد مما روي من سيرة الرسول لدى الطبري سوى جملة تتعلق بعمر الرسول وأنه توفي وله خمس وستون سنة [1] .

— ابن مفرغ الحميري أبو عثمان يزيد بن ربيعة بن مفرغ (المتوفى سنة ٦٩) وكان من مشهوري العارفين بأخبار التابعة . ويذكر صاحب الأغاني[2] ان يزيد بن معاوية هو الذي استدعاه من اليمن « ... ولما تخلصه من عباد بن زياد ، أنزله الجزيرة . وكان مقيماً (منها) برأس عين (عند منابع نهر بليخ) وزعم أنه من حمير ووضع سيرة تُبّع وأشعاره ... »

— عبيد بن شرية الجرهمي : المتوفى في خلافة عبد الملك بن مروان . وهو مشترك النشاط بين مدرستي الشام واليمن .

— محمد بن كعب القرظي (المتوفى سنة ١٠٨ أو ١١٧ هـ) : وهو من مسلمة اليهود . ولد في الكوفة ونشأ بها ثم سكن المدينة . وقد عرف بالعلم والثقة . وقد اهتم بأخبار اليمن وروى الكثير منها . وربما كان لدينه السابق أثر في هذا الاهتمام الذي ربطه بمدرسة اليمن التاريخية . وقد روى عنه الطبري بعض أخبار اليمن والأنبياء ويهود الحجاز .

— وهب بن منبه الذماري اليمني المولود سنة ٣٤ والمتوفى غالباً سنة ١١٤ : وهو يماني فارسي الأصل من « الأبناء » فأبوه منبه من هراة في خراسان كان في جيش كسرى لنصرة سيف بن ذي يزن : وقد أسلم زمن النبي وولد ابنه وهب سنة ٣٤ هـ . في ذمار قرب صنعاء ونشأ في اليمن على الزهد وقراءة قصص الأنبياء ورواية القصص التاريخي عن اليمن حتى التصق ذكر القصص

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٢١٦ (١/١٨٣٥) .

(٢) الاصبهاني – الأغاني ج ١٨ ص ٢٥٥ .

باسمه لدى المؤرخين في نوع من الغمز لقيمة مروياته ومعارفه التاريخية والدينية . فهو لدى ياقوت « الاخباري صاحب القصص » ولدى ابن خلكان « صاحب الأخبار والقصص » ولدى الذهبي « كان إخبارياً علامة قاصاً » . ولكنه في كل الأحوال يعتبر من طبقة التابعين .

ويبدو أنه ثقف نفسه ثقافة واسعة بكتب الأديان وببعض الأفكار الفلسفية الاغريقية والمسيحية . كما عرف اللغة العبرية والسريانية وحفظ الكثير مما يتصل بالنبوات ، وكان يرويها رواية . وعن طريق ما سجل من روايته عرفنا مساهمته التاريخية والمادة التي قدمها للتاريخ الإسلامي . وقد عني بنقل تلك المرويات وتنظيمها ونشرها جماعة من أهل وهب ، ظلت تعمل في اليمن على تسجيل وتشذيب مروياته والزيادة فيها أكثر من جيلين . وكونت له مدرسة كاملة مستمرة . كان من أركانها : أبو الياس ، مولى وهب ، ثم عبد المنعم بن ادريس المتوفى سنة ٢٢٨ وهو سبطه (ابن بنته) ثم اسماعيل بن عبد الكريم بن عبد الكريم بن عبد الصمد بن معقل (شقيق وهب) المتوفى سنة ٢١٠ هـ .

وقد رويت عن وهب بن منبه « المغازي » النبوية رواها على طريقته مما يدخله في مدرسة المدينة التاريخية وسوف نعرض له هناك . ولكن له كذلك مشاركة واضحة في رواية وتدوين فروع ثلاثة أخرى من فروع التاريخ :

– قصص الأنبياء السابقين مما يدعى أحياناً بالاسرائيليات وقد روي عنه أنه وضع كتاب : المبدأ أو المبتدأ ، وهو في مبدأ الخلق وسير الأنبياء . وهو بذلك أول من وضع الهيكل القصصي لتاريخ العالم على أساس سلسلة الرسل والنبـــوات . .

– تاريخ اليمن القديم ، وقد روى عنه فيه (عن طريق اسماعيل) كتاب « الملوك المتوّجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم » وهو كتاب قصصي أدبي تاريخي يمتلىء بالشعر وبالأساطير اليمانية الشعبية . ويظهر اليمن بمظهر السابقة في التوحيد وفي الشعر والفتوح والأدب والصنعة . والكتاب

مطبوع (حيدر آباد سنة ١٣٥٧ في ٣١٠ صفحات) بعنوان التيجان لمعرفة ملوك الزمان مع كتاب أخبار عبيد بن شرية .

– تاريخ الفتوح. وصاحب كشف الظنون[1] ينسب إليه : كتاب الفتوح، فإن صح كانت له مشاركته في هذا الموضوع الإسلامي الهام أيضاً .

ولكن مدرسة ابن منبه ماتت رغم جهود أصحابها وان بقيت منها في السيرة وفي كتب التاريخ روايات وأخبار كثيرة [2] ولعل آخر ممثل لها هو :

– الحميري : أبو محمد عبد الملك هشام بن أيوب الحميري المتوفى سنة ٢١٣ أو سنة ٢١٨ هـ . وهو صاحب كتاب (التيجان في ملوك حمير) وضعه عا أساس كتاب وهب بن منبه في هذا الموضوع ثم أضاف اليه مواد جديدة أخذها من مؤلفات أخرى كمؤلفات محمد بن السائب الكلبي وأبي مخنف وزياد ابن عبد الله بن الطفيل العامري الكوفي المعروف بالبكائي راوية ابن اسحق .

وحصيلة ما قدمته هذه المدرسة من ابن منبه إلى ابن شرية ، أنها وضعت الخطوط الأولى لمدرسة تاريخية اقليمية خاصة باليمن وأنها وجهت الأنظار إلى هذا التاريخ اليمني الخاص وأقامته على قدميه . ورغم احتوائها على أساطير ومخترعات كثيرة سخيفة سخفاً أشار اليه ابن خلدون [3] من قبل ، إلا أنها مع ذلك دخلت بما حوت في التاريخ العربي واندمجت فيه ؛ وأعطت تاريخ اليمن السابق للاسلام شكل الخرافات والمواعظ .

مدرسة فارس :

فقد قام عليها الفرس - من الموالي المسلمين ومن غير المسلمين على السواء

---

(١) كشف الظنون ج ٢ عمود ١٢٤٠ .

(٢) راجع تحليلا هاماً تفصيلياً لعمل وهب بن منبه لدى الدوري – نشأة علم التاريخ ص ١٠٢ – ١١٢ .

(٣) ابن خلدون – العبر ج ١ ص ١٣ – ١٤ .

فعملوا في نوع من اثبات الوجود القومي والعلمي على كتابة التاريخ الفارسي باللغة العربية ، ترجمةً تارة عن الكتب الفارسية وتأليفاً تارة أخرى .

وقد يكون للشعوبية التأثير الأول في ظهور المدرسة التي نقلت إلى العربية صورة من تاريخ الفرس العريق ، أخلعت أحياناً أزهى الألوان ولكن ما من شك في أن بعض الجهود التي بذلت في هذا السبيل كانت نتيجة الرغبة العلمية في المعرفة . ولما كان العراق مكان التقاء الموالي الفرس مع العرب بجانب كونه مركز الحكومة والتمازج الثقافي ، فقد كان مركز هذه المدرسة التاريخية في هذا الاقليم خاصة لا في ايران نفسها حيث لم تكن اللغة العربية شائعة ولا حاجة بالمقابل إلى كتب التاريخ بالعربية مع توفرها بالفارسية .

وممثلو هذه المدرسة كثيرون . كانوا جمهرة واسعة ومن أقدمهم وأهمهم :

— أبو سليمان يونس الكاتب بن سليمان بن كرد بن شهريار (المتوفى بعد سنة ٧٥٠/١٣٢) .

وهو من كتاب العهد الأموي . دعي إلى بلاط الوليد الثاني بن يزيد سنة ٧٤٣/١٢٥ وقد وضع أول كتاب جامع نعرفه لشعر الغناء العربي كما وضع عدداً من الكتب في الغناء لأنه كان فيما يبدو من البارزين في هذا النوع من المعرفة . وله فيها :

كتاب القيان ، المفقود ، وكتاب مجرد يونس اللذي كان أحد مصادر الأصبهاني في كتاب الأغاني وقد أخذ الكثير عنه [1] ... وله أيضاً كتاب النغم .

---

(١) انظر الأصبهاني — الأغاني ج ١ ص ٢٢ ، ٩٠ ، ٩٨ وج ٢ ص ٦٣ ، ٧٥ وج ٤ ص ١٠١ وج ٥ ص ٣٦ ، ٤٩ ، ١٧٥ وج ٦ ص ٧ و ١٠ وج ٧ ص ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٧٤ —

– مجهول لا نعرف شيئاً عنه ولكنه بكل تأكيد من كبار الفرس أو من فنانيهم البارزين الأثرياء أو لعله جبلة بن سالم كاتب هشام نقل سنة ١١٣ هـ/ ٧٣١ « من الفارسية إلى العربية لهشام بن عبد الملك مما وجد في خزائن ملوك فارس » « كتاباً عظيماً – حسب كلمات المسعودي – يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياساتهم لم أجدها في شيء من كتب الفرس كخداي نامه وآئين نامه وكهنامه وغيرها » . ولعل من الطريف والهامّ معاً أن نتابع وصف هذا المؤلف مع المسعودي الذي رأى هذا الكتاب في اصطخر عند « بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس » ... « مصوراً فيه ملوك الفرس من آل ساسان سبعة وعشرون ملكاً منهم خمسة وعشرون رجلاً وامرأتان قد صور الواحد منهم يوم مات ، شيخاً كان أو شاباً وحليته وتاجه ومخط لحيته وصورة وجهه ... وأنهم ملكوا الأرض أربعمائة سنة وثلاثاً وثلاثين سنة وشهراً وسبعة أيام . وأنهم كانوا إذا مات ملك من ملوكهم صوروه على هيئته ورفعوه إلى الخزائن كي لا يخفى على الحي منهم صفة الميت . وصورة كل ملك كان في حرب قائماً وكل من كان في أمر جالساً وسيرة كل واحد في خواصه وعوامه وما حدث في ملكه من الكوائن العظيمة والأحداث الجليلة » ... « فكان أول ملوكهم أزدشير شعاره في صورته أحمر مُدَنَّر وسراويله لون السماء وتاجه أخضر في ذهب . بيده رمح وهو قائم . وآخرهم يزدجرد بن شهريار شعاره أخضر موشى وسراويله موشى لون السماء وتاجه أحمر قائم بيده رمح معتمد على سيفه بأنواع الأصباغ العجيبة التي لا يوجد مثلها في هذا الوقت . والذهب والفضة المحلولين . وغاسه محكوك والورق فرفيري عجيب الصبغ فلا أدري أورق هو أم رق لحسنه واتقان صنعته »[1] ...

ولا يبدو أن هذا الكتاب الملكي قد وضع موضع التداول أو نقل أحد عنه شيئاً ...

---

(١) المسعودي – التنبيه والإشراف ص ٩٢ – ٩٣ .

– عبد الله بن المقفع (قتل سنة ١٤٢ / ٧٦٠ وقيل سنة ١٤٣ أو ١٤٥) وقد نشأ بالبصرة لأب فارسي وظل على الزرادشتية حتى ما قبل مقتله بسنوات معدودة . وكان عمله الأدبي أوضح وأبقى من عمله التاريخي الذي اقتصر على ترجمة أهم كتب الفرس التاريخية .

– الهيثم بن عدي (المتوفى سنة ٢٠٦) الذي كتب كتاب أخبار الفرس وسوف نعرض له فيما بعد مع رجال مدرسة العراق ، كما نعرض أيضاً لمعاصره وهو :

– أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١١) صاحب كتاب فضائل الفرس ، وكتاب أخبار الفرس .

– أبان بن عبد الحميد الرقاشي ، المعروف باللاحقي (توفي أواخر القرن الثاني) وهو شاعر مجيد ؛ نقل إلى العربية سيرتي أنو شروان وأزدشير وعدداً من القصص [1] ونظم كليلة ودمنة شعراً في أربعة عشر ألف بيت وأهداه إلى جعفر البرمكي فوهبه مائة ألف درهم [2] .

– البلاذري أبو جعفر أحمد بن يحيى (المتوفى سنة ٢٧٩)وهو من كبار المؤرخين وسوف نعود اليه في مدرسة العراق . وكان أحد النقلة من الفارسي إلى اللسان العربي وقد ترجم عهد أزدشير شعراً .

اتجه أعضاء هذه المجموعة خاصة إلى الترجمة عن كتب التاريخ الفارسي لأنهم وجدوا في عصر الترجمة ، ولأن هذه المعارف التاريخية القديمة مما لا مجال للابتكار فيه . ولا بد لها كي تكسب ثقة الناس بها من سند مكتوب سابق ولأن المثقفين من الفرس أرادوا اثبات وجود بعض العلوم كالتاريخ لديهم كغيرهم ممن ترجم عنهم العلوم . وبهذا الشكل دخلت إلى اللغة العربية مادة تاريخية كثيرة كانت تحويها كتب فارسية شتى . ومن أمثلة ذلك :

---

(١) أنظر ابن النديم – الفهرست ص ١١٩ – ١٦٣ .

(٢) انظر الجهشياري – الوزراء والكتاب ص ٢١١ .

١) ترجمات خداي نامه ... فقد ترجمه أبن المقفع (المتوفى سنة ١٤٤/ ٧٦٠) من الفهلوية وسماه كتاب سير الملوك كما ترجمه كثير غيره مع اضافات وأساطير نقلت من كتب أخرى. وقد عد حمزة الأصفهاني سبع ترجمات له ، كما ذكر وجود عشرين نسخة مختلفة منه [١] .

٢) وترجم ابن المقفع كتاب الآين نامغ وهو كتاب المراسم والتقاليد في البلاط الفارسي ، كما ترجمه الجيهاني وزاد عليه .

ويظهر أن هذه الترجمات لكتاب آيين نامه كانت ترجمات جزئية . فإن المسعودي يذكر الكتاب فيقول : « ... تفسير آيين ناماه : كتاب الرسوم وهو عظيم في الألوف من الأوراق . لا يكاد يوجد كاملاً إلا عند الموابذة وغيرهم من ذوي الرئاسات » [٢] ...

٣) وترجم اسحق بن يزيد عن الفارسية كتاب الاختيار نامه وهو الذي عرف بكتاب سيرة الفرس [٣] .

---

(١) انظر حمزة الاصفهاني – تاريخ سني ملوك الأرض ص ١٤ حيث يعدد منها ، هذا ترجمة ابن المقفع الترجمات التالية : « كتاب سير ملوك الفرس من نقل محمد بن الجهم البرمكي ، وكتاب تاريخ ملوك الفرس المستخرج من خزانة المأمون ، وكتاب سير ملوك الفرس من نقل زادويه ابن شاهويه الاصبهاني وكتاب سير ملوك الفرس من نقل أو جمع محمد بن بهرام بن مطيار الأصبهاني وكتاب تاريخ ملوك ساسان من نقل أو جمع هشام بن قاسم الأصبهاني ، وكتاب تاريخ ملوك بني ساسان من إصلاح بهرام بن مردانشاه موبذكورة شابور من بلاد فارس – فلما اجتمعت لي هذه النسخ ضربت بعضها في بعض » وهو يذكر أن الترجمات تحت يده ثمان . ولكنه يعد منها سبعاً فقط . وهؤلاء المترجمون كانوا جميعاً من العاملين في إطار المدرسة التاريخية الفارسية . وأما الذي ذكر أن لخداي نامه عشرين نسخة مختلفة فهو بهرام الموبذاني بن مرادنشاه (انظر كتاب حمزة نفسه ص ٢٦) وقد ذكر البيروني ست نسخ لترجمة خداي نامه منها اثنتان لمترجمين لم يعرفهما حمزة هما : بهرام بن مهران الاصبهاني ، وبهرام المروي المجوسي (انظر الآثار الباقية ص ٩٩) .

(٢) المسعودي – التنبيه والإشراف ص ٩١ .

(٣) ابن النديم – الفهرست ص ٢٤٥ .

٤) وكتاب الكاه نامغ أي سجل العظماء (أو طبقات الكبار) وهو – كما يذكرون – في سيرة أنو شروان ، وقد ترجم هذه السيرة كل من ابن المقفع (بعنوان كتاب التاج) وأبان اللاحقي الشاعر الذي ترجم أيضاً سيرة أزدشير. على أن المسعودي يوضح بأن هذا الكتاب كهنامه هو من جملة آئين ناماه « وهو في مراتب مملكة فارس وأنها ست مائة مرتبة على حسب ترتيبهم لهـــا » ...

٥) كما ترجمت قصص تاريخية من التاريخ الساساني مثل (مزدك نامغ) و (بهرام جوبين نامغ) وقد ترجم الأول ابن المقفع نفسه نثراً وحوّله اللاحقي شعراً. أما الثاني فترجمه جبلة بن سالم وترجم معه كتاب رستم واسفنديـــار .

٦) وترجمت كذلك قصص شعبية مثل ... بهرام ونرسي وشهربزاد مع أبرويز وكتاب دارا والصنم الذهب [1] ... وسيرة نامه التي ألفها حداهود ابن فرخزاد وهي كتاب الأخبار والأحاديث .

٧) ومما ترجم أيضاً على ما تكشفه المقتطفات كتاب الكارنامج وهو فيما يروي المسعودي لأزدشير بن بابك « فيه ذكر أخباره وحروبه ومسيره في الأرض وسيره » وينقل عنه شيئاً مما حفظ من وصية أزدشير لابنه سابور، حين نصبه إياه للملك « وشيئاً » مما حفظ من مكاتبة أزدشير لخواص من أنواع رعيته وعماله « [2] ...

ويبدو أن بعض الفرس الإيرانيين كانوا يطلبون أخبار فارس في كتبهم ثم يروونها للناس وقد تخصص بعضهم بذلك وعرف به.ومن هؤلاء « ... عمر المعروف بكسرى وكان هذا الرجل ممن اشتهر بعلم فارس وأخبار ملوكها

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص ٣٠٥ و ٣١٥ – ٣١٦ .
(٢) المسعودي – مروج الذهب (ط. بلا) ج ١ ص ٢٨٩ .

حتى لقب بعمر كسرى »[1] ... وعن هذا الرجل نقل أبو عبيدة معمر بن المثنى الكثير من الأخبار الفارسية التي أوردها. ويظهر من بعض ما ذكره المسعودي أنه روى كتابه في أخبار الفرس كله عن عمر[2]. وأن هذا الكتاب « يصف ... طبقات ملوكهم ممن سلف وخلف. وأخبارهم وخطبهم وتشعب أنسابهم ووصف ما بنوه من المدن وكوروا من الكور واحتفروا من الأنهار وأهل البيوتات منهم وما وسم به كل فريق منهم من الشهارجة وغيرهم » ... وينقل المسعودي عن هذا الكتاب عدة مرات بعض أخبار الملوك وطبقات الفرس.

أما في ميدان التأليف فلم يكن النشاط كبيراً في الفترة الأولى على الأقل. ومع ذلك فقد وضعت مؤلفات في تاريخ الفرس مثل كتابي الهيثم بن عدي، كتاب في أخبار الفرس، وكتاب تاريخ العجم ومثل كتاب عبد الملك بن قريب الأصمعي (المتوفى سنة ٢١٤) واسمه : نهاية الأرب في أخبار الفرس والعرب (ولا يزال منه مخطوط في المتحف البريطاني رقم ٩٠٤ ، ١٢٧٣) وهذه الكتب تعتمد على تلك التراجم والأساطير الموجودة في كتب الفرس ويلتقي بها الخيالي من الأخبار مع الواقعي ، ويختلط النسب الموهوم في الغالب مع بعض أخبار الاسكندر وبعض الأساطير الدينية . وفي هذا المجال لعب الدور الأول كتابان مقدسان هما :

ـ الآفستا ، كتاب زارادشت المقدس (والزند = التفسير) وقد اعتمد عليه بعض المؤلفين مثل حمزة الأصبهاني[3] .

ـ كتاب ماني المعروف بالشابورقان ، « وهو من بين كتب الفرس معول ، على عقب خروج أزدشير وماني ممن يدين بتحريم الكذب. وليس به

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٤ و ص ٣٢٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٦ وص ٣٢٤ .
(٣) حمزة الاصبهاني – تاريخ سني ملوك الأرض ص ٥٦ .

حاجة إلى اتصال التاريخ » وقد شهد بذلك البيروني الذي نقل عنه [1] .

– ثم كتاب ثالث هو : كتاب السكيسران ، وقد ذكر المسعودي أن ابن المقفع ترجمه من الفارسية إلى العربية وذكر أن فيه أخبار الملك فراسياب وظهور خلفه زو بن تهماسف عليه « وكيفية قتله وحروبه وما كان بين الفرس والترك من الحروب والغارات وما كان من قتل سياوخس وخبر رستم بن دستان ، فهذا كله موجود مشروح في الكتاب المترجم بالسكيسران .... وفيه خبر اسفنديار بن بستاسف ... وقتل رستم بن دستان له وما كان من قتل بهمن بن اسفنديار لرستم وغير ذلك من عجائب الفرس الأولى وأخبارها » ... ويضيف المسعودي قائلاً « ... وهذا كتاب تعظمه الفرس لما قد تضمن من أخبار أسلافهم وسير ملوكهم » [2] ...

ومن الملاحظ أنه كثيراً ما كان فراغ بعض الكتب المؤلفة ،من المادة، يُسد إما بالأدب السياسي وإيراد الحكم والأمثال التي شاعت كثيراً وتسربت إلى الكتب العربية وإما بالانشاء والبلاغة . ولو شئنا أن نقبل كتب الأدب السياسي ضمن الكتب التاريخية لوجدنا منها عدداً واضحاً من المؤلفات المتأثرة بالفكر السياسي الفارسي والآخذة عنه،ومن ذلك أعمال ابن المقفع فان له عدا ترجمة كليلة ودمنة : رسالة الصحابة التي وضعها كتقرير سياسي شامل لعصره في صورة مذكرة مقدمة للخليفة المنصور وكتب الأدب الكبير والأدب الصغير . ووجدنا كذلك في آداب السلطان والسياسة :

– أربعة مؤلفات أو ثلاثة كتبها أبو الفرج أحمد بن الطيب السرخسي هي : كتاب السياسة الكبير والسياسة الصغير وكتاب أدب الملوك (بجانب كتاب آخر في المسالك والممالك) .

– ثلاثة مؤلفات لجعفر بن أحمد المروزي باسم كتاب الآداب الكبير

(١) البيروني – الآثار الباقية ص ١١٨ .

(٢) المسعودي – مروج الذهب (ط . بلا) ج ١ ص ٢٦٧ .

وكتاب الآداب الصغير ، وكتاب تاريخ القرآن لتأييد كتب السلطان .

– ثلاثة كتب لأبي زيد البلخي هي : السياسة الكبير والسياسة الصغير ، واختيارات السير .

– كتابين الكندي هما : الرسالة الكبرى في السياسة ، رسالة في سياسة العـامة .

– كتابين الثعلبي هما : أخلاق الملوك وأدب الملوك .

وكتباً أخرى كثيرة منها :

– الكتاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء : لمحمد بن داود الجراح .

– آداب السلطان ، المدائني .

– سياسة الملوك ، لأبي دلف العجلي .

– رسالة في السياسة الملوكية ، لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر .

– تدبير الملك والسياسة ، لسهل بن هارون .

وكافة هذه الكتب متصل اتصالاً وثيقـاً لا بالثقافة الفارسية السياسية فقط ولكن بالتاريخ الفارسي أيضاً .

وثمة باب آخر طرقه المؤلفون من الفرس يطل بدوره على التاريخ هو باب الأنساب والمثالب من جهة والفضائل والمناقب من جهة أخرى . وقد ألف في الموضوعين كتب كثيرة جداً بعضها في مثالب العرب وقباائهم ، وبعض في مثالب الفرس ، كما ألف في فضائل الطرفين . ومن أبرز من ألف في المثالب خاصة : علان الشعوبي الذي عاصر الرشيد والمأمون فانه لم يدع قبيلة من قبائل العرب إلا كتب مثالبها قبيلة قبيلة وفضحها في كتابه الواسع : كتاب المثالب . وكتب في المواضيع نفسها أبو عبيدة والهيثم بن عدي والجمحي [1] فقابلهم بعض

(١) انظر قائمة كتب ابي عبيدة والهيثم بن عدي وعلان الشعوبي وغيرهم لدى ابن النديم .

المؤلفين الآخرين – ومنهم بعض الفرس – برواية مثالب الفرس ومصارع فرسانهم . كما كتبوا في أنساب الفرس مثل كتاب جمهرة أنساب الفرس لابن خرداذبة . وهذه التآليف وان كانت في جذورها تستقي دوافعها من المعركة الشعوبية إلا أنها بدورها أتت بجديد إلى التاريخ والتدوين التاريخي ، من ماضي العرب والفرس على السواء وكانت مع كتب الأدب السياسي وعناصر تاريخ الفرس احد الروافد الواضحة في المادة التاريخية التي حواها التاريخ العربي .

وبالرغم من أن مدرسة التاريخ الفارسية قد امتزجت بمدرسة العراق وأسهمت في نموها وكان بعض رجالها مشتركين بين المدرستين إلا أن الفارسية لم تمت كما ماتت مدرسة الشام أو مدرسة اليمن تحت وطأة بغداد والمدرسة العراقية . ولو تتبعنا تطورها خلال القرن الرابع لوجدنا أنها أخرجت بعض الممثلين البارزين من المؤرخين ، كما أنه لم يأت نهاية ذلك القرن حتى كانت تسهم مع غيرها من العوامل في نهضة الأدب الفارسي القومي والتاريخ القومي الذي تمثل خاصة في الشاهنامة ، فكأنما كانت كتابة الفرس بالعربية مجرد طور عرضي أو لون عابر من ألوان أدبهم وتدوينهم التاريخي ما لبثوا أن عادوا تدريجياً عنه ، وبعد أن كتبوا في القرون : من الثاني إلى الرابع بالعربية فقط تقريباً ثم كتبوا قرنين تاليين بلغة ثنائية (عربية وفارسية) أخذوا منذ القرن السابع يكتبون من جديد باللغة الفارسية خاصة دون أن يهملوا العربية – لغة الدين الإسلامي – تمام الاهمال .

الفصل الرابع

المدارس الكبرى

أولا : مدرسة المدينة[1]:

استأثر الاهتمام الإسلامي بهذه المدرسة ولعل السبب في ذلك أن المدينة كانت عاصمة الرسول والخلفاء الأول من بعده ومركز مجمع الصحابة والبلد الأساسي للدين الجديد صاحب الدولة والفتوح . وحين احتاج المسلمون في أنحاء البلاد إلى معرفة أوسع بالدين وصاحب الرسالة وبالأحكام والحديث والسنن والتفسير وأحاديث الدعوة الإسلامية الأولى وتفاصيل الهجرة والمغازي ... توجهوا أول ما توجهوا إلى من يظنون به تلك المعرفة . وتصدى لايضاح ذلك بالمقابل : أبناء الصحابة أنفسهم خاصة ومنهم المجموعة الأولى ...

وقبل أن نتحدث عن هذه المجموعة لا بد أن نشير إلى مؤسس المدرسة العلمية لمختلف فروع العلم في المدينة :

(١) للتوسع في أمر مدرسة المدينة التاريخية يمكن مراجعة كتاب المغازي الأولى من تأليف هوروفتش (ترجمة حسين نصار) وكتاب نشأة علم التاريخ عند العرب الدكتور الدوري الذي نجد فيه أيضاً الحديث الوافي الواسع عن مدرسة العراق . وقد اعتمدنا الكتابين في كثير من نقاط الحديث عن المدرستين .

عبد الله بن العباس : (ولد قبل وفاة الرسول بثلاث عشرة سنة وتوفي سنة ٧٨ بالطائف) وكان أبرز فقهاء المدينة ، وأوسعهم اطلاعاً وعلماً وكان يسمى البحر لا لكثرة علمه في الفقه فحسب ولكن في الأخبار الماضية أيضاً والنسب ، بجانب الشعر واللغة وتفسير القرآن والحساب والفرائض . روى ابن سعد في الطبقات أنه : « كان يجلس يوماً ما يذكر فيه إلا الفقه ويوماً التأويل ويوماً المغازي ، ويوماً الشعر ويوماً أيام العرب »[1] . ويروى عن عطاء بن أبي رباح أحد تلاميذه قوله : « كان أناس يأتون ابن عباس للشعر وناس للأنساب وناس لأيام العرب ووقائعها فما منهم من صنف إلا يقبل عليه بما يشاء » . . . ولعل مكانة ابن عباس في الرواية التاريخية انما تتضح في ما رواه عنه الطبري في تاريخه ، فقد ورد اسمه ٢٨٦ مرة عنده ، في ذلك التاريخ . ولا نكاد نقرأ فصلاً من فصول الطبري إلى الجزء الخامس خاصة إلا وجدنا فيه قولاً أو أكثر لابن عباس في الشعوب العربية البائدة أو الاسرائيليات أو المغازي . وكثير من المؤرخين الآخرين أخذوا قليلاً أو كثيراً من هذه الأمور عنه . ولعلهم تزيدوا في الكثير من أقواله حتى لنجد الكثير من التناقض بين الروايات المروية عنه .

ولم يترك عبد الله بن عباس كتباً . ولكنه ترك أقواله ومعلوماته مكتوبة لدى بعض مواليه وبعض تلاميذه . ويذكرون أنه كان لدى كريب بن أبي مسلم مولى ابن عباس حمل بعير أو عدل بعير من كتبه وأقواله المكتوبة . فكان علي بن عبد الله بن العباس إذا أراد الكتاب كتب اليه ابعث الي بصحيفة كذا وكذا قال : فينسخها فيبعث اليه باحداهما »[2] ... وهذا لا يعني فقط بدء التدوين التاريخي في عهد مبكر منذ أواسط القرن الأول الهجري فقط ولكن يعني أيضاً أن ابن العباس ترك صحفاً لورثته بعد وفاته . وكانت من الكثرة

---

(١) ابن سعد – الطبقات (طبعة سخاو) ج ٢ قسم ٢ ص ١٢١ و ١٢٢ ، ابن الأثير – أسد الغابة ج ٣ ص ١٩٣ .

(٢) ابن سعد – الطبقات (ترجمة كريب) ج ١/٥ ص ٢١٦ (طبعة سخاو) .

بحيث يبلغ حجمها حمل بعير ، وأما تلاميذه فكان لديهم بدورهم ما رووه عنه ومنهم : عروة بن الزبير ومحمد بن كعب القرظي ووهب بن منبه وسعيد بن جبير وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب وغيرهم ... وعن هؤلاء أخذ الكثير ممن نعرف من الاخباريين أخبارهم والسير أمثال ابن أبي خيثمة وابن السائب الكلبي .

أما المجموعة الأولى من رواة المادة التاريخية في المدينة من أبناء الصحابة فمنهـــم :

١ ــ سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي : ولد في حيـــاة الرسول ﷺ ولم يلتق به ويعتبره بعضهم من الصحابة . ولعله من أوائل من دوّن أشياء عن حياة الرسول،وربما بدأ هذا العمل أبوه سعد ثم جاء سعيد فعدله . وقد كانت النسخة الأصلية من تصنيفه موجودة عند حفيده : سعيد بن عمرو بن سعيد ، في أوائل العصر العباسي [١] . ولسنا نعلم متى توفي سعيد بن سعد . ولكن ابنه شرحبيل بن سعد (وهو مؤلف في المغازي) توفي سنة ٧٤٠/١٢٣ وقد ناهز المائة سنة ... وقد بقيت لنا من كتاب سعيد نصوص محدودة في مسند ابن حنبل ولدى الطبري .

٢ ــ سهل بن أبي خيثمة المدني الأنصاري (ولد سنة ٣ هـ/ ٦٢٥ وتوفي في عهد معاويةبين سنة ٤١ وسنة ٦٠ هـ). وقد كتب بدوره شيئاً عن حياة الرسول ومغازيه بقي في حوزة حفيده محمد بن يحيى بن سهل الذي روى عنه الواقدي كثيراً من الرواية . وكان محمد هذا حين يروي كتاب جده يقول : « وجدت في كتاب آبائي » وقد بقيت شذرات عديدة من هذا الكتاب لدى البلاذري (في أنساب الأشراف) وابن سعد (الطبقات) والطبري .

٣ ــ سعيد بن المسيب المخزومي (ولد سنة ٦٣٤/١٣ وتوفي بالمدينة سنة

---

(١) انظر ابن حجر – التهذيب ج ٤ ص ٦٩ ، وانظر ابن حجر – الإصابة ج ٢ ص ١٢٢٣ .

٩٤ / ٧١٣) وهو نسابة مؤرخ فقيه محدث له مشاركة واسعة في الأدب. وكان الزهري من تلاميذه. وقد كتب سعيد شيئاً عن حياة الرسول وعن الفتوح استخدمه الطبري.

٤ — أبان بن عثمان بن عفان (ولد حوالى سنة ٢٠ هـ وتوفي بين سنتي ٩٥ — ١٠٥ هـ) وهو محدث لا مؤرخ. وما روى عنه من خبر فهو في السنّة خاصة لا التاريخ. وقد اهتم برواية المغازي التي رواها عنه مالك بن أنس وابن سعد والطبري. فهو مرحلة بين دراسة الحديث وبين تدوين التاريخ ولعله لهذا روت عنه كتب الحديث كثيراً بينما لم يستخدم مروياته من المؤرخين سوى اليعقوبي.

٥ — عروة بن الزبير بن العوام (ولد حوالى سنة ٢٣ وتوفي سنة ٩٤) وهو بدوره محدث فقيه ، بل أحد فقهاء المدينة السبعة. وكان في الوقت نفسه أول من ألف في « المغازي » أي كتب كتاباً حول حياة الرسول كما كتب الرسائل حول أحداث الإسلام وقد أخذ عنه ابن اسحق والواقدي والطبري. وما أخذوه عنه وأخذه من بعدُ غيرهم ، كابن سيد الناس وابن كثير ، يكشف أن روايات الرجل كانت صريحة بسيطة تخلو من المبالغة وتستمد معلوماتها من مصادر أولية هامة ... من عائشة وآل الزبير [1] ويظهر من أخباره التي لم يكن يعنى فيها كثيراً بالسند أنه قد سبقه جماعة آخرون في المدينة في رواية تلك الأخبار،وكان ما يروى حصيلة جهد جماعي في تقصي أخبار الإسلام الأولى. وقد تجاوز عروة في الروايات التاريخية فترة الرسالة إلى عهد أبي بكر ومن بعده حتى واقعة الجمل، بما في ذلك الردة والفتوح في القادسية واليرموك. ويمكن أن يعتبر بما وضع من الجسور بين دراستي الحديث والتاريخ « رائدَ

(١) عروة هو سبط أبي بكر الصديق فأمه أسماء ذات النطاقين وخالته عائشة وأبوه الزبير بن العوام وأخوه عبد الله بن الزبير وجدته لأبيه هي أيضاً خديجة بنت خويلد الأسدي.

علم التاريخ والرجل الأول » في المدرسة التاريخية في المدينة خاصة وفي الشام .

ومن جهة أخرى فقد درس هوروفيتش ما بقي لدى الطبري من الروايات التاريخية المتعلقة بحياة الرسول والتي رواها عروة بن الزبير ومنها : قطعة عن الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وأخرى عن الهجرة إلى يثرب، وثالثة عن أبي سفيان ومخرجه وموقعة بدر ، ورابعة عن خالد بن الوليد، وخامسة عن وفاة خديجة زوج الرسول [1] وبيّن هوروفيتش أنهـا من خلال اسنادها عبارة عن أجوبة كتب بعضها عبد الملك بن مروان إلى عروة فأجابه عليها يقول : « ... كتبت اليّ تسألني في ... (كذا) » واستنتج من ذلك أنها « أقدم ملاحظات مدونة بقيت لنا عن حوادث معينة في حياة الرسول وهي في الوقت نفسه أقدم آثار النثر التاريخي العربي » [2] ... وبذلك نكون قد وضعنا أيدينا على بداية التدوين التاريخي الإسلامي ، الذي يعود في رأيه إلى عروة وإلى زمن عبد الملك بن مروان ...

وقد درس الدكتور الدوري بدوره كافة ما روي عن عروة من أخبار وبين أنه « تطرق في مغازيه إلى بدء الوحي وبداية الدعوة والهجرة ثم تناول فعاليات فترة المدينة ... حتى غزوة الطائف وبعض مراسلات الرسول وأواخر أيامه . وقد جاءت بعض رواياته أجوبة على أسئلة البلاط الأموي وبعضها حدّث بها طلبته » [3] ... وبذلك يكون قد حدث في السيرة كلها ولكن دون خطة واضحة فيها .

ويمكن أن نضيف أيضاً إلى هؤلاء بعض التابعين ومنهم :

---

(١) انظر الطبري ج ٢ ص ٢٢٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٥ ، ٤٢١ ، ج ٣ ص ٥٥ ، ٧٠ ، ٨٢ (١/١١٨٠ ، ١٢٢٤ ، ١٢٣٤ ، ١٢٨٤ ، ١٦٣٤ ، ١٦٥٤ ، ١٦٧٠) .

(٢) هوروفيتش – المغازي الأول (ترجمة نصار) ص ٢٠ – ٢١ .

(٣) الدوري – نشأة علم التاريخ ص ٦٤ – ٧٣ .

٦ — شرحبيل بن سعد مولى بني خطمة (ولد في أواخر عهد عمر سنة ٢٤ — ٢٥ وتوفي سنة ١٢٣/٧٤٠) وهو وإن كان متهماً في دقته ولا يعتمده ابن اسحق والواقدي ولا ابن سعد الا أنه أعطى قوائم بأسماء الصحابة في المعارك الكبرى. وكانت ترتبط بهذه القوائم في عهده القيم الاجتماعية في طبقات المسلمين.

٧ — أبو فضالة عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري. ونجهل سنة ولادته ولكنه توفي سنة ٩٧ / ٧١٠ وقد وصفه ابن اسحق بأنه أحد كبار علماء الأنصار. روى عن أبيه وكتب كتاباً في المغازي لعله لم يتوسع فيه. وقد روى عنه ابن اسحق ونقل عنه الطبري.

٨ — القاسم بن محمد بن أبي بكر، حفيد الصديق (ولد حوالى سنة ٣٧ / ٦٥٧ وتوفي سنة ١٠٧ / ٧٢٥) وكان من كبار العلماء في عصره. ويبدو أنه كتب بدوره في المغازي وأخبار الخلفاء كتاباً أو أكثر من كتاب. وقد حفظ لنا الطبري مقتبسات عديدة منه. ونجد بعض المقتبسات أيضاً لدى البلاذري والواقدي.

وفي الوقت الذي كانت هذه الجماعة تهتم بتدوين السيرة والمغازي وما يتصل بها كانت جماعة أخرى تهتم بتوضيح ما ورد في القرآن من قصص الموعظة. ولما كان ذلك القصص متصلاً بالأنبياء الأول فقد كان المجال واسعاً لمن يعرف علوم أهل الكتاب في هذا الباب كي يتقدم التفسير. ومن هنا دخلت الاسرائيليات إلى السيرة والتفسير وبرز في ذلك شخص لا يدخله القدماء في نطاق علم التاريخ العربي وان كان بعض المستشرقين يدفعونه الى الصف الأول ...

— وهب بن منبه (توفي غالباً سنة ١١٤) وهو الذي بدأ القصص التاريخي. وقد مر معنا أنه يماني من الأبناء وقد ورد على المدينة باتجاه غريب عنها، فروى خاصة عن كعب الأحبار (المتوفى سنة ٣٢) وعبد الله بن سلام (المتوفى سنة ٤٠ هـ) وأضاف ما عرفه من أهل الكتاب والكتب المقدسة التي قرأ منها حسب

رواية ٣٠ أو ٧٠ أو ٩٣ كتاباً . وقد قابل العلماء معلوماته بالريبة ولذلك لم يذكروه في أصحاب « المغازي » وفي المؤلفين للسيرة . ومع ذلك فقد وجدت قطعة من مغازيه [١] ، كما أنه ألف كتاب (المبتدأ) الذي يعتبر أول محاولة في الإسلام لكتابة تاريخ عالمي من خلال تاريخ الأنبياء والرسالات . كما كتب كتاب (الملوك المتوّجة من حمير وأخبارهم) .

ولكن الأسلوب القصصي الذي ساق به رواياته دون سند وما تضمنت تلك الروايات من مادة أسطورية لاسيما عن اليمن ، ومن قصص شعبي يهودي ، ومن شعر موضوع أدخل الشك في كتبه : في دقتها وفي صدقها ، فلم يأخذ العلماء أحاديثه مأخذ الجد واعتبر نموذج « الاخباري » . ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون ذا أثر في مدرسة المدينة التاريخية ولم يمنع الاسرائيليات التي جاء بها من أن تدخل السيرة والتفسير ومن أن تختلط بتاريخ العرب قبل الإسلام . وقد أخذ عنه ابن اسحق كما أخذ عنه ابن قتيبة والمسعودي والمقدسي والطبري والكسائي وثعلب .

وقد تلا هذه المجموعة الأولى جيل ثان برز فيه عدة علماء :

ـ عبد الله بن أبي بكر بن ابن حزم (المتوفى بين سنتي ١٣٠ ـ ١٣٥) وهو من سلالة عريقة الصلة بالإسلام فجاه الأعلى عمرو بن حزم كان والي النبي على اليمن وجدّه محمد قتل دفاعاً عن المدينة في واقعة الحرة وأبوه كان قاضي المدينة ثم واليها مرتين سنة ٩٦ هـ و ١١٨ ، أما عبد الله فشغل نفسه بالحديث وسيرة الرسول . وقد رويت عنه أخبار تتصل بشباب النبي وأعوامه الأولى وبالغزوات كما وجه عنايته إلى الوفود التي وفدت من القبائل على النبي وروى أخباراً عن الردة وعن الأيام الأخيرة لعثمان . وكان يسند أخباره إلى

---

(١) وجد المستشرق بيكر قطعة من مغازي وهب بن منبه في مخطوط تاريخ نسخه سنة ٢٢٨ فيه ذكر ليلة العقبة وندوة قريش والهجرة، وفي حلية الأولياء لأبي نعيم الاصفهاني قطعتان أيضاً (ج ٢ ص ٧٣ و ٧٩) .

وراتها أحياناً ويخرج كغيره من الرواة ما بين الشعر والخبر . ولعل أهم ما جاء به عبد الله أنه :

أ ــ لم يقنع بجمع الأخبار التي وصل اليها بل حاول أيضاً ، في ذلك الزمن المبكر ، أن يبتكر الترتيب السنوي للحوادث . فجمع قائمة لغزوات النبي مرتبة الترتيب السنوي وقد استعارها ابن اسحق في سيرته ، ونقلهـــا الطبري [1] . وهذا ما يجعله من أوائل إن لم يكن أول واضع للمنهج الحولي في التاريخ الإسلامي منذ مطالع القرن الثاني .

ب ــ عني بجانب الأخبار بالوثائق المدونة كالرسالة التي كتبها النبي إلى ملوك حمير ، والوثيقة التي أعطاها النبي لجده الأكبر عمر بن حزم ليأخذها معه حين بعثه إلى أهالي نجران يفقههم في الدين .

ــ عاصم بن عمرو بن قتادة : (المتوفى سنة ١١٩) وهو من الأنصار وقد حارب جده قتادة مع النبي في بدر ، وكان حامل لواء قبيلة بني ظفر في حنين ، وكان والده عمر من رواة الحديث ولم يتقلد عملاً رسمياً ولم يكن من الموسرين ،ولعل هذا هو السبب في رحيل عاصم إلى دمشق يلتمس لدى بلاط الأمويين بعض المعونة كغيره من أهل المدينة في الشدائد . وقد « قضى (الخليفة عمر بن عبد العزيز) دينه وأمره أن يجلس في مسجد دمشق فيحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة ففعل ثم رجع إلى المدينة سنة ١٠١ » . وكانت «معرفته بالسيرة والمغازي مشهورة » وكان « يعد فيها من الرواة الثقات » [2] فظل في المدينة يروي معارفه في الحديث والمغازي قرابة عشرين سنة حتى توفي .

وطريقة عاصم في الرواية والسند وذكر الشعر شبيهة بطريقة صاحبه عبد الله ابن أبي بكر .

---

(١) انظر الطبري ج ٣ ص ١٥٢ (١٧٥٦/١) .
(٢) انظر هوروفيتس ــ المغازي الأول (الترجمة) ص ٤٨ نقلا عن الذهبي وابن سعد .

— أبو روح يزيد بن رومان الأسدي المدني : وهو من موالي أسرة الزبير . عاصر التابعين المتأخرين وتوفي سنة ١٣٠/٧٤٧ وقد روى عن عروة كما روى عن معاصره الزهري وتلمذ عليه ابن اسحق والإمام مالك. وقد ألف في المغازي كتاباً وصل إلى الواقدي فاقتبس عنه كما نجد منه مقتطفات لدى ابن سعد والطبري .

— أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل الأسدي : وهو كذلك ربيب الزبيريين ، توفي سنة ١٣١/٧٤٨ (أو سنة ١٣٧) تلمذ على عروة أيضاً كما كان من تلاميذه الزهري وبعض مؤرخي مصر (كابن لهيعة والليث بن سعد) ونجد لدى ابن حجر في الإصابة حوالى ٤٨ قطعة من كتابه في المغازي [1] كما نجد بعض القطع لدى ابن سعد في الطبقات ولدى البلاذري في أنساب الأشراف ولدى الطبري أيضاً مما يسمح بدراسة هذا المؤلف دراسة دقيقــة .

أما الراوية الاخباري المعاصر لهؤلاء والذي كان أكثر شأناً منهم جميعاً فهــو :

محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (٥٠ – ١٢٤) : الذي أسس المدرسة التاريخية في المدينة وفي الشام أيضاً والذي وجدت كما قال ابن سعد « أحمال من كتبه لدى الأمويين » . كان الزهري سليل قبيلة زهرة المكية وقد حارب جدّه الرسول في بدر وأحد كما كان أبوه بجانب عبد الله بن الزبير في ثورته.وقد وفد على مروان بن الحكم في دمشق ثم على عبد الملك ثم استقر لديهم ، يسجلون معارفه . وكان عالماً بالأنساب عالماً بأخبار عهد الرسالة والراشدين ، خصب الانتاج ، كتب جميع ما يعرف . وقد أدرك مالك بن أنس دوره الهام هذا في التدوين فقال عنه« ...أول من دون العلم ابن شهاب». ثم تابعه الناس .

(١) انظر ابن حجر – الاصابة ج (١) مثلا الصفحات : ٣٢٣ ، ٤٠٥ ، ٤٣٢ ، ٤٤٨ ، ٤٥٩ ، ٤٧١ ، ٥٦٤ ـ الخ .

وبهذا الشكل كان أول مدوني التاريخ الإسلامي. كتب مغازي الرسول وأعطى السيرة النبوية اطارها الذي نعرف إلى اليوم وتناول عهد الراشدين ومطلع الأيام الأموية بأسلوب تقصى فيه الأخبار من أصحابها، ومحص الروايات وجمع أسنادها في سند جمعي واحد وراعى التسلسل التاريخي وأبرز الأحداث الهامة وابتعد رغم حبه للشعر عن الشعر وعن القصص أي أنه كتب التاريخ .

ويظهر من مقتطفات الطبري عن الزهري أن هذا المؤرخ لم يعالج الفترة الأموية وان كان أجاب الوليد عن أسئلة ألقاها اليه تتعلق بأعمار الخلفاء الأمويين وكتب أسنانهم ومدة حكم كل منهم. وتناول الزهري لفترة الراشدين بالتفصيل يكشف عن «أن الاهتمام بتجارب الأمة الإسلامية الأولى كان عاملاً آخر له أهميته في نشأة الكتابة التاريخية. فمبدأ الاجماع وظهور الأحزاب السياسية والجدل بينها حول الأحداث الماضية وخاصة الفتنة والخلافة ومشكلة التنظيم الاداري وخاصة تنظيم الضرائب والديوان، كل هذه المسائل كانت تتطلب الايضاح بواسطة الدراسة التاريخية»[1] ...

وقد تابع جهد الزهري من بعده تلاميذه وأبرزهم ثلاثة :

١ - موسى بن عقبة الأسدي المدني (ولد بين سنة ٥٥ وسنة ٦٠ وتوفي سنة ١٤١/٧٥٨ - ٩) الذي روى المغازي وتاريخ الراشدين والأمويين عن الزهري كما استخدم كتب ابن عباس وكانت حمل بعير. ونقل عنه ابن سعد وابن اسحق كما نقل عنه الواقدي والطبري[2] وكان مالك بن أنس تلميذاً له ويوثقه (كيداً بابن اسحق) ويقول عن سيرته «إنها أصح السير»[3] والواقع أن ابن عقبة تميز بفكر تاريخي منهجي منظم سمح له، وهو يبحث مغازي الرسول وأخبار الخلفاء الراشدين والأمويين :

---

(١) الدوري - نشأة الكتابة التاريخية ص ٩٨ .

(٢) في برلين مخطوط يحوي جزءاً من المغازي التي كتبها موسى بن عقبة وقد نشره سخاو ١٩٠٤ .

(٣) انظر السخاوي - الاعلان ص ٥٢٥ وانظر ابن حجر - التهذيب ج ١٠ ص ٣٦١ .

أ) أن يفكر بوضع قوائم بأسماء الصحابة المهاجرين إلى الحبشة ، أو للشاركين في بيعة العقبة وغيرهم .

ب) أن يضع بدوره ، مثل ابن أبي حزم ، مادته التاريخية في تسلسل زمني حولي ، وهكذا قدمت مدرسة المدينة بعمل هذين المؤرخين أهم الخدمات لتطور التدوين التاريخي .

وقد لقي كتاب المغازي لابن عقبة الكثير من الاهتمام فيما بعد لدقته واستيفائه واستخدمه الكثيرون ومنهم أبو نعيم الأصفهاني الذي كتبه بخطه فاستخدم هذه النسخة نفسها بعد قرنين ياقوت الحموي . وجمع قطعة منه ابن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي (توفي ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧) . ثم جاء ابن حجر فاحتفظ لنا في كتاب الإصابة بقطع من هذه المغازي تزيد في العدد على ٢٢٥ قطعة تمثل القسم الأكبر منها .

وقد اختصرها قبل ذلك ابن عبد البر في كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير . واقتبس منها الكثير ابنُ سيد الناس في كتابه عيون الأثر . وبقي منها إلى اليوم قطع مخطوطة في برلين ترجم بعضها المستشرق سخاو ودرسها شاخت وإن لم تنشر بعد .

٢ — معمر بن راشد البصري ... (ولد في البصرة سنة ٩٦ وتوفي سنة ١٥٤ / ٧٧٠ في صنعاء) الذي انتقل من البصرة إلى اليمن ولم يرتحل اليها قبله أحد من المحدثين . ثم كان في تنقله بين البلدين صلة الوصل بين مدرستي العراق واليمن قبل أن يستقر نهائياً في صنعاء يحدث حتى الوفاة . وقد كتب كتاباً في « المغازي » نقل فيه عن الزهري [1] وعن أهل الكتاب ثم نقل عنه الواقدي والبلاذري وابن سعد والطبري. ولم يرتب معمر مادة كتابه الترتيب الزمني

---

(١) نجد في شذرات الذهب لابن الحنبلي (١/٢٣٥) ان له كتاباً هو « الجامع المشهور في السير وهو أقدم من الموطأ » ولعله كتاب المغازي نفسه .

كما فعل معاصره ابن عقبة ولكنه اتبع الترتيب الموضوعي على غرار ما فعله هو نفسه في علم الحديث فإنه يعتبر من أوائل المحدثين الذين رتبوا الأحاديث في أبواب ومواضيع . ويبدو أنه لم يقتصر على سيرة الرسول في الكتاب ولكن أضاف إليها سير الأنبياء الآخرين . وتدل المقتطفات المأخوذة عنه في الطبري أنه أدخل الكثير من قصص الكتابيين المتعلقة بالرسل إلى السيرة . كما أن ابن سعد أخذ أخباره عن طريق تلميذ معمر : عبد الرزاق بن همام (المتوفى سنة ٢١١ / ٨٢٦) والذي كتب بدوره كتاباً في « المغازي » يذكره ابن النديم [١] ولعله مأخوذ عن كتاب أستاذه مع التعليق عليه . وقد وصلتنا قطعة من كتاب معمر بن راشد على رق شديد القدم محفوظ في المعهد الشرقي بشيكاغو ونشرت النص الباحثة نبيهة عبود . كما وصلتنا قطع أخرى من الكتاب ما تزال مخطوطة في استامبول والرباط ودمشق . ونسخة استامبول على رق الغزال نسخت في طليطلة سنة ٣٦٣ / ٩٧٣ .

٣ ــ محمد بن اسحق المطلبي [٢] وهو أبرز وأهم الثلاثة وعمود المدرسة المدنية (ولد حوالى سنة ٧٥ وتوفي سنة ١٥١ أو سنة ١٥٢) ، به بدأت الكتابة التاريخية ، وقد كتب أقدم سيرة نبوية محفوظة الآن برمتها . جده يسار كان من سبي عين التمر أول سبي وصل للمدينة في الفتوح ، وقد تقصى محمد الأخبار في هذا البلد من أهله فيذكرون منه وحده أكثر من مائة راوٍ كما روى ، وعن أهل الكتاب وللموالي والأعاجم وعن الآيات والحديث والوثائق ومن القصص الشعبي العربي ومما رواه وهب بن منبه عن اليمن . فمصادر معلوماته كثيرة التنوع وتبلغ ١١٤ شيخاً [٣] ولكن هذا التقصي [٤] خلق له بعض المصاعب،

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص ٢٢٨.

(٢) كتب عنه المستشرق يوحنا فوك Fuck رسالة هامة (طبع فرانكفورت سنة ١٩٢٥ بالألمانية) .

(٣) من شيوخه مثلا أبوه وقد ورد اسمه ١٥ مرة في السيرة وعبد الله بن أبي بكر المتوفى سنة ١٣٦ وقد ورد ٤٠ مرة ويحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير الذي تردد اسمه ١٤ مرة .. الخ .

(٤) كان معروفاً أن سيرة ابن اسحق محفوظة في جملتها في سيرة ابن هشام التي لا تعدو أن تكون تهذيباً وتنقيحاً لابن اسحق . ثم تبين أن في المغرب نسخة مخطوطة من سيرة ابن اسحق وقد نشر ويعمل على ذلك الآن الدكتور عبد العزيز الدوري .

فقصد العراق في مطالع حكم المنصور وأهداه مغازيه التي كان كتبها في المدينة . وسمع منه أهل الجزيرة والري حيث ظهر الكثير من رواته ولم يَرْوِ عنه أهل المدينة إلا القليل لأن عداء مالك بن أنس له واتهامه اياه بالتدجل جعلهم يتحرجون في أمر توثيقه . وقد جمع المستشرق فوك قائمة من ١٥ تلميذاً لابن اسحق معظمهم عراقيون وجزيريون ومن الري .

وقد كتب ابن اسحق كتاب (الخلفاء) الراشدين والأمويين في الأرجح وقد عرفنا منه مقتطفات مبعثرة في الكتب ولدى الطبري ، وله كتاب (المبدأ) الذي لا يعدو أن يكون القسم الأول من المغازي وقد أفرده بكتاب خاص يروى لوحده لأنه يتناول مبدأ الخلق حتى ظهور الإسلام . والتأثر واضح فيه بوهب ابن منبه والاسرائيليات وقصص اليمن . وأخيراً « المغازي » أي السيرة النبوية وهي مجد الرجل الحقيقي وهي تجمع بين الآي القرآني والحديث والوثائق والأخبار التاريخية ، يضاف اليها الاسرائيليات والقصص الشعبي والشعر من صحيح وموضوع ، وحفظ لنا بهذا التقصي الكثير من المعلومات .

وقد جمع ابن اسحق بين المحدثين والأخباريين في الأسلوب كما وسع حدود السيرة إذ مدها إلى مبدأ الخلق ومن أجل ذلك كله نقل من الكتب وممن يسميهم أهل العلم الأول من أهل الكتاب . ولم يدقق كثيراً في السند أو في مصادر الأخبار ولا في الأنساب ولم يستخدم الشعر فقط ولكنه كان يصطنعه ، وتعمل له القصائد ليدخلها في السيرة مع المناسبات حتى لقد ذكر قصائد من عاد وثمود ، وان يكن شعراً غنائياً يتعلق بشرح الأحداث لا بروايتها . وتظهر في سيرته ميوله السياسية والدينية فما كان هواه مع بني أمية ولكن مع التشيع كما كان قدريّ الرأي ، وعلى خلاف مع مذهب الإمام مالك في الحديث والفكر . ويعلق هاملتون جب على مغازي ابن اسحق بأنها كانت ثمرة تفكير

أبعد أفقياً وأوسع نطاقاً من تفكير سابقيه ومعاصريه لأنه نزع فيها لا إلى تدوين تاريخ النبي فحسب بل تاريخ النبوة بذاتها . فوحدة الفكر التاريخي ظاهرة فيها .

وسيرته التي لم تجد رواجاً في المدينة راجت في المشرق وانتشرت ورويت ومن الروايات هذه ما ضاع كرواية ابراهيم بن سعد ورواية محمد بن عبد الله ابن نمير المتوفى سنة ٢٣٤ في حران . ومن الروايات ما بقي ، فرواية البكائي هي التي اعتمدها ابن هشام وتناولها بالتنقيح والتقريب من وجهة نظر المحدثين كما اعتمدها اليعقوبي والطبري ورواية يونس بن بكير الشيباني (المتوفى سنة ١٩٩) وهي التي اعتمدها الحاكم النيسابوري (في المستدرك) وابن الأثير (في أسد الغابة) وابن حجر العسقلاني (في الإصابة) .

وقد ظهر بجانب ابن اسحق معاصر له كتب في المغازي أيضاً هو :

.. أبو معشر السندي (توفي بعد سنة ١٧٠ في بغداد) اسمه الأصلي عبد الرحمن بن الوليد بن هلال . ويظهر أنه سرق من موطنه في السند أو اليمن وبيع في المدينة وسمى فيها باسم ... (نجيح) ثم بأبي معشر حين أضحى في ولاء أم موسى بنت منصور الحجري ، زوج المنصور وأم الخليفة المهدي . وقد اشترى نفسه بالمكاتبة وارتبط بالعباسيين وبالخليفة المهدي بخاصة .

وكان يحاول أن يكون محدثاً ولكن شهرته في الحديث بقيت محدودة واشتهر بالتاريخ وبأنه « بصير بالمغازي » كما قال أحمد بن حنبل،وقد احتج الأئمة بتاريخه .

ويظهر من المقتطفات الباقية في الكتب عنه أنه مؤلف في المغازي روى سيرة الرسول جميعاً وتراجم الصحابة كما يظهر أنه ألف تاريخاً ، عرف باسم تاريخ الخلفاء ، على الحوليات ، تناول فيه التاريخ الإسلامي حتى سنة ١٧٠ فهو على هذا النحو أقدم المؤلفين في هذا التاريخ .

وقد أخذ الواقدي من مغازيه وأخذ ابن سعد. بينما أخذ الطبري عن التاريخ حتى توقف سنة ١٧٠ . ولعله من المناسب أن نلاحظ هنا أن مدرسة المدينة التاريخية قد تحولت في مركزها منذ مطالع العهد العباسي إلى العراق. فقد انتقل ابن اسحق منها وقد انتقل ابن معشر وقد ظهر آخر ممثلين لهذه المدرسة، يمثلان نهاية تطورها وقمة ذلك التطور في العراق أيضاً وهما الواقدي وابن سعد ..

الواقدي محمد بن عمر (ولد سنة ٧٤٧/١٣٠ توفي سنة ٨٢٣/٢٠٧ في عهد المأمون) وهو من الموالي في الأصل وقد تلقى العلم (الحديث والفقه خاصة) عن مالك بن أنس في المدينة وعن سفيان الثوري وعن ابن جريج رأس علم الحديث. ونال الشهرة الواسعة في عصره وقد عرف بالرشيد في بعض حجه ثم لحق به إلى بغداد والتحق بابنه للمأمون من بعده واتصل الاتصال الطيب بالبرامكة. وكان جمّاعة الكتب يشتريها ويستنسخ وقد مات وعنده منها ٦٠٠ قمطر !

وإذا كان الواقدي معتبراً من مدرسة المدينة فقد قضى أعوامه الثلاثين الأخيرة في بغداد التي ولي فيها أحياناً القضاء.

وقائمة مؤلفاته طويلة متنوعة . يذكر له ابن النديم في الفهرست [1] ٢٨ كتاباً معظمها يتركز حول العهد الإسلامي دون الجاهلية التي يبدو أنه لم يكن يعلم عنها شيئاً كما يروي ابن حجر في التهذيب [2] .

وتعزى اليه بعض الكتب مما لا قيمة له. وكتبه التاريخية التي جمع فيها مادة ضخمة دونها التدوين الحسن تضم مؤلفاته في (أخبار مكة) و (أزواج النبي) و (وفاة النبي) و (السقيفة) و (سيرة أبي بكر) و (الردة) و (يوم الجمل) و (صفين) و (مولد الحسن والحسين) و (مقتل الحسين) وتصانيف

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص ٩٨ – ٩٩ .
(٢) ابن حجر – التهذيب ج ٩ ص ٣٦٥ .

(القبائل ومراتبها) و (ضرب الدنانير والدراهم) و (وضع عمر الدواوين) و (مراعي قريش والأنصار في القطائع) كما تضم (أمر الحبشة والفيل) و(حرب الأوس والخزرج) ولعل أهمها ..

– التاريخ الكبير الذي تناول الخلفاء حتى سنة ١٧٩/٧٩٥ .

– كتب الفتوح .. فتوح الشام وفتوح العراق وفي نسبتها اليه كثير من الشك [١] .

– الطبقات وهو في تاريخ طبقات المحدثين في الكوفة والبصرة وتظهر أهمية هذا الكتاب بما يكشف من علاقة الحديث بالتاريخ ونشوئه . فهو أقدم كتاب منظم على الطبقات . وعلى مثاله ألف ابن سعد تلميذ الواقدي طبقاته المعروفـــة .

وأخيراً .. المغازي . وهي الكتاب الوحيد الباقي من الواقدي . فثمة جزء

---

(١) تنسب هذه الكتب اليه وهي موجودة فعلا ـ فهناك ـ

– كتاب فتوح الشام ومصر وهو مخطوط بالمتحف البريطاني وقد نشر في ليدن بعنوان كتاب فتوح مصر والاسكندرية المنسوب إلى الواقدي كما طبع في مصر سنة ١٣٦٨ بعنوان « فتوح الشام في جزءين » يتضمنان فتح الشام ومصر والعراق .

– وهناك كذلك كتاب فتوح أبهنا وفيوم من أرض مصر وهو مخطوط مخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن (وملحق بمخطوط لتاريخ أبي الفداء) . وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٢٨٠ بعنوان (فتوح البهنا وما فيها من العجائب والغرائب وما وقع فيها للصحابة).

– وكتاب (فتوح افريقيــة) وهو مخطوط بالمتحف البريطاني وفي مكتبات باريس وكامبردج والجزائر وفاس نسخ منه وقد نشر سنة ١٣١٥ بمعرفة عبد الرحمن الصادلي (راجع سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب لمغرب بين الحقيقة والاسطورة ـ دراسة ونقد لمخطوط فتوح افريقية للواقدي – مجلة كلية الآداب – جامعة الاسكندرية المجلد ١٦ لسنة ١٩٦٢ الاسكندرية ١٩٦٣ ص ١ – ٤٣) ويلاحظ على هذه الكتب أنها تحمل الطابع الاسطوري الذي لا يعرفه الواقدي كما أن فيها اشارات إلى شخصيات من القرن السادس والسابع (سيدي أبو مدين ، سيدي أبو الحجاج الأقصري ـ) ما يكاد يجزم بأن هذه الكتب في حالتها التي وصلت الينا بها على الأقل ، ليست للواقدي وقد دخلتها الأسطورة في الغالب بعد القرن السابع الهجري .

من الكتاب طبع في كلكتا (طبعه فون كريمر سنة ١٨٥٦) وهناك نسخة كاملة مخطوطة مع جزء آخر من مخطوط ثان في المتحف البريطاني. وقد نشر (فيشر) النص العربي الكامل بعد أن كان (ولهاوزن) قد نشر موجزه مع ترجمـــة انكليزيـــة .

ويبدو الواقدي في المغازي أكثر ارتباطاً بأساليب مدرسة المدينة وأكثر دقة من ابن اسحق . لم يهتم كابن اسحق بالفترات السابقة للاسلام ولا بالعصر الجاهلي وركز همـــه في السيرة ، ونهجـــه في العرض منظم منطقي .. يذكر مصادره الأساسية وهي ٢٥ اسماً وتواريخ المغازي ثم يدرسها بالتسلسل الزمني ويدقق في تحديد التواريخ ويبحث عن نصوص الوثائق ويستعمل الاسناد بدقة على منهج المحدثين ويقتبس من الشعر ولكن في قصد لا يبلغ حدود ابن اسحق ويدمج بعض الأخبار في سند جمعي واحد ليستطيع استيفاء التفاصيل ويهتم بتحديـــد المواقع الجغرافية حتى لقـــد بلغ من حرصه في ذلك أن زار بعض تلك المواقـــع بنفسه . وبالرغم من ميوله العلوية فانه كان بعيداً عن التعصب لدرجة اتهمه فيها ابن النديم بالتقية ولكن الشيعة لا يعدونه في رجالهم . وقد بلغ بمراقبته رأي الناس في علمه أنه كان يأخذ عن ابن اسحق كثيراً وقد يمتدحه ولكنه لا يصرح باسمه أبداً فيما يأخذ عنه لموضع ابن اسحق من الريبة في المدينة .

والمقتطفات من كتب الواقدي كثيرة متفرقة . فالطبري يروي كثيراً عنه وخاصة في التاريخ الكبير . وفي كتاب غزوات ابن حبيش (المتوفى سنة ٥٨٤) وهو مخطوط في مكتبة الفاتيكان استخدمه كاتياني في فصل الردة من كتابه ، مقتطفات من كتاب الردة للواقدي .

وكتاب المغازي للواقدي موجود بشكل مخطوط في فيينا (رقم ٨٨١ في ١٩٦ ورقة) وفي المتحف البريطاني (Or ٤١٦) و ٥٠٢ ، ١٦١٧ . Sup وقد حقق بعضه فون كريمر ثم حققه غيره . ثم نشر النص العربي في القاهرة من

قبل عباس الشربيني سنة ١٩٤٨ . وله ترجمة فارسية وأخرى تركية . كما اختصره ابن حجر .

أما كتاب الردة فمخطوط في الهند ومنه قطع في الإصابة لابن حجر . وأما فتوح الشام فمنه مخطوطات كثيرة عديدة في استامبول خاصة ولندن وباريس والقاهرة وغيرها . ومثل ذلك فتوح مصر ، وبقية كتب الفتوح . وثمة قطعة من كتابه كتاب الصوائف لدى ابن عساكر (تاريخ دمشق ج ١ ص ٣٨٥) . وثمة قطع من كتابه (صفين) لدى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة .

وإذا كان أهل الحديث لا يقبلون كل القبول بالواقدي فالمؤرخون يوثقونه . أما المستشرقون فيرون فيه بسبب تدقيقه الزمني والجغرافي واعتماده الوثائق المؤرخ الأول . وقد ختم مدرسة المدينة تقريباً تلميذ الواقدي :

محمد أبو عبد الله محمد بن سعد(1) بن منيع البصري الزهري (كاتب الواقدي) ، ولد سنة ٧٨٤/١٦٨ في البصرة وتوفي سنة ٨٤٥/٢٣٠ في بغداد وهو ابن مولى من المدينة يلتحق ولاء بآل العباس . عاش حقبة من الزمن في المدينة ثم انتقل منها بين مدن أخرى وقد تعرف في بغداد على الواقدي والتصق به وبالرغم من أنه درس على شيوخ آخرين كثيرين فإنه ظل على الارتباط بهذا الشيخ حتى آخر حياته .

وصلته الكبيرة بالواقدي لم تعطه فقط لقب كاتب الواقـــدي ولكنها أيضاً سمحت لابن النديم صاحب الفهرست أن يقول انه ألف كتبه من تصنيفات الواقدي ولكنه لا يذكر له في الوقت نفسه إلا كتاب أخبار النبي . ويظهر ان هذا الكتاب ليس غير القسم الأول من كتاب ابن سعد المعروف

---

(1) ألف رسالة عن ابن سعد بالألمانية صاحبها أوتولوط Loth الذي نشر أيضاً بحثاً سنة ١٨٦٩ في المجلة الشرقية الألمانية بعنوان . (طبقات ابن سعد) كما كتب مقال (أصل الطبقات وأهميتها) ...

بالطبقات الكبرى مع أننا نجد أن هشاماً الكلبي كان مصدر ابن سعد المباشر في تاريخ اليهود والنصارى كما استفاد من سيرة ابن اسحق ومن كتاب نسب الأنصار لعبد الله بن محمد بن عمارة (سنة ٢٠٠ هـ) .

فتلاميذ ابن سعد رووا عنه (أخبار النبي) و (طبقات الصحابة) على أنهما كتابان . وقد حفظت الطبقات على صورتها المعروفة للمرة الأولى على يد الحسين بن فهم (٢١١ – ٢٨٩ هـ) ثم جمع ابن معروف الكتابين حوالى سنة ٣٠٠ هـ مشكلاً منهما كتاباً واحداً تؤلف سيرة النبي القسم الأول منه (١) .

وابن سعد آخر جامعي السيرة من المتصلين بالمصادر الأولى وثاني مؤلف بعد ابن اسحق وصلنا كتابه عن السيرة والطبقات كاملاً . ولن يأتي بعده مؤلف يأتي بجديد فيها . وأسلوبه التاريخي رغم أنه يجمل الملامح التي يحملها السابقون له الا أنه يتميز بملامح خاصة أيضاً .

مصادر معلوماته تعتمد بخاصة على الواقدي ـ وان كان يعطي أحياناً تفاصيل أوفى منه ولا سيما في الفترتين المكية والمدنية للدعوة النبوية ـ وعلى هشام ابن محمد بن السائب الكلبي فيما يتعلق بما يروى عن أهل الكتاب وعلى الوثائق فهو يكثر منها ، أما مصادره الأخرى فقد صدّر المغازي بقائمة تحوي أهم رواته كما صدر كتاب الطبقات بقائمة أخرى . وقد تميز منهجه بالعرض بتنظيم المادة والغاء الملاحظات الشخصية واسناد كل قول إلى مرجعه(٢) وذكر الوثائق بنصوصها والاستشهاد الكثير بالشعر .

ولا يحمل مفهوم السيرة عند ابن سعد شيئاً كثيراً مما وراءها فالجاهلية لا تحتل إلا أضيق الحيز عنده ولا مكان للرسالات الأخرى . وعنايته بالصحابة والتابعين وأحوالهم جرته إلى العناية أيضاً بالصحابيات والتابعات وقد خصص الجزء الثاني كله من طبقاته لهن .

---

(١) أنظر هوروفيتش ـ المغازي (الترجمة العربية) صفحة ١٢٧ .
(٢) أنظر هوروفيتش ـ المغازي (الترجمة العربية) صفحة ١٣٠ .

نشر كتاب طبقات ابن سعد منذ ستين سنة في تسعة مجلدات بعناية وتحقيق المستشرق ادوار سخاو في مدرسة اللغات الشرقية في برلين وعاونه فيه مستشرقون آخرون. وقد طبع في ليدن (بريل سنة ١٩١٧) وخصص المجلد التاسع منه للفهارس.

ولإكمال الصورة لعلنا نستطيع أن نضيف أخيراً مؤلفين آخرين من مؤلفي السيرة في الشام بعضهم عاصر ابن سعد بعض المعاصرة وبعض تأخر عنه قليلاً. وإن كان في كتاب ابن سعد عنهم غنى أحياناً وقد ذكرناهم في مدرسة الشام من أمثال: محمد بن عائذ الدمشقي (سنة ٨٤٧/٢٣٣) وعبد الله ابن محمد بن علي النفيلي الحراني (٨٤٨/٢٣٤) وأبي زرعة عبد الرحمن بن عمرو بن صفوان النصري الدمشقي (سنة ٨٩٤/٢٨٠). إنهم يشكلون بقية تلك الجمهرة الواسعة التي عملت على حفظ السيرة وتنظيمها وإشاعتها بين الناس في الشام بجانب عملها في حفظ الحديث أو بسبب من عملها في حفظ الحديث.

الفصل الخامس

مَدرَسَة العِراق

اجتمعت للعراق في صدر الإسلام ثلاثة تيارات ثقافية أساسية تكوّن قاعدته الفكرية هي : الثقافتان الفارسية والهيلنية والتيـار العربي الإسلامي . وقد خدمت الثقافتان الأوليان أول الأمر وأفسحتا المجال للفكر الجديد القادم مع العرب المسلمين . وقد وجد هذا الفكر لنفسه مستقراً ومكاناً خاصاً في الأمصار الجديدة .. البصرة والكوفة في العهد الأموي ثم أضيفت إليهما بغداد في العصر العباسي ، كما وجد أهلاً هم العرب الذين هاجروا فاستقروا في هذه الأمصار يزورهم ويسكن بجوارهم الموالي الذين تابعوهم تديناً أو تملقاً. ووجد أخيراً قاعدة يعمل عليها هي .. الأدب العربي .. شعره وقصصه ولغته وأنساب العرب وأيامها وأخبار الناس بالاضافة إلى علوم القرآن والحديث والفقه .. وما كانت العواصف والأزمات السياسية في العهد الأموي التي لم تكن تصيب إلا العرب لأنهم الطبقة الحاكمة المسيطرة — إلا لتزيـد من فعالية المراكز العلمية هذه ومن نشاط أهلها في الفكر وتفرع علومها مذاهب وتسجيلاً.

فكتلة العرب ومن والاهم — التي استقرت خاصة في البصرة والكوفة — حملت معها مفاهيمها وفكرها البدوي الشفهي إلى المواطن الجديدة فظل المصران .. مراكز قبلية كبرى كما ظلا على اتصال لا ينقطع بالصحـراء والفعاليات الفكرية التي تتمثل فيها . وقد أضيف الى هذا التراث الشفهي السابق عناصر أخرى مما استجد بعد الإسلام على العرب :

أضيفت أمجاد الفتوحات وأيامها وأضيفت العصبيات السياسية ــ القبلية التي فجرها التنازع على السلطة ، وأضيفت الشعوبية التي نمت لدى الشعوب المغلوبة وبخاصة الفرس في العراق . وأضيف تشجيع الأمويين لدراسة الأنساب والأخبار.

وكانت أولى الخطوات انتقال التراث الموروث والجديد معاً من الرواية الشفهية الى الكتاب المكتوب . بدأ تسجيل ذلك على سبيل معاونة الذاكرة قبل نهـاية القرن الأول الهجري وخلال النصف الأول من القرن التالي . ولقد نستطيع أن نعتبر عبيد الله بن أبي رافع كاتب أمير المؤمنين عـلى مدة خلافته في الكوفة أول مؤرخ مؤلف في المدرسة : فقد كتب : تسمية من شهد مع أمير المؤمنين في حروب الجمل وصفين والنهروان من الصحابة . ذكره شيخ الطائفة في الفهرست . ويقول صاحب الذريعة : « هو أول مـن صنّف في المغازي والسير والرجال في الإسلام لأنه لم يعرف من سبقـه »... (١) ولقد نستطيع أن نعتبر كتاب المثالب الذي ألفه زياد بن أبيه (المتوفى سنة ٥٤ هـ) وعهد به إلى ابنه من أول الكتب المؤلفة في مدرسة العراق التاريخية لأنه تسجيل لأمور من التاريخ في ذلك الوقت المبكر من أواسط القرن الأول .

وبينما ظهرت طبقة من الرواة ، الاخباريين مثل طلحة بن الأعلم ومحمد ابن عبد الله اللذين أخذ عنهما الطبري أكثر من مائة مرة. وابن أبي صالح الذي اعتمده ابن الكلبي في أخبار الأنبياء وأبي النبال والمفضل الضبي اللذين اعتمد عليهما المدائني في أخبار خراسان وكثيرين آخرين يكفي لادراك كثرتهم أن نذكر أن واحداً منهم سيف بن عمر (وقد أخذ الطبري بدوره كثيراً عنه) كان يروي ما يزيد على ستين رواية ... !

بينما ظهرت هذه الطبقة ظهرت بالمقابل كتب تسجّل مروياتهم وخاصة تسجل الأنساب العربية التي كان بعضها مسجلاً لدى بعض القبائل في كتب وصحف . ونرى في أخبار الأغاني ما يشير إلى وجود كتاب لتميم ذكره الطرماح بن حكيم الشاعر (ت ١٠٥ هـ) وكتب لقريش وثقيف .

---

(١) انظر الفهرست للطوسي (ط. النجف ١٩٦١) ص ١١٣ وآغا بزرك – الذريعة ج٤ ص ١٨١ .

ثم جاء بعد ذلك ، حوالى أواسط القرن الثاني الهجري طور جديد بظهور الرواة الجامعين الذين أخذوا يجمعون الشعر والأخبار والحديث والأنساب وهم من يسمون في الاصطلاح الأدبي بالرواة..مثل عمرو بن العلاء (توفي سنة ١٥٤) وحماد الراوية (توفي سنة ١٥٦) وفي الاصطلاح التاريخي بالأخباريين مثل أبي مخنف (توفي سنة ١٥٧) وعوانة بن الحكم (توفي سنة ١٤٧) .

وبالرغم من أن بعض هؤلاء تخصص في الأدب أو الشعر أو اللغة ، كما تخصص آخرون بالحديث ، أو تخصصوا بالأخبار وأيام العرب أو بالنسب فان ميادين الجميع كانت متقاربة يطل بعضها على بعض . ونستطيع أن نسجل من ناحية التدوين التاريخي والعملية الأخبارية عدداً من الملاحظات في هذه الفترة :

١ ــ كان معروفاً لدى الناس في ذلك العصر اختصاص مدرسة المدينة والشام بالمغازي والفتوح واختصاص مدرسة العراق بميدانها في الأخبار والأيام والأنساب . فلما ألف محمد بن الحسن الشيباني العراقي في (السير) وصاح الإمام الأوزاعي « ما لأهل العراق والتصنيف في هذا الباب ؟ فإنه لا علم لهم بالسير !..» علم الشيباني بالكلمة وكان كتابه (السير) صغيراً، وهو أساساً في الفقه، فكتب كتاب (السير الكبير) الذي حوى مع الفقه الأخبار والمغازي والفتوح ويمكن أن يعتبر أول كتاب في بحث العلاقات الدولية . وكان هذا يعني في الواقع تحول اختصاص مدرسة الشام بالفتوح إلى العراق أيضاً وبروز هذه المدرسة بدورها برواية الفتوح الإسلامية المختلفة على أساس رواياتها الخاصة .

٢ ــ أن نوعاً من النظرة الكلية كان يحكم رجال المدرسة العراقية كافة . فبينما تجاوز النسابون في اهتمامهم القبيلة الواحدة إلى مجموع القبائل ، كان الرواة والاخباريون يجعلون محور اهتمامهم أخبار الأمة لا أخبار قبيلة أو حادث معين مفرد أو جماعة خاصة ، كما كان عليه العهد من قبل . أي أنهم جميعاً ساروا في طريق التاريخ وكانوا بذلك المؤرخين الأولين .

٣ ــ أن التحزب السياسي أو القبلي أو القطري أو المصر وخاصة في

العراق كان يظهر في الروايات المروية . فأبو مخنف كان يكشف عن ميول علوية وعراقية ويروي روايات قبائل أزد العراقية كما يروي روايات أهل الكوفة وهي بجانب عليّ وضدّ أهل الشام ، بينما نجد روايات قبائل كلب الشامية مروية لدى عوانة بن الحكم الذي كان أموي الهوى . ومثله الزهري من قبل ، والاثنان يؤكدان على حتمية القضاء والقدر . ونصر بن مزاحم في (أخبار صفين) يصدر عن تعصب قبلي ويؤكد على دور تميم . كما يصدر عن رأي شيعي ضد بني أمية ، وقد تولى سيف بن عمر إذاعة روايات قبيلة تميم عن الغزوات العربية أما ابن اسحق فكان يتشيع وكان قدرياً ضد الرأي الأموي القائل بالجبر والتسليم لله . وقد رويت حروب قتيبة بن مسلم من قبل رواة من قبيلة باهلة الذين أعطوها تفاصيلها الحلية الشائعة وهي تختلف بوضوح عما روي عن هذه الحروب من بعد في التواريخ الحولية التالية ...

٤ ــ أن ثمة غياباً لفكرة الدولة وعدم وضوح في فكرة الإمام أو الخليفة وحقوقه .. وهي أمور حاول الأمويون نشرها واقرارها ولكنها لم تظهر إلا فيما بعد لدى مؤرخي القرن الثالث، أما في هذه الفترة فإن الوعي السياسي لم يكن قد تبلور بشكل يتجاوز في النظرة إطار الحزبية أو القبلية ليصدر عن رأي يستند الى مصلحة الدولة والنظم العامة . وهكذا تناقش صفين أو يناقش الخوارج كما يناقش مقتل الحسين إما من وجهة نظر عاطفية أو دينية أو قبلية أو حزبية ولكن تغيب فكرة الدولة . وثمة عطف على الثائرين والمعارضين وشك في مكانة قريش وأفضليتها وتبرير مقبول للتحركات المتمردة .

٥ ــ لم يقتصر الأخباريون الجامعون على رواية قطر معين أو قبيلة معينة ولكن جمعوا كافة ما قد يقع تحت علمهم أو يلهم من المعلومات جنباً إلى جنب وبعضها روايات عائلية . فسيف بن عمر يروي في الفتوحات روايات كوفية ويكملها ببعض الروايات المدنية والشامية . أما في الردة فيعتمد على روايات من الكوفة والجزيرة العربية والمدينة . ويرجع في كثير من الروايات إلى من ساهموا في الأحداث بأنفسهم . وعوانة بن الحكم لا يعتمد على روايات

قبيلته كلب فقط ولكن على روايات قبيلة أخرى وعلى رواة شاميين وأمويين لإكمال الصورة . وأبو مخنف يورد روايات أشياخ من الأزد ونمير وتميم ومحارب. ومع أنه اعتمد في صفين على روايات كوفية إلا أنه أضاف اليها روايات شامية ومدنية ... واذا أورد أحد الأخباريين روايات مصره أو قبيلته فانه لم يكن يستطيع اهمال الروايات المعارضة أو المتناقضة .

٦ ـ لم يحاول الأخباريون جمع الأخبار بشكل شامل فقط ولكن بشكل منظم أيضاً : متصل السلسلة في الزمن . وقد ظهر هذا خاصة في البصرة والكوفـــة .

٧ ـ وقد استخدم الأخباريون الوثائق من عهود ورسائل رسمية ومن المحتمل أنهم لجأوا إلى الدواوين وسجلات ديوان الجند والخاتم في الشام والعراق والمدينة والفسطاط .

٨ ـ تأثر الأخباريون بأسلوب المحدثين فأعطوا همهم خاصة السَّنَد ينقلونه ان انتقلوا أكثر مما ينقلون نصّ الخبر وغالباً ما كانوا يتساهلون في ايراد الأسناد وهذا ما سمح بتسرب الكثير من قصص المجالس ومن الشعر المصنوع والحوار الكلامي إلى أخبارهم ، وجعل الإحداث الإسلامية تروى في الأطر التي رويت بها « الأيام » القديمة ، كأنها استمرار لها . ويظهر التأثر القصصي عند سيف بن عمر وعوانة بن الحكم وأبي مخنف .

٩ ـ وقد أعان النسّابون الدراسات التاريخية بما قدموا ـ مع الأنساب ، من معلومات تاريخية عن أصحابها (ويظهر هذا خاصة عند مصعب الزبيري) . وقد توسع النسابون في معلوماتهم تحت ضغط التيار الشعوبي ، مما أعطى العصبية القبلية وأشراف القبائل مادة هامة تقابل ما أعطته كتب الطبقات لرواة الحديث من مادة وان تكن أقل كثرة وتنوعاً .

١٠ ـ وأعان النسابون التاريخ من ناحية أخرى هي تجاوزهم حدود الاهتمام بقبيلة واحدة إلى رواية أنساب مختلف القبائل وأحوالها فقد خلق ذلك

من جهة نوعاً من الشعور بالأمة الواحدة أفقياً، كما خلق من جهة أخرى نوعاً من التأكيد على الاستمرارية الثقافية ، عمودياً، أي أبرز مفهوم الوحدة الثقافية المتصلة بين ماضي الثقافة العربية وحاضرها . ولم يسمح هذا بتأييد دعاوى العصبية القبليـــة وأفضلية العرب الحاكمين وتكوّن شعور واعٍ لـــدى المسلمين بأنهم أصحاب رسالة عالمية ولكن أجبر في الوقت نفسه تيّار الموالي والشعوبية على الرجوع إلى التراث الأعجمي وخاصة الفارسي .

١١ ــ ونجد بالمقابل أن علماء اللغة خاصة والنحو قد قاموا في الاتجاه نفسه بعمل مماثل سواء من حيث جمع الشعر أو مفردات اللغة أو أشكال التعبير وصوره . وقد مهد هذا في الواقع لظهور وحـــدة التاريخ العربي الإسلامي .

١٢ ــ وأخيراً فقد دخل على التاريخ وبشكل مبكر رافد تنجيميّ لم يستطع التأثير الواضح فيه وبقي غريباً عنه لأن ميدان التاريخ هو الماضي بينما ميدان التنجيم هو التنبؤ بالمستقبل وكل ما أفاده منه التاريخ هو محاولة بعض المؤرخين تصحيح أو ضبط بعض الأحداث التاريخية عن طريق الأزياج والحسابات الفلكية . ولعلنا نذكر هنا منجماً معروفاً أسهم بدوره في كتابة التاريخ ضمن هذا المفهوم وإن لم يبق لما كتبه من أثر هو ما شاء الله المنجم . واسمه الأصلي ميشى (معناه يثرو) بن أثرى . وكان يهودياً عاش من أيام المنصور إلى أيام المأمون يصفه ابن النديم بأنه « كان أوحد زمانه في علم الأحكام »[1] . وقد كتب كتاب الدول والملل وكتاب السلطان ولا شك أنه مارس فيهما معلوماته النجومية كما كتب كتاباً واضح العلاقـــة بين التاريخ والنجوم هو كتاب الواحد والعشرين في القرانات والأديان والملل .

وقد ذكر الطبري كتاباً باسم كتاب الدولـــة كان يحتفظ به المنصور ثم المهدي من بعـــده ، وفيه نبوءات تنجيمية بمـــا حدث وما سوف يحدث وقد زيف فيه بعض رجال الحاشية للمهدي فجعلوا عهده أربعين سنة بدل عشر سنوات[2] .

---

(١) ابن النديم ــ الفهرست ص ٢٧٣ ــ ٢٧٤ .

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٤٦ (٤٩٦/٣ ــ ٤٩٧) .

وقد ظهر في هذه الفترة من الاخباريين ومن النسابين ومن الجامعين بين هذا وذاك عدد هام وبعض الاخباريين من الرواة الذين لم يؤلفوا،أو لم يؤلفوا كثيراً ، ولكن رواياتهم الكثيرة الهامة كانت مادة المؤلفات الأخرى ومنهم :

—الشعبي : أبو عمرو بن شراحيل المتوفى ما بين سنة ١٠٣ —سنة ١٠٥/ ٧٢١ — ٧٢٣ وقد ولد في الكوفة سنة ٦٤٠/١٩ وهو في الأصل من حمير ومن همدان فيها . ثم هو كوفي ومن التابعين ، وقد سكن المدينة عدة أشهر هرباً من المختار الثقفي . وشهد وقعة دير الجماجم مع ابن الأشعث ثم نجا من انتقام الحجاج وعفا عنه وتولى الكتابة فترة من الوقت لقتيبة بن مسلم الباهلي ، كما أوفده عبد الملك بن مروان في سفارة خاصة إلى بيزنطة وعينه عمر بن عبد العزيز القضاء . واذا غلب على الشعبي الفقه والتفسير فقد اشتهر في الواقع بما روى من الأخبار في الاسرائيليات ، أخذها عن من أسلم من أهل الكتاب، وفي القصص والتبابعة وأخبار اليمن والمغازي . ويبدو أنه كان كثير الميل إلى تتبع الأخبار يأخذها حتى عن الأعراب الذين يدعون رؤية المدن العجيبة المندثرة . وقد ورد اسم الشعبي في مواضع عديدة لدى الطبري ، ونجد هناك نماذج مما روي عنه في هذا الباب .

ولم نذكر الشعبي لما كتب وألف ولكن لما روى ، فان المصادر لم تذكر له من الكتب المؤلفة إلا القليل ، وانما أخذت عنه رواياته لغيره فسجلها الاخباريون من بعده كأنه كان رأس المدرسة والاسم الأول فيها. ويشبه في هذا الصدد بعض الشبه عبد الله بن عباس في مدرسة المدينة .

ولم يبق في أيدينا من تراث الشعبي سوى النتف الموزعة في المصادر . فهناك قطع من كتابه في (المغازي) لدى الخطيب البغدادي [١] ، وقطعة كبيرة من كتابه الآخر كتاب الشورى ومقتل الحسين في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد [٢] وهناك قطع من كتاب له في الفتوح أملاه إملاء دون أصول —

(١) الخطيب البغدادي — تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٢٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٩ — ٥٨ .

فيما يذكر الذهبي في تذكرة الحفاظ ــ وقد وصلتنا قطع منه لدى الطبري .

ــ يونس المغني أبو سليمان يونس بن سليمان المعروف بالمغني وهــو من أهل فارس . وابن النديم يذكر أنه أدرك الدولة العباسية وأنه من الموالي ، وكان مولى الزبير بن العوام ، ويضيف أنه كانت له كتب مشهورة في الأغــاني والمغنين. ويقال إن ابراهيم (الموصلي ؟) أخذ عنه . ومن كتبه : كتاب القيان . وكتاب مجرد يونس كان مصدراً من مصادر أبي الفرج الأصبهاني في الأغاني .

ــ أبو روق : عطية بن الحارث الهمداني ، من كبار رواة الكوفة ومن المفسرين المعروفين . وقد أخذ عن الشعبي كما أخذ عن عكرمة والضحاك بن مزاحم وعن يزيد الفقعسي . وبالرغم من أنه لم يرو عنه بدوره تأليف كتاب تاريخي أو اخباري الا أن الطبري يأخذ عنه في ٤٦ موضعاً في التاريخ . وينقل عنه جملاً في أخبار ما قبل الإسلام أخذها من تفسيره ، وفي الاسرائيليات . كما روى عنه أخباراً في حوادث عثمان ، وقصة عبد الله بن سبأ وقصة أبي ذر الغفاري ورأيه في مال المسلمين ...

ــ قحذم بن سليمان بن ذكوان مولى الثقفيين (عاش إلى ما بعد خلافة المنصور سنة ١٥٨) وأصله من سبي أصبهان وكان كاتب الخراج أيام يوسف بن عمر الثقفي ومن هنا كان اهتمامه بجمع المعلومات المتعلقة بالادارة كما أن عمله سمح له دون شك أن يستفيد من الوثائق الرسمية . وتكشف لنا الروايات التي نقلها خليفة بن خياط في تاريخه والطبري عن قحذم (بطريق حفيده الوليد بن هشام الذي حمل رواياته) أنه اهتّم بالفتوح الإسلامية في العراق والمشرق والشام ومصر في عصر الراشدين وطبيعة تلك الفتوح لما يترتب عليها من نظم الادارة والمال كما اهتّم بذكر ولاة العراق في العصر الأموي وبمن كان على شُرطهم بالبصرة والكوفة وواسط ومن كان على الخراج والرسائل . وذكر عصور الخلفاء وولاداتهم ووفاتهم ومواضعها وقد زاد حفيده الوليد على روايات جده بعد ذلك بالأخذ عن رواة آخرين [1] .

---

(١) يوازي قحذم ويشبهه راوية آخر هو المنيرة الذي روى عنه ابنه عبد الله بن المنيرة اخباراً ــ

ـ أبو خالد يوسف بن خالد بن عمير السمتي البصري (المتوفى سنة ١٩٠ هـ) وكان رجال الحديث يضعفونه ولكن رواياته التاريخية وصلتنا عن طريق خليفة بن خياط ونجده فيها يعنى بأخبار شمال افريقية في العصر الأموي ويذكر غزو المسلمين لصقلية وسردانية وحصار جلولاء المغرب زمن معاوية وحركات الخوارج هناك . كما يتحدث في روايات أخرى ينقلها عن أبي البراء النميري ، وعن أبي الخطاب الأسدي حول فتوح الأمويين في المشرق وقتالهم للخزر والترك . فكأنه كان مختصاً بالعصر الأموي .

ـ أبو العباس وهب بن جرير بن خازم الأزدي (المتوفى سنة ٢٠٦) وقد روى سيرة ابن اسحق وأخباراً أخرى عن أبيه وعن شعبة بن الحجاج خاصة . وبالرغم من أن مركز اهتمامه كان حول الحديث فانه أتى بأخبار تاريخية كثيرة نقل منها ابن سعد وخليفة بن خياط تتعلق بمعركة الجمل وواقعة الحرة وحركات الخوارج في البصرة كما ذكر خلال ذلك بعض خطط هذه المدينة . ورويت عنه بعض الأخبار في السيرة النبوية وفي تراجم شيوخه ومواقفهم الفكرية .

أما الاخباريون والمحدثون المؤلفون في مدرسة العراق فأقدمهم على ما يظهر هو :

ـ أبو المعتمر سليمان بن طرخان التيمي القيسي البصري (ولد سنة ٤٦ وتوفي سنة ١٤٣ عن سبع وتسعين سنة) فهو من التابعين ومن البارزين فيهم والمحدثين الثقات . « روى عن أنس (بن مالك) والحسن (بن علي) وغيرهما وكان عابداً صواماً قانتاً لله قواماً ....» كتب كتاب السيرة الصحيحة وقد فقدت إلا سبعاً وسبعين صفحة منها نشرها المستشرق فون كريمر في ختام كتاب المغازي للواقدي الذي طبع في كلكتا سنة ١٨٥٦ .

ـ أبو مخنف لوط بن يحيى (توفي سنة ١٥٧) أخباري كوفي اهتمّ

ـــــــــــــ

= تكشف أن له اهتمامات تملم نفسها : في الفتوح والخراج والديوان والخلفاء والشرطة والرسائل ـ الخ . وقد توفي المنيرة بعد خلافة الهادي .

بالأنساب ولكنه كان أبرز الاخباريين فيما يتعلق بفتوح العراق وأخبارها (كما كان الواقدي عارفاً بالحجاز والسيرة والمدائني بخراسان وفارس والهند وقد اشتركوا في معرفة فتوح الشام [1].

كتب أبو مخنف أكثر من اثنين وثلاثين كتاباً. وبعضها لا شك منحول عليه. وكانت مواضيعه تدور حول «الردة» و «الفتوح» و «الشورى» و «صفين» و «الخوارج» وأحداث العراق خلال العصر الأموي. وقد اعتمده الطبري كثيراً في هذه المواد وان اعتبره المحدثون ضعيف الاسناد بسبب تسامحه فيه. وهو يعالج في كل كتاب من كتبه حادثاً واحداً من موقعة أو حدث أو شخص. وبالرغم من أنه يورد روايات قبيلته من الأزد إلا أنه يورد الروايات الكوفية الباقية وروايات قبائل أخرى كهمدان وطي وكندة وتميم، كما يورد روايات المدينة وقد نجم عن ذلك أن ظهر أبو مخنف بميول عراقية ضد الشام وعلوية ضد الأمويين وقبلية لا تنسجم مع تنوع مصادره، ولو أنه لا يصل فيها الى درجة التعصب.

وهو لا يهمل التسلسل الزمني لحوادثه فالأحداث عنده مفصلة ولكن دون تماسك كبير وتتخللها الصور والمشاهد من خطب ومحاورات وشعر مما يقربها من قصص السمر والأيام.

ومجموعة كتب أبي مخنف — وهي في معظمها على ما يبدو رسائل — يمكن أن تؤلف تاريخاً مفصلاً يكمل بعضه بعضاً الفترة الممتدة منذ عهد أبي بكر حتى أواخر العهد الأموي لولا بعض الثغرات. ونقرأ من عناوين كتبه: كتاب الردة، كتاب فتوح الشام، كتاب فتوح العراق، كتاب الشورى وقتل عثمان، كتاب الجمل، كتاب صفين، كتاب أهل النهروان والخوارج، كتاب مقتل علي (ض)، كتاب وفاة معاوية وولاية ابنه يزيد ووقعة الحرة وحصار ابن الزبير، كتاب المختار بن أبي عبيد، كتاب سليمان بن صرد

---

(١) ابن النديم — الفهرست ص ٩٣ (طبعة فلوجل).

وعين الوردة، كتاب مرج راهط وبيعة مروان ومقتل الضحاك بن قيس، كتاب مصعب وولايته العراق، كتاب مقتل عبد الله بن الزبير، كتاب حديث باحميرا ومقتل ابن الأشعث، كتاب بلال الخارجي، كتاب نجدة أبي فديك، كتاب حديث الأزارقة، كتاب شبيب الخارجي: كتاب دير الجماجم وخلع عبد الرحمن بن الأشعث: كتاب يزيد بن المهلب ومقتله بالعقر، كتاب خالد ابن عبد الله القسري ويوسف بن عمر وموت هشام وولاية الوليد، كتاب الضحاك الخارجي .... وهناك غيرها ولكن هذه تكاد تكون كتاباً يشمل التاريخ الإسلامي في القرن الأول الهجري حتّى حوالى سنة ١٣٠ هـ.

وقد نشر فؤاد سزكين مخطوطاً لأبي مخنف وجده بعنوان أخبار الأمويين وطبعه في بريل – هولاندا سنة ١٩٧٢ ولعله بعض من هذه الرسائل – الكتب.

– عوانة بن الحكم (توفي سنة ١٤٧/٧٦٥ أو ١٥٨) وهو اخباري كوفي آخر من أصل متواضع عاصر أبا مخنف وتضلع أكثر منه بالشعر والأنساب وإن تساويا في معرفة أخبار الفتوح.

وقد روى عوانة وكتب، بعكس أبي مخنف، كتباً عامة لا تتناول موضوعاً خاصاً ضيقاً ولكن أكثر سعة، هي مطالع التاريخ الإسلامي العام، فمن كتبه:

– كتاب التاريخ: واذا صح العنوان كانت هذه أول مرة يظهر فيها الاسم بمعنى التاريخ كعلم. وهو كتاب يتناول أحداث التاريخ الإسلامي في القرن الأول الهجري. والمقتطفات عنه تكشف أنه تحدث عن الخلفاء الراشدين والردة والفتوح والصراع بين علي ومعاوية وتنازل الحسن وشؤون العراق والشام حتّى نهاية عهد عبد الملك بن مروان.

– سيرة معاوية وبني أمية: وهو بدوره أول كتاب يخصص لخليفة ولأسرة حاكمة في الإسلام. ويرجح روزنتال أن عوانة قد تناول في كتابه الخلفاء الأمويين على التوالي فإن صح ذلك وهو الأرجح فإن الكتاب يبتدىء سلسلة

التراجم الموسعة وتاريخ الدول بعد السيرة النبوية وعهد الراشدين .

والكتابان يمثلان خطوة هامة في تطور التدوين التاريخي نحو الخلاص من القبلية ، وان لم يخلص من الشعر ومن أسلوب الأيام القصصي .

والروايات التي وردت في كتابيه ــ حسب المقتطفات الباقية ــ تكشف عن معرفة قوية بدخائل العهد الأموي . ولعله أخذ معلوماته عن قبيلة كلب المعروفة لا بالوفاء للأمويين فقط ولكن بأنها (إذا نسي الناس علمهم حفظته عليهم) وذلك ما يفسر اللون الأموي الذي يصبغ مروياته ولهجته الجبرية التي تسود تفسير الحوادث فيها . على أنه لا يتعصب للأمويين وإن حُسب عليهم ، لأنه في الواقع لا يهمل الآراء المعارضة لهم ولا الروايات العراقية والمدنية . ونجد في كتاب الانساب للبلاذري روايات لعوانة بجانب الزبيريين وأخرى ضد الحجاج. ولدى الطبري روايات رواها بجانب العلويين، وأخرى ضد الكوفة .

وقد كان عوانة المصدر الذي استقى منه ابن الكلبي والمدائني والهيثم بن عدي وعن طريق هؤلاء نقل عنه الطبري .

ــ سيف بن عمر التميمي أو الضبي الأسدي : (توفي ١٨٠ هـ/٧٩٦م)
هو كوفي ثالث اخباري بدوره . نشأ في المدينة وبها تثقف ثم رحل إلى العراق وزار الكوفة ورأى الخليفة المنصور وعنه أخذ أهل الكوفة أحاديث عروة عن عائشة . وكان أهل المدينة يضنون بها . وليس لسيف كتب كثيرة ، والكتابان المرويان عنه أحدهما عن الردة والفتوحات والثاني عن الفتنة ووقعة الجمل وأخباره في الكتابين مستقاة من روايات قبيلته تميم ولهذا ظهرت فيها نظرتها القبلية والميول العراقية بشكل عام كما يظهر فيها القصص العاطفي على أسلوب الأيام . ويبدو من الروايات التي نقلها الطبري عن سيف أنه كانت له كتب أخرى ولكنها ضاعت . وسيف بن عمر متهم كمعظم الاخباريين في رواية الحديث ولكنه عند الطبري موثوق في الأخبار. وتظهر قيمته لديه إذا عرفنا أنه ينقل عنه في أكثر من ثلاث مائة موضع . يرد اسم سيف لأول مرة في ذلك

التاريخ سنة ١٠ هـ ، السنة التي ادعى فيها مسيلمة النبوة في حياة الرسول وينتهي النقل عنه لآخر مرة سنة ٣٦ هـ ، في ابتداء خروج علي بن أبي طالب إلى صفين ؛ وقد اعتمد الطبري عليه أكثر ما اعتمد في أخبار الردة ومعركة الجمل .

ومصادر أخبار سيف جملة من الشيوخ منهم :

ـ هشام بن عروة المتوفى سنة ١٤٦ أو سنة ١٤٧، من محدثي المدينة ومن النسابين الاخباريين ، ومنهم عروة نفسه وعبد الله بن الزبير أخوه ، كما أخذ المعلومات التاريخية المتعلقة بمعركة الجمل عن شهود عيان ذكر الطبري أسماءهم فيما نقله عنه . ويبدو أن كتب سيف بن عمر كانت لدى راوية من الجيل الثاني اسمه السري بن يحيى وعنه نقل الطبري في الدرجة الأولى روايات سيف كما نقل عن طريق آخر هو عبيد الله بن سعد الزهري المتوفى سنة ٢٦٠ هـ .

ـ أبو البختري وهب بن وهب القاضي القرشي المدني المتوفى سنة ٢٠٠/٨١٥ ـ ٨١٦ في بغداد في خلافة المأمون . وقد نشأ الرجل في المدينة وأخذ العلم والفقه عن جعفر الصادق ، وهشام بن عروة بن الزبير وعبيد الله بن عمر العمري، وانتقل من المدينة إلى بغداد فيمن انتقل اليها أثناء خلافة هارون الرشيد ، فولاه القضاء بعسكر المهدي ، في شرقي بغداد .

واذا كان أبو البختري من الذين ضعفوا في الحديث عند أهل الحديث حتى نهى بعضهم عن الأخذ منه (١) إلا أنه كان من الاخباريين النسابين المعروفين ؛ وقد روى عنه عدد من الفقهاء ومن الاخباريين أمثال ابن واضح وابن ثعلب والصاغاني وابن المسيب . وله عدد من المصنفات الضائعة منها : ـ حسب رواية ابن خلكان ـ كتاب الروايات ، كتاب طسم وجديس ، كتاب صفة النبي ﷺ ، كتاب فضائل الأنصار . كتاب الفضائل الكبير ، كتاب نسب

---

(١) انظر لسان الميزان ج ٦ ص ٢٣١ وما بعدها. وانظر ترجمة ابي البختري لدى ابن خلكان ـ الوفيات (طبعة احسان عباس ـ بيروت ١٩٦٧) ج ٦ ص ٣٧ وما بعدها . ولدى ابن سعد ـ الطبقات ج ٧ ص ٣٣٢ ومعجم الأدباء لياقوت ج ١٩ ص ٢٦ .

ولد اسماعيل عليه السلام. ويحتوي كما ذكر في الوفيات على قطعة من الأحاديث والقصص.

– نصر بن مزاحم بن سيار: أبو الفضل المنقري التميمي (توفي سنة ٨٢٧/٢١٢) وهو كوفي أيضاً واخباري بارز. ومع أن بروكلمان يذكر أنه أول اخباري شيعي فقد لا يكون ذلك صحيحاً لاسيما إذا تذكرنا أبا مخنف ومحمد بن السائب الكلبي وهما أقدم منه بكثير. وعلى أي حال فقد دارت مواضيع كتبه في المحور نفسه: وقعة الجمل، وصفين ومقتل الحسين ومقتل حجر بن علي، وأخبار المختار ومناقب الأئمة.

وقد عاد نصر كما نلاحظ إلى أسلوب الكثيرين من تخصيص كتاب لحادثة. ولم يبق بأيدينا شيء من كتبه. وقد طبع له مؤخراً كتاب صفين الذي جمع من خلال المقتطفات التي وجدت منه لدى الطبري وابن أبي الحديد بصورة خاصة[1]. وهذا ما يدل على شدة اهتمام المؤرخين به.

ويكشف الكتاب الكثير من منهج نصر وأسلوبه فهو شديد القرب من أسلوب الأيام وقصص الاسمار، فيه الشعر والحوار والخطب وكثير من ذلك موضوع. ولا يشدد نصر في اصطناع الاسناد أو في تحديد التواريخ ولكنه لا يخفي ميوله ضد معاوية والحزب الأموي.

– الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن الثعلي (١٣٠ – ٢٠٧ هـ / ٧٤٧ – ٨٢٢ م) يحتل مكانة خاصة في تطور التأريخ لا لجمعه بين دراسات التاريخ والأنساب فقط ولكن للطريقة التي تناول بها التدوين التاريخي وللمفهوم التاريخي عنده وللكتب التي ألفها. وبالرغم من أن ميدانه الثقافي يشبه ميدان ابن الكلبي والمدائني وإكثاره من التأليف يجمعه معهما الا أنه يجب أن يتميز عنهما بمفهومه التاريخي.

وقد عاش في بغداد في جو من الحسد والنقد لأنه كان كثير الفضول ومناصبة الناس الهجوم. كما كان رقيق النسب. وبينما كان بعض العلماء

(١) نصر بن مزاحم تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون (ط. القاهرة – الطبعة الثالثة ١٣٨٢).

يتوقاه حتى ليلوب أمامه، كابن الكلبي هشام، كان آخرون وخاصة من الشعراء يسلقونه بالهجاء كأبي نواس ودعبل الخزاعي . ولا يوثقونه كمحدّث . ويروون أن جاريته قالت عنه: إنه كان يصلي طول الليل فاذا أصبح جلس يكلب !... تعني يروي الأخبار !

ومصادر معلوماته ، في الأخبار والنسب كغيره؛ إلا أنه فيما يظهر قد اطلع أيضاً على بعض الكتب في أخبار الفرس وغيرهم ولعلها مترجمة لأننا نجد في قائمة كتبه أكثر من كتاب في هذا الباب مثل : تاريخ العجم وبني أمية ، تاريخ الفرس ، كتاب الدولة . وهي مؤلفات لها شأنها في تسجيل الاتصال الثقافي العربي الفارسي اليوناني .

وقائمة كتبه طويلة جداً تزيد على الخمسين [1] ولعل بعضها رسائل صغيرة . ولكنها كثيرة التنوع وبعضها في أنساب القبائل وأخبارها وبيوتها ، وبعضها في المثالب وفي ولاة الأمصار وبعض في الخوارج وفي أخبار الفرس وبعض كذلك في تاريخ عمال الشُرط وفي الخطط .. خطط البصرة والكوفة ، أي في التاريخ الحضاري . ولعلنا نستطيع قسمتها إلى أربع مجموعات :

الأولى : الكتب المتصلة بالأنساب وبالمعلومات النسبية من أمثال كتاب المثالب (الكبير والصغير) وكتب الأحلاف (حلف طي وكلب وتميم وأسد ودهبل... الخ) وكتب البيوتات (بيوتات قريش والعرب) وكتب المعمرين أو من تزوج من الموالي من العرب أو أسماء بغايا قريش في الجاهلية ومن ولدن . وكتبه في المثالب خاصة أعطته شهرة واسعة .

الثانية : الكتب التاريخية وهي أهم كتبه وفيها كتاب الدولة (أي العباسية) وتاريخ العجم وبني أمية ، وتاريخ الأشراف (وهو كتابان كبير وصغير) وأخبار الفرس ، وكتب الطبقات (للفقهاء المحدثين ، ولمن روى عن الرسول

---

(١) انظر القائمة في الفهرست لابن النديم (ص ٩٩ – ١٠٠) وفي معجم الأدباء لياقوت .

من الصحابة .. الخ) وكتاب التاريخ المرتب على السنين ولعله أقدم كتاب تاريخ عالمي أو إسلامي في الإسلام .

وبين هذه الكتب مجموعة تختص بمواضيع محددة مثل : كتاب الصوائف وهو مؤلف فريد في ذكر غزوات العرب المسلمين للروم . وكتاب الخوارج . وكتاب شُرط الخلفاء ، وعمال الشُّرط لأمراء العراق ، وخواتيم الخلفاء وأخبار الحسن عليه السلام وأخبار زياد بن أمية ومقتل خالد القسري ومقتل الوليد بن يزيد بن خالد ...

الثالثة : كتب في تواريخ الأقاليم ومنها : كتاب خطط الكوفة ، وكتاب ولاة الكوفة ، وقضاة الكوفة والبصرة ، وفخر أهل الكوفة على أهل البصرة ، ومديح أهل الشام ومداعي أهل الشام .

الرابعة : كتب في المواضيع النادرة ومنها : كتاب النوادر ، كتاب النساء ، كتاب المواسم ، كتاب المحبر ، كتاب النشاب ، كتاب النوافل ، كتاب منتخل الجواهر ... الخ .ولا شك أن من أهم كتبه :

ا ــ كتاب التاريخ المرتب على السنين ولعله المثال الأقدم الذي كتب في الاسلام لتاريخ العالم أو الاسلام والذي نسج الطبري على منواله حتى أصبحت كتابة التاريخ العالمي على أساس الحوليات هي المنهاج التاريخي التقليدي من بعد . ويعبر الكتاب عن ادارك واضح لمفهوم وحدة التاريخ ، أو وحدة التاريخ الإسلامي خاصة كما يعبر عن اد اك وحدة الأمة الإسلامية ووحدة تجاربها عبر السنين .

ب ــ تاريخ الاشراف الكبير وهو كتاب التاريخ في إطار الأنساب جمع فيه بين طرفي الأخبار والنسب . وقد قلده البلاذري من بعد في كتابه المعروف : أنساب الأشراف . وتنعكس في الكتاب نظرة الأرستقراطية العربية إلى مكانها في المجتمع الإسلامي .

جـ ــ طبقات الفقهاء والمحدثين وهو في تراجم هؤلاء على أساس طبقاتهم . ولعله أول كتاب من نوعه على طريقة الطبقات أيضاً سبق به طبقاتْ ابن سعد. ولعل

هذا نسج على منواله في الطبقات الكبرى . ويعبر الكتاب عن ادراك لتسلسل التراث الإسلامي ووحدته خلال الأجيال المتتابعة من علمائه طبقة بعد طبقة .

ولم يبق من هذه القائمة الطويلة من الكتب حتى الآن سوى بعض المقتبسات التي نجدها لدى البلاذري في أنساب الأشراف وابن قتيبة في كتاب المعارف ولدى الطبري وفي مروج الذهب للمسعودي .

وبالرغم من أن الهيثم بن عدي يتهم بقلة التدقيق وبالتساهل في الاسناد فان هذا لم يمنع الكثيرين،ومنهم الطبري ، من أن يأخذوا عنه كثيراً . وقد اعتمده الطبري خاصة فيما يتعلق بالأنبياء وبسيرة النبي وبالراشدين والأمويين وبعض أخبار العباسيين كالمنصور وبغداد والمهدي . ويجب أن نذكر الهيثم :

١ ـ أنه كان ذا فكر منظم جامع ، وطد للمؤرخين طرائق كانَ من الرواد الكبار فيها وأصبحت بعد ذلك مناهج في التأليف وفي تدوين التاريخ : هي الحوليات والطبقات والتاريخ العالمي .

٢ ـ أنه كان أول من كتب في الشؤون الحضارية والأثرية والنظم السياسية والقضائية في كتبه عن خطط الكوفة والبصرة وعن الولاة والقضاة والشرطة وجمع بذلك معلومات طبغرافية وجغرافية وسكانية وادارية وقضائية عن بعض الأمصار تكشف عن مفهوم تاريخي متطور جداً وجدير بالتوقف عنده لا سيما حين نجد له كتاباً في (الدولة) ، وإن كنا نظن أنه حول الدولة العباسية .

٣ ـ ان انتاجه التاريخي كان وفيراً مما أعطى المؤرخين الكبار الذين سيظهرون بعده ثروة ضخمة من المعلومات المنظمة .

٤ ـ أنه يمثل مطالع الاتصال بين الفكر التاريخي الإسلامي وتواريخ الأمم الأخرى وهو اتصال لم ينمُ كثيراً في الإسلام ولكن الهيثم كان أول من سجل وجوده وألف فيه .

ـ المدائني : علي بن محمد بن عبد الله (١٣٥ ـ ٢٢٥ / ٧٥٢ ـ ٣ / ٨٤٠)

الذي يمكن اعتباره قمة الطور الأخباري السابق للتأريخ . وهو بصري صار إلى المدائن ثم إلى بغداد وتوفي بها [1] . وارتبط برابط قوي من الصلة مع ابن إسحق بن ابراهيم الموصلي الموسيقي البغدادي المعروف . وكان شديد الحدب عليه ، موفراً له سعة العيش والدعة . وقائمة كتب المدائني تجعله أول قائمة المكثرين من التأليف في الإسلام . ولعله بالنسبة لعصره أكثر غزارة في الانتاج من ابن الجوزي أو السيوطي أو ابن طولون ، أو ابن عربي أو ابن سينا في عصورهم . وتعد قائمة المدائني ٢٤٠ كتاباً . وهو فيض هائل قد يكون معظمه مقالات أو رسائل محدودة الصفحات . وقد قسمها مرغليوث إلى ثماني مجموعات وذكر أنها قد تشبه مجموعة من الفصول في كتاب أكثر من شبهها بالكتب المطردة ..

١ — في أخبار النبي ، مثل أمهات النبي . صفة النبي . أخبار المنافقين . عهود النبي . تسمية المنافقين .

٢ — في أخبار قريش مثل نسب قريش . كتاب العباس بن عبد المطلب . أخبار أبي طالب وولده ...

٣ — مناكح الأشراف وأخبار النساء . من جمع بين أختين . من جمع بين أربع . من تزوج مجوسية . من قتل عنها زوجها . من هجاها زوجها ... وهي مجموعات من غرائب الأخبار .

٤ — أخبار الخلفاء وهي كل ما يجب أن نسميه تراجم أو سير أشخاص ولعلها من المؤلفات القصيرة مثل .. كتاب من تزوج من نساء الخلفاء . تسمية الخلفاء وكناهم وأعمارهم . حلى الخلفاء . وفي هذه القائمة كتاب أخبار الخلفاء الكبير ابتدأه بأخبار أبي بكر وختمه بأخبار المعتصم . ولا شك أن ما نجده عند المؤرخين التالين مروياً عن المدائني فإنما هو مقتطفات من هذا الكتاب .

---

(١) انظر فيما يتعلق بالمدائني ياقوت الحموي . وانظر (دراسات عن المؤرخين العرب) لمرغليوث وقد اعتمدناه في عدد من النقاط في هذه الترجمة وفي غيرها . وقد ظهر كتاب عنه بعنوان : «شيخ الإخباريين» بقلم محمد فهد (طبعة النجف سنة ١٩٧٥) .

٥ ــ في الأحــداث الرئيسية في الإسلام . وهي بدورهــا رسائل صغيرة في الغالب .. كتاب الردة . كتاب الجمل . كتاب النهروان . كتاب الخوارج . خطب علي بن أبي طالب وكتبه إلى عماله . أخبار الحجاج ووفاته . ويضيف ياقوت إلى هذه القائمة كتاباً كبيراً لم يذكره الفهرست باسم كتاب الدولــة العباسية وقد وقع بعضه لياقوت بخط السكري العالم المنقب .

٦ ــ في الفتوح .. فتوح الشام منــذ أيام أبي بكر حتى أيام عثمان . فتوح العراق وإلى آخر أيام عمر . فتوح خراسان وأخبار أمرائها (مثل قتيبة ونصر بن سيار). كتاب ثغر الهند وكتاب أعمال الهند . والقائمة في هذه المجموعة طويلة تغطي منطقة الفتوح الإسلامية عدا افريقية الشمالية واسبانيا . ولعل معظم المــادة في هذه الكتب قد دخل في كتب البلاذري ، في العصر التالي ، أو فيما عزي اليه من بعــد .

٧ ــ أخبار العرب وتضم مجموعــة من الأخبار الغريبة ولكن في إطار الأساليب العربية التقليدية .. كتاب من نسب إلى أمه . كتاب من سمي باسم أمه . كتاب الخيل والرهان . كتاب بناء الكعبة .

٨ ــ التاريخ الشعري ، وعناوين الكتب في هذه المجموعة تعكس بدورها ولع المدائني بالغريب من الخبر والحديث .. كتاب من تمثل شعره في مرضه . كتاب الأبيات التي جوابها كلام . كتاب من وقف على قبر فتمثل بشعر . كتاب من بلغه موت رجل فتمثل شعراً أو كلاماً . كتاب من تشبه من النساء بالرجال . كتاب عن فضل الاعرابيات على الحضريات ... ويضيف ياقوت إلى هذه المجموعة من الرسائل الصغيرة في الغالب قائمة أخرى من الكتب المطولة لعلها تضمنت مادة أكثر أصالة وسعة من هذه المجاميع السابقة وكانت أقرب إلى التاريخ منها إلى الرسالة أو المقالة . وفي هذا المجــال لدينــــا مجموعتــان ..

٩ ــ كتب في التاريخ الحضاري .. قضاة أهــل البصرة . قضاة أهل

المدينة . ضرب الدراهم والصرف . كتاب المدينة . كتاب مكة ...

١٠ - كتب أخلاقية وجغرافية . منها مقالة في الكور وجبايتها .... وهو جهد مدهش في التأليف والنشاط الثقافي حتى ولو كانت رسائل محدودة الحجم . وهي تكشف بعناوينها وبالمعلومات التي يمكن أن تحويها :

أ - ميل المدائني إلى المواضيع الغربية والمعارف الطريفة والتفاصيل الشيقة المثيرة الفضول .

ب- أن المدائني كان مرحلة انتقال من الرواية المفردة إلى الكتاب المطرد.

جـ- اطلاع المدائني الواسع على التاريخ الإسلامي كله وقد رتبه على استخلاص الأمور المتشابهة من خلال معلوماته الواسعة . وهي قدرة فريدة في بابها، تعكس نوع الاهتمامات الثقافية السائدة في ذلك العصر .

وقد بقي لنا من المدائني إلى اليوم كتاب واحد فقط هو نسب قريش وأخبارها كما بقيت لنا مقتطفات عديدة من مؤلفاته المختلفة ونجد منها خاصة في العقد الفريد لابن عبد ربه مجموعة كاملة لخطب ورسائل علي بن أبي طالب هي أيضاً التي نجدها في (نهج البلاغة) الذي جمعه الشريف الرضي ولو أنه لم يكن يثق كثيراً في المدائني . ومصادر معلومات المدائني كانت من جيل الاخباريين الذي سبقه .. من أبي مخنف وابن اسحق والواقدي وقد أضاف إليها بحوثه الخاصة وتوسع في الأخذ من روايات المدينة واستفاد من روايات البصرة خاصة فيما يتعلق بالخوارج ومدينة البصرة وبفتوح خراسان وما وراء النهر . وتوسع في جمع المادة فجاءت أخباره أوفى بكثير من غيره .

وقد اتبع المدائني في المنهج التاريخي طريقة المحدثين في نقد الروايات وإثبات الأسناد مما أعطاه لوناً من الثقة لدى الناس . كما نظم المادة الواسعة التي وقعت له تنظيماً متوازناً خدم التأليف التاريخي ، وكان بذلك كله خطوة هامة في تطور عملية التأريخ كما أضحى المصدر الرئيسي للمؤرخين التالين .

ولعل آخر من يأتي في هذه السلسلة من رواد المدرسة العراقية اثنان .. أحمد بن الحارث الخزاز (توفي سنة ٢٥٨ هـ .) مولى للمنصور(؟) وهو صاحب المدائني وقد ألف مثله في السيرة النبوية (مغازي النبي وسراياه وذكر أزواجه) وفي الخلفاء (أسماء الخلفاء ، أخبار أبي العباس ، كتاب الخلفاء) وفي الفتوح (كتاب مغازي البحر في دولة بني هاشم ، وذكر أبي حفص صاحب إقريطش) وفي الجغرافيا (المسالك والممالك) وفي أمور أخرى متفرقة (كتاب الأخبار والنوادر ، كتاب شحنة البريد ، كتاب القبائل ، كتاب الأشراف ، كتاب أبناء السراري) ... ولم يبق من هذا المؤرخ شيء يتعدى بعض المقتطفات لدى الطبري وغيره .

عمر بن شبة بن عبيد (توفي سنة ٢٦٢ عن تسعين عاماً / ٨٧٦ م) . وهو بصري .. شاعر اخباري وفقيه وقد روى عن ابن سلام وهارون بن عبد الله وابراهيم بن المنذر فهم مصادر معلوماته . أما كتبه فتزيد على ٢٢ كتاباً معظمها تاريخي ومنها .. كتبه عن الكوفة والبصرة والمدينة ومكة . وكتبه عن أخبار بني نمير ومقتل عثمان وأخبار المنصور وكتبه عن أمراء الكوفة وأمراء البصرة وأمراء المدينة وأمراء مكة . وكتاب الكتاب وله : كتاب محمد وابراهيم ابني عبد الله المحض ، كتاب التأريخ . وكتاب السلطان (ولعله تأثر فيه بالثقافة الفارسية) وكتب أخرى في الأدب والنسب [1] .

وأما عن النسابين والأنساب ، فإن تجدد العناية بتعلم الأنساب بعد الفتوح الإسلامية خاصة وانشاء الدواوين ثم التوسع في ذلك خلال العصر الأموي بسبب العصبيات القبلية التي ظهرت فيه ، وحاجات الادارة ، والعطاء ، وعملية الإسكان للقبائل في الأمصار وظهور أرستقراطية عربية إسلامية في القرن الأول تحاول الحفاظ على امتيازاتها مقابل نمو الشعوبية كل ذلك أوجد حاجة اجتماعية علمية ــ اقتصادية أشد إلى الأنساب منها في العهد الجاهلي .

---

(١) انظر ابن النديم ــ الفهرست ص ١١٢ ــ ١١٣ .

وحين انصرف النسابون إلى جمع المادة وتسجيلها جمعوا معها ومن حولها الكثير من المادة التاريخية التي دخلت التاريخ من بابه الأوسع .

ولعل أول خط تاريخي كتب في الإسلام إنما كان في النسب وإنما كان على يد أولئك النفر الثلاثة الذين أتى بهم عمر بن الخطاب فعهد إليهم بوضع سجلات الأنساب للدواوين التي أنشأها . وهؤلاء هم :

– أبو عدي جبير بن مطعم بن عدي القرشي .

– أبو يزيد عقيل بن أبي طالب عبد مناف الهاشمي (شقيق علي) .

– أبو صفوان مخرمة بن نوفل بن أهيب الزهري القرشي .

فسجلات هؤلاء التي دونوها كانت أساس كتب النسب وسجلاته الرسمية في الإسلام . وقد سجلت في الأمصار العربية وخاصة في البصرة والكوفة – ثم في واسط – من العراق ، وفي دمشق بالشام وفي مصر ، سجلات أنساب أخرى كان مركزها « دواوين » الجند . وقد رأينا بعضها يحرق في البصرة خلال ثورة ابن الأشعث سنة ٨٢ – ٨٣ هـ. ويبدو أن بعض هذه السجلات كان مصدراً من مصادر معلومات النسابين والمؤرخين . وقد ظهر نسابون كثيرون بعد ذلك جمع بعضهم إلى النسب علم الأخبار والأدب أيضاً ، ومن أبرزهم :

محمد بن السائب الكلبي (توفي ١٤٦ / ٧٦٣) وقبيلته في الشام مهدت له الاتصال بعلم الأنساب ، مع الأدب والأخبار ، فحاول جمع أطراف هذا العلم معتمداً حسب ما قال على أفضل نسابة في كل قبيلة [1] . وأضاف إلى ذلك شعر النقائض .

وهو متهم بالتشيع مع أن هذا قد يكون السبب في نقد المحدثين له إلا أن ثمة اتفاقاً على أنه أول النسابين الكبار ولكنه روى ولم يؤلف في النسب .

---

(١) ابن النديم . الفهرست ، صفحة ٩٥ (طبعة فلوجل) .

وقد تابع العلم من بعده ابنه الذي عاش في كنف أحد البرامكة : جعفر ، كما اتصل بالمأمون وهو : هشام بن محمد الكلبي (توفي ٨١٩/٢٠٤) على أنه توسع أكثر من أبيه بالأخبار والتاريخ وألف في ذلك كله فقائمة كتبه قرابة ١٥٠ كتابـــاً .

وعناوينها تشبه أن تكون عناوين مقالات في مواضيع محددة وتشتبه كثيراً بقائمة كتب المدائني فهما يجريان في الواقع في ميدان واحد . وقد قسم ابن النديم تلك الكتب إلى مجموعات [1] .. نعدها في مجموعات عشر ..

الأولى .. كتبه في الأحلاف .. حلف عبد المطلب وخزاعة . حلف الفضول . حلف كلب وتميم ..

الثانية .. كتبه في المآثر والبيوتات والمنافرات . ومع أنها تخدم عامــة الأرستقراطية العربية الا أن فيها الكثير من الكتب التاريخية من مثل كتاب بيوتات قريش . بيوتات ربيعة . بيوتات اليمن .

كتاب الكنى . كتاب شرف قصي بن كلاب . كتاب ألقاب قريش . ألقاب ربيعة . ألقاب اليمن .

كتاب المثالب . كتب في النوافل . أخبار العباس بن عبد المطلب . كتاب ملوك الطوائف(؟) . كتاب ملوك كندة . كتاب ملوك اليمن من التبابعة . كتاب تفرق الأزد . كتاب طسم وجديس .

الثالثة .. كتبه في أخبار الأوائل .. وهي مجموعة تتناول العهود السابقــة للإسلام منذ آدم حتى الجاهلية ويدخل فيها كتب عن عاد وعيسى وبني اسرائيل وحمير . كما تدخل كتب عن أديان العرب والأصنام وحكام العرب والخيل والجن والسيوف والقداح ...

---

(١) ابن النديم ، الفهرست ص ٩٦ – ٩٨ ويلاحظ أن أقسام ابن النديم يختلط بعضها ببعض فهي ليست دقيقة القسمة وذلك حسب عناوين الكتب على الأقل .

الرابعة .. كتب ما قارب الإسلام من أمر الجاهلية .. مثل كتاب اليمن وأمر سيف. كتاب أزواج النبي . كتاب من هاجر وأبوه . كتاب أخبار عمرو ابن معديكرب ..

الخامسة .. كتبه في أخبار الإسلام .. كتاب التاريخ . كتاب تاريخ أخبار الخلفاء . كتاب صفات الخلفاء .....

السادسة .. كتبه في أخبار البلدان والجغرافيا .. كتاب البلدان الكبير . البلدان الصغير . كتاب أسواق العرب . كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات . كتاب قسمة الأرضين . كتاب الأقاليم ... الخ .

السابعة .. كتبه في أخبار الشعر وأيام العرب .. كتاب المنذر ملك العرب .. كتاب داحس والغبراء . كتاب أيام فزارة . كتاب الأيام . كتاب مسيلمة الكذاب ...

الثامنة .. كتبه في الأخبار والأسمار .. كتاب الفتيان الأربعة . كتاب عجائب البحر . كتاب الأحاديث .

التاسعة .. كتب الأنساب.. النسب الكبير. ويتضمن، بجانب نسب نصر ونسب اليمن ، كتباً أخرى في الأنساب المفردة .. لقريش وولد العباس . ومعد بن عدنان ... وكتاب الكلاب الأول والكلاب الثاني (وهما يومان من أيام العرب) . وله كتاب جمهرة الجمهرة . وقد صنف كتاب (الملوكي) في الأنساب لجعفر البرمكي وكتاب الفريد في الأنساب للمأمون .

العاشرة .. وأخيراً كتب تتعلق بالخلفاء .. أولاد الخلفاء . أمهات الخلفاء . كنى آباء الرسول . أمهات النبي .

ولم يبق لدينا من كتبه سوى (الأصنام) وقد طبع ، وجزء من كتاب جمهرة النسب ، مخطوط بالمتحف البريطاني . وهو يحوي مع الأنساب بعض

الملاحظات عن الرجال. وبالرغم من أن الهمداني يعتبره ناقصاً في أنساب اليمن إلا أنه أضحى المرجع الأساسي للمؤلفين من بعد .

ويلاحظ أن ابن الكلبي اهتم خاصة بما سبق الإسلام من أحوال العرب والناس أكثر من اهتمامه بالتاريخ الإسلامي . واهتم بالأنساب والأدب كذلك قدر اهتمامه بالأخبار . وتتنوع مصادر معلوماته فهو يأخذ عن أبيه وعن عوانة وأبي مخنف والرواة من القبائل خاصة، إلا أنه يضيف مصادر مترجمة في الغالب عن الفارسية فيما يتعلق بتاريخ إيران، وشعبية أسطورية فيما يتعلق بتاريخ اليمن ، وعن أهل الكتاب فيما يتعلق بتاريخ الأنبياء السابقين . وبعض معلوماته مأخوذة عن الوثائق أو عن كتب سريانية أو اغريقية في كنائس الحيرة وأديرة العراق .. مثل كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات ، وكتاب المنذر ملك العرب . وكتب الأقاليم والبلدان . وهو في هذا وثيق المعلومات كما أنه وثيق كذلك في أمور الأنساب وأحوال الجاهلية . وتضطرب الثقة بمعلوماته حين يتناول تاريخ اليمن لأنه يعتمد على القصص الشعبي المتداول، ومن الصعب الافتراض بأنه يعرف التواريخ اليمنية القديمة أو يقرأ الخط المسند الذي كتبت به النقوش الأثرية والمخلفات المكتوبة .

وقد عاصر ابن الكلبي نسابة آخر اهتم خاصة بالنسب ، هو :

ـ أبو اليقظان النسابة (توفي ١٩٠هـ/٨٠٨ م) واسمه عامر بن حفص وكان مولى لبني تميم [١] ويلقب بسحيم . وكان عالماً بالأنساب والأخبار والمآثر والمثالب . ويتميز بأنه كان أول من ألف في الأنساب عامة نقلاً عن الروايات القبلية . وله من الكتب : النسب الكبير ، وكتاب أخبار تميم ، وكتاب نسب خندف ... وكتاب النوادر. ولكن هذه الكتب ضاعت فليس منها الآن سوى مقتطفات متفرقة . وقد نقل المدائني كثيراً عنه . ويبدو أنه أولى عناية للنوادر وأن كتابه بهذا العنوان لقي بعض الرواج، وقد اطلع عليه ابن النديم في القرن

(١) انظر الطبري ج ٤ ص ٤٤٩ .

الرابع . ولهذا أيضاً مزج في كتابه النسب الكبير ما بين الأنساب والأخبار . وتؤكد المقتطفات المأخوذة عنه لدى البلاذري وابن خياط وغيرهما هذه الملاحظة كما تؤكد أمراً آخر هو عنايته بأخبار البصرة وأحداثها .

وثمة من العصر نفسه بين علماء النسب والأخبار ..

– عبد الرحمن بن عبدة ..وكان من النسّابين الثقات حسن المعرفة بالمآثر والأخبار وأيام العرب . وقد ألف على مثال ابن الكلبي .. كتاب الشجعان بالاضافة إلى ١١ كتاباً آخر في الأنساب المختلفة (١) .

وهناك أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية مولى بني العباس (المتوفى سنة ٢٤٥ هـ) وقد كان من علماء ورواة بغداد البارزين في النسب والأخبار واللغة والشعر . روى عن أبي عبيدة وقطرب وتلمذ لأبي اليقظان النسابة وغيره . عمل مؤدباً وألف من الكتب ما بلغ في تعداد ابن النديم ثلاثة وثلاثين كتاباً تمثل منه بقية مدرسة الإخباريين في كثير من النواحي ، أو مرحلة الانتقال بينها وبين مدرسة التاريخ . ومن هذه الكتب :

كتاب تاريخ الخلفاء ، كتاب مقاتل الفرسان ، ثلاثة كتب حول الأمهات : أمهات أعيان بني عبد المطلب ، أمهات الشيعة من قريش ، أمهات النبي . وسبعة كتب في الشعر وكتب في الخيل والنبات والأرحام . هذا عدا ثمانية كتب في النسب منها كتاب في المؤتلف والمختلف لعله أقدم ما صنف في هذا الفن وقد سلم هذا الكتاب وطبعه المستشرق وستنفلد (غوتنغن سنة ١٨٥٠) كما بقي من مؤلفاته أيضاً :

– كتاب المحبر وفيه خلاصات تاريخية هامة . طبع بعناية المستشرقة شتيتر في بيروت (دون تاريخ) .

---

(١) انظر ابن النديم ص ١٠٥ .

— كتاب المغتالين ، وكتاب من نسب إلى أمه . ومنهما مخطوطتان في دار الكتب بمصر .

أما كتابه الضخم والأكبر فهو : كتاب القبائل الكبير والأيام كتبه للفتح ابن خاقان في أربعين جزءاً كل جزء في ٢٠٠ ورقة (١٦ ألف صفحة) ووضع له فهرساً في ثلاثين صفحة . رآه ابن النديم في القرن الرابع بخطه . وقد ضاع هذا الكتاب .

ولنلاحظ أن ثمة علماء في النسب فهموا هذا العلم على وجه سلبي ، وبدل أن يكون سجل مفاخر العرب جعلوه مستودع المثالب وألفوا التآليف العديدة في ذلك دعماً للشعوبية . ومن أبرزهم (١) :

علان الشعوبي (توفي في أوائل القرن الثالث) وكان منقطعاً إلى البرامكة وينسخ في دار الحكمة للرشيد والمأمون . وهو راوية عارف بالأيام والأنساب ، ولكنه لم يدع قبيلة أو حياً من أحياء العرب إلا كتب عن مثالبها في (كتاب المثالب) الذي جمع المطاعن حول ما يزيد على ٧٥ قبيلة عربية من بينها قريش . ولا شك أن الكتاب كان يحوي بهذا الشكل الكثير مما يهم التاريخ. ولعلان بجانب هذا الكتاب ، خمسة أخرى من بينها كتاب الميدان الذي ذكر ابن النديم أنه هتك فيه العرب وأظهر مثالبها ...

ثم ظهر بعد هؤلاء :

— مصعب بن عبد الله الزبيري (توفي سنة ٢٣٣ أو ٢٣٦/ ٨٤٧ — ٨٥٠ وله ٩٦ سنة) . وقد كتب كتابين هما النسب الكبير وقد ضاع ، ونسب قريش وقد وصلنا . ومصادره مأخوذة عن الزهري وعن والده وعن بعض علماء

(١) لعل أول كتاب كتب في مثالب العرب ذلك الذي كتبه حسب رواية ابن النديم (ص٨٩) زياد بن أبيه ليدفع هجوم العرب على نسبه المدخول . وانظر قائمة مؤلفات علان لدى ابن النديم ص ١٠٥ — ١٠٦ .

النسب والرواة ، وبعضهم رواة شفهيون . أما الإطار الذي أفرغ فيه الكتاب (فهو الذي اتبعه ابن الكلبي من قبل والبلاذري من بعد) . وأما محتويات الكتاب «فتلقي ضوءاً خاصاً على التحولات في الروابط القبلية وعلى التبديلات في خطوط الأنساب. ويعطي الزبيري بالاضافة إلى ذلك أخباراً بعضها مهم مفصل عن بعض الشخصيات الهامة من جاهلية وإسلامية»[1] ، وبصورة عامة .

وقد تلمذ على مصعب ابن أخيه ..

— أبو عبد الله الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب القرشي ، ولد سنة ٧٨٨/١٧٢ في المدينة وتوفي سنة ٨٧٠/٢٥٦ . وله أربع وثمانون سنة . وهو من أهل المدينة ، اصطدم مع العلويين فيها فانصرف إلى بغداد ثم تولى قضاء مكة سنة ٢٤٢ حيث توفي وترجمته موفورة في العديد من المصادر [2] . وقد كتب خاصة في الأخبار وأخبار الشعراء والعهد الجاهلي ، وفي النسب . ونجد بين كتبه مثلاً قديماً لتسمية الكتاب باسم من ألف له . فهو يعطي كتابه في اللغة اسم الموفقيات لأنه ألفه للموفق بالله أخي الخليفة المعتمد . أبرز كتبه كتاب بقي لنا هو : كتاب نسب قريش وأخبارها ، وهو يختلف في ترتيبه ومضمونه عن كتب النسب الأخرى . وقد لاحظ شيئاً من ذلك معاصره اسحق الموصلي فقال : «لقد سماه صاحبه كتاب النسب وهو في حقيقته كتاب الأخبار»[3] . اقتبس منه أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني ، في كافة الفصول تقريباً . ونجد مخطوطات منه أو من بعض أقسامه في استانبول وغيرها . كما طبع الجزء الأول منه في القاهرة (بتحقيق محمود محمد شاكر سنة ١٩٦١) .

وأما الموفقيات فكتاب أقاصيص تاريخية تمازجه القصائد الكثيرة . وولع الزبير بالشعر يبدو في هذا الكتاب كما يبدو في كتاب نسب قريش .

---

(١) الدوري . نشأة علم التاريخ ص ٤٢.

(٢) انظر وكيع – أخبار القضاة ٢٦٩/١ . وياقوت، معجم الأدباء (القاهرة) ١٦١/١١ . وابن خلكان ، وفيات الأعيان (بولاق) ٢٣٦/١ .

(٣) انظر البغدادي – تاريخ بغداد ج ٨ ص ٤٦٩.

وثمة أقسام مخطوطة منه في غوتنغن (مخطوطات عربية رقم ٧٦) كما أن ثمة مخطوطاً في البصرة (العباسية رقم ٥٥ أ في ١٨٦ ورقة) ونجد مقتبسات كثيرة منه في الإصابة لابن حجر وشرح نهج البلاغة[1] . وقد طبع في بغداد سنة ١٩٧٢.

والزبير عدا ذلك كتاب : أزواج النبي (ومنه أوراق مخطوطة في الظاهرية بدمشق – مجموع ١٠/٤١) ، وكتاب الفكاهة والمزاح ، وأخبار المدينة (ومنه مقتبسات في الإصابة لابن حجر) وكتاب العقيق بالمدينة ، وكتاب المفاخرات .

ويظهر أيضاً من بعده .. ابراهيم بن محمد بن سعيد (توفي سنة ٢٨٣ / هـ .) وهو مؤلف مكثر . انتقل من الكوفة إلى أصفهان فاستقر بها ولعل لتشيعه على المذهب الزيدي أثر في هذه النقلة وفي ضياع كتبه التي تملأ صفحة كاملة وتشبه قائمة المدائني في عناوينها ولعلها مثلها في كونها رسائل تتناول السقيفة والردة ، ومقتل عثمان وصفين والحكمين،ولكنها كانت دون شك تحمل وجهة نظر الزيدية في هذه الأحداث .

وقد كتب في (فضل الكوفة) ومن نزلها من الصحابة وهو من أول كتب فضائل البلدان . كما كتب في (من قتل من آل محمد) وهو من أوائل الكتب من هذا اللون في الأدب الشيعي كذلك .

ويجب أن نضيف أخيراً أن علماء الأدب واللغة والشعر في القرن الثاني ومطالع الثالث قدموا الكثير لعلم التاريخ وزودوه بالمادة ذلك أنهم في بحثهم عن المادة اللغوية والشعرية غزوا ميدان رواية القبيلة ، وكان هذا الميدان خاصاً من قبل بنشاط الرواة والنسابين ، فجمعوا بهذا الشكل شتات المادة التاريخية وخلعوا التلوين التاريخي إذ دخلت رواياتهم في صلب كتب التاريخ .

---

(١) انظر مثلا ابن حجر – الاصابة ج ١ ص ١٢٧ ، ٣٣١ ، ٦٠٢ ، ٦٦٧ – الخ . وانظر ابن أبي الحديد – شرح نهج البلاغة ١٦٩/٢ – ١٧٠، ٢٦٢ ، وج ٥ ص ١٢٩ ، ١٣٠ وج ٦ ص ١٧ – ٣٨ ، ٣٤٢ – ٣٤٤ – الخ .

ومن علماء الأدب واللغة ، من أهل الكوفة :

- أبو عبيد القاسم بن سلام (توفي سنة ٨٣٩/٢٢٤) وقد أخذ عن الأصمعي وأبي عبيدة والكسائي والشيباني . وقد كتب كثيراً من الكتب في اللغة والأمثال . على أن أهم كتاب تركه لنا هو كتاب (الأموال) ونعتبره مع كتاب الخراج لأبي يوسف أهم كتابين نطلّ من خلالهما سواء من الناحية العملية أو الفقهية على النظام المالي في الدولة الإسلامية . وهو كنز من المعارف المختلفة في هذا الباب .

ومن علماء اللغة البصريين :

- أبو عمرو بن العلاء : الذي كان « أعلم الناس بالعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس » على حد قول الجاحظ ... وكانت كتبه التي كتبت عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له الى قريب من السقف ثم إنه تقرأ فأحرقها كلها »[1] ...

وأبرز منه تلميذه ..

أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي (١١٤ - ٧٣٢/٢١١ - ٨٢٦) وقد كان يجمع المعلومات ، بجانب الرواة والعلماء عن رواة البدو (حين يقدمون المربد) وتيسر له بهذا الشكل أن يجمع من الروايات القبلية والمحلية والأسرية ما شمل حقل الروايات العربية الشمالية كاملة . وقد شهد له أبو الفرج الأصفهاني بعد الجاحظ بأنه « أعلم الناس بجميع العلوم » وابن النديم يقول أنه له « علم الإسلام والجاهلية » . وقد عرف بأنه يسجل معلوماته ويأخذ عن الكتب حتى لقد حاول بعضهم أن يجعل ذلك مطعناً عليه فقد ذكروا أنه «عَلِمَ ما تُرِكَ مع أسفاره يقرؤها » وأنه «كان ديوان العرب في بيته» . وما من شك في أنه بهذا

(١) الجاحظ - البيان والتبيين (طبعة دار الفكر بيروت) ج ١ ص ٢١٤ - ٢١٥ .

التدوين قد أسهم في حفظ الأخبار من جهة كما حافظ على روحها الأدبية الأولى كما رويت من جهة أخرى .

ولأبي عبيدة من الكتب عدد كبير يزيد على مائة وثلاثة كتب. مجموعاتها تكشف اهتماماته العلمية . وبالرغم من أن طابع كتبه لغوي ويعكس وجهة نظر اللغويين ومع أنه كتب في اللغة أكثر من نصف كتبه إلا أنه ألف كذلك :

في المثالب والمآثر .. مآثر العرب . مناقب باهلة . كتاب الموالي . كتاب المثالب . كتاب لصوص العرب . فضائل الفرس .

في الفتوح .. فتوح الأهواز . فتوح أرمينية . كتاب خراسان . كتاب السواد وفتحه .

في أيام العرب وأخبارها . مغارات قيس واليمن . كتاب بيوتات العرب . كتاب الأيام . كتاب أيام بني يشكر . كتاب بني مازن وأخبارهم . كتاب الحمس من قريش . كتاب الغارات . كتاب القبائل .

وفي عدد من المواضيع التاريخية .. مثل .. خوارج البحرين واليمامة . كتاب مرج راهط . كتاب المجان ، كتاب مقاتل الفرسان ، مقاتل الأشراف ، كتاب الجمل وصفين ، كتاب مقتل عثمان . كتاب أخبار الحجاج . قصة الكعبة . كتاب الأوس والخزرج . كتاب قضاة البصرة ، كتاب مكة والحرم ....

ولا يتهم أبو عبيدة بالوضع في أخباره ولكن بغّضه إلى العلماء والناس كثرة ما روى من مثالبهم من جهة وموقفه بجانب الشعوبية من جهة أخرى . ولكن المؤرخين التالين اعتمدوا عليه ، كما اعتمده اللغويون في الكثير مما روى وكتب . وقد ورد اسمه لدى الطبري في تاريخه أكثر من خمسين مرة يروي فيها عنه .

وقد احترم الناس بالمقابل معاصراً لأبي عبيدة لا يقل عنه شهرة هو :

ـ الأصمعي : أبو سعيد عبد الملك بن قريب المتوفى في البصرة في سنة

٢١٤ أو سنة ٢١٧ ، في خلافة المأمون وهو من كبار علماء اللغة والنحو والأخبار والنوادر . وشهرته في اللغة خاصة والنحو لا تمنع من ذكره أيضاً في مجال الأخبار . فقد كان أيضاً من الإخباريين . وهو في الأصل من أهل البصرة ثم قدم بغداد واتصل بخليفتها هارون الرشيد وبالبرامكة ، وبالمأمون ، ونافس قرينه ، في ذلك العصر ، أبا عبيدة معمر بن المثنى منافسة ما تزال تذكرها كتب اللغة والأدب والنحو ، كنافسة الكسائي والفراء . وله من الكتب الإخبارية عدد ومنها : كتاب النسب ، كتاب الخراج ، كتاب الفتوح ، كتاب النوادر ، تاريخ ملوك العرب الأولية . ولم يبق من هذه الكتب سوى هذا الكتاب الأخير الذي نشر (بتحقيق محمد حسن آل ياسين — بغداد ١٩٥٩) عن نسخة بخط يعقوب بن السكيت ، نفيسة جداً مكتوبة على الرق محفوظة في باريس تاريخها سنة ٢٤٣ هـ . وأعطى الكتاب عنوان تاريخ العرب قبل الإسلام . وقد نقل الطبري بعض أخبار الأصمعي ومنها أخباره عن معركة ذي قار ويرد اسمه لديه في أحد عشر موضعاً .

تعريب التواريخ غير العربية .. — كان أبو عبيدة انما يمثل في الواقع تياراً ثقافياً له جذوره الشعبية في العراق في العصر العباسي الأول وقد عرف هذا التيار باسم الشعوبية . واذا كان التاريخ العربي موقفه من هذه الحركة فإنها من وجهة نظر علم التاريخ قد أسهمت بدورها في إغناء المادة التاريخية ..

فأصحاب الميل الشعوبي حاولوا أن يضعوا بالعربية مآثر الفرس خاصة ، مقابل العرب ، ومآثر غيرهم . وشهد القرن الثاني نتيجة لذلك حركة من الترجمة عن الفارسية كان من بينها ترجمة لكتب تاريخية وشبه تاريخية أسهمت في كشف مصدر تاريخي جديد للمؤلفين بالعربية .

وهذا العنصر أدخل على المدرسة التاريخية العراقية — التي أضحت المدرسة التاريخية الأولى والرئيسة منذ أواسط القرن الثالث — عنصراً قصصياً أكثر مما هو أسطوري . ذلك أن المادة التاريخية المترجمة عن الفارسية لم تكن تواريخ

أو مادة ذات تسلسل زمني تاريخي ، وانما هي سير مطلقة من قيود الزمن لأنه لم يكن الفرس من تقويم ثابت . فدخلت هذه المواد بشكل مادة تاريخية مشوشة إلى التدوين التاريخي العربي . ولئن سدت فراغاً في تاريخ ما قبل الإسلام للشعوب الفارسية فإنها لم تستطع أن توحي للمؤرخين وأصحاب الأخبار بخطة أو منهج تاريخي جديد . فظلت نشأة علم التاريخ الإسلامي عربيــة خالصة لا سيما اذا عرفنا أن ما ترجم عن السريانية والاغريقية لم يكن يحوي أي مادة تاريخية سوى ما كان يتعلق بعرب الحيرة أو عرب الجنوب .

وأخيراً نلاحظ أن انتقال الثقل السياسي والثقافي إلى بغداد والعراق قد امتص الطاقات الفكرية في المراكز الأخرى . وبينما تضاءلت مدرسة المدينة منذ أواخر القرن الثاني حتى جفت في نهاية القرن الثالث، نجد بالعكس أن الجو الثقافي التأريخي كله كان يتهيأ في العراق لا للسيطرة العراقية فقط ولكن لظهور أبرز المؤرخين الأوائل منها . وبالرغم من أن الخط المدني لم يهجر لأنه متصل بجذور دينية ، وبالرغم من أن سلسلة كتب المغازي التي ميزت مدرسة المدينة ظلت متصلة الحلقات قروناً بعد القرن الثالث ، الا أنها فقدت أصالتها تماماً وكانت السير والمغازي التالية ترجيعاً وتكراراً مختصراً أو مطولاً للسير الأولى .

• • •

الفصل السادس

ظهور المؤرخين الكبار

١ ـ الميزات العامة وجمهرة الماهدين

من نسميهم بالمؤرخين الكبار هم طبقة كاملة من مؤرخي النصف الثاني من القرن الثالث كانوا النهاية الطبيعية لخط من التطور المستمر أصاب علم الأخبار وما يتصل به ، خلال أكثر من قرنين . وقد تميزوا بأنهم :

١) فهموا التاريخ بالمعنى الشامل فأفقهم في الجملة عالمي والإسلام عندهم أمة واحدة . فالاتجاه القبلي أو الديني عندهم ضعيف أمام قوة العملية التاريخية .

٢) أظهروا اندفاعاً للرحلة في طلب العلم وجمع المعلومات كما استفادوا من أسلوب المحدثين في توثيق الرواة والسند .

٣) استفادوا من مواد السيرة والأخبار والأنساب والشعر والأدب جميعاً لتكوين مادة علم التاريخ . كما استفادوا أحياناً من تواريخ الأمم الأخرى ومن القصص الشائع .

٤) اختاروا مادة التاريخ بعد النقد من مختلف المصادر ونظموها في كتب

خاصة طبق أسلوب هو تارة حولي ّ وتارة يتبع الأنساب وثالثة يختار موضوعه اختياراً من الحوادث المختلفة .

٥) وجد كافة هؤلاء المؤرخين في العراق إلا أنهم لم يمثلوا المدرسة العراقية السابقة فقط ولكن مثلوا تطورها وتطور مدرسة المدينة في وقت معاً . وقد حمل التاريخ في نهاية هذه الفترة فقط اسمه بعد أن لم يكن من قبل سوى « أخبار » أو « أنساب » أو « سيرة » أو « أيام » . أما السيرة النبوية فقد ظلت موضوعاً قائماً بذاته ويكتب بعنوان « السيرة » حتى القرن التاسع الهجري .

٦) ومن الضروري أن نضيف أيضاً ملاحظة هامة تتصل برابطة التاريخ والمؤرخين مع الجو الثقافي العام هي أن علم التاريخ الإسلامي انما اكتمل شكلاً على يد هؤلاء المؤرخين الكبار في الوقت الذي كانت فيه كافة الجهود الفكرية العربية تبذل بالتوازي ، في مختلف الميادين لبناء التكوين الثقافي العربي — الإسلامي . ففي القرن الثاني خاصة والثالث بذلت جهود واسعة لبناء الفقــه الإسلامي وفهم القرآن وجمع اللغة وكشف أسرارها وتقعيد النحو ، واستجلبت كذلك الفلسفة الإغريقية والهندية وعلوم الطب والفيزياء والكيمياء ... أي أن الثقافة العربية كانت تقوم بعملية تحليلية تركيبية في وقت معاً لبناء ذاتها ، بأيدي أبنائها أنفسهم . وبينما نظم البخاري ومسلم علم الحديث وقواعده ، اكتشف الخليل بن أحمد تحليلاً موسيقياً للشعر العربي يقيم تركيبه وأوزانه ، ووضعت على يد سيبويه والكسائي قواعد النحو من خلال الكلام العربي نفسه وعلى يد أبي حنيفة والشافعي وابن حنبل ومالك وجعفر الصادق أسس الفقه من خلال القرآن والسنة وجمعت اللغة والأدب والشعر على يد المبرد والفراء وأبي عبيدة وكشفت الأسس الجمالية والتكوينية فيها ....

وبينما كان آخرون ينصرفون عن « العلم » الإسلامي إلى علوم العقل ويتلمذون عن طريق الترجمة على مدارس الفلسفة الاغريقية والهندية والهلنستية ويطبقون ذلك على الفكر الإسلامي لتظهر أفكار الاعتزال والكلام والباطنية ...

في تلك الفترة أخذ التأريخ الإسلامي شكله كعلم وتبلورت الفكرة التاريخية الإسلامية على شكل معين لم تتحول عنه فيما بعد إلا في التفاصيل المحدودة . ومن نسميهم بالمؤرخين الكبار هم الذين قاموا بهذا التطور الأساسي في مسيرة التـــاريخ .

٧) ولعل أهم ما نضيفه أخيراً هو أن النقلة من مرحلة الاخباريين والأخبار الى مرحلة المؤرخين والتاريخ لم تتم في قفزة واحدة، وقد جاءت بين المرحلتين في الواقع مرحلة انتقالية ظهر فيها عدد من أنصاف المؤرخين . واذا لم تكن هذه المرحلة واضحة زمنياً لاشتباكها مع المرحلتين الأخريين فإنها كانت واضحة في تطور التأليف التاريخي نفسه اذ أن عدداً من الاخباريين طرقوا التأليف على مناهج المؤرخين نفسها ، ونعني بهـــذا أن من ندعوهم بالمؤرخين الكبار لم يكونوا وحدهم ممثلي علم التاريخ الإسلامي في القرن الثالث ، فقد وجد معهم ومن حولهم عدد كبير من المؤرخين « الصغار » أو من الاخباريين الماهين — وبعضهم جاء التاريخ عن طريق السيرة والحديث — كانوا يتممون جمهرة هذا العلم ويمهدون الطريق لظهور التدوين التاريخي على الأساس العلمي المنظم في الزمن والموضوع . ومن هذه الجمهرة الواسعة جداً من الماهدين والبناة الصغار نكتفي بذكر الجماعة التالية التي تحوي بين أفرادها عدداً من الرجال لم يحل بينهم وبين أن يكونوا من مشاهير المؤرخين سوى سوء الحظ بفقد كتبهم على الأيام . ولو جاءنا بعض انتاجهم أو كله لكان لهم في هذا العلم المكان الواضح [1] .

— يوسف بن ابراهيم الكاتب ، صاحب ابراهيم بن المهدي (الخليفة العباسي ما بين سنة ٢٠٠ — ٢٠٣ هـ) وقد صنف كتباً عديدة ، حسب شهادة

(١) لعلنا نشير هنا الى أننا أهملنا وسوف نهمل في الكتاب فيما بعد أسماء الكثير الكثير من المؤرخين الصغار الذين لم نر فائدة كبيرة في ايراد اسمائهم ونحن نجهل كل شيء عنهم وعن محتوى مؤلفاتهم . ومن أمثلتهم في هذه الفترة من القرن الثالث ومطالع الرابع مثلا : حماد بن رفيع بن سلمة ، والزرقي الأنصاري،والابجلي،والرياشي، وأبو جعفر محمد بن أبي السرى ، وعبد الله بن محمد البلوي الانصاري ، ومحمد بن سليمان المقري الجوهري وغيرهم ونذكر للطرافة فقط أن الخليفة الواثق بالله (المتوفى سنة ٢٣٤) اشترك في التأليف وكان له كتاب باسم البستان نقل عن ابن أبي أصيبعة خبراً عن الحارث بن كلدة الثقفي .

المسعودي ، منها : كتاب في أخبار المتطببين مع الملوك ، في المآكل والمشارب والملابس وغير ذلك . ومنها كتابه المعروف بكتاب ابراهيم بن المهدي في أنواع الأخبار (١) .

– النوفلي: أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان وهو معاصر لابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤هـ . وكان أحد مصادر الطبري والمسعودي والأصبهاني . وله : كتاب الأخبار ، وكانت فيه أخبار عن الأمويين ومن بعدهم حتى عصر المؤلف (٢) .

– الفزاري : أبو اسحق ابراهيم بن محمد (من مطالع القرن الثالث) وله كتاب السير ويتعلق دون شك بالفتوح كأمثاله من الكتب . وقد سمعه ابن خير من راوية أبي صالح محبوب بن موسى الفراء في انطاكية سنة ٢٢٥ هـ نقلاً عن مؤلفه (٣) .

– البصري : الحسن بن ميمون من بني نصر بن قعين ، وهو أستاذ المؤرخ ابن النطاح . وله من الكتب : كتاب الدولة وكتاب المآثر (٤) ؟

– ابن بكار أبو الوليد العباس بن بكار الضبي (ولد سنة ٧٤٦/١٢٩ توفي سنة ٨٣٧/٢٢٢) وهو بصري المولد والاقامة والوفاة ، وكانت له مشاركه في العمل الإخباري الذي بقي لنا منه :

– أخبار الوافدين من الرجال من أهل الكوفة والبصرة على معاوية بن أبي سفيان . وأخبار الوافدات على معاوية أيضاً . وهما رسالتان مخطوطتان الآن في الاسكوريال بأسبانيا (رقم ٤٦٧/٥ و ٤٦٧/٦) في ١٢ ورقة .

---

(١) المسعودي – مروج الذهب ج ٤ ص ٢١ .
(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٣ .
(٣) انظر ابن خير – فهرس ابن خير ص ٢٣٦ .
(٤) ابن النديم – الفهرست ص ١٠٨ .

– عبد الله بن جبلة بن الحر الكناني (المتوفى سنة ٢١٩/٨٣٣) وهو من أوائل مؤلفي الشيعة الذين ألفوا في علم الرجال وكتابه معروف باسم : كتاب الرجال [١] ولكنه ضائع .

– الحسن بن علي بن فضال بن أليس التميميّ الولاء الكوفي (المتوفى سنة ٢٢٤/٨٣٨) وهو معاصر لسابقه وينتمي إلى المذهب الشيعي مثله كما أنه كتب تاريخ الشيعة المعروف أيضاً باسم كتاب الرجال [٢] ولابنه علي بن الحسن بدوره كتاب الرجال أيضاً حسب رواية النجاشي والطوسي [٣] وكان هذا الكتاب من مصادر تقي الدين الحلي (من رجال القرن السابع) في كتابه الرجال .

– الأزرقي أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (المتوفى سنة ٢٢٣) وهو أحد الاخباريين وأصحاب السير . إلا أنه ألف أقدم ما كتب في تاريخ مكة : كتاب مكة وأخبارها وجبالها وأوديتها. والكتاب مطبوع في سلسلة أخبار مكة المشرفة التي نشرها المستشرق وستنفلد (ليبزيغ سنة ١٨٥٩) (المجلد الأول بعنوان : كتاب أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار) .

– أبو دلف العجلي: القاسم بن عيسى بن معقل (المتوفى سنة ٢٢٥) والرجل أحد الأبطال المشهورين والأجواد الممدوحين وقد ولي إمرة دمشق للمعتصم . وله صنعة في الغناء كما كانت له مشاركة في التأليف . وبعض كتبه تدخل أجواء التاريخ الحضاري ومنها : كتاب السلاح . كتاب النزه . كتاب البزاة والصيد وكتاب سياسة الملوك .

---

(١) انظر النجاشي – رجال النجاشي ج ٢ ص ١٦٠ (ط / ٢ مركز نشر كتاب ، مصطفوي – ايران ، دون تاريخ) .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٨ وانظر السخاوي – الاعلان ص ٥٧٩ ، وابن حجر – لسان الميزان ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٣) النجاشي – الرجال ج ٢ ص ١٩٦ ، الطوسي – الفهرست (تحقيق بحر العلوم – النجف ١٩٣٧) ص ٩٢ وانظر السخاوي – الاعلان ص ٥٨٠ .

ـ خالد بن خداش بن عجلان أبو الهيثم مولى آل المهلب (المتوفى سنة ٢٢٣) وقد اختص بكتابة تاريخ المهالبة وله في ذلك كتابان : كتاب الأزارقة وحروب المهلب . كتاب أخبار المهلب .

ـ وقد كتب في الموضوع السابق نفسه يزيد بن محمد المهلبي الشاعر وعنوان مؤلفه : كتاب المهلب وأخباره وأخبار ولده .

ـ الجمحي أبو عبد الله محمد بن سلاّم البصري (المتوفى سنة ٨٤٥/٢٣١) أحد الاخباريين المشهورين والرواة الكبار في الأدب وحفاظ الحديث . وله من الكتب ذات المادة التاريخية : كتاب بيوتات العرب ، كتاب طبقات الشعراء الجاهليين ، كتاب طبقات الشعراء الإسلاميين .

ـ أبو زكريا يحيى بن معين البغدادي (المتوفى سنة ٨٤٧/٢٣٣م) وقد كان من كبار الحفاظ والمحدثين البارزين ويعطى في بعض الكتب لقب الامام وحجة الاسلام وهو معاصر وصديق لابن حنبل وله كتابان نعرفهما :

ـ التاريخ والعلل : ومنه مخطوط في دار الكتب الظاهرية [مجموع ١١٢ (١)] في مجلد من ١٦٧ ورقة .

ـ معرفة الرجال ومنه قطعة مخطوطة في الظاهرية أيضاً (مجموع ٣٩ آ) .

والكتابان رغم تاريخيتهما وما فيهما من فوائد تتصل بالتاريخ إنما يتصلان أساساً بعلم مصطلح الحديث . والكتاب الأول جاء برواية أبي الفضل العباس ابن محمد الدوري (توفي سنة ٢٧١) صاحب يحي بن معين . ويبدو أنه لم ينظّم في الأصل ولكنه يجمع أقوال يحي في جرح الرجال وتعديلهم والتعريف بالأسماء والكنى والنسبة والطبقة ، كما يبدو أن الراوي لم ينقل فقط أقوال شيخه ولكنه أضاف اليها بعض المعلومات من عنده مثل وفاة ابن معن وابن حنبل وتفسير بعض الغامض من القول . ويبدو أن الباحثين منذ القديم قد لاحظوا عدم التنظيم في هذا التاريخ ولهذا فقد عمد أبو سعيد بن الاعرابي إلى تبويبه

ورتبه على حروف المعجم وقد قرأه ابن خير في القرن الرابع على هذا الترتيب[1].

وأما كتاب معرفة الرجال فلم يسلم منه سوى الجزءين الأول والثاني من رواية ابي العباس أحمد بن محمد بن القاسم بن محرز البغدادي . وهو بدوره مجموعة أقوال ذكرها ابن معين جواباً على أسئلة تلميذه أبي العباس أو تلاميذ آخرين . ومعظم الأسئلة في الجرح والتعديل .

– ابن أبي شيبة عبد الله بن إبراهيم العبسي الكوفي (ولد سنة ١٥٩/٧٧٥ توفي سنة ٢٣٥/٨٤٩) وكان يؤدب الصبيان في الرصافة ببغداد . وهو من المحدثين المصنفين . وضع عدداً من الكتب التاريخية منها :

كتاب التاريخ . كتاب الفتن ، كتاب صفين . كتاب الجمل . كتاب الفتوح . وينسب إليه أيضاً كتاب أوائل الإسلام الذي نقحه مؤلف آخر سنة ٣٠٠ هـ . ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة برلين رقم ٩٠٤٩ .

– الشاذكوني أبو أيوب سليمان بن داود بن بشر بن زياد المنقري البصري (المتوفى سنة ٢٣٤ أو سنة ٢٣٦) وهو من أهل البصرة ومن الحفاظ المكثرين خرج لأصبهان ست مرات قبل أن يستقر بها ولكنه ليس بثقة. والبخاري يقول « هو عندي أضعف من كل ضعيف» [2] ومع ذلك فقد ظلّ الناس يتدارسون عدة قرون كتابه : تاريخ طبقات أهل العلم ومن نسب منهم إلى مذهب . وقد روي حتّى في الأندلس من قبل ابن خير وابن عبد البر .

– الزيادي أبو حسان الحسن بن عثمان بن حماد (ولد في بغداد سنة ١٥٦/٧٧٣ وتوفي سنة ٢٤٣/٨٥٧) « وكان – على حد قول ابن النديم – قاضياً فاضلاً ديناً ناسباً جواداً .. يعمل الكتب وتعمل له . وكانت له خزانة حسنة كبيرة »[3]

(١) انظر ابن خير – فهرسة ابن خير ص ٢٢٨ .
(٢) انظر ترجمته لدى السمعاني – الانساب الورقة ٣٢٤ ظهر وانظر ابن خير – فهرسة ص ٢١١ .
(٣) انظر ابن النديم – الفهرس ص ١١٠ .

روى عن الحسن بن الهيثم والواقدي كما روى عنه وكيع القاضي وابن أبي طاهر : ويعدّ بين المؤرخين والمحدثين الثقات. وقد ولي قضاء بغداد الشرقية للمتوكل في أواخر حياته . وله من الكتب : كتاب الآباء والأمهات . كتاب ألقاب الشعراء . كتاب طبقات الشعراء . كتاب معاني عروة بن الزبير . ولم يذكر له ابن النديم كتاب التاريخ على السنين الذي ذكره له الخطيب البغدادي والمسعودي [1] وياقوت في معجم الأدباء ومعجم البلدان [2] . وقد ضاع هذا التاريخ مع الكتب الأخرى .

ـ البزاز أبو بشر هارون بن حاتم التميمي (المتوفى سنة ٢٤٩/٨٦٣) من علماء الكوفة . محدث. مؤرخ . قارىء كما يعتبر من علماء الجرح والتعديل. له بجانب كتاب القراءة كتاب تاريخ الإسلام . وقد ضاع سوى أوراق معدودة لا تزيد على ثماني ورقات موجودة ضمن مجموع (رقم ٤٠ من ورقة ٢١١ حتى ٢١٨) مخطوط تحفظه دار الكتب الظاهرية بدمشق . ويبدو أن الكتاب كان مختصراً لأن الأوراق تشمل ما بين عهد علي إلى آخر الأمويين [3] .

ـ الفلاّس أبو حفص عمرو بن علي (المتوفى سنة ٢٤٩/٨٦٣) وله كتاب في التاريخ من ثلاثة أجزاء هو في تاريخ المحدثين قرأه ابن خير . كما أخذ عنه الذهبي في تاريخ الإسلام والخطيب البغدادي [4]

ـ الرواجني أبو سعيد عباد بن يعقوب البخاري (المتوفى سنة ٢٥٠) وهو من علماء الشيعة في الكوفة . أخذ عنه كثير من علماء السنة كالبخاري والترمذي

---

(١) الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد ج ٧ ص ٣٥٧ والمسعودي – مروج الذهب ج ١ ص ١١ .
(٢) ياقوت – معجم الأدباء ج ٩ ص ١٨ – ٢٤ وانظر معجم البلدان (مادة شيراز) ج ٣ ص ٢٨١ .
(٣) انظر يوسف العش – فهرس المخطوطات (التاريخ) ص ٩٣ – ٩٤ وانظر الذهبي – ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٢٤٦ وابن حجر – لسان الميزان ج ٦ ص ١٧٧ .
(٤) انظر ابن خير – فهرس ابن خير ص ٢١٢ والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ج ١١ ص ٢٠٧. وانظر كذلك السخاوي ، الإعلان ص ٥٢٣ .

وله في الغالب كتاب المعرفة في الصحابة الذي كان من المصادر الأساسية لأبي الفرج الاصبهاني في كتابه مقاتل الطالبيين (١)

— الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج البغدادي ، وزير المتوكل الذي قتل معه سنة ٢٤٧ . وكان الرجل بجانب دوره السياسي مشاركته في دنيا التأليف والأدب . وكتبه إنما جاءت من باب الترف الثقافي ومنها : كتاب اختلاف الملوك . وكتاب الصيد والجارح .

— محمد بن الحارث التغلبي ، وهو معاصر للفتح بن خاقان وقد ذكر المسعودي أنه ألف له الكتاب المعروف بأخلاق الملوك وأثبته بين مصادره في مطلع كتابه مروج الذهب .

— ابن الجراح : داود بن الجراح رأس أسرة الوزراء التي برزت منذ أواسط القرن الثالث واستمر أفرادها يتولون ، مع غيرهم من المتنافسين، منصب الوزارة للعباسيين حتى مطالع العهد البويهي . وكان داود يكتب للخليفة المستعين (٢٤٨ — ٢٥١) وقد توفي سنة ٢٥٢ . له من الكتب :

— كتاب التاريخ ، ويبدو أن أولاده وأحفاده من بعده تابعوا سنة أبيهم فأضافوا إليه .

— أخبار الكتاب، وقد ضاع مع كتاب الرسائل .

— ابن النطاح أبو عبد الله محمد بن صالح بن مهران (المتوفى سنة ٢٥٢/ ٨٦٦) بصري الأصل ولكنه عاش في بغداد . وهو راوية . محدث . مؤرخ . نسابة . وقد ذكر له ابن النديم عدداً من الكتب منها (٢) :

— كتاب الدولة وأخبارها (أي العباسية) ويقول ابن النديم إنه أول من

---

(١) انظر النجاشي — الرجال ص ٢٢٥ وابن حجر تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٠٩ — ١١٠ .
(٢) ابن النديم — الفهرس ص ١٠٧ .

ألف في هذا الموضوع وذلك وهمٌ فقد سبقه إليه كثيرون منهم الهيثم بن عدي ، والمدائني والحسن بن ميمون البصري أستاذ ابن النطاح نفسه .

ولابن النطاح أيضاً كتاب البيوتات . كتاب مقتل زيد بن علي . كتاب أفخاذ العرب . كتاب أنساب أزد عمان . وقد نقل صاحب الاغاني عن ابن النطاح في مواضع كثيرة من الكتاب كما نقل عنه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١)

– الزمن أبو موسى محمد بن مثنى العنزي (المتوفى سنة ٢٥٢) وله تاريخ صغير أخذ عنه الذهبي في تاريخ الإسلام وذكره البغدادي والسخاوي (٢)

– الغلابي المفضل بن غسان (المتوفى سنة ٢٥٦/٨٧٠) وله بدوره تاريخ اعتمده الذهبي أحياناً في تاريخ الإسلام (٣)

– الخزاز : أبو جعفر احمد بن الحارث بن المبارك (والمبارك مولى المنصور) المتوفى آخر سنة ٢٥٨/٨٧٢ وقد نشأ في بغداد ، وكان من أصحاب المدائني ، وله مع الشعر ، مشاركة في التاريخ واسعة وقد ألف فيه كتباً عديدة ذكرها ابن النديم وضاعت كلها (٤) ومنها : – كتاب أسماء الخلفاء وكتابهم والصحابة (يقصد صحابتهم والحاشية) .

– كتاب مغازي البحر في دولة بني هاشم وذكر ابي حفص صاحب إقريطش، ولعله الكتاب الوحيد الذي صدر في التاريخ العربي حول هذا الموضوع فنذر أن سمعنا بكتاب خاص بمغازي البحر .

---

(١) انظر الأغاني مثلا ج ٣ ص ٢٩٨ – ٣٠١ ، ج ٨ الصفحات ٥١/٨٨/٢٨٦/٢٨٧/٢٩٣ ج ١٠ الصفحات ٦٢/٢٥١ – ٢٥٦/٢٥٩ – ٢٦١/٢٦٤ – ٢٦٥ – الخ . وانظر تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٥٧ – ٣٥٨ .

(٢) انظر البغدادي – تاريخ بغداد ج ٣ ص ٢٨٣ والسخاوي – الاعلان ص ٥٢٣.

(٣) انظر السخاوي – الاعلان ص ٥٢٤ وبروكلمان ج ١ ص ١٤١ .

(٤) ابن النديم – الفهرس ص ١٠٤ – ١٠٦ .

ـ كتاب أخبار أبي العباس وقد يكون أساس الكتاب الذي نشره الدكتور الدوري مؤخراً لمؤلف مجهول [1] وقد أضيف اليه شيء بعد ذلك .

ـ كتاب مغازي النبي وسراياه وذكر أزواجه .

ـ كتاب الأخبار والنوادر .

ـ كتاب شحنة البريد . وهو بدوره كتـــاب نادر الموضوع لا نعرف كتاباً آخر ألف في موضوعه .

ـ كتاب الأشراف . وربما كان فيه النواة الأولى لما سوف يؤلفه البلاذري .

ـ كتاب المسالك والممالك وهو من أقدم الكتب ـ على ما يظهر ـ في هذا الموضوع .

عدا كتب أخرى في أنباء السراري ، ونوادر الشعر ، وكتاب القبائل ، وكتاب الحلائب والرهائن ومختصر كتاب البطون .

ـ وثمـــة مؤلف آخر يلقب بالخزاز يعاصر هذا المؤلف السابق هو أبو الحسن عبد الله بن محمد بن سفيو كان معلماً في دار الوزير أبي الحسن علي بن عيسى الجراح . كان عـــالماً بالعربية والنحو والأدب وله بين مؤلفاته العديدة كتاب : أخبار أعيان الحكام، ألفه ـ فيما يذكر ابن النديم ـ لأبي الحسن بن أبي عمر [2] .

ـ الجوزجاني أبو إسحق ابراهيم بن يعقوب (المتوفى سنة ٢٥٩/٨٧٣) وكان من كبار العلماء الثقات في الحديث والجرح والتعديل . رحل إلى دمشق وتوفي ببغداد . وله :

ـ الشجرة في أحوال الرجال وهو في رواة الحديث ومنه نسخة مخطوطة في الظاهرية (حديث ٢٤٩) .

---

(١) يرجح الدكتور عبد العزيز الدوري نسبة الكتاب المجهول المؤلف الذي نشره باسم أخبار الدولة العباسية إلى ابن النطاح محمد بن صالح بن مهران . وقد يكون من عمل الخزاز فيما نرجح .

(٢) ابن النديم ـ الفهرس ص ٨٢ .

– ابن سعيد القطربلي أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن الحسين المتوفى سنة ٢٦١ وكان « من علماء الكتاب – فيما يذكر ابن النديم – وقد كتب كتاب التاريخ ، عمله إلى أيامه » (١)

ويأتي مع هؤلاء المؤرخين الصغار ومن حولهم جماعة من معاصريهم نعرفهم بالأسماء والانتاج ولكنا نجهل سني وفياتهم وإن كانوا بصورة عامة في أواسط القرن الثالث . ومن هذه الجماعة أولاً مؤلفان هامان بموضوع التأليف الذي قدماه . فقد كتبا عن الروم عن معرفة مباشرة ولعلهما كانا يعرفان اليونانية جيد المعرفة .

– مسلم بن أبي مسلم الجرمي . وكان مجاهداً ذا محل في الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها . وقع في الأسر فترة حتى جرى فداؤه في الفداء المشهور الثالث على نهر اللامس (قرب طرسوس) في أيام الخليفة الواثق سنة ٢٣١ الذي جرى فيه امتحان الأسرى بخلق القرآن . وللجرمي – حسب رواية المسعودي – « مصنفات في أخبار الروم وملوكهم وذوي المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو إليها والغارات عليها ومن جاورهم من الممالك من برجان والابر والبرغر والصقالبة والخزر وغيرهم ... » (٢) .

– أبو الحسين أحمد بن الحسين الأهوازي وقد كتب هذا الرجل بدوره كتاب معارف الروم ذكر فيه ما عاينه بالقسطنطينية وبلاد الروم من المراتب الدينية والسياسية . وقد نقل عنه البيروني في الآثار الباقية بعض المعلومات (٣) .

وهنالك إلى جانب هؤلاء جماعة كبيرة منها :

– جعفر بن محمد بن الفضيل وله كتاب تاريخ رآه عمر بن شبة بخطه ونقل

(١) المصدر نفسه ص ١٢٤ .
(٢) المسعودي – التنبيه والاشراف ص ١٦٢ .
(٣) البيروني – الآثار الباقية ص ٢٨٩ وص ٢٩٣ .

منه عن طريق ابن شبة المؤلف المجهول لكتاب أخبار بني العباس وولده (الذي نشره الدكتور الدوري باسم أخبار الدولة العباسية) [1]

– أبو القاسم الحجازي وله بدوره (التاريخ الملحق) وقد نقل عنه ابن النديم في الفهرست [2] .

– أبو صالح بن يزداد عبد الله بن محمد بن يزداد بن سويد، وكان من الكتاب البلغاء كما كان أبوه من قبله وابنه من بعده. وقد كتب عبد الله كتاب التاريخ من بين ما كتب ثم جاء ابنه من بعده أبو أحمد محمد بن عبد الله وتمم كتاب التاريخ هذا الذي كتبه أبوه إلى سنة ثلاثمائة [3]

– ابن أبي شيخ واسمه سليمان ويكنّى أبا أيوب . وهو إخباري راوية. يقول ابن النديم إنه لقي جلة الناس وأخذ عنه أصحاب الأخبار . وله من الكتب : كتاب الأخبار المسموعة . رأيته ... » [4] .

– الخراساني : محمد بن الهيثم بن شبابة . وكتابه: كتاب الدولة (ويقصد العباسية) كان بين مصادر المسعودي في مروج الذهب [5]

– الخليل بن الهيثم الهرثمي ويبدو أن له عدة كتب من بينها كتاب: الحيل والمكايد في الحروب وكان هذا الكتاب من مصادر المسعودي في مروج الذهب .

– ابن أبي طيفور محمد بن أحمد الجرجاني « من أهل جرجان وله من الكتب كتاب أبواب الخلفاء ومعناه من كان الخلفاء يأنسون به ويستشيرونه ويستعقلونه ويستعضدونه .. » [6]

---

(١) أخبار الدولة العباسية (تحقيق الدوري والمطلبي) ص ١٦٩ .
(٢) ابن النديم – الفهرست ص ١٠٦ .
(٣) ابن النديم نفسه ص ١٢٤ .
(٤) المصدر نفسه ص ١١٤ .
(٥) المسعودي – مروج الذهب ج ١ ص ١٢ .
(٦) انظر ابن النديم – الفهرست ص ١١٠ .

– الجلودي واسمه محمد بن عيسى بن يزيد . وكان أبوه من كبار رجال الدولة العباسية . وقد نقل عنه الطبري بعض أخبار الفتنة أيام الأمين وخبر قتله . ويبدو من الرواية أنه كان كتب ذلك (1)

– المكاولي : أبو العباس عبد الله بن اسحق بن سلام ،وكان حسن العلم بالآثار والفقه والشعر وله كتاب الأخبار والأنساب والسير ويبدو أنه ضاع مبكراً . وقد ذكر ابن النديم أنه رأى بعضه ولم يره كاملاً (2)

– الجهمي : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حميد بن أبي جهم العدوي (من عهد المتوكل) . نشأ في العراق وبه تعلم . وكان أديباً شاعراً نساباً ومفنناً . غير أنه كان يتناول جلّة الناس بالمثالب وقد تناول العباس بأمر عظيم فضربه المتوكل مائة سوط . وله كتب عديدة منها : أنساب قريش وأخبارها . كتاب المثالب . كتاب المعصومين . كتاب فضائل مصر . كتاب الانتصار في الرد على الشعوبية (3) .

– الليثي سلمويه بن صالح . وكان من رواة الأخبار والأنساب وله من الكتب (كتاب الدولة) روى فيه عن جماعة من النسابين . وقد نقل المسعودي عنه في التنبيه والاشراف وسمى كتابه باسم : كتاب في الدولة العباسية وأمراء خراسان (4) .

– الراوندي : وقد ذكر ابن النديم أنه كان يجلس للراوندية يقرأ عليهم كتاباً ألفه في (أخبار الرواة) وجوّد فيه كما كانوا يأخذون عنه أخبار الدولة العباسية من كتاب ألفه باسم (كتاب الدولة) في نحو ألفي ورقة (5) .

---

(1) انظر الطبري ج ٨ الصفحات ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٨ ، وص ٥٤٠.
(2) ابن النديم – الفهرست ص ١١٤ .
(3) المصدر نفسه ص ١١١ .
(4) المسعودي – التنبيه والاشراف (ط. الصاوي – القاهرة ١٩٣٨) ص ٥٧ .
(5) ابن النديم – الفهرست ص ١٠٨ .

ـ ابن شيب وهو أبو سعيد عبد الله بن شيب الربعي البصري من الإخباريين البارزين وقد كتب كتاب الأخبار والآثار .

ـ الغلابي أبو عبد الله محمد بن زكريا بن دينار، أحد الرواة للسير والأحداث والمغازي ، وهو بشهادة ابن النديم من الثقات . كتب عدداً من الكتب منها : مقتل الحسين ، وقعة صفين ، كتاب الجمل ، كتاب الحرة ، كتاب مقتل أمير المؤمنين . كتاب الأجواد . كتاب المبخلين .. [1]

ـ أبو اسحق اسماعيل بن عيسى العطار، من أهل بغداد الذين عرفوا بحفظ السير وله من الكتب : كتاب المبتدأ . الردة . الفتوح . الجمل . صفين وكتاب الألوية . كتاب الفتن . كتاب حفر زمزم [2] .

ـ ابن عابد ، الذي كتب كتاب الملوك وأخبار الأمم . يقول ابن النديم ولا يعرف من أمره غير هذا [3] .

ـ ابن زبالة، الاخباري النسابة ، والوراق عبيد الله بن أبي سعيد النسابة ، وقد كتب كل منهما كتاباً في « أخبار المدينة » كما كتب الوراق كتاب الألقاب [4] وكتاب الشعراء .

ـ العنبري أبو عمر حفص بن عمر وله من الكتب : كتاب زياد الأشراف وذكر شباب العرب وما يجري بينهما وذكر ادعياء الجاهلية . وكتاب النساء[5] .

ـ عمر بن بكر ، صاحب الحسن بن سهل وكان إخبارياً راوية نساباً . ويبدو أنه كان ميسور الحال محباً للمعرفة فقد عمل له الفراء كتاب معاني

(١) المصدر نفسه ص ١٠٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٩ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٠٩ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٠٨ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٠٠ .

القرآن . وله من المؤلفات كتاب أو كتب في مواضيع تتصل بالتاريخ دون شك . فقد ذكر له ابن النديم : كتاب يوم الغول . يوم الظهر . يوم أرمام . يوم الكوفة . غزوات بني سعد بن زيد مناة . يوم منابض [١] .

– أبو بكر محمد بن علي بن مروان البغدادي وله تاريخ في ستة أجزاء ذكره ابن خير في فهرسه على أنه مما قرأه في المشرق [٢] .

– عيسى بن داب (ولعلها دأب) وله كتاب أخبار تتعلق بتاريخ العرب القديم وتواريخ الفرس . نقل عنه حمزة الاصفهاني خبراً يقارن بين أزمان الانبياء وملوك فارس وبين تاريخ اليمن وأولئك الملوك ويفسر سبأ على أن عبد شمس بن يشجب لم يدع بأرض اليمن أحداً إلا سباه . وقد انتقده حمزة قائلاً : « ولا أدري كيف تصرف ابن داب في العربية لأن السبي غير مهموز وسبأ مهموز على أن لابن داب أسوة بالنساب فإنهم زعموا أن طيأ سمى طيأ لأنه أول من طوى المناهل وأنا بريء من عهدة الكلمتين ... » [٣]

– حفص بن أشيم وهو من الخوارج وله من الكتب : الفرق والرد عليهم . يذكر ابن النديم أنه رواه عن جبير بن غالب [٤] فلعله لهذا الأخير في الأصل، ولكنه على أي حال من نوادر الكتب التي ألفها الخوارج في الدفاع عن آرائهم .

– مجهول من ولد الربيع بن زياد بن أبيه (المنسوب لبني سفيان) كتب كتاباً في خطط البصرة وقطائعها ذكره ابن حزم الأندلسي [٥]

ولعلنا نستطيع أن نضيف إلى هذه الجماعة من مؤلفي الأمور التاريخية في أواسط القرن الثالث اسم :

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٧ .

(٢) ابن خير – فهرسة ابن خير ص ٢٢٩ .

(٣) حمزه الاصفهاني – تاريخ سني ملوك الأرض ص ١٠٥ – ١٠٦ .

(٤) ابن النديم – الفهرست ص ١٨٢ .

(٥) انظر لسان الدين بن الخطيب – نفح الطيب (ط. محمد محيي الدين عبد الحميد – القاهرة ١٩٤٩) ج ٤ ص ١٥٩ .

ـ الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ولد بالبصرة أوائل سنة ٧٦٧/١٥٠ وتوفي فيها سنة ٢٥٥/٨٦٨ـ٩) وهو أشهر كتاب العربية وكان لا بد من ذكره لأن عدداً من مؤلفاته الكثيرة كان مشاركة واضحة في التاريخ الحضاري وقد تحوى من الإشارات والأمور التاريخية ما لا تحويه أي الكتب في التاريخ. ومنها:

ـ كتاب البيان والتبيين. كتاب الحيوان. كتاب البخلاء. كتاب التاج في أخلاق الملوك وهي مطبوعة موجودة. وكتاب الأخبار أو تصحيح الأخبار وهو ضائع إلا بعض قطع منه نقلها أحمد بن يحيى بن المرتضى في كتاب المنية والأمل ...

ـ وله من الرسائل الهامة تاريخياً: رسالة في بيان مذاهب الشيعة (مخطوطة) ومقالات الزيدية والرافضة (مخطوطة) ومقالات العثمانية (مخطوطة). ومن الرسائل (بين منشورة وضائعة): رسالة في بني أمية. كتاب في العباسية. رسالة في تفضيل بني هاشم. رسالة في أمر الحكمين. رسالة في اثبات إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. ورسائل في مناقب التُرك وعامة جند الخلافة. وفي فضل السود. وفي مفاخرة الجواري. في أخلاق الملوك. في الحجاب وذمه. في مدح التجارة وذم عمل السلطان، في القيان وفي المغنين وفي اللصوص وفي القحطانية والعدنانية. وفي العرب والعجم. وفي إمامة ولد العباس. وفي الملوك والأمم السالفة. وفي العرب والموالي. وفي أديان العرب. وفي غش الصناعات وفي حيل المكدين وفي أخلاق الشطار وفي عدد من الألعاب. وفي ذم أخلاق الكتاب. وفي صناعة القواد. وفي الحجاب. وغير ذلك.ـ

ولقد دُرس الجاحظ دراسات واسعة من الناحية الأدبية ولكن لم يتصدّ أحد بعد لالتقاط واستخراج ما تكشفه كتب الجاحظ ورسائله من جوانب التاريخ الإسلامي وخاصة منه التاريخ الاجتماعي والفكري والحضاري لعصره مع أن هذا الفكر الموسوعي الذكي منجم للمعلومات والمعطيات والأخبار

القريدة، وقد كان بالامكان أن نضيف إليه اثنين من معاصريه هما الفتح بن خاقان وسهل بن هارون ولكن مؤلفاتهما ضاعت . [1]

ونعود إلى جمهور المؤرخين الصغار بعد عصر الجاحظ فنجد العدد الكثير أيضاً ومنهم :

– الطلحي أبو اسحق طلحة بن عبيد الله بن محمد بن اسماعيل التيمي ، (المتوفى سنة ٢٧١) وهو من أهل البصرة كان نديماً للموفق شقيق الخليفة المعتمد . وكان راوية إخبارياً صنف من الكتب كتاب جواهر الأخبار وكتاب المتيمين [2]

– الدوري العباس بن محمد بن حاتم (المتوفى سنة ٢٧١) وقد كان أحد المصادر للمؤلف المجهول صاحب كتاب أخبار العباس وولده [3] .

– الشيباني أبو علي حنبل بن اسحق بن حنبل بن هلال بن أسد البغدادي (المتوفى سنة ٨٨٦/٢٧٣) وهو ابن عم الامام أحمد بن حنبل وتلميذه . ويعتبر من الحفاظ المعروفين والثقات الصدوقين الأثبات، غير أنه كان فقيراً فترك بغداد إلى عكبرا يقرىء الحديث فيها ثم خرج إلى واسط فاستقر بها حتى توفي وله من الكتب ، وكلها مفقود :

– كتاب التاريخ وهو على الأرجح في رواة الحديث وتراجمهم .

– كتاب الفتن . ولعله في ملاحم آخر الزمان .

– وكتاب المحن ولعله حكى فيه محنة عمّه الامام احمد وغيره في قضية خلق القرآن .

– ابن أبي السرح أبو العباس أحمد (المتوفى سنة ٢٧٤ /٨٨٧) وقد

---

(١) انظر قائمة مؤلفات الاثنين لدى ابن النديم – الفهرست ص ١١٦ وص ١٢٠ .

(٢) ابن النديم – الفهرست ص ١١٣ .

(٣) انظر أخبار الدولة العباسية (تحقيق الدوري والمطلبي) ص ١٢٧ .

وصلنا منه أقدم كتاب خاص بعادات العرب وخرافاتهم واسمه :

– كتاب الرموز . ومنه نسخة مخطوطة في استامبول (مكتبة راغب رقم ١٦/١٤٦٣ – من الورقة ٩٩ وجد حتى ١٠٥ وجه) وقد نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (المجلد ١١ لسنة ١٩٣١ ، من ص ٦٤١ حتى ٦٥٥) بتحقيق س. محمد حسين .

– البرقي أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد (المتوفى في حدود سنة ٢٧٤ أو سنة ٨٨٧/٢٧٠أو ٨٨٣) قتل جده في السجن بالكوفة لأنه من أنصار زيد ابن علي فهرب إلى برقة من أعمال قم وهناك نشأ واشتهر وصنف الكثير من الكتب[١] في إطار المذهب الشيعي ومنها :

كتاب التاريخ ، كتاب أنساب الأمم . كتاب مغازي النبي. كتاب بنات النبي . كتاب الجمل . كتاب النوادر . كتاب الأوائل . وقد ذكر المسعودي بين مصادر تاريخه مروج الذهب كتاب التبيان في التاريخ البرقي[٢] وصاحب كشف الظنون يذكر أنه في أخبار بغداد فهو إذن من أقدم الكتب في تاريخ هذه المدينة . وللبرقي أيضاً كتاب الرجال وقد طبع بعناية كاظم الموسوي المياموي (طهران سنة ١٣٨٣) مع كتاب آخر يحمل العنوان نفسه من تأليف الحلي تقي الدين الحسن بن علي بن داود من رجال القرن السابع. وقد يكون كتاب الرجال للبرقي هو نفسه الكتاب المعروف بالتاريخ . وقد اقتصر فيه البرقي على بعض الصحابة الذين وقفوا بجانب الامام علي وأيدوا خلافته عقب وفاة الرسول وعلى الشيعة بعد ذلك . وقد رتب الرواة على أساس الصحبة لصاحب الرسالة أو لأحد الأئمة . وهكذا ارتبط نظام الطبقات التي أتى بها يتوالي أسماء الأئمة : فهناك بعد أصحاب النبي ، أصحاب علي ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن

---

(١) انظر قائمة كتبه لدى الطوسي – الفهرست ص ١٤ – ١٥ . وانظر أيضاً الخوانساري – روضات الجنات ص ١٣ – ١٤ .

(٢) المسعودي – مروج الذهب ج ١ ص ١٣ .

الحسين حتى ... أصحاب الحسن العسكري . ثم ذكر النساء حسب الرواية عن الأئمة أيضاً . وختم الكتاب بفصل ذكر فيه أسماء الصحابة اللذين انكروا خلافة أبي بكر وأرادوها لعلي . وهو يقتصر في التراجم على ذكر الاسماء والنسبة ولا يعنى بالجرح والتعديل ولا سنوات الوفاة .

– المروزي أبو العباس جعفر بن أحمد (المتوفى قبيل سنة ٢٧٤) أحد المؤلفين للكتب في سائر العلوم . توفي بالأهواز وبيعت كتبه ببغداد . ومؤلفاته على قول ابن النديم غزيرة جداً وله كتاب المسالك والممالك وهو أول من ألف في هذا الموضوع ولم يتمه . وله عدا ذلك كتاب تاريخ القرآن لتأييد كتب السلطان . بالإضافة إلى الكتب الأدبية الأخرى [١] .

– الصميري أبو العنبس محمد بن اسحق بن إبراهيم بن المغيرة (ولد سنة ٢١٢ – توفي سنة ٢٧٥) المنجم الكوفي البغدادي . أصله من الكوفة وتولى قضاء الصميرة ثم أضحى من ندماء المتوكل والمعتمد لما عرف به من الفكاهة والأدب والمعرفة بالنجوم . وإذا كان له في الفلك كتاب يمدحه المنجمون – كما قال ابن النديم – فان له في أجواء التاريخ :

– كتاب مساوىء العوام وأخبار السفلة الأغتام ولو سلم الكتاب لأعطانا دون شك صورة حية لحياة الطبقات الدنيا . – كتاب عجائب البحرة – كتاب نوادر القواد – كتاب صاحب الزمان (في تصورات الناس حول نهاية العالم) – وكتاب الدولتين في تفضيل الخلافتين [٢] .

– المبرد أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن ثمالة الأزدي البصري (ولد سنة ١٢٠ وتوفي سنة ٢٨٥) الأديب النحوي اللغوي الفقيه . وكانت اللغة همه الأول ولكنه دخل عن طريقها باب الأخبار والتأليف التاريخي . وله بين مؤلفاته الأربعة والأربعين بعض ما يمس التاريخ ومن ذلك :

---

(١) انظر قائمة كتبه لدى ابن النديم ص ١٥٠ .
(٢) انظر ابن النديم – الفهرست ص ١٥٢ .

– كتاب الكامل ومع أنه في الأدب واللغة إلا إنه يحوي من تاريخ الخوارج مثلاً وبني أمية جانباً لا يحويه أي كتاب تاريخ . كما تكثر فيه الأخبار الأخرى المختلفة والخطب والرسائل البليغة . وقد طبع مرات .

– كتاب طبقات النحاة البصريين . ولعله أول كتاب في نحويي البصرة ولكنه ليس أول كتاب في تاريخ النحاة فقد سبقه إلى الموضوع عدد من النحاة المؤرخين ومن ذلك : أخبار النحاة للنجيرمي وأخبار النحويين لأبي سعيد السيرافي وأخبار النحويين لأبي بكر محمد بن عبد الملك التاريخي [1] وسوف يتبع المبرد من بعد المرزباني بكتاب المقتبس الكبير في أخبار النحويين ..

– وللمبرد أيضاً كتاب أدب الجليس ، كتاب نسب عدنان وقحطان . كتاب الروضة ويبدو أنه في الأخبار... ويبدو أن طريقة المبرد في كتبه وجدت بعض الرواج والمادحين أو بعض الحسد والنقد فقد ظهر مؤلفان يعارضانه :

– أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الفقيه الذي كتب كتاباً في الأخبار وعنوانه الباهر يعارض فيه كتاب الروضة .

– وابراهيم بن ماهويه الفارسي الذي ألف كتاب الكامل في الأخبار يعارض كتاب المبرد الذي يحمل العنوان نفسه . وقد كان هذا وذاك بدورهما من مصادر المسعودي [2] أيضاً لكنهما ضاعا مع الزمن .

– الفسوي أبو يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي المتوفى سنة ٨٩١/٢٧٧ عن بضع وثمانين سنة) وكان أحد أركان الحديث والحفظ التاريخ . ترك بلده فسا سنة ٢١٩ واتجه لدمشق وحمص وفلسطين ومصر كة ثم عاد بعد عشر سنوات ليتركه من جديد إلى العراق ومصر ، ثم استقر في ق وتوفي في البصرة [3] .

نظر ابن النديم – الفهرست ص ٨٧ .

نظر المسعودي – مروج الذهب ج ١ ص ١٦ .

انظر ترجمة في مقدمة اكرم ضياء العمري لتاريخه المطبوع (للمعرفة والتاريخ ج ١ ص ٧-١٢)

ولهذا الرجل كتاب ضخم اسمه كتاب المعرفة والتاريخ[1] كان يتألف فيما يبدو من قسمين أحدهما تاريخ للأحداث السياسية على السنين وقد ضاع معظمه وكان من مصادر الذهبي في تاريخ الإسلام، والآخر يتعلق بمعرفة الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وقد سلم هذا القسم ومنه نسخة مخطوطة تقع في مجلدين كبيرين يشملان عشرين جزءاً من الكتاب وأحد المجلدين مخطوط في مكتبة طوب قبو سراي باستامبول (ريفان كشك ١٥٥٤) والثاني في مكتبة أسعد أفندي هناك أيضاً (رقم ٢٣٩١) ويبدأ المخطوط الأول بعد موجز حولي يمتد بين سنتي ١٣٥ و٢٤١ بـ ٨٤ صفحة حول الصحابة: اسم كل منهم ونسبه مع الحديث الذي روي عنه. ثم يأتي ذكر التابعين ثم من جاء بعدهم طبقة طبقة وينتهي الكتاب بتراجم مفصلة لبعض كبار الصحابة وأولادهم. وقد طبع الموجود من الكتاب بتحقيق طيب من أكرم ضياء العمري في ثلاث مجلدات ضخمة أضاف فيها إليه النصوص التي وجدها في المصادر مقتبسة عن المجلد المفقود (جاءت في ٧٥ صفحة) (طبع بغداد ـ الأوقاف ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦).

وللفسوي معجم الشيوخ رتبه على البلدان التي زارها ومنه جزءان (الثاني والثالث) مخطوطان في الظاهرية بدمشق (رقم ٧٤١٨، ٧٤١٩ عام) ويقعان في ٤٢ ورقة.

ـ ابن أبي خيثمة أبو بكر أحمد بن زهير بن حرب (المتوفى سنة ٨٩٢/٢٧٩) بغدادي تلمذ على ابن حنبل والمدائني حتى أضحى من كبار علماء الحديث والأدب والتاريخ. له من الكتب كتاب المتمين. كتاب الاعراب. كتاب أخبار الشعراء. أما كتابه الأهم فهو: كتاب التاريخ الكبير الذي ذكر الكتاني أنه يقع في ثلاثين مجلداً صغاراً أو اثني عشر مجلداً كباراً. وقد نقلت عنه كثير من كتب التراجم كما كان أحد مصادر الطبري والذهبي والخطيب البغدادي الذي قال فيه: «لا أعلم أغزر فوائد منه» ...

بقيت لنا من هذا التاريخ قطعة مخطوطة في مكتبة القرويين بفاس ـ المغرب (ح ل 40 : 244N رقم 887 وتبدأ هذه القطعة بالقسم الثالث من الكتاب

---

(١) أدخله بروكلمان (ج ٣ ص ١٣ من الترجمة العربية) في كتب أخبار الدولة العباسية. ويبدو أنه يعني النصف الضائع منه.

وفيه بعد ذكر أولاد بعض الرواة وإخوتهم ذكر الرواة المحدثين نُظّموا على أساس المدن : مكة ومن نزلها ولكنه شمل معهم التابعين ومن جاء بعدهم ثم اليمن ثم اليمامة ثم أورد السيرة النبوية بشكل موجز وعلى السنين قبل أن يتحدث عن صحابة المدينة والتابعين فيها ثم جاء على ذكر الكوفة .. وينتهي المخطوط قبل نهاية السفر التاسع منه .

وابن أبي خيثمة يحافظ على السند في أخباره . وقد لا تزيد الترجمة عنده على سطر ولكنها قد تطول عدة صفحات . وهو يهتم بالأمور الفقهية خلال التراجم وقد يورد بعض آراء الناس وعقائدهم ويخلط الترتيب على السنين أحياناً كثيرة بالتراجم . وقد أورد عند ذكر المدينة قائمة بأسماء الولاة والقضاة فيها في العهد الأموي وحتى مطالع العهد العباسي . وأما مصادره فكبار المحدثين والرواة من أمثال ابن اسحق وابن عقبة ومصعب والمدائني وابن حنبل والمديني وابن سلام .

– ابن الأزهر : جعفر بن أبي محمد بن الأزهر بن عيسى (ولد سنة ٢٠٠ وتوفي سنة ٢٧٩) سمع من ابن الأعرابي وغيره . وله كتاب التاريخ الذي وصفه ابن النديم بأنه « من جياد الكتب » . وقد نقل عنه كثير من المؤرخين .

ويلفت النظر أن ابن العديم مؤرخ حلب ينقل عن كتاب الأحداث تأليف من يسميه أبا جعفر محمد بن الأزهر ، ويذكر أنه ألفه لأبي نصر الطائي[1]. وقد يكون هذا المؤلف هو الأول نفسه لأنه من غير المعقول أن يكون أباه ما دام ابن العديم ينقل عنه احداثاً تتعلق بسنة ٢٥٠ (بالقائد أحمد المولد)[2] وبهذا الشكل يكون كتاب الأحداث كتاباً ثانياً لابن الأزهر إن لم يكن الاسم عنواناً ثانياً لكتاب التاريخ الأول نفسه .

– الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي ،

(١) انظر ابن العديم – بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) المجلد الثاني الورقة ١٦٥ وجه.
(٢) ابن النديم – الفهرست ص ١١٣ .

(المتوفى سنة ٢٧٩) الامام الحافظ الضرير صاحب أحد كتب السنن الأربعة المعروفة وقد كتب أيضاً كتاباً في التاريخ لا شك أنه في تراجم الصحابة رواة الحديث على طريقة المحدثين كما لا شك أنه هو نفسه الكتاب الذي يحمل عنوان « تسمية أصحاب رسول الله » والذي نجد نسخة منه مخطوطة في مكتبة شهيد علي باستامبول (رقم ١/٢٨٤٠) في ١٧ ورقة ونجد منه قطعة مخطوطة أيضاً في (لاله علي) هناك (برقم ١/٢٠٨٩) .

— ابن أبي الدنيا أبو بكر عبد الله (أو عبيد الله) بن محمد بن عبيد القرشي بالولاء (المتوفى سنة ٨٩٤/٢٨١ عن ثلاث وسبعين سنة) من العلماء الزهاد العالمين بالأخبار والروايات . كان على اتصال وثيق بالبلاط العباسي وقد أدب عدداً من أولاد الخلفاء منهم الخليفة المكتفي (٢٨٩ — ٢٩٥) وكتبه تدخل في إطار المثل العليا الفكرية والاجتماعية لعصره [1] ومنها مثلاً : كتاب الفرج بعد الشدة . مكارم الأخلاق . ذم الملاهي . ذم المسكر . قرى الضيف . الصبر والثواب . الغيبة والنميمة . على أن له كتباً تاريخية واضحة منها :

— تاريخ الخلفاء وقد ذكره الصفدي في مقدمة كتاب الوافي [2]

— كتاب مواعظ الخلفاء . — كتاب آخر الزمان وهو دون شك في التنبؤ بما يجري في نهاية الدنيا .

ولابن أبي الدنيا — فيما يذكر ابن النديم — كتابان تاريخيان آخران هما : كتاب النوادر وكتاب أخبار قريش . كما يذكر ابن القوطي له كتابي : الدعوات والسحاب [3] .

وقد نشر كتابه الفرج بعد الشدة في مصر منذ سنة ١٩٠٦ وتحفظ له

(١) انظر قائمة كتبه لدى ابن النديم — الفهرست ص ١٨٥ وفي ذلك كشف الظنون ج ١ ص ٤٤١ .
(٢) الصفدي — الوافي ج ١ ص ٥١ .
(٣) ابن القوطي — تلخيص معجم الآداب ج ٤ القسم الأول ص ٧٨٠ و ٧٨٦ والقسم ٢ ص ٨٠٥.

مكتبات استامبول، وأوروبا نسخاً مخطوطة من بعض رسائله كنُم الملاهي وقرى الضيف ، وبعض هذه الرسائل نشر في مصر ولكن كتبه الأساسية ضاعت .

— شيلمة محمد بن الحسن الخارجي الكاتب (المصلوب المحروق سنة ٢٨٠) وشيلمة لقب . « كان أولاً مع العلوي البصري ثم صار إلى بغداد ، وأعطي الأمان وثم خُلط (أي أصابه بعض الاضطراب العقلي) وسعى لبعض الخوارج فحرقه الخليفة المعتضد حياً بعد أن صلب على عمود خيمة». غير أن له من الكتب كتاباً في التاريخ هاماً لو أنه سلم : كتاب أخبار صاحب الزنج ووقائعه [1]

— الثقفي ابراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال ...بن مسعود الثقفي (المتوفى سنة ٢٨٣ بأصبهان سنة ٨٩٦) وهو كوفي الأصل ولكنه أقام بأصبهان . وكان في أول أمره زيدياً ثم صار إلى الامامية وله كتب كثيرة تجعله حسب عناوينها المألوفة في زمرة الإخباريين المتأخرين[2] ومنها وهي تزيد على الخمسين :

كتاب المغازي. كتاب السقيفة . كتاب الردة ، كتاب مقتل عثمان . كتاب الشورى . كتاب الجمل . كتاب صفين ... وتعد على هذا النسق حوالى ٣٦ كتاباً عدا الكتب ذات الطابع الفقهي والديني ومن بينها نذكر خاصة : كتاب التاريخ . كتاب السيرة . كتاب أخبار يزيد ، كتاب ابن الزبير . كتاب أخبار عثمان . كتاب أخبار عمر . كتاب محمد (النفس الزكية) وابراهيم (ولدي عبد الله المحض) . كتاب الغارات الذي ينقل عنه المجلسي كثيراً، كما نجد قطعاً عديدة في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

— الحربي أبو اسحق إبراهيم بن اسحق بن ابراهيم بن بشير (المتوفى سنة ٢٨٥) بغدادي من كبار الحفاظ المحدثين والمؤلفين في الحديث ومن هذا الباب وضع كتاب المغازي ولعله من أواخر الكتب التي ألفت على الطريقة القديمة للسيرة النبوية [3]

---

(١) ابن النديم — الفهرس ص ١٢٧ .

(٢) انظر قائمة كتبه لدى الطوسي — الفهرست ص ٢٧ — ٢٨ .

(٣) انظر قائمة كتبه لدى ابن النديم — الفهرست ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

ـ السرخسي أبو العباس أحمد بن محمد بن مروان بن الطيب (القتيل سنة ٢٨٦/٨٩٩) وهو تلميذ الكندي الفيلسوف وأحد كبار الملحدين في نظر البيروني، وأحد فلاسفة الإسلام في نظر القفطي . كان متفنناً في علوم كثيرة، موسوعي الثقافة، بليغ اللسان والتصنيف . عمل أولاً معلماً للخليفة المعتضد (٢٧٩ ــ ٢٨٩) واختص به ونادمه ثم أفشى بعض أسراره فسجنه ثم قتل في مكيدة [١] ... كتب عدداً من الكتب في الفلسفة والموسيقى والطب . كما وضع عدداً من الكتب التاريخية والسياسية المتصلة بالدولة وبعصره وتكشف مجموعتها مدى ثقافته الواسعة المتنوعة . ومنها :

ـ كتاب سير المعتضد إلى الشام . وهو نوع من المذكرات الجغرافية السياسية التاريخية لعله كتبها بطلب من الخليفة نفسه . ولكنها من أوائل كتب المذكرات في التاريخ الإسلامي إن لم يكن أولها . وقد وجدت نسختها بين كتبه المصادرة يوم مقتله فعهد بها الخليفة إلى كاتبه ثابت بن سنان الحراني فجعلها كتاباً في سيرة المعتضد .

ـ كتابان في السياسة هما : كتاب السياسة الصغير والسياسة الكبير .

ـ كتابان في الحسبة هما : كتاب الأغشاش وصناعة الحسبة الكبيرة وكتاب غش الصناعة والحسبة الصغيرة .

ـ كتب في أدب أهل البلاط والحاشية،منها : زاد المسافر وخدمة الملوك . آداب الملوك . الجلساء والمجالسة .

ـ كتب في المتعة الأدبية التاريخية منها : كتاب اللهو والملاهي في الغناء والمغنين والمجالسة والمنادمة وأنواع الأخبار والملح . كتاب القيان .

ـ كتب جغرافية وتاريخية أخرى مثل : كتاب المسالك والممالك الذي امتدحه المسعودي [٢] .

(١) انظر القفطي ــ تاريخ الحكماء (مختصر الزوزني ــ طبعة ليبزيك) ص ٧٧ .
(٢) المسعودي ــ التنبيه والاشراف ص ٦٥ .

— رسالة في الصابئين ومذاهبهم وكتاب فضائل بغداد .

ولم يبق من هذا التراث كله شيء سوى بعض النتف ومنها ما نجده لدى ابن العديم في بغية الطلب منقولاً عن كتاب ثابت بن سنان [1] .

٩٠٢) . أديب لغوي عرف برواية الأقاصيص القديمة والحكايات . ذكره البغدادي في تاريخ بغداد . وله :

— أبو الفضل محمد بن أحمد بن عبد الحميد الكاتب (المتوفى سنة ٢٨٧/ ٩٠٠) ويصف ابن النديم هذا الرجل بأنه « من أهل السير » وجدّه هو أول كاتب بارز في تاريخ الأدب العربي . وقد كتب أبو الفضل كتاب أخبار خلفاء بني العباس . وقد وصف بأنه تاريخ كبير . وقد كان من مصادر الطبري [2] كما وجده الجهشياري بخطه ونقل عنه جدول خراج الدولة زمن الرشيد [3]

— العلوي، أبو عبد الله محمد بن علي بن حمزة الهاشمي (المتوفى سنة ٢٨٧/ ٩٠٠) . وهو مؤرخ محدث شاعر [4] . روى عن أبيه وعن عمر بن شبة كما كان أستاذ أبي حاتم الرازي . وقد كتب :

— كتاب مقاتل الطالبيين وكان من المصادر الهامة لأبي الفرج الأصبهاني في كتابه الذي يحمل العنوان نفسه .

— العنزي أبو علي الحسن بن عليل بن الحسين (المتوفى بسامراء سنة ٢٩٠/

---

(١) انظر ابن العديم — بغية الطلب مثلا (مخطوط أحمد الثالث رقم ٢٩٢٥) المجلد ٢ ورقة ٨٩ وجه. ومخطوط أيا صوفيا ورقة ٦٩ وجه . وقد كتب روزنتال بحثاً عن أبي الطيب السرخسي سنة ١٩٤٣ درس فيه بعض النتف الباقية من كتاب فضائل بغداد وغيره . انظر :
Rosenthal, F. : *A. b. At-Tayyib As-Sarakhsi* (New Haven 1943, American Oriental Series, 26).

(٢) انظر ابن النديم — الفهرس ص ١٠٧ وانظر الطبري ج ٣ ص ٢١٣٤، ٢١٩٢ .

(٣) انظر الجهشياري — الوزراء والكتاب ص ٢٨١ حتى ص ٢٨٨ .

(٤) انظر النجاشي — الرجال (ط. ايران) ص ٢٦٧ — ٢٦٨ وانظر الخطيب البغدادي — تاريخ بغداد ج ٣ ص ٦٣ .

– كتاب النوادر الذي استخدمه المرزباني في الموشح وكانت لدى القفطي نسخة منه استخدمها في كتابه إنباه الرواة [1] .

– ابن أبي خيثمة (الابن) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن زهير المتوفى سنة ٢٩٧ وهو بغدادي من المحدثين روى عن أبي حفص الفلاس وكان شديد الحفظ حتى كان أبوه يستعين به في تصنيف التاريخ الذي كتبه . وقد كتب الابن أبو عبد الله بدوره :

– كتاب التاريخ ولا شك أنه على الطريقة الحديثية .

– كتاب الزكاة وأبواب الأموال بعللِه من الحديث . وهو يدخل في زمرة كتب الخراج .

– أحمد بن يعقوب الرازي المقرىء المتوفى سنة ٣٠٠ وله كتاب أخبار العباسيين أو أخبار بني العباس . وكان من المصادر التي اعتمدها المسعودي [2] .

– ابن خرداذبه : عبيد الله بن عبد الله (أو أحمد) أبو القاسم المتوفى في حدود سنة ٣٠٠ . كان من موظفي الدولة.تولى البريد في ناحية الجبل (شمال غرب ايران) كما كان نديم الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦ – ٢٧٩) . وقد أفرغ معلوماته الجغرافية في كتاب المسالك والممالك الذي أصبح به أحد الجغرافيين العرب البارزين. غير أنه ألف العديد من الكتب غيره مما يدخل في التاريخ الحضاري مثل : كتاب الندماء والجلساء . كتاب اللهو والملاهي . كتاب أنساب الفرس والنوافل ...

---

(١) انظر البغدادي – تاريخ بغداد ج ٧ ص ٢٩٨ والقفطي – إنباه الرواة ج١ ص ٢١٧ –٢١٨ .

(٢) جاء ذكر هذا المؤلف لدى هدية العارفين (ج ١ ص ٥٦) بالاسم والألقاب التي ذكرناها وجاء ذكره في المطبوع من مروج الذهب للمسعودي (ج ١ ص ٥١) وفي كشف الظنون (ج ١ ص ٢٦) على أنه المصري وليس المقرىء . ومن غير المحتمل أن يكونا مؤلفين اثنين مع سهولة تصحيف إحدى هاتين الكلمتين إلى الأخرى .

وقد ذكر المسعودي اسم ابن خرداذبه في مراجعه التاريخية بالتقريظ الواضح وذكر أن له كتاباً كبيراً في التاريخ . يقول المسعودي :

« ... إنه كان إماماً في التأليف متبرعاً في ملاحة التصنيف . اتبعه من هذه طريقته وأخذ منه ووطىء على عقبه وقفى أثره. وإذا أردت أن تعلم صحة ذلك فانظر إلى كتابه الكبير في التاريخ فإنه أجمع هذه الكتب جداً وأبرعها نظماً وأكثرها علماً وأحوى لأخبار الأمم وملوكها وسيرها من الأعاجم وغيرها .. ومن كتبه النفيسة كتابه في المسالك والممالك وغير ذلك مما إذا طلبته وجدته . وإن تفقدته حمدته ... » [1] ولم يبق من انتاج ابن خرداذبة سوى هذا الكتاب الأخير .

— العقيقي : علي بن أحمد العلوي الذي قدم بغداد سنة ٢٩٨ ومات بعدها وله كتاب الرجال [2] تحدث فيه عن رواة الشيعة خاصة . وكان من مصادر تقي الدين الحسن بن علي الحلي (المولود سنة ٦٤٧) في كتابه عن الرجال . ويبدو أن ولداً لهذا المؤرخ العلوي اسمه أحمد بن علي كتب بدوره كتاباً في تأريخ الرجال [3] .

— سعد بن عبد الله الأشعري القمي (المتوفى سنة ٢٩٩ أو سنة ٣٠١) وهو من علماء الشيعة وقد كتب بدوره كتاباً يسميه السخاوي : تاريخ الشيعة . ولعله هو نفسه أحد الكتابين التاليين أو كلاهما . وهما : كتاب مناقب رواة الحديث ، وكتاب مثالب رواة الحديث [4] والكتابان يكمل أحدهما الآخر ويبدو أن أحدهما كان مرتباً على الطبقات .

---

(١) المسعودي – مروج الذهب ج ١ ص ١٤ .
(٢) انظر الطوسي – الفهرست ص ٩٧ وانظر الحلي – كتاب الرجال ص ٣ .
(٣) انظر النجاشي – الرجال ج ١ ص ٦٣ والطوسي الفهرست ص ٢٤ .
(٤) ذكر الكتابين النجاشي : الرجال ج ١ ص ١٣٤ والطوسي – الفهرست ص ٧٥ وذكر السخاوي تاريخ الشيعة في الاعلان ص ٥٨٠ .

ـ البردعي البرديجي أبو بكر أحمد بن هارون بن روح (المتوفى سنة ٣٠١) نزيل بغداد وكان من الثقات الأخيار ومشاهير العلماء المحدثين وكتابه التاريخي إنما كان في هذا الباب واسمه : كتاب الطبقات في الاسماء المفردة من أسماء العلماء وأصحاب الحديث. ومنه مخطوط بالظاهرية في دمشق في ١٧ ورقة وآخر في مكتبة كوبريلي باستامبول (رقم ١١٥٢) . وهو يذكر الاسم والكنية والنسبة إلى المدينة ويذكر أحياناً أحد شيوخ المحدث أو تلاميذه وقد قسم الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى خمس طبقات بنى عليها كتابه .

ـ وأخيراً نذكر الامام الناصر للحق الحسن بن علي الاطروش بن الحسن الزيدي ، صاحب طبرستان ما بين سنتي ٣٠١ ـ ٣٠٤/٩١٣ ـ ٩١٦ فقد ذكر له ابن النديم [1] :

ـ كتاب السير ،ولا شك أنه يكمل سلسلة كتب السير المعروفة التي تتحدث في الفتوح وتنظيم العلاقة مع البلاد المفتوحة .

ويأتي مع هذه المجموعة في أواخر القرن الثالث جماعة من مجهولي الوفاة منهم :

ـ الدورقي ، أحمد بن ابراهيم وقد كتب سيرة عمر بن عبد العزيز في خمسة أجزاء ، درسها ابن خير في بغداد سنة ٣٩٧ من خلال ثلاثة رواة [2] .

ـ نطاحة : أبو علي أحمد بن اسماعيل بن الخصيب الأنباري المعروف بنطاحة كاتب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر . قتله محمد بن طاهر.وكان بليغاً مترسلاً ـ فيما يروي ابن النديم ـ شاعراً متقدماً في صناعة البلاغة ، صديقاً لابن المعتز . وديوان رسائله يبلغ حوالى ألف ورقة ؛ وله :

كتاب طبقات الكتاب : وكتاب أسماء المجموع المنقول من الرقاع يحتوي

---

(١) انظر ابن النديم ـ ص ١٩٣ .
(٢) انظر ابن خير ـ فهرس ابن خير ص ٢٧٣ .

على سماعاته من العلماء وما شاهد من أخبار الجلة [1]

ــ النملي أبو نميلة : وابن النديم يقول إنه لا يعرف من أمره غير هذا وله من الكتب : كتاب الشذور في مؤامرات الخلفاء والأمراء [2]

ــ أبو عيسى أحمد بن علي بن يحيى وله من الكتب : تاريخ سني العالم [3] ولعله يشبه كتاب حمزة الاصبهاني .

ــ عبد الله بن الحسين بن سعد الكاتب وقد كتب : كتاب التاريخ وأخبار الخلفاء من بني العباس وغيرهم وكان من مصادر المسعودي .

ــ النصبي حسن بن موسى . صاحب كتاب الأغاني على حروف المعجم ألفه للمتوكل وذكر في هذا الكتاب ــ على رواية ابن النديم ــ أشياء من الأغاني لم يذكرها اسحق (الموصلي) ولا عمرو بن بانة وذكر من أسماء المغنين والمغنيات في الجاهلية والإسلام كل طريف وغريب . وله عدا ذلك كتاب مجردات المغنين [4]

ــ اللهلي سعيد بن محمد وله كتـاب في التاريخ اعتمد فيه على التوراة والانجيل في إخراج التاريخ القديم . وقد نقل عنه البيروني في الآثار الباقية وذكر أنه بحث فيه مبدأ الخلق وأن هناك أوادم كثيرة وأدواراً للخلق ... [4] .

ــ أبو حشيشة : محمد بن علي بن أمية ويكنى أبا جعفر من ولد أبي أمية الكاتب . وكان طنبورياً حاذقاً كما ألف كتاب أخبار الطنبوريين [5] .

ــ أبو العبر الهاشمي : ويكنى أبا العباس محمد بن أحمد بن عبد الله من

---

(1) ابن النديم ــ الفهرس ص ١٢٤ .
(2) المصدر نفسه ص ١٤٠ .
(3) المصدر نفسه ص ١٤٤ .
(4) المصدر نفسه ص ١٤٥ .
(4) البيروني ــ الآثار الباقية ص ١١٢ .
(5) ابن النديم ــ الفهرس ص ١٤٥ .

نسل العباس وله من الكتب : كتاب سماه جامع الحماقات ومأوى الرقاعات ، وكتاب المنادمة وأخلاق الخلفاء والأمراء . وكتاب النوادر [1] .

ــ ابن الشاه الطاهري : أبو القاسم علي بن محمد من ولد الشاه بن ميكال وكان أديباً وفي نهاية الظرف . وله من الكتب : كتاب أخبار الغلمان . كتاب أخبار النساء . كتاب عجائب البحرة ، وغيرها [2] .

ــ رجل يعرف بالمنادكي له من الكتب : كتاب الهمج والرعاع وأخلاق العوام . كتاب نوادر الغلمان والخصيان [3] .

ــ محمد بن اسحق السراج من أهل نيسابور ؛ وله من الكتب : كتاب الأخبار ذكر فيه أخبار المحدثين والوزراء والولاة وغير ذلك .. [4] .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٢.
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٣.
(٣) المصدر نفسه ص ١٥٣ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٥٥.

٢ – المؤرخون الكبار

يأتي في طليعة المؤرخين الكبار مؤرخ ظهر في وقت مبكر هو :

خليفة بن خياط الليثي العصفري : (ولد حوالى سنة ١٦٠ – ١٧٠ وتوفي حوالى سنة ٢٤٠ هـ) [١] وهو بصري الأصل من بيت علم وحديث يتحدر من الجد إلى الأب فالحفيد . درس على شيوخ كثيرين [٢] لكنه عانى الكثير من العنت بسبب عدائه للمعتزلة وهو في عصر المأمون وعانى الكثير من الحسد بسبب سعة علمه وثقته .

ألف ابن خياط من كتب التاريخ .. كتاب الطبقات . كتاب التاريخ وكتاب طبقات القراء وتاريخ الزمنى والعرجان والمرضى والعميان . وقد اتفق أن سلم من هذه المجموعة الكتابان الأولان في مخطوطات فريدة وقد طبعا مؤخراً في دمشق وبغداد . وأضيف بذلك إلى قائمة المصادر اسم هذا المؤرخ .

مصادر معلوماته تحوي أسماء محمد بن اسحق ، ووهب بن جرير (الذي

---

(١) يذكر ابن خلكان وفاته سنة ٢٣٠ ولكن كتابه يصل في التاريخ إلى سنة ٢٣٦ وقد ذكر ابن عساكر وابن كثير وفاته سنة ٢٤٠ وله تراجم لدى ابن خلكان وابن الأثير (اللباب ج ٢ ص ١٤٠) والذهبي في تذكرة الحفاظ .

(٢) نجد في التاريخ الكبير البخاري (المجلد ١ قسم ١ ص ٣٥٩ وقسم ٢ ص ٥٨ ، ١٢١ وفي المجلد ٢ قسم ٢ ص ٢٢٥ وفي المجلد ٤ قسم ١ ص ١٨ وص ٣٦٧) أسماء شيوخ خليفة بن خياط .

نقل عنه ابن سعد وخاصة في الطبقات الكبرى) وأبي معشر السندي ، وهشام ابن محمد الكلبي (في الأنساب) .

كما تحوي خاصة اسم المدائني الذي اعتمده ابن خياط على نطاق واسع واسم أبي اليقظان سحيم النسابة (الذي يظهر في التاريخ والطبقات على السواء) واسم أبي عبيدة معمر بن المثنى (فيما يتعلق بالخوارج) . وثمة عـــدد آخر مثل عبد الله بن المغيرة والوليد بن هشام وغيرهم يبلغون في العدد أكثر من ١٠٣ رواة . وطريقة ابن خياط في السرد التاريخي متصلة بصفته كمحدث فهو يهتم بالاسناد لا سيما حين يتعلق الأمر بالأحداث الخلافية ولكنه يتساهل في الطبقات ، حيث اكتفى بذكر قائمة مصادره في أول الكتاب. إلا أن أهم ما يميزه هو أنه اتبع الطريقتين الاساسيتين اللتين ستكونان في المستقبل الطرائق الرئيسية والمفضلة لدى المؤرخين .. طريقة الطبقات (في كتاب الطبقات) وطريقة الحوليات في (التاريخ) .

ويكشف ابن خياط في كتاب التاريخ عن اهتمامات تاريخية لا نجدها لدى الطبري نفسه .

ا ــ فهو يبدي اهتماماً خاصاً بذكر أسماء الشهداء في الغزوات والمواقع الهامة .

ب ــ وهو يقدم قوائم هامة بأسماء العمال والولاة في عهود الخلفاء ومن كان من الموظفين الكبار على الشرطة وبيت المال والخزائن وغير ذلك من وظائف الادارة.فهو من هذه الناحية مصدر لا يستغنى عنه لدراسة النظام الاداري والمالي الإسلامي .

ثم إنه يقدم معلومات في بعض الأحداث لا توجد لدى غيره مثل أخباره عن شمال أفريقيا وواقعة الحرّة والزاوية وغيرها .

وأهمية كتابه في التاريخ هو أنه أقدم كتاب في أيدينا لتاريخ الإسلام

مرتب على الحوليات، ولعله كان المثال الذي احتذاه الطبري وأخذ كثيراً من المعلومات عنه .

أما كتاب الطبقات فهو في علم الرجال ، وابن خياط يكشف عن علم واسع بالأنساب ولكنه يضيف اليها الأخبار . وقد رتب كتابه على ثلاثة أسس : التنظيم على النسب وعلى الطبقات وعلى المدن . وقد اتبعت كتب علم الرجال فيما بعد هذه الأسس مجتمعة أو منفردة في تنظيم مادتها . وابن خياط (مع ابن سعد صاحب الطبقات الكبرى) هو أقدم من أخذ بالترتيب الأنسابي [1] من المصنفين في علم الرجال . وقد اعتمد التسلسل القبلي بالنسبة للآخرين من بعدهم .

ثم قسم ابن خياط رجال الطبقات على أمصارهم وهو (مع ابن سعد) أقدم من فعل ذلك . وتأتي المدينة في الطليعة لوفرة علمائها . وكلما قلّ العلماء نزلت منزلة البلد . لهذا تأتي الكوفة بعد المدينة ثم البصرة ثم المدن الأخرى .

وقد أخذ الكثيرون عن ابن خياط، فثقته لدى المحدثين جعلته مصدراً للبخاري ولأحمد بن حنبل والطبري وابن سعد كما اعتمده الكثيرون قبل الطبري وبعده مثل يعقوب بن شيبة والتستري وبقيّ بن مخلد .

وكتابا ابن خياط من وجهة نظر علم التاريخ يكشفان عن استقرار النظرة الوحدوية للأمة الإسلامية ويعبران عن ثبات المعطيات الأولى سواء في نماذج الرجال أو نماذج الأعمال — التي تبني عليها تلك الأمة سلسلة وحدتها وتراثها في الخبرة عبر الزمن .

— محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري الجعفي (١٩٤ — ٢٥٦/٨١٠ — ٨٧٠) : وهو من الحديث النبوي ورجال الحديث في القمة . و « صحيح

---

(١) يظهر أن ابن خياط سبق ابن سعد في التأليف بالطبقات وهما متعاصران لأن ابن سعد يأخذ عن ابن خياط في طبقاته .

البخاري، أحد الصحيحين المعتمدين بين كتب السنة الستة . وجدّ أبيه ايراني كان مولى لبعض ولاة بخارى من اليمن . درس البخاري الحديث في وقت مبكر ، وحين بلغ السادسة عشرة خرج للحج وسمع من علماء مكة والمدينة ثم رحل إلى مصر فسمع من علمائها ، وبعد رحلة استمرت ١٦ عاماً عاد إلى إلى بخارى علماً من أعلام الحديث والمحدثين . وقد اضطر أن يترك بلده فترة من الوقت حين رفض تعليم أولاد واليها : خالد بن أحمد الذهلي، ثم عاد اليها وتوفي في قرية تبعد فرسخين عن سمرقند .

وإذا كانت شهرته تقوم على « الصحيح » فقد انسحب جزء من هذه الشهرة على كتابه : « التاريخ الكبير » وهو مصنف ضخم جمع نحواً من أربعين ألف ترجمة لرجل وامرأة من رواة الحديث مرتبة على حروف المعجم وتبدأ بالمحمدين . وقد ملأت ثماني مجلدات مطبوعة (طبع في حيدر آباد ما بين ١٩٤١ – ١٩٦٣) ولعله أقدم كتب التراجم المرتبة على الأحرف الأبجدية .

وقد نتردد في ادخال هذا الكتاب الذي يقوم على التراجم ، وعلى نوع خاص منها هو تراجم أهل الحديث فقط - في دنيا التاريخ . ولكن هذا النوع التاريخي ظهر مع ظهور علم التاريخ ورافقه واندمج به . وكما ظهرت المواضيع الأخرى في التدوين ظهر هذا الموضوع في المدرسة العراقية،ولعله تمثل قبل البخاري بعدد من المؤلفين منهم :

– عبد الله بن المبارك ، أبو عبد الرحمن (المتوفى بهيت وهو عائد من الغزو سنة ١٨١) وله كتاب التاريخ .

– عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (المتوفى سنة ٢٣٥) وله أيضاً كتاب التاريخ .

– الأثرم أحمد بن محمد من أصحاب احمد بن حنبل وله كتاب التاريخ .

– يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣ وقد صنع أصحابه من أقواله كتاب التاريخ باسمه .

ومع أن ضياع هذه التواريخ (عدا الأخير منها) يمنعنا من أن نؤكد صفة التراجم فيها ولكن أصحابها كانوا ، كالبخاري ، من المحدثين المهتمين بصورة أساسية بتراجم أهل الحديث ، الفرع التاريخي الذي أخذ يوازي الفرع الآخر من التراجم المنصبّ على الصحابة . وكما بلغ احصاء الصحابة هذا والتابعين مع تراجمهم أوجه في طبقات ابن سعد (المتوفى سنة ٢٣٠) بلغ العمل على جمع تراجم الحفاظ ورواة الحديث أوجه على يد البخاري وان كان الامران في النتيجة واحداً . وإذا أخذ (التاريخ الكبير) شأنه لما يحمل من قيمة دينية تخدم علم الحديث إلا انه لم يكن الجهد التأريخي الوحيد لصاحبه . فالبخاري كتب عدا ذلك الكتاب :

– التاريخ الأوسط : وهو مرتب على السنين ولعله أقدم كتب الوفيات . ولكنه ما يزال مفقوداً ليس منه سوى ٥٦ ورقة مخطوطة ضائعة البقية في مكتبة بنكيبور في الهند (١٢ : ٣٢ رقم ٦٨٧) .

– التاريخ الصغير ومنه مخطوطات عديدة في برلين وكلكتا ، والظاهرية بدمشق ، وقد نشر بتحقيق محمد الجعفري في الله آباد سنة ١٣٢٤ ثم أحمد آباد سنة ١٣٢٥ .

– التاريخ في معرفة رواة الحديث ، ونقلة الآثار والسنن وتمييز ثقاتهم من ضعفائهم وتاريخ وفاتهم . ومنه مخطوط في مكتبة سراي باستامبول (مدينة رقم ٥٢٤ في ١٨ ورقة) .

– التواريخ والأنساب : وهو كتاب تاريخي لا منهج له يضم بعض المعلومات أو التواريخ العامة ويتناول بالترجمة بعض الشخصيات العلمية . ومنه مخطوط في مكتبة أحمد الثالث باستامبول رقم ٢/٢٩٦٩ في ١٧ ورقة (من ورقة ٣٨٢ وجه حتى ٣٩٩ ظهر) .

– كتاب الكنى وقد طبع في حيدر آباد سنة ١٣٦٠ .

وهذا الجهد التاريخي الواسع جعل البخاري في رأي الكثيرين ومنهم ابن

حجر السخاوي « أول من صنف في تاريخ الصحابة والمحدثين »[1] . ولهذا لم يسلم عمله من النقد والنقص وقد ألف عدد من العلماء من بعده في تصحيح هفواته أو اكمال نواقصه . ولكنه يظل على أي حال رأس مدرسة التراجم تماماً كما صار ابن سعد رأس مدرسة الطبقات وكما سوف يكون الطبري رأس مدرسة التاريخ بجانب رئاسته في التفسير .

– ابن قتيبة الدينوري : (٢١٣ – ٨٢٨/٢٧٠ – ٨٨٣) ، عبد الله بن مسلم إمام في اللغة والأدب والأخبار والقرآن والحديث من بيت علم مستقل الفكر . وأبوه من مرو ولعله ولد في الكوفة أو بغداد . وانما لقب بالدينوري لأنه ولي قضاء دينور زمناً . وقد تربى في بغداد على أبي حاتم السّجستاني وحرملة ابن يحيى والرياشي وأقرأ كتبه في بغداد أيضاً فمن تلاميذه السكري وابراهيم ابن محمد الصائغ وعبد الله التميمي. وكان واسع الصلة بالفتح بن خاقان الوزير وكتب له أدب الكاتب .

وقائمة مؤلفاته تصل إلى ٤٧ مؤلفاً . منها ما هو في القرآن والحديث ومنها ما هو في الخبر ، ومنها ما هو في اللغة والشعر. وأما ما يتعلق بالتاريخ فعدد من المؤلفات . ومنها ما هو موجود مثل طبقات الشعراء (مطبوع باسم الشعر والشعراء) . كتاب الأنواء (مطبوع)، الميسر والقداح (مطبوع)، فضل العرب على العجم (منه قسم مطبوع وآخر مخطوط في دمشق وفي القاهرة) ومنها ما هو ضائع مثل .. كتاب الحكاية والمحكى . الجوابات الحاضرة ، كتاب حكم الأمثال ، آداب العشرة .

على أن أهم كتبه دون شك – كتابان معروفان موجودان هما كتاب عيون الأخبار وكتاب المعارف. وثمة كتاب ثالث مخطوط في دمشق يُعرف بتاريخ ابن قتيبة

---

(١) انظر السخاوي – الاعلان بالتوبيخ (طبعة روزنتال – العربية) ص ٥٤٠ .

وكتاب رابع ينسب اليه هو الإمامة والسياسة . أما عيون الأخبار (مطبوع في ٤ أجزاء) فهو مجموع عشرة كتب .. كتاب السلطان . كتاب الحرب والسؤدد . الطبائع والأخلاق المذمومة . العلم والبيان . الزهد . الأخوان . الحوائج . الطعام . النساء . فكتاب السلطان يتحدث عن سيرته وسياسته وعماله وصحبه وعن الكتابة والقضاء والمظالم والحجاب ... وكتاب الحرب يتحدث عن أدابها وأخبار الجبناء وحيل الحرب والفروسية والدواب ... وكذلك الكتب الأخرى فهو اذن كتاب في التاريخ الحضاري ، لا ظل السياسة والأحداث والزمن المتسلسل فيه ولكنه كالمنجم يستخرج منه الكثير من عناصر الحضارة الإسلامية .

وأما كتاب المعارف فليس بكتاب مبسوط في التاريخ ولكنه أشبه بمخطط لكتاب كدائرة المعارف شديد الإيجاز .. فيه قوائم أحداث وشيء من السيرة وجداول أسماء وأنساب وذكر للفرق والرجال . ولعل ابن قتيبة وضعه لسد حاجة الكتاب والناس إلى تاريخ موجز يحوي المعلومات الأساسية أو لعله وضعه مشروعاً لكتابة تأريخ عالمي يبدأ بالخليقة وينتهي في عهد المعتصم شاملاً تاريخ الأنبياء وأنساب العرب والسيرة والصحابة والتابعين والخلفاء وأصحاب الرأي والنسب والأخبار والحديث والشعر والولاة وصناعات الأشراف وأخبار الملوك العرب والعجم ....

ومصادر ابن قتيبة في كتاب المعارف تعتمد على الكتب والروايات الشفهية فهو يروي عن ابن اسحق والواقدي والكلبي ويرجع في تاريخ الخلق والانبياء رجوعاً مباشراً إلى « العهد القديم » ولعله أول من رجع مباشرة اليه .

وابن قتيبة لا ينقد المصادر فحسب ولكن ينقد المعلومات أيضاً . ويورد الآراء السائدة وقد يعطي أحياناً بعض الأحكام الشخصية كرأيه في الحجاج وفي الخزانة الظاهرية بدمشق كتاب مخطوط يحمل اسم .. تاريخ ابن قتيبة [1] . وقد ذكر صاحب كشف الظنون في كلامه على تاريخ أبي حنيفة الدينوري

(١) هو مخطوط في دار الكتب الظاهرية رقمه ٨٠ تاريخ .

كلمة المسعودي عنه إذ يقول إن ابن قتيبة أخذ ما ذكره أبو حنيفة وجعله عن نفسه .

أما كتاب الإمامة والسياسة ... فكتاب مطبوع أكثر من مرة ويبحث في تاريخ الخلافة وشروطها منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى عهد المأمون . وقد تشكك العلماء في نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة . وأول من أعلن ذلك وعلله هو غاينغوس المجريطي في صدر كتابه عن الأندلس سنة ١٨٨١ ثم تبعه دوزي وآخرون . وأوجه الشك في نسبة الكتاب كثيرة ..

١ – فلم يذكر أحد من مترجمي ابن قتيبة هذا الكتاب له .

٢ – وذكر في الكتاب أنه استمد عدداً من معلوماته ممن حضر فتح الأندلس وقد كان هذا الفتح سنة ٩٢ وميلاد ابن قتيبة سنة ٢١٣ .

٣ – وفي الكتاب جهل تاريخي لا يمكن أن يفوت ابن قتيبة كاعتباره أبا العباس والسفاح شخصيتين وجعله الرشيد خلفاً للمهدي وذكره أن ابنه عبدالله دس له السم وليس للمهدي ابن بهذا الاسم .

٤ – في الكتاب عناية بأخبار الاندلس لا يعرفها ابن قتيبة وغيره في العراق لعهودهم .

٥ – شيوخ ابن قتيبة الذين يردون عادة في كتبه عنهم لا ذكر لهم أبداً في هذا الكتاب .

٦ – المؤلف مالكيّ الهوى والمذهب وابن قتيبة حنفي .

٧ – يظهر في تضاعيف الكتاب أن مؤلفه مقيم في دمشق وابن قتيبة لم ير هذه المدينة .

٨ – في الكتاب رواية عن ابن أبي يعلى محمد بن عبد الرحمن الانصاري المتوفى سنة ١٤٦ قبل ولادة ابن قتيبة بخمس وستين سنة !

٩ ـ في الكتاب ذكر لبلاد لم تكن موجودة زمن الرشيد . فمراكش لم يغزها موسى بن نصير وانما بناها يوسف بن تاشفين سنة ١٠٦٢/٤٥٤م سلطان المرابطين .

١٠ ـ وأخيراً فان اسلوب الكتاب مغاير لمألوف أسلوب ابن قتيبة،فيه عناية بالقصص والرواية .

ويرجح مرغليوث أن يكون مؤلف الكتاب من أهل القرن الثالث ،وعصر ما بعد الرشيد ، يوم اهتم الناس بالإمامة وكيفية انتقالها وشروطها ... ولكن يظهر أن عهده متأخر عن ذلك أيضاً وربما كان من القرن الرابع . وقد يكون لأكثر من مؤلف واحد لأن ثمة اختلافاً بين قسمي الكتاب. وقد يكون صاحبه انما قصد إلى القصص والرواية الشعبية ففيه مواد خرافية وذكر لبعض الرسائل والخطب والحوار الموضوع الذي يصعب القبول بأصالة أخـــلـه كوثائق ونصوص سياسية، وبعض الرسائل فيه تتحدث أحياناً عن أمور جرت بعدها في الزمن وهذا يعني أنها وضعت بعد الأحداث واستنبطت منها ولم تكن بالعكس قبلها. وإذا كان هذا النوع من العرض التاريخي يجعل الكتابة حية شيقة إلا أنه في الوقت نفسه يمنعها أن تكون مصدراً للمعرفة العلمية .

فاذا تركنا كتاب (الإمامة والسياسة) جانباً فان ابن قتيبة في كتبه الأخرى يبدو ذا مادة تاريخية وافرة وقدرة على الاستنباط والجمع والتنظيم واضحة كما يظهر في منهجه التاريخي حيادياً يؤكد على الحقائق ويعرض الآراء السائدة ولكنه لا يكتم رأيه فيها .

وعلى أي حال فكتب ابن قتيبة تبدأ بالنسبة للتأليف التاريخي مرحلة من النظرة العالمية والحضارية لم يعرفها المؤلفون السابقون إلا جزئياً . وان تكن محاولة محدودة بالقدر الذي سمحت به معارف ابن قتيبة وعصره ومواهبه . وبالرغم من أن أهل الحديث يضعفونه على طريقتهم المعهودة في الريبة

المنهجية إلا أن ابن قتيبة يظل بالنسبة للمؤرخين مرحلة هامة من مراحل الوعي التاريخي الإسلامي .

البلاذري [1] .. أحمد بن يحيى بن جابر (توفي سنة ٨٩٢/٢٧٩) وهو من رجال البلاط العباسي منذ عهد المتوكل حتى المعتز وقد عين مربياً لابنه عبد الله . وكان أحد النقلة من اللسان الفارسي إلى العربية . ومصادر معلوماته تعتمد شيوخه الأربعة في بغداد . ابن أبي شيبة ، والقاسم بن سلام ، والمدائني ومحمد بن سعد ولكنه أغنى معارفه غنى كبيراً بالرحلة . فقد زار مدن الشام والحجاز وايران بحثاً وراء المعرفة بل زار مواقع الأحداث التاريخية بنفسه . ولكن حسده للناس كان يقتله حقداً ويملأ فمه هجاء وخاصة للأشراف .

وقد كتب البلاذري عدداً من الكتب منها .. كتاب البلدان الصغير [2] وكتاب البلدان الكبير (ولم يتمه) وكتاب عهد أردشير لكن كتبه التي صنعت مجده هي : كتاب فتوح البلدان وخاصة أنساب الأشراف . وفتوح البلدان سجل شامل للفتوح الإسلامية وهو معروف بهذا الاسم ولو أنه في المخطوطات يحمل اسم (أمور البلدان) وقد فصل فيه البلاذري فتوح كل بلد وكل ما يتعلق به نقلاً عن أهل البلد أنفسهم وكتبهم . وأهمية الكتاب تظهر فيما أورد من معلومات ثقافية واقتصادية وادارية فقد فصل في منازل السلطان والقبائل العربية بعد الفتح . وفي إنشاء المرافق العامة وفي انتقال الهجرة ومسالكها وفي مصدر الأسماء الخاصة ... وبالرغم من أنه استخدم الواقدي عن طريق كاتبه محمد ابن سعد وروايات المدينة فانه أضاف بعض الروايات التي يحوم حولها الشك لأنها كانت شفوية في الأصل فوقع منها في بعض الأخطاء الكرونولوجية . وقد يورد للخبر الواحد أحياناً أكثر من رواية واحدة ولكن الاختلاف بين الروايات ليس بكبير في النهاية لا سيما حين يورد أكثر من نص للمعاهدة الواحدة . وقد استطاع أن يصفي المادة التي جمعها ثم ينسقها.أما كتابه الثاني أنساب الأشراف

(١) قالوا ينسب إلى البلاذر وهو ثمر شربه جده فوسوس .

(٢) لعل هذا الكتاب هو نفسه فتوح البلدان .

فهو موسوعة ضخمة ما يزال في معظمه مخطوطاً [1] فقد طبع منه الجزء الأول وبعض الرابع والخامس . ويظهر في هذا الكتاب تلاقي طريقة الخبر بالأنساب في الطبقات بالتاريخ وتلاقي طريقة الرواية المنفصلة والخبر المفرد مع الرواية التاريخية المتصلة والتاريخ المطرد . فقد كتب التاريخ ولكن على أساس عمود الأنساب لا الزمن التاريخي ثم جعل لكل موضوع عنواناً فرعياً خاصاً به كأنه وحدة مستقلة تماماً على ما عرفنا من عناوين كتب الأخباريين . فهو ليس مؤلفاً تاريخياً متصل الحلقات ولكنه مجموع روايات في اطار الانساب توسعت حتى احتوت الأخبار والشعر والتراجم .

ومصادر البلاذري في أنساب الأشراف تعتمد على المؤلفات المكتوبة وعلى الرواية الشفهية . فهو يوائم بين المصدرين حسب الحاجة لكن منهجه في كل الأحوال هو أن يختار الروايات التي يعتمدها وأن ينقدها أحياناً لكنه يوردها دوماً مع ذكر الأسانيد . ويكتب أحياناً « قالوا ... » ويعني ذلك أن نوعاً من الإجماع قد تم حول قبول بعض الروايات والرواة .

وهو يورد الروايات لكنه يقدم ما اتصل منها .. برواة المنطقة أو القبيلة ،

---

(١) في استامبول من كتاب أنساب الأشراف النسخة المخطوطة الوحيدة في العالم (بمكتبة عاشر أفندي) وهي في مجلدين ضخمين مجموع صفحاتهما ٢٤٦٤ صفحة . وهو مع ذلك مخروم الآخر . وفي برلين جزء مخطوط منه (يسمى الجزء « ١١ ») وقد نشره آلوارت سنة ١٨٨٣ (وهو يوافق آخر الجزء الأول من نسخة استامبول ومطلع الجزء الثاني ٨٦ صفحة زائد ٢٩) وفي باريس جزء مخطوط منه (منقول من استامبول . وفي اليمن جزء (يسمى بالرابع). وقد طبع المستشرقان Max Schloessinger سنة ١٩٣٨ و S.D. Goitein سنة ١٩٣٦ جزئين يطلق عليهما الجزء الرابع (القسم الثاني) والخامس . كما نشر Levi della Vida في R.S.O. العدد VI لسنة ١٩١٤ – ١٩١٥ فصلا يتعلق بعلي بن أبي طالب وترجم سنة ١٩٣٨ مع المستشرق Pinto الفصل المتعلق بمعاوية . أما ما نشره آلوارت Alwardt من قبل ليتناول عبد الملك بن مروان وقد أعطاه عنوان تاريخ عربي مجهول. ويذكر أن الجزء الأول من المجلد الرابع طبع في القدس سنة ١٩٧١ . ويعمل الدكتور عبد العزيز الدوري حالياً على تحقيق الكتاب ونشره كله . وقد كان محمد حميد الله نشر الجزء الأول منه (القاهرة ١٩٥٩) كما نشر محمد باقر المحمودي مؤخراً (بيروت ١٩٧٤) الجزء الثاني .

ثم يتممها بالروايات الأخرى .. فأخباره عن (الشورى) تعتمد الواقدي والزهري (أي روايات المدينة) ثم يضيف اليها روايات أبي مخنف وهي أقرب إلى الرأي العلوي وواقعة الحرّة عنده يرويها بصورة أساسية المدائني والواقدي وعوانة وأشياخ المدينة ويجمع فيها بين الروايات المدنية والاموية . أما الأنساب فيأخذها عن الزبير بن بكار، وأخباره عن عبد الملك بن مروان تستند إلى عوانة ابن الحكم مباشرة أو بواسطة المدائني وعلى الواقدي فهي شامية مدنية ولكنه يضيف اليها الروايات العراقية . وبالرغم من « عباسيته » واتصاله بالبلاط العباسي الاتصال المباشر فان أخباره محايدة لا تضيق بالموضوعية ومتزنة لا تشرد وراء الاستطراد والهوى .

وقد نقل عن البلاذري كثيرون وان تحامى النقل عنه رجال الحديث لارتيابهم في ثقته وثقة أصحاب الأخبار عامة كالمدائني والواقدي وابن الكلبي ، لكن الطبري لا ينقل عنه. وأما أبو الفرج الاصفهاني فقد نقل عنه مرات عديدة . لكن قائمة الآخذين عنه تطول بعد ذلك وفيها .. الصولي (في الأوراق) . والشريف المرتضى (في الأمالي) والقاضي عبد الجبار بن أحمد (في الشافي) وابن أبي حديد (في شرح نهج البلاغة) وابن خلكان وابن عساكر وياقوت والزبيدي (في تاج العروس) ... الخ .

وإذا كان كتاب أنساب الأشراف محاولة لإقامة وحدة الأمة الإسلامية من خلال الارستقراطية العربية وأعمدة الأنساب المتصلة فان كتاب فتوح البلدان محاولة مماثلة لجعل خبرات هذه الأمة وعهودها وأعمالها قواعد ثابتة في الإدارة والتشريع والعمل .

– ابن طيفور أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر المروزي (٢٠٤ – ٢٨٠ هـ)

وهو شاعر أولاً ثم مؤرخ للآداب ثم اخباري مؤرخ . مروزي الأصل بدأ مؤدب صبيان ثم لزم سوق الوراقين ، في بغداد حيث ولد ومات ، وعاش يرزق من شعره وعلمه ولهذا وجد بعض الهجاء على لسانه كما ظهر بعض العلماء في

مواقف الناس منه . وهو احدى ثمرات تلك الفترة الخصبة من التاريخ العباسي العراقي في القرن الثالث . وقائمة المؤلفات وراءه طويلة تزيد — حسب رواية ابن النديم وياقوت— على ٥٦ كتاباً معظمها في الشعر والشعراء وتاريخ الأدب . على أن له منها بعض كتب التاريخ العامة مثل : كتاب المعروفين من الأنبياء وكتاب بغداد (وهو كتاب في تاريخ المدينة) ومقاتل الفرسان . ومقاتل الشعراء . وأخبار المتظرفات . وكتاب الحجاب . وكتاب الجواهر وكتاب الهدايا . وكتاب المؤنس . وكتاب المؤلفين وقد سبق به ابن النديم .

وله مجموعة من الكتب تتصل بالتاريخ مثل فضل العرب على العجم . اسماء الشعراء الأوائل . الجامع في الشعراء وأخبارهم . أخبار مروان وآل مروان واختيار أشعارهم . أخبار وأشعار عدد من الشعراء منهم : ابن النطاح ، العتابي ، منصور النمري ، ابو العتاهية ، بشار ، ابن ميادة ، ابن هرمة ... الخ وله في هذا الباب أيضاً كتاب جمهرة بني هاشم وكتاب المختلف من المؤتلف . كما أن له مجموعة من كتب التعليم السياسي على شكل القصص مثل : خبر الملك العالي في تدبير المملكة والسياسة . كتاب الملك المصلح والوزير المعين . كتاب الملك البابلي والملك المصري الباغيين . كتاب الملك الحكيم الرومي ... هذا إلى بعض كتب القصص والسمر والرواية التاريخية .

ولم يبق من هذا الجهد كله سوى جزء من كتاب هو القسم السادس من كتاب بغداد وقد طبع [1] في مائتي صفحة ويبدأ بخلافة المأمون وينتهي بوفاته . ويبدو ابن طيفور في هذا الجزء مؤرخاً حسن الاطلاع . وقد انفرد بعدد من الأخبار في عهد المأمون لا نجدها لدى غيره (مثل حركة جند بغداد للمطالبة

(١) طبع ثلاث مرات أولها على يد المستشرق H. Keller في ليبزيغ سنة ١٩٠٨ ثم في القاهرة سنة ١٩٤٦ وأخيراً طبع بعنوان (بغداد في تاريخ الخلافة العباسية) في مكتبة المثنى ببغداد سنة ١٩٦٨ وقد ترجمه X.C. Seely إلى الإنكليزية وطبع في نيويورك سنة ١٩٢٠ . كما بقي أيضاً من مؤلفات ابن طيفور الجزءان ١١ و ١٢ من كتاب المنثور والمنظوم .

بالأرزاق . توجيه محمد بن حميد الطوسي إلى مكة . أخبار أبي دلف العجلي . موقف المأمون من أهل الشام ...) وهي تزيد في مجموعها على عشرين خبراً .

أما مصادر معلوماته فأبرزها عمر بن شبة ، فابن طيفور يروي عنه . ولكن ثمة العديد من المصادر الأخرى التي لا يأبه لإيراد سندها الكامل مكتفياً بأن يذكر في مطلع الخبر .. « قال فلان ... » أو « حدثني فلان .. » وهو لهذا ولغيره متّهم في صدقه بل ينسبون اليه سرقة الشعر والتأليف والتصحيف واللحن ... [1]

وأهمية ابن طيفور أنه كان من الرعيل الأول الذي بدأ كتابة التاريخ المحلي . فكتابه عن بغداد هو أول كتاب في سلسلة الكتب الطويلة التي سوف تظهر في تاريخ بغداد نفسها وفي تواريخ المدن عامة .

أبو حنيفة الدينوري [2] أحمد بن داود (ولد في العقد الأول من القرن الثالث وتوفي سنة ٢٨٢ أو سنة ٢٩٠) .

هو فارسي الأصل أمضى شبابه في الرحلات بين العراق والحجاز والشام والخليج وعاش بأصفهان مدة . كان موسوعي المعارف لأن دراسته متنوعة الثقافة جداً . فقد درس النحو واللغة على البصريين والكوفيين كما درس علم الهيئة وعمل بالرصد الفلكي في اصبهان ودرس الحساب والهندسة والنبات والطب والجغرافيا دراسته لعلوم القرآن والحديث واشتهر ككاتب بليغ حتى اعتبره أبو حيان التوحيدي — وهو من هو في الأساليب الأدبية — ثالث ثلاثة هم أبرع من كتب في العربية [3] .. ومواهب أبي حنيفة قربته إلى البلاط العباسي وخاصة إلى الموفق أخي المعتمد فاختصّ به .

---

(١) أنظر ترجمته في ياقوت وأنظر قبل ذلك ابن النديم – الفهرس صفحة ١٤٦ – ١٤٧ .

(٢) دينور بلد حدد مكانه الأثري المستشرق شتراوس في عربستان وهو (ماه الكوفة) قرب همذان وموقعه الآن خرائب وأطلال . سقطت المدينة منذ القرن الرابع الهجري .

(٣) الثلاثة هم الجاحظ وابو زيد البلخي وأبو حنيفة الدينوري .

ومجموعة كتبه تعكس تنوع ثقافته فقد كتب في النبات وفي القرآن والجغرافيا والتاريخ وغيرها حوالى عشرين كتاباً . يهمنا منها ..

– كتاب البلدان وهو كبير وليس له شهرة وقد دثر . ولعله في الجغرافيا التاريخية .

– كتاب الأخبار الطوال . وهو كتاب التاريخ الهام الذي تركه أبو حنيفة وقد ظل مجهولاً حتى اكتشف مخطوطه في ليننغراد سنة ١٨٧٧ ونشره كراتشكوفسكي ثم اكتشف مخطوط آخر أقدم من الأول في سوهاج سنة ١٩٥٧ فنشر في مصر سنة ١٩٦٠ ومع ذلك فما يزال بعض الباحثين يشككون في نسبة هذا الكتاب إلى أبي حنيفة [١]

وخطة الكتاب تتناول الأحداث المستمرة الطويلة المدى وينقسم إلى ثلاثة أقسام الأول منذ آدم حتى جميع الأنبياء . والثاني تاريخ الفرس الساسانيين والروم. والثالث حروب العرب والعجم وهو القسم الأهم ويشمل تاريخ الفتوح (دون التعرض لذكر تاريخ الراشدين إلا بقدر) وقصة الفتنة الكبرى وصفين والخوارج والحسين والعراق (دون ذكر تاريخ الأمويين) ثم مختصر التاريخ العباسي حتى موت المعتصم سنة ٢٢٧هـ . وأهمل أبو حنيفة ذكر الحقبة التي عاشها بنفسه . إنما قصد أن يكتب نوعاً من التاريخ العالمي يبرز فيه خاصة التاريخ الفارسي وقصة الفرس في العهد الإسلامي .

ومصادر أبي حنيفة في معظمها مفقودة اليوم مثل كتاب الأنساب لابن الكيس النمري مالك بن عبيد ، وأخبار الملوك وأخبار الماضي لعبيد بن شريه الجرهمي ودواوين الشعراء وهو يروي عن الكلبي والأصمعي وعن الهيثم بن عليّ خاصة ، فقد ورد اسمه في الكتاب عشر مرات . كما يروي عن الشعبي

---

(١) بعض المستشرقين انطلاقاً من عدم انطباق اسم الكتاب على محتواه يحاولون الشك في الكتاب معتقدين أن المؤلف الأصلي الذي يحمل عنوان الأخبار الطوال قد ضاع والكتاب الذي وجد انما هو كتاب لمؤلف آخر لكنه يحمل العنوان نفسه .

أبي عمرو عامر بن شرحبيل التابعي الراوية، بمعنى أن أبا حنيفة قد جمع في نسق واحد بين الاسرائيليات والمصادر والروايات العراقية والمدنية . فكان بذلك نموذجاً للمثقف الفارسي المسلم في ذلك العصر .

وقد راعى أبو حنيفة في « الأخبار الطوال » التسلسل الزمني في التاريخ ولكنه انتقى الأخبار وفقاً لمفهوم خاص في التاريخ العالمي فتوسع في الحوادث والحركات التي اختار مما جعل كتابه أقرب إلى أن يكون سلسلة أخبار يلتصق بعضها ببعض لتتوازن مع التاريخ الايراني الذي يحتل المكان الرئيسي . فهو قبل الإسلام يهتم بتاريخ الرسل كثيراً ويقدم صوراً متوازية لتاريخ اليمن والجزيرة وبيزنطية ويتوسع في تاريخ فارس وبعد الإسلام يمر بفترة الرسالة المرور السريع ليركز اهتمامه على تاريخ العراق وايران .

ومنهج أبي حنيفة أن يهمل الأسانيد الطويلة ويؤثر السرد الروائي المتصل مقحماً فيه الكثير من الشعر حتى لقد تبادل الفرق والأحزاب الرسائل عنده شعراً . وفي أسلوب من هذا النوع لا مكان النقد . حتى لقد قبل أبو حنيفة — كما لاحظ مارغليوث — نصاً مسجوعاً لنسخة معاهدة قامت في الجاهلية بين اليمن وربيعة وفي مطلعها كلمات التوحيد ولم يخامره أي شك في صحتها مع أن أهل اليمن كانوا وثنيين ويتكلمون لغتهم الجنوبية الخاصة ويدونون ما يدونون بالخط المعروف بالمسند السبئي .

وشعوبية الدينوري تأخذ شكل الميل للعباسيين في كتابه . لكن ما من شك في أن الرجل انما أجاب في كتابه على حاجة ثقافية معينة في عصره هي تقديم تاريخ متصل ذي صبغة اسلامية لتاريخ فارس والعراق قبل الإسلام وبعده .

— اليعقوبي..أحمد بن اسحق بن جعفر بن واضح (توفي سنة ٢٩٢/٩٠٥)(١) .

هو من أسرة كتاب تعمل في دواوين الخلافة وقد جمع إلى هذه الخبرة العملية

---

(١) تذكر المصادر ومنها ياقوت أن سنة وفاته هي سنة ٢٨٤ ولكن نشر كتابه البلدان وحديثه فيه من الخليفة المعتضد (٨٩٢ – ٩٠٢) يؤكد مع بعض الدلائل الأخرى أن تاريخ وفاته يجب أن يتأخر إلى سنة ٢٩٢ / ٩٠٥ (انظر مقدمة فييت لنشره كتاب البلدان)
Wiet, Les Pays, VIII, p. 244

الموروثة ثقافة واسعة يوم أكثر من الرحلات البعيدة في شبابه وأبعد طلباً للعلم. وقد كتب كتاباً في الجغرافيا وآخر في التاريخ كان كلاهما متميزاً في مادته. وقد وصلنا الكتابان كما وصلتنا رسالة صغيرة منه بعنوان : مشاكلة الناس لزمانهم (طبعت).

فأما كتاب (البلدان) فهو أقدم ما وصلنا من نوعه من الكتب[1]. (طبعه دي غويا De Goeje في ليدن سنة ١٨٩٢ ثم طبع في مصر) وهو في الجغرافيا التاريخية. ومعلوماته الجغرافية تركت أثرها الواضح في كتابه التالي التاريخي.

وأما كتاب (التاريخ) [2] فهو موجز تاريخي منظم يتناول التاريخ العالمي منذ الخلق حتى سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م في « خطة لا بد أنها احتاجت إلى قسط طيب من البحث لتحقيقها » [3]

فقد كان همه التاريخ العالمي يتناول بجانب تاريخ الأنبياء وتاريخ الفرس والجاهلية، تواريخ الأمم الأخرى القديمة .. من آشورية وبابلية وهنود ويونان ورومان وفراعنة وبربر وحبش وزنج وترك وصين. فهو من هذه الزاوية تاريخي عالمي حقيقي وان اصطبغ بعضه بالأسطورة بسبب ضيق المصادر وغلبة الخرافة فيها. وقد اهتم في هذه التواريخ بالجانب الحضاري أكثر من اهتمامه بالجانب السياسي ولخص – بقدر ما سمحت له معارفه – ما كان متوفراً لدى الناس في عصره من معلومات عن الأمم الأخرى القديمة كما عكس في مادته لوناً من ألوان امتزاج الثقافات في ذلك العصر.

---

(١) نجد عنوان البلدان عـلى كتاب لهشام بن محمد الكلبي سنة ٢٠٤ من قبل وكتب أخرى سبقت اليعقوبي.

(٢) مرغليوث. المؤرخون (مترجم) صفحة ١٣٩.

(٣) نشر (تاريخ اليعقوبي) أول مرة من قبل Houtsma في مجلدين في ليدن سنة ١٨٦٠ ثم سنة ١٨٨٣ ثم طبع طبعة في النجف سنة ١٣٥١ هـ، وطبعة ثالثة أخرى في بيروت سنة ١٩٦٠ في مجلدين.

وحين وصل اليعقوبي إلى التاريخ الإسلامي اختط لنفسه أن يذكر التقاويم الفارسية والرومية وأن يورد تفاصيل فلكية في مطلع كل عهد تعين الخبراء في النجوم على تتبع مجرى الأحداث [1] ثم اختط أيضاً أن يسجل في ختام كل عهد أسماء الرجال الذين شاركوا فيه مع الخلفاء وأمراء الحج وقواد الحملات ومشاهير القضاة . حتى إذا قارب عصره أوجز في الأخبار جداً فلا تأخذ ثورة الزنج من اهتمامه الا ملاحظات بسيطة وهذا ما جعله يظهر أكثر علماً بالعهدين الأموي والعباسي الأول منه بعصره .

ومصادر اليعقوبي في تاريخه متعددة تعكس انتباهاً بارعاً «للمنهج التاريخي» فهو في قسم التاريخ القديم يرجع إلى المصادر الأصلية .. الكتاب المقدس.وحين يتحدث عن التاريخ الايراني لا ينسى أن ينبه أن مادته أسطورية لا يوثق بها . ويأخذ عن المصادر اليونانية المترجمة حين يكتب عن الثقافة اليونانية . أما في القسم الإسلامي فقد ذكر مصادره في مقدمة هذا القسم واتبع في هذه المصادر نهجاً انتقائياً لأنه رأى أن ما رواه الأشياخ المتقدمون من العلماء والرواة وأصحاب السير والأخبار والتاريخيات متباين،فقد اختلفوا في أحاديثهم وأخبارهم في السنين والأعمار ولذلك أخذ منهم بأجمع المقالات والروايات.ومصادره لهذا ذات ألوان عديدة فهي علوية تارة وعباسية أخرى ومدينية حيناً (عن الواقدي وابن اسحق) وعراقية حيناً آخر (.عن المدائني والهيثم بن عديّ) وقد أخذ النسب عن ابن الكلبي والفلك عن ما شاء الله الحاسب والخوارزمي الفلكي .

أما منهجه في العرض فهو اهمال الأسانيد لأنها كانت استقرت في تلك الآونة وقد أعان انتشار التدوين على ذلك الاستقرار . ثم انه قلما يذكر المصدر لأنه اكتفى بذكر مصادره الأساسية في مطلع البحث ولكنه حين يقترب من عصره يذكر بين حين وآخر مصادره الشفوية والأشخاص الذين زوّدوه بالمعلومات .

(١) ذكر اليعقوبي (التاريخ ج ٢ صفحة ٣) أن مصدره في ذلك هو كتاب « طوالع السنين والأوقات لما شاء الله الحاسب » . كما يأخذ عن الخوارزمي المنجم .

وقد اتبع اليعقوبي في عرض مادته تسلسل العهود خليفة بعد خليفة واتبع في عهد كل خليفة توالي السنين جامعاً بين أسلوبي العهود والحوليات . وأكثر اليعقوبي من ايراد الرسائل والخطب كنصوص سياسية ووثائق . وجاء أحياناً بمعلومات تاريخية تفرد بها .

ولكنه في ايجازه التاريخي كشف عن براعة محدودة سواء في اختيار الأعمال الهامة والأساسية لكل خليفة أو في اعطاء التفسيرات التاريخية الواضحة للأحداث. وقد كشف في اهتمامه بالأمور الأخلاقية عن مفهوم « براغماتي » التاريخ عنده فكأنه أراد أن يبين أن هذا العلم انما غايته التربية والعبرة . وهذا المفهوم بالرغم من أنه اسلامي الجذور الا أنه مفهوم مبكر في الظهور وكان تمهيداً لما سوف يكتبه الباحثون في فائدة التاريخ من أفكار فيما بعد ، بين القرن الخامس والثامن .

وبالرغم من أن اليعقوبي كان متزناً في أخباره دقيقاً في تحري الحقائق والمعلومات التي يورد إلا أنه لم يستطع لأن يمنع ميوله من الظهور في تضاعيف الأسطر فهو واضح الميل العلوي حين يتحدث عن الراشدين والأمويين « كثير الأسهاب في ايراد أقوال الأئمة وخطبهم وسيرهم عند ذكر وفياتهم ولعلنا نكون أكثر دقة ان قلنا أن وجهة نظره إمامية » بدليل أنه يمر بايجاز عرضي بثورة زيد بن علي [1] .

ويظهر اليعقوبي بالمقابل نوعاً من التسامح والمجاملة حين يتحدث عن العباسيين ويحاول أن يمر ببعض الأحداث المحرجة في تاريخهم مرور المجامل (كمقتل أبي مسلم وقصة البرامكة ومقتل موسى الكاظم) . وقد لاحظ مرغليوث أنه قد يكون معتزلي الهوى [2] لأنه يسميهم — كما يشتهون — بأهل التوحيد ولكنه

(١) الدوري . نشأة علم التاريخ صفحة ٥٢ — ٥٣ .
(٢) مرغليوث . المؤرخون (مترجم) صفحة ١٤٠ .

مع ذلك لا يشاركهم الفكر المنطقي الريبي حين يسمح لبعض الخوارق والمعجزات أن تجد طريقها للتسجيل في تاريخه .

ولا شك أن الكتاب بمصادره ومعلوماته يكمل تاريخ الطبري . ويمثل بالنسبة لتطور التدوين التاريخي أول تاريخ عالمي بمعنى العالمية الكلمة .

– الطبري .. محمد بن جرير (٢٢٥/٨٤٠ – ٣١٠/٩٢٢) .

وهو علَمٌ معروف في التأريخ الإسلامي (وفي التفسير) بلغ به التدوين التاريخي نهاية عمر التكوين والنشأة وسجل قمة من قمم التأريخ الحقيقي. ولسنا لنعيد هنا ترجمة الرجل [1] فهي معروفة ونكتفي ببعض ملامحها فقد بدأ الدراسة في آمل من طبرستان ثم في الري وتلمذ على الرازي والدولابي وكتب عن ابن حميد أكثر من مائة ألف حديث . ورحل إلى بغداد فلم يلحق ابن حنبل ثم ذهب إلى البصرة وأقام بواسط ثم بالكوفة وكتب عن محمد بن العلاء الهمداني مائة ألف حديث ثم عاد إلى بغداد ثم غرّب إلى الشام ثم مصر سنة ٢٥٣ . ثم عاد إلى بغداد فواسط فطبرستان ثم بغداد ثم طبرستان ثم بغداد .. كل ذلك في طلب العلم حتى انتهت اليه الرئاسة في التفسير والفقه والتاريخ . ونحن ندين له بكتابين من أهم كتب الثقافة الإسلامية .. التفسير والتاريخ .

وقد أملى الأول في ثماني سنوات (٢٨٣ – ٢٩٠) ثم فرغ من التاريخ سنة ٣٠٣ وانتهى به إلى سنة ٣٠٢ وقد كان في وده لو أملى في كل منهما ثلاثين ألف ورقة ! وله كتاب ثالث في القراءات كان في ١٨ مجلدة ولكنه ضاع .

والطبري طالب علم دائم لا يعرف التعب ، مكثر في مادته ذلك أنه بقي أربعين سنة يكتب كل يوم ورقة . وما من شك في أنه كان حديد الذاكرة في مادته وان كان ضعيف الحفظ للشعر والأدب .

---

(١) ترجم له كثيرون . ومن أطول التراجمات القديمة ما أورده ياقوت في ٤٠ صفحة . وقد صدر عنه كتيب في سلسلة اعلام العرب (رقم ١٣) بقلم الدكتور احمد محمد الحوفي .

وكان له رأيه الخاص في الفقه وله خصومته الشديدة مع الحنابلة والخوارج والروافض ومع المذهب الظاهري وصاحبه داود بن علي الأصفهاني، وقد أثار من التأييد والخصومة ما هو جدير بالرجال العظام. ولهذا فانه حين توفي دفن ليلاً خوفاً من أعدائه ثم بقي أنصاره بعد ذلك يصلون أشهراً على قبره رحمى وذكراً.

وكتاب التاريخ الذي كتبه الطبري هو أحد كتابين ضخمين شهيرين في التراث العربي الإسلامي هما التفسير والتاريخ، والناس ينسبونهما إلى اسمه بدل العنوان الأصلي لهما. وتاريخ الطبري يحمل اسم تاريخ الرسل والملوك ويسميه بعضهم : تاريخ الأمم والملوك [1] ، ويمكن أن نقسم هذا التاريخ قسمين أساسيين : ما قبل الإسلام وما بعده.

فأما في القسم الأول فقد بحث في الخليقة والبدء وهبوط آدم وقصة قابيل وهابيل ثم عرض للأنبياء نوح وابراهيم ولوط واسماعيل وأيوب وشعيب ويعقوب ويوسف وموسى والياس وداود وسليمان وهود وصالح ويونس وعيسى ومحمد. وأرخ بعد ذلك للأمم فذكر تاريخ الفرس منذ عهده الأول أيام منوشهر إلى كسرى ابرويز وواقعة ذي قار ويزدجرد بن شهريار ثم تحدث عن بني اسرائيل وأخبارهم ثم ذكر ملوك الروم منذ المسيحية ثم عطف على عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم ثم ملوك اليمن وبعض مشاهير الأسماء العربية كالزباء ثم تحدث عن اجداد الرسول تمهيداً لعهد الرسالة. ولم يتبع في هذا القسم ترتيب السنين ولكنه أورده على أساس المواضيع.

وفي القسم الثاني تناول التاريخ الإسلامي منذ عهد الرسول حتى سنة ٣٠٢ وفرغ من التأليف سنة ٣٠٣ ومصادر الطبري في كتابه واضحة لأنه سجلها في اسناد أخباره وأهمها [2] :

---

(١) انظر ياقوت – معجم الأدباء ج ١٨ ص ٦٨ ثم الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد ج٢ ص ١٦٢ .
(٢) راجع في مصادر الطبري مقالا هاماً كتبه جواد علي في مجلة المجمع العلمي العراقي بعنوان موارد –

أ ـ في تاريخ الرسل والأنبياء ، كتب التفسير وسيرة ابن اسحق ، وكتب وهب بن منبه .

ب ـ في تاريخ الفرس ، ترجمات بعض كتبهم وخاصة كتب ابن المقفع وهشام الكلبي وما لديه من معلومات منقولة عن وثائق ومدونات الحيرة [1] .

جـ ـ في تاريخ الروم على ما نقله كتّاب النصارى منه إلى العربية .

د ـ وفي تاريخ اليهود على كتبهم وقصصهم التوراتي .

هـ ـ وفي تاريخ العرب قبل الإسلام على ما كتب عبيد بن شرية ومحمد ابن كعب القرظي ووهب بن منبه وخاصة هشام الكلبي وابن اسحق .

و ـ وأما في السيرة النبوية فقد استند إلى مؤلفات أبان بن عثمان وعروة ابن الزبير وشرحبيل بن سعد وموسى بن عقبة وعاصم بن عمر وابن شهاب الزهري وابن اسحق .

ز ـ وأخذ حروب الردة والفتوح عن سيف بن عمر الأسدي والمدائني .

ح ـ ومصادره في موقعتي الجمل وصفين ما كتبه أبو مخنف والمدائني وسيف بن عمر .

ط ـ كما أخذ تاريخ الأمويين عن عوانة بن الحكم وأبي مخنف والمدائني والواقدي وعمر بن شبة وهشام الكلبي .

ى ـ فاذا انتهى إلى العهد العباسي اعتمد أحمد بن أبي خيثمة وأحمد بن زهير والمدائني وعمر بن راشد والهيثم بن عديّ والواقدي وابن طيفور (وان لم يذكره إلا مرة واحدة) ...

ـ لتاريخ الطبري (الجزء الأول لسنة ١٩٠٠ والجزء الثاني لسنة ١٩٠٢ والجزء الثالث لسنة ١٩٠٤) .

(١) راجع تاريخ الطبري ٦٢٨/١ و ٧٧٠/١) .

وأهم الملاحظات التي يمكن أن تسجل حول هذا العمل التاريخي الضخم :

١) ان المادة التاريخية التي أتى بها الطبري في تاريخه تعتبر من أوثق المادة لأنه ، كمحدث دقيق،حاول انتقاءها وتنخلها جهد طاقته ، وأوردها دوماً بالنصوص عن أصحابها الرواة الأولين .

٢) إذا ظهرت لديه في بعض الأحيان (في التاريخ السابق للإسلام) بعض اللمحات الحضارية فان همه انما كان موجهاً بصورة خاصة إلى التاريخ السياسي وحده . ولم يسجل أشياء أخرى إلا ما كان يقتضيه الحديث عن الأحداث والمشاكل السياسية .

٣) أنه ذكر في تاريخ الفرس كثيراً من الحقائق التي لا نجدها عند غيره .

٤) انه كان دقيقاً في تاريخ الروم دقة تدعو إلى العجب ، مع قلة المصادر حوله في هذا الموضوع ، فقد ذكر أباطرة الروم والرومان قبلهم حتّى عصر هرقل وهم واحد وستون عدا من اشتركوا مع أبنائهم أو غير أبنائهم . ومدة حكمهم جميعاً ستة قرون وبضع سنوات . ويدهش الباحث من صحة المعلومات التي أوردها ومن دقتها وترتيبها . وإذا تجاوزنا عن أخطاء طفيفة قد تكون من فعل النساخ والرواة فمن الواضح ان الطبري أخذ معلوماته هذه عن مصادر أو جماعات تستند إلى وثائق صحيحة .

٥) لم يمل الطبري مع أيّ هوى في ايراد الأخبار التاريخية الإسلامية . وكان حياده في الغالب عن ورع ودقة علمية ، لأنه انما أملى التاريخ تأييداً وتتمة لكتابه في التفسير القرآني . ولعله لم يمارس حتّى النقد في الروايات التي أوردها لأنه وجد أن أحاديث التاريخ فيما عدا الشؤون السياسية — لا تبني عليها أحكام شرعية واضحة .

٦) أهمل أحداث عصره وكان فيها موجزاً سريع الخطو مقلاً كلّ الإقلال ولهذا فهو « كشاهد » على العصر من أشد الناس ضناً بشهادته .

وقد نُقل « تاريخ الرسل والملوك » بالرواية الشفهية والإملاء عن الطبري

رغم ضخامته التي تزيد على ١٠ مجلدات في بعض الطبعات . وإذا تناول فيه الطبري التاريخ العام منذ الخليقة حتى عهده فتاريخ ما قبل الإسلام كله لا يشغل إلا أقل من عشر الكتاب مع أنه يشمل تاريخ الأنبياء جميعاً وتاريخ الفرس والروم والجاهلية . أما في التاريخ الإسلامي فقد قام الطبري فيه بما قام به البخاري ومسلم في الحديث : أي اختيار المادة الصحيحة أو المتفق على صحتها من مجموع المادة التي تراكمت حتى عهده .

ولما كانت مصادر الطبري هي في الواقع مجموع أسماء الإخباريين التي مرت معنا في هذه الفصول السابقة تقريباً وبخاصة كتب المدائني ، لهذا فان الناس حين اجتمع لهم الطبري تركوا الكتب الصغرى اليه واكتفوا به عنها جميعاً . ومن هنا كانت شهرته كمنظم ومنسق وجامع لأطراف المادة التاريخية حتى نهاية القرن الثالث الهجري .

وقد انعكس في تاريخ الطبري أثر ثقافته كمحدث وفقيه.فأسلوبه في التدوين على منهج أهل الحديث، ويمكن أن يلخص في نقطتين رئيسيتين :

١ — التعويل على الروايات : « وليعلم الناظر في كتابنا هذا ان اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه انما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه .. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما ينكره قارئه من أجل انه لم يعرف له وجهاً من الصحة .. فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا وانما أتى من قبل بعض ناقليه الينا وانما أدينا ذلك على نحو ما أدي الينا »[1]

٢ — الحرص على السند، وانما كان هذا الحرص نتيجة النقطة الأولى . وقد تساهل الطبري في هذا السند في الأجزاء الأخيرة من الكتاب وخاصة فيما بين الجزء التاسع إلى الحادي عشر حتى ليندر أن يظهر في صفحات متواليات .

---

(١) الطبري ج ١ ص ٧ — ٨ .

وكان الطبري إذا انتقد اهتم بنقد السند أكثر من الاهتمام بالمعلومات المروية بعده . وبالرغم من أنه تحرى الثقات من الرواة قدر طاقته ومن أن الأسانيد كانت قد استقرت لعهده إلا أنه أبقى على الطريقة كاملة في كتابه . وهذا ما سمح للطبري أن يحفظ في كتابه بكثير من المقتطفات التاريخية المبكرة في الوجود والمعاصرة لبعض الحوادث والتي ضاع رواتها ومؤلفاتهم فليس توجد إلا في كتابه . إن كتابه أشبه بمعدة التنين الضخم التي تجد جميع المواد مكانها فيها دون دمج أو تمثل يجعل منها كتلة متجانسة واحدة . وقيمة الطبري إنما هي خاصة فيما حفظ من هذه المادة الضائعة لا بالرأي الذي أعطاه فيها . لأنه لم يعط رأيه أبداً في الذي قدم من المعلومات. وإذا كان ثمة من شيء كشف فيه عن رأيه فعلاً فهو نوع اختيار المادة . وهو اختيار للراوي في الواقع وليس للرواية نفسها فهو — فيما عدا الانتقاء — حيادي تمام الحياد، وللمادة أمامه قطع من الأخبار صاغ منها تاريخاً كاملاً . وما من شك في أن هذا التاريخ ان كان متقطع العرض بسبب الاهتمام بايراد الروايات فانه كان في الوقت نفسه أيضاً متوازناً من جهة ومحيطاً بجميع الأحداث من جهة أخرى،وقد كان هذا كله سبباً آخر لاكتفاء الناس به عن كل ما عداه أو سبقه من المؤلفات . والواقع أننا لا نجد بعد الطبري من حاول اعادة فحص أو تقييم المادة التاريخية للفترات التي كتب عنها الطبري نفسه أي القرون الثلاثة الأولى.ولعله بشهرته واحاطته كان السبب غير المباشر في ضياع قسم من تلك التدوينات التاريخية الأولى ، وقد اهتم الناس من بعده بمتابعة عمله من حيث وصل في ذيول بعد ذيول .

وقد أتم الطبري منهجه التاريخي هذا بقواعد أخرى اتّبعها :

٣ — الإكثار من ايراد النصوص الأدبية من خطابة ورسائل وحوار وشعر في مناسباتها التاريخية .

٤ — كان يختم عهد كل خليفة بالأخبار العامة عنه مما لا يخضع للنظام

الحولي ، كوصفه الجسدي وذكر أولاده وأهله ورجال عهده في مختلف الأعمال .

٥ — اتبع في تنظيم مادته النظامين المعروفين معاً : فلما لم يكن بامكانه اتباع التسلسل الزمني الحولي في الفترات الغامضة السابقة للإسلام فقد أوردها على أساس المواضيع ، على الشكل الذي يسمى في الإصطلاح Chronicles بينما نظم تاريخه في القسم الإسلامي حوليات على السنين أي Annals ولم يكن أول من اختط هذه الطريقة فقد سبقه اليها في التدوين التاريخي كثيرون منذ أواخر القرن الثاني . ولعل أولهم هو الهيثم بن عديّ .

وأهم ما يؤخذ على الطبري في منهجه :

١) ضمور النقد عنده . كان يقف خارج الأحداث وخارج الرواية نفسها في برود عقلي واضح ، رامياً منذ مطلع الكتاب عهدة كل أمر على رواته . وإذا كانت تلك امانة تقدر لعالم الحديث فانها في التاريخ نقطة نقص . وقد أورد في بعض الأحيان روايات غير معقولة أخذ عليه ابن الأثير ايرادها على صورتها دون نقد وتفكير مع أنها « منافية العقول ... ولا يجوز أن تسطر في الكتب »[1] ولعله أنقص في منهجه كمحدث فلم يعدل رواة التاريخ الذين نقل عنهم كما يعدل المحدثون علماء الحديث . ولقد روى بعض الروايات البينة الكذب ، فلم يشر إلى ذلك حتى لقد أخذ عليه ابن خلدون نفسه بعض ما روى عن سبب نكبة البرامكة[2] . على أن الطبري كان أحياناً يقول : « ... والصحيح عندنا » في نوع من التوجيه النقدي . ولم يعتمد من الأصل في النقل على من كان مظنة شبهة عنده من أمثال محمد بن السائب الكلبي ، ومقاتل بن سليمان الا في الندرة . واعتمد مؤلفات سيف بن عمر المنحولة على التاريخ لأنه موثق من أهل الحديث بدل الواقدي المشبوه الرواية في نظره .

---

(١) انظر ابن الأثير — الكامل ج ١ ص ٢١ — ٢٢ .

(٢) انظر ابن خلدون — المقدمة ص ٢٣٠ .

٢) لم يذكر عند النقل من الرواة ، عن أي كتاب من كتبهم ينقل . ولكثير منهم كتب تعد بالعشرات فاذا ذكر المدائني لم نعلم عن أي من كتبه الـ ٢٤٠ يأخذ . وكذلك ما أخذه عن سيف بن عمر وعن هشام الكلبي في كتبه التي تزيد على ٢٤٠ كتاباً ولو فعل لأعطانا ثبتاً واسعاً ضخماً يلخص الثقافة التاريخية كلها لعصره .

٣) كان يقطع الأحداث بالروايات المتعددة وبالسنين على السواء . ويشرد في الحديث إلى أخبار عارضة تقطع الخبر الأصلي مما جعل تاريخه يفتقر إلى الوحدة وارتباط السياق ، وتشتبك فيه الروايات على هواها دون ضابط أو تنسيق ، فلا يأخذ الحادث لهذا كله صورته الحقيقية الحية .

أما أهم ما يؤخذ على الطبري في مادته التاريخية فهو :

١ — أنه لم يحفظ التوازن بين فترات التاريخ قبل الإسلام وبعده .

٢ — أنه أسرف في قبول الإسرائيليات والأوهام الخرافية فيما يتعلق ببدء الخلق وقصص الأنبياء دون تمحيص .

٣ — أن ارتباط الطبري بالمصادر والاسناد الماضية حرمه فيما يظهر من أن ينظر في أحداث عصره ويسجلها بنفسه ولهذا جاءت صورة الأحداث التي عاصرها باهتة في كتابه ولم يتنبه إلى تفاصيل هامة فيها . و « ظهر القديرون من وزراء عهده وخلفائه في صورة الظلال المعتمة » . وقد يكون فهمه للتاريخ على أنه مستودع خبرات الأجيال السابقة فقط سبباً آخر في عدم اهتمامه بجيله وعصره وظهور نوع من الضعف والايجاز في القسم الأخير من تاريخ الطبري ، وكان مفروضاً أن يكون — مع مكانة الطبري وخبراته ورحلته في العالم الإسلامي — أهم أقسام الكتاب .

ويؤخذ على تاريخ الطبري عدا هذا أمور أخرى :

٤ — فقد كان فهمه للتاريخ العالمي أضيق من فهم بعض المؤرخين السابقين له

كاليعقوبي مثلاً أو ابن قتيبة . فتاريخ العالم عنده محدود بالخط الذي يصل ما بين الأنبياء والعهد الجاهلي عبر الساسانيين وتاريخ اليمن ثم يأتي التاريخ الإسلامي تتويجاً ضخماً لكل ذلك التاريخ .

٥ – ثم ان فهم الطبري للتاريخ كان محصوراً بالأمور السياسية خاصة ، وبالمشاكل الداخلية للدولة بصورة أخص . وإذا كان من الهام في التاريخ الإسلامي مثلاً أن يخصص جانب منه لتاريخ الفتوح التي تلت الفتوح الاولى كفتوح الأندلس والعلاقات مع الدول والمناطق غير الإسلامية كالبيزنطية والفرنجية وأحوالهم وأمرائهم ، فان الطبري لم يول هذه الأمور أي عناية . وحتى في الأمور الداخلية فقد شغله الحدث السياسي عن أن يسجل أمور الإدارة أو القضاء أو الاقتصاد أو المجتمع .

٦ – ومفهوم التاريخ عند الطبري متأثر بالنظرة الدينية أكثر من تأثره بالنظرة التجارية ... فهو عنده تعبير عن المشيئة الإلهية أولاً ثم مستودع خبرات عليا للأمة الإسلامية تكشف عن وحدة هذه الأمة بقدر ما تبيّن قيمة تجاربها ووحدة رسالتها التاريخية .

وعلى أي حال فان ما قد يوجه إلى منهج الطبري وإلى تاريخه من نقد لا يمكن أن يلغي شيئاً من قيمته كمؤرخ أول انتهى به العصر الأول للتدوين التاريخي ، وكمؤلف ظلت أجيال المؤرخين في العصور التالية عيالاً على كتابه في كل ما يتصل بالقرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام .

وقد عني الناس بهذا التاريخ منذ صدر أخفل العناية وتتابع الوراقون على نسخه وتنافست مكتبات الملوك والأمراء في اقتنائه . ذكر المقريزي أنه كان بخزانة كتب العزيز بالله الفاطمي ما ينيف على عشرين نسخة منه احداها بخط المؤلف [1] . وسرعان ما تتابع المؤرخون في التذييل عليه بين فترة وأخرى .

---

(١) المقريزي – الخطط ج ١ ص ٤١٨ .

بل يذكرون أن الذيل الأول على هذا التاريخ وضعه الطبري نفسه ثم تتالت الذيول من عريب بن سعيد صاحب « صلة تاريخ الطبري » حتى الذيل الأخير الذي كتبه الملك الصالح أيوب بن الكامل (المتوفى سنة ٦٤٧) موجزاً فيه جميع الذيول .

وقد اختصر تاريخ الطبري كثيرون ذكر ابن النديم منهم محمد بن سليمان الهاشمي ، وأبا الحسين الشمشاطي المعلم من أهل الموصل ؛ ورجل يعرف بالسليل بن أحمد وآخر كاتب يعرف بـ .....[1] والشمشاطي هو أبو الحسن علي بن محمد العدوي (توفي سنة ٣٨٠) وقد ذيّل على تاريخ الموصل للأزدي كما اختصر تاريخ الطبري بحذف الأسانيد والمكررات ثم زاد عليه بأن تمّمه من سنة ٣٠٣ إلى وقته فجاء في ثلاثة آلاف ورقة كما حكاه النجاشي [2] كما اختصر الطبري مع بعض الزيادات عريب بن سعد القرطبي فوصل به إلى سنة ٣٢٠ في « الصلة » ولخصه مع التذييل عليه وكذلك فعل المكين بن العميد في القرن السابع (١٣م) . وكما اختصر تاريخ الطبري مبكراً فقد ترجم كذلك مبكراً أيضاً ومنذ القرن الرابع الهجري إلى الفارسية . قام بترجمته أول من قام أبو علي محمد بن عبد الله البلعمي المتوفى في النصف الثاني من ذلك القرن ، بأمر من الأمير أبي صالح منصور بن نوح بن نصر الساماني وهي ترجمة اختصرت فيها الأسانيد واصابته ببعض التصرّف . ثم نقلت هذه الترجمة الفارسية إلى التركية في العهد العثماني مرتين كانت الثانية منهما ما بين سنتي ٩٢٨ – ٩٣٨ هـ وطبعت هذه الترجمة الأخيرة في الآستانة سنة ١٢٦٠ هـ . كما نقلت الترجمة الفارسية الأولى إلى الفرنسية من قبل زوتنبرغ Zotenberg وطبعت في باريس سنة ١٨٧٤ في أربعة مجلدات وترجمت كذلك إلى لغات أخرى .

وبالرغم من هذه العناية البالغة فان ضخامة الكتاب جعلت اجزاءه العربية

---

(١) انظر ابن النديم – الفهرست ص ٢٣٥ . والاسم الناقص نسيه ابن النديم .

(٢) النجاشي – الرجال ص ١٨٧ وانظر ايضاً آغا بزرك – الذريعة الى تصانيف الشيعة ج ٣ ص ٩٠ – ٩١ وص ٢٤٠ .

تتفرق أيدي سبا بين المكتبات . فلما أقبل المستشرقون في القرن الماضي على طبعه طبعة علمية كاملة لم يجدوا منه نسخة واحدة كاملة ، فاضطروا إلى تأليف نسخة متكاملة من الأجزاء المتفرقة وطبعوه طبعة أولى ما بين سنتي ١٨٧٩ ـ ١٨٩٨ في ثلاثة أقسام بلغت في مجموعها ٢٨ مجلداً .

القسم الأول : الأجزاء المتعلقة بما قبل الإسلام وبالسيرة النبوية والخلفاء الراشدين حتى سنة ٤٠هـ .

القسم الثاني : تاريخ الدولة الأموية تقريباً أي ما بين سنتي ٤١ و ١٣٠هـ .

القسم الثالث : ما بين سنتي ١٣١ حتى سنة ٣٠٢ .

وقد ألحقوا به في نهايته المنتخب من ذيل المذيل في أسماء الصحابة والتابعين للطبري ، وقسماً من مختصر عريب بن سعيد سموه : الصلة . كما أتبعوا الطبعة بالفهارس الشاملة . ثم أعيد طبعه مرة أخرى في ليدن ما بين سنتي ١٨٩٧ ـ ١٩٠١ وكان الطبع في الحالين تحت اشراف المستشرق دي غويه ولجنة من كبار المستشرقين منهم نولدكه ، وغويدي ، ومولر .

وعلى أساس هذه الطبعة الأوروبية طبع في مصر في المطبعة الحسينية سنة ١٣٣٩/١٩٢٠ ثم في مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨/١٩٣٩ بعد حذف التعليقات والفهارس . ثم طبع طبعة أخيرة في دار المعارف بالقاهرة اعتمدت على ما ظهر من المخطوطات الأخرى لأجزاء الطبري مع نسخته الأوروبية . وقد قام بهذه الطبعة محمد أبو الفضل ابراهيم ما بين سنة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٧ . ثم كررها سنة ١٩٦٧ وهي في عشرة مجلدات خصص معظم الجزء الأخير منها للفهارس .

ويبدو أن هذه العناية كلها لم تمنع من ضياع بعض تاريخ الطبري . فان النسخة الأوروبية ناقصة ، وقد رقعها المستشرقون من التواريخ الأخرى (ابن الأثير ، والمغازي ، والفتوح لابن حبيش) ما بين الصفحتين ٢٣٨٣ ـ ٢٤١٤ من القسم الأول . ثم جمع دي غويه ما عثر عليه من نواقص الطبعة في كراس

صغير أصدره بعدها . غير أن هذه النواقص ، ما عثر عليه منها وما قد يعثر عليه من بعد ، ليست بالتي تشكل نقصاً هاماً في جملة الكتاب أو تقلل من قيمة نسخه المطبوعة المتداولة .

وقد جاء بعد الطبري مؤرخون آخرون كثيرون ولكن ما كتبوه عن صدر الإسلام كان يفتقر إلى الأصالة وإلى إمكان عثورهم على مصادر لم يتفق للطبري أن وقعت تحت يده .

ومن المسعودي إلى مسكويه إلى هلال الصابيء إلى ابن الجوزي إلى ابن الأثير إلى سبط ابن الجوزي ثم إلى الذهبي وابن كثير خط طويل من العمل التأريخي يأتي الطبري دوماً في مقدمته . وهذا الخط الطويل كان يصدر دوماً عن إيمان واحد بأن ثمة رسالة تاريخية ممتدة عبر الأنبياء إلى آخر النبيين ثم إلى الأمة الإسلامية .

وقد كان تطور الكتابة التاريخية جزءاً من التطور الثقافي العام الذي عرفه المجتمع الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى ، وهذا التطور كان إسلامياً صرفاً لم يتأثر بمؤثرات ثقافية أجنبية أي في جوانب ثانوية منه ومحدودة . وإذا كان التاريخ تعبيراً عن مشيئة الله في الناس فقد استخدم للعبرة ولبيان التجارب والخبرات والإجماع والسنن ، وإذا كان اعتبر منذ البدء علماً خاصاً أو نوعاً من العلم فانه بالمقابل عبر عن اتجاه نحو الفلسفة الجبرية ونحو ارتباط الإنسان بقدر الله كما عبر عن شعور متزايد بقيمة التراكم الزمني في تكوين الأمة . وفي هذه القرون الثلاثة الأولى من التاريخ الإسلامي لم يوضع علم التاريخ فقط ولكن تحددت أيضاً مناهجه وخططه وأساليب كتابته ، في إطار لن تخرج منه إلا لماماً في العصور التالية .

القسم الثاني

التاريخ الإسلامي في المشرق العباسي
ما بين أوائل القرن الرابع وأواسط السابع الهجري

الفصل السابع

الملامح العامة لرجال التاريخ في المشرق العباسي

إذا شئنا مراقبة تطوّر هذا العلم ورجاله عبر العصور الاسلامية المتوالية والبلاد الإسلامية المتعددة فقد نستطيع أن ندرك شيئاً من ذلك بدراسته سواء في المراحل الزمنية أو في المناطق المختلفة على هدى الأحداث السياسية البارزة. وهكذا نجد أن تطوره بعد القرن الثالث في المشرق يمكن أن يقسم إلى فترتين اثنتين، بينما اتخذ التاريخ في الأندلس والمغرب تطوراً موازياً آخر ذا طابع محلي في المواضيع والمادة خاصة لا في المنهج، وبهذا الشكل :

١ - ندرس أولاً في قسم خاص من الكتاب التاريخ في المشرق ما بين مصر إلى اليمن إلى ما وراء النهر منذ مطلع القرن الرابع حتى سقوط بغداد على يد المغول في أواسط القرن السابع سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨م يدخل في ذلك العهد البويهي والسلجوقي والخوارزمي في العراق وإيران من جهة والعصر الفاطمي ثم الأيوبي من جهة الشام ومصر واليمن من جهة أخرى. وهذه هي الفترة العباسية - الفاطمية.

٢ — ثم ندرس في قسم ثان من الكتاب تطور التدوين التاريخي في المشرق أيضاً ، ما بين أواسط القرن السابع حتى أواخر القرن العاشر ، وتلك هي الفترة التي تبدأ بظهور المغول الأيلخانيين ثم الجلايرية في إيران والعراق من جهة وبظهور المماليك في مصر والشام من جهة أخرى ، وتنتهي بالصفويين وآخر التركمان في إيران والعراق وسيطرة العثمانيين على بلاد العرب وهذه هي الفترة المملوكية المغولية — التركمانية .

٣ — ونخصص بعد ذلك قسماً خاصاً للتاريخ في الأندلس والمغرب . منذ عهد الأمراء الأمويين والخلافة والأدارسة ثم ملوك الطوائف إلى عهد المرابطين والموحدين والمرينيين وحتى ظهور الشرفاء الحسنيين في أواسط القرن العاشر في المغرب .

التاريخ فيما بين أوائل القرن الرابع الهجري وأواسط السابع

الملامح والميزات العامة

بلغ التاريخ ، كعلم ، سن الرشد أي فترة الاستقلال بمادته واسمه ومناهجه ورجاله في أواخر القرن الثالث الهجري وكانت البواكير الأولى من مؤلفاته قد ظهرت منذ أواسط القرن الثاني . ثم ما زال المؤرخون يوفقون بين المواد المستملة من السيرة والكتب الاخبارية المتنوعة وعناصر التاريخ الأجنبي لتنسيقها وإدماجها في رواية تاريخية متماسكة متصلة الزمن ، وما زالوا يخضعونها لفكرة تاريخية مترايدة النمو والوضوح في أبعاد الزمان والمكان وتنوع الأمم حتى استكمل علم التاريخ عناصره : في المنهج والمادة والممثلين وصار علماً مستقلاً ، بصرف النظر عن مكانته غير البارزة بين العلوم الاسلامية الأخرى

وعن أثر نشأته الأولى في تلك المكانة وتحيُّف علماء الدين وعلوم الدين عامةً لهذا العلم .

ومنذ مطالع القرن الرابع بدأ علم التاريخ ، مسيرته العلمية المستقلة لحدٍ كبير مسجلاً طوراً خاصاً جديداً في تلك المسيرة ومتأثراً دون شك بنمو العلوم الأخرى واتساع نطاق الحضارة المادية وانتشار الورق .

وإذا كان عمل التاريخ ، حسب المفهوم القديم ، تسجيل أخبار الأحداث والنّاس فقد كان دوماً وبالضرورة على صلة بأحداث السياسة وأخبار الرجال ولا شك أنّه تأثر بها أكثر من تأثر أي علم إسلامي آخر . بل لعل الفروع الثقافية كلها كانت تسير وتتطوّر من وراء الأحداث ومن فوقها ، لا يهمّ الفقيه بالحاكم ولا صاحب الفلسفة بالمعارك الخارجية ولا الطبيب باحتلال بلد أو الفيزيائي بموت أمير ، إلا المؤرخ فان عينه ويده مرتبطتان بالأحداث نفسها وبالرجال . ومن هنا قد يكون من الضروري أن نستعرض في أسطر أبرز الملامح السياسية لهذه القرون الممتدة ما بين مطالع القرن الرابع الهجري (العاشرالميلادي) وأواسط القرن السابع (الثالث عشر الميلادي) .

فقد كانت الخلافة العباسية تجتاز أزمة الخضوع للقواد الأتراك في بغداد منذ مصرع المتوكل سنة ٢٤٧ وحتّى ٣٣٤ حين استطاع البويهيون زرع حكمهم بعد الاستيلاء على غربي إيران في عاصمة العباسيين نفسها وبجانب الخلفاء ولمدة تزيد على مائة سنة . أمّا إيران الشرقية فكانت تبنَّت في الوقت نفسه أسرة محلية وهي البيت الساماني الذي استمر حتّى سنة ٣٨٩ ليحل محله بعد ذلك الغزنويون .

أمّا في الجزيرة وشمال الشام فقد ظهر الحكم الحمداني في الموصل وحلب ما بين سنة ٣١٧ حتّى ٣٩٤ ، وأما في الشام الجنوبي ومصر فقد كانت الدولة الطولونية قد تركت البلدين منذ سنة ٢٩٢ ثم ظهر الأخشيديون ما بين سنة ٣٢٣ ــ ٣٥٨ ثم قدم الفاطميون من أفريقيا (تونس) ففتحوا مصر والشام وامتد نفوذهم إلى الحجاز واليمن وتقاسم العالم الإسلامي الشرقي خلافتان : إحداهما

عباسية سنيّة في المشرق والأخرى فاطمية شيعيّة في الشام ومصر حتّى اليمن مدة قرنين تقريباً .

على أن الخلافة العباسية عرفت ، بالرغم منها ، نوعاً من اليقظة السياسية منذ أواسط القرن الخامس حين تدفق عليها الغزّ الأتراك بزعامة السلاجقة من سهوب تركستان واستطاعوا سنة ٤٤٧ دخول بغداد والحلول محل البويهيين فيها . وقد توطنوا في قلب الأناضول فيما بين سنة ٤٥٠ ــ ٤٧٥ كما احتلوا في الوقت نفسه بلاد الشام مزيحين عنها النفوذ الفاطمي .

وفوجئت هذه المنطقة من ساحل المتوسط الشرقي ، في نهاية القرن الخامس سنة ٤٩٢ بهجوم الفرنجة عليها ، في الحروب المدعوة بالحروب الصليبية والتي استمرت قرنين (١٠٩٥ ــ ١٢٩١م) . ونشأت في المنطقة امارات لاتينية أربع انقرضت إحداها مبكرة لكن الإمارات الأخرى استمرت فترة طويلة قبل أن تنقرض . وفي أواسط القرن السادس استيقظ الشرق الإسلامي بقظة قادها البيت الزنكي في مثلث الموصل ــ حلب ــ دمشق ثم ظهر صلاح الدين والبيت الأيوبي فألغى الخلافة الفاطمية وحل محلها في ما بين اليمن والقاهرة إلى دمشق وإلى الجزيرة الشامية . واستمر هذا البيت يحكم المنطقة حتّى سقط في مصر بانقلاب المماليك عليه سنة ١٢٥٠م وسقط تحت ضربات المغول في الجزيرة والشام سنة ١٢٦٠ .

أمّا في العراق وإيران فقد ظل النفوذ السلجوقي موجوداً حتّى أواسط القرن السادس (سنة ٥٥٢ خاصة) ثم زال من معظم المناطق وحل محله في أقصى الشرق الدولة الغورية ما بين سنة ٥٤٣ ــ ٦١٢ وفي غرب إيران دول صغرى تدعى بالدول الأتابكية ، ما لبث أن ابتلعتها شيئاً فشيئاً الدولة الخوارزمية التي كانت نشأت في خوارزم سنة ٤٧٠ وبلغت أوجها في عهد علاء الدين خوارزمشاه ما بين سنة ٥٩٦ ــ ٥١٧ ولكنها سقطت رغم جهود جلال الدين منكوبرتي تحت سنابك المغول سنة ٦٢٨ . وقد تغير مصير المنطقة كله فجأة بدخول هذا

العنصر الجديد المدمر إليها ، عنصر المغول الذين تحركوا منذ مطالع القرن السابع فدخلوا بعد سلسلة هجمات إلى قلب العالم الاسلامي وبعد أن دمرت الدولة الخوارزمية الغوريين جاء المغول فدمّروها ثم أتوا على خلافة بغداد سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨ ثم على الإمارات الأيوبية كلها ، حتى أوقفهم المماليك في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠ بعد ستين من سقوط بغداد .

سجل التاريخ الإسلامي هذه الأحداث العاصفة التي رأى فيها خلافتين إسلاميتين تعيشان وتتهيان ، وثلاثة هجمات غريبة مدمّرة : اثنتان من الشرق السلاجقة ثم المغول وواحدة من الغرب : الفرنجة ، وما رافق كل ذلك من هزّات كما سجل في الوقت نفسه بعض الوجه الآخر الحضاري أيضاً ، من أجيال علمية وفكرية خلال هذه القرون .

وبالرغم من أن الفترات التاريخية الطويلة تمتنع عادة على الدقة الشديدة في الملاحظات وتعطى الدراسة طابع التعميم المخلّ ، وبالرغم من أن الفترة التي ندرس تمتد ثلاثة قرون ونصف القرن لكننا قد نستطيع أن نعطي علم التاريخ في هذه القرون حجمه وملامحه من خلال النظر في رجاله ومادته ومناهجه وأهدافه في مختلف مدارسه الإقليمية .

رجال التاريخ

في هذه الفترة الطويلة دخل ميدان التاريخ أنواع شتى من الرجال قد يزيدون على الألف عدداً ويختلفون في الوظيفة الاجتماعية اختلافهم في التكوين العلمي والاهتمامات الفكرية وفي العنصر القومي والمذهب الديني وفي الإقليم السكني ، على أننا قبل الايغال في الدراسة يجب أن نقدم بين أيديها ملاحظات أساسية ثلاثاً :

الأولى : أن العالم الإسلامي كله كان مجالاً مفتوحاً وحراً لرحلة أي عالم من

منطقة إلى أخرى حتى لقد ندر من العلماء من استقر في بلده . وكانت الرحلة خاصة إلى العواصم الكبرى وبصورة أخص إلى بغداد أم الدنيا .

الثانية : أن العلماء المسلمين كانوا عقولاً مفتوحة للاختصاصات المتعددة حتى لقد ندر أن عرف عالم بفرع واحد من فروع العلوم .

الثالثة : أن التنوع القومي خاصة والإقليمي والمذهبي لم يكن يأخذ المعاني الحاسمة الحادة التي قد نفهمها منها اليوم . وكانت الرابطة الاسلامية حتى بالنسبة لبعض المؤرخين من أهل الكتاب – أقوى من أن تدفعهم إلى التجريح أو التهجم أو إلى تعمد تسجيل المساوىء دون الحسنات .

١ – في عدد المؤرخين وتوزعهم الزمني والمكاني

ليس ثمة من إحصاء أو شبه إحصاء لرجال هذا الفرع العلمي الهام في الثقافة الإسلامية ولا لغيره ولو وجد مثل هذا الاحصاء لأعطى على الأقل فكرة عن مدى اهتمام الحضارة العربية الإسلامية بالتاريخ ولأمكن بالمقارنة العددية مع رجال العلوم الأخرى بيان مدى قيمته ومكانته من الفكر والناس . على أننا قمنا في محاولة محدودة بإحصاء تقريبي لمؤرخي ما بين القرن الرابع ونهاية الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ وفي المشرق الاسلامي وحده فإذا بين أيدينا من الأسماء ما يزيد على ألف ومائتي اسم، ولو دفعنا التقصي إلى مدى أبعد لوصل الرقم إلى زيادة مائة أخرى في الغالب وربما وصل المائتين وهو رقم ضخم يجعل المعدل أكثر من ثلاثة مؤرخين في السنة الواحدة .

ولا يتوزع هؤلاء المؤرخون التوزع المتسق ما بين أقطار ومدن المشرق الإسلامي كما لا يتوزعون التوزع المتوازن عبر السنين والقرون . فثمة مراكز جذب وتكاثف جغرافية كانت تجمعهم إليها كما ثمة فترات زمنية، ديناميكية

الحركة والفكر ، كانت تطلعهم بالأعداد الوافرة .

وإذا كنا نستطيع بصورة عامة أن نقول إن مراكز هؤلاء المؤرخين كانت المدن الكبرى فإن أنصبة هذه المدن منهم كانت بدورها تتفاوت . ويجب الغوص لا وراء الأسباب السياسية فقط ولكن وراء الأسباب الاقتصادية أحياناً والفكرية لتعليل اختلاف التكاثف في أعداد المؤرخين بين بقعة وأخرى ولتعليل ظهور التاريخ أيضاً في شعوب لم تكن في الأصل ذات اهتمام تاريخي .

وقد كان طبيعياً أن تكون بغداد ــ بسبب من مكانتها السياسية والدينية والعلمية ــ أكبر مركز للتدوين التاريخي في المشرق الاسلامي لأنّه ما من عالم كبير إلا رحل إليها في طلب العلم أو قصدها ليشتهر ويُعرف على النطاق الإسلامي الأوسع .

وبالرغم من أن الفسطاط (ثم القاهرة) كانت مركز دولة ثم خلافة مستقلة وكان لها مركزها العلمي الضخم إلا أنها لم تنافس بغداد في أي مجال من مجالاتها ، ومن ذلك التاريخ . وربما كان للطابع الفاطمي الشيعي أثره في عدم منافسة القاهرة لها في جذب العلماء الإسلاميين . وقد تلت بغداد في كثرة المؤرخين مدن عدة ، وخاصة ما كان منها مراكز دول شبه مستقلة سواء في إيران او الشام كما تلتها مصر . على أن الكثرة الواضحة كانت في إيران وخاصة في مرو ونيسابور واصبهان وتلي ذلك القاهرة الفاطمية دون باقي مدن القطر المصري ثم تأتي في العدد بلاد الشام (في دمشق وحلب خاصة) ثم بلاد العراق (في الكوفة والموصل خاصة) وتأتي في النهاية بلاد اليمن. أمّا الحجاز فينقطع التاريخ تقريباً له منذ القرن الرابع إلا ما يتصدق به عليه المؤرخون الطارئون تكريماً للمدن المقدسة وتعريفاً بها . وهكذا فإن ثلاثة أرباع المؤرخين كانوا من بغداد أو كانوا على صلة بشكل أو بآخر معها . وبخاصة منهم مؤرخو إيران الذين يختلطون لهذا السبب مع مؤرخي العراق ويؤلفون معهم جمهوراً يزيد عن ثلثي المؤرخين في هذه الفترة[1] .

(١) آثرنا ها هنا طي المعطيات الرقمية الإحصائية لهذه التقديرات واكتفينا بالنسب المئوية التي ــ

وليس عجيباً بعد هذا أن نرى أن كافة المؤرخين الكبار، ذوي السمعة التاريخية المعروفة والآثار الضخمة الباقية إنما كانوا عراقيين، ولم يظهر بعد الطبري — الذي عاش واشتهر في بغداد على أي حال — أي مؤرخ كبير وعلى المستوى الاسلامي الأوسع لا في إيران ولا في الشام ولا مصر. ذلك أن بغداد والعراق كانت تلخص وتمثل علم العالم الإسلامي كله.

وأمّا من الناحية الزمنية فالظاهرة الواضحة هي تكاثف المؤرخين وتكاثرهم في القرن الرابع خاصة* وفي النصف الأول من القرن السابع. وإذا كان القرن الرابع قرن الجغرافيا العربية فإنه كذلك قرن التاريخ. اهتمام الناس بعملية التدوين التاريخي وإقبالهم عليها كان في الواقع جزءاً من تلك الفعالية الواسعة التي شملت جميع نواحي الحياة وجميع فروع المعارف في ذلك القرن الذي يمكن أن يعتبر فترة الأوج والنضج في الحضارة العربية الاسلامية. وكثرة الألوان والأنواع التاريخية التي ظهرت فيه إنما كانت نتيجة لإغراءات التطلع العلمي الموسوعي الذي طبع بطابعه ذلك القرن. ولم يكثر عدد المؤرخين فقط ولكن كانوا أيضاً أحسن فهماً لمعنى التاريخ وهدفه. ثم نجد بالمقابل أنه لا تقل اعدادهم في القرنين التاليين الخامس والسادس فقط ولكن يسوء أيضاً «نوع» التسجيل التاريخي. يختفي فيه الانفتاح والموسوعية ويبرز التقليد. ولهذا السبب فيما يظهر يضيع الكثير منه. فإذا جاءت أواخر القرن السادس وجاء النصف الأول من القرن السابع أصاب التاريخ نوع من اليقظة وعاد المؤرخون إلى التكاثر الواضح. ولعل السبب في ذلك هو تلك اليقظة السياسية الحضارية التي أصابت المشرق الاسلامي من جراء التحدي الفرنجي الصليبي من جهة ثم التحدي المغولي من الجهة الأخرى. كان ظهور الزنكيين والأيوبيين أولاً ثم ظهور الخوارزميين جواباً على التحديين يستحق التسجيل، كما كان دائماً — فيما يبدو — للعودة إلى النظرة العالمية، ولعل هذا هو السبب في ظهور المؤرخين الكبار في مطالع هذه

---

* نحسب أنها تؤدي الغرض الذي نقصد في توزيع المؤرخين الجغرافي.

الفترة (كالطبري والمسعودي) وفي أواخرها (كابن الأثير وسبط ابن الجوزي) ،

٢ ـ في الوظيفـــة الاجتمـــاعيـــة

كان التاريخ حتى عصر الطبري من ميادين العاملين بالثقافة والعلم ومقصوراً بالذات على رجال علوم الدين خاصة أو اللغة على قلة ... لم يحاوله أحد غيرهم إلا أنّه منذ القرن الرابع انضم إلى الفقيه والمحدث واللغوي في رواية التاريخ وتدوينه مجموعات أخرى عديدة التنوع من العلماء .

صحيح أن الأسماء اللامعة والهامة من المؤرخين في هذه القرون كانت تضم جماعة واسعة من الفقهاء والمحدثين المشهورين منهم : في إيران الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥) وأبو نعيم الأصبهاني . وابن منده (ت ٤٧٠) وشيرويه ابن شهريار (ت ٥٠٩) والنسفي (ت ٩٣٧) صاحب القند في تاريخ سمرقند (٢٠ مجلداً) والتيمي الأصبهاني (ت ٥٣٨) مؤلف سير السلف . وابن فندق ظهير الدين البيهقي . والرافعي (ت ٦٢٣) صاحب التدوين في أخبار قزوين...

ومنهم في العراق الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣) وابن ماكولا صاحب الاكمال (ت ٤٨٣) وابن عقيل (ت ٥١٣) صاحب كتاب الفنون في أكثر من أربعمائة مجلد والسمعاني صاحب الأنساب وذيل تاريخ بغداد والمعجم الكبير ، وابن الأزرق الفارقي (توفي بعد سنة ٥٧٦) والإمام ابن الجوزي . وابن الأثير . وابن نقطة (ت ٦٢٩) صاحب اكمال الإكمال ، ومحب الدين بن النجّار (ت ٦٤٣) صاحب ذيل تاريخ بغداد (١٧ مجلداً) وابن الدبيثي (ت سنة ٦٣٩) صاحب الذيل الآخر . وابن دحية وغيرهم .

ومنهم في الشام : أبو الحسين الرازي (المتوفى سنة ٣٤٧) والسّميساطي (المتوفى سنة ٤١٧) وابن الأكفاني هبة الله (ت ٥٢٤) وابن عساكر وابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠) وابن سعادة البودي (ت ٦٣٧) وابن العديم وسبط

ابن الجوزي وبهاء الدين بن شداد وابن أبي أصيبعة وأبو شامة . وابن عبد الدائم (ت ٦٦٧) ...

ومنهم في مصر : المؤيد الشيرازي الداعية ، وابن منجب الصيرفي ، والسلفي صاحب معاجم الشيوخ (ت ٥٧٦) والمنذري صاحب التكملة... وغيرهم.

صحيح هذا كله لكنا نجد بجانب هذا الرعيل الواسع مجموعات أخرى متنوعة أيضاً أهمها :

(أ) الموظفون من عمال الدواوين والكتاب ورجال البلاط حتى الوزراء وقد كان رجال هذه الطبقات الرسمية ذوى شأن خاص في النظام السياسي وعلى اطلاع أكثر من غيرهم على دخائل الأحداث كما كانت تحت أيديهم محفوظات الدولة ووثائقها وكان بعضهم هو من صانعي تلك الأحداث وكتاب تلك الوثائق وكان في ذلك كله ما يغري الكثير منهم بكتابة التاريخ وخاصة في تلك الفترات التي عاشها الكاتب أو أتيح له الاطلاع على دخائلها . وإذا نجم عن ذلك تغيير واضح في أسلوب التاريخ وفي مادته وروحه إذ غاب فيه السند وكثرت فيه الوثائق فقد أسهم ذلك في تكريس ظهور «التاريخ» كعلم للمعلومات العامة وأسهم خاصة في إعطائه الطابع المدني (Profane) بدل الطابع الديني .

ذلك أن هؤلاء الموظفين الكبار من الوزراء ومن كتّاب الديوان خاصة انصبّ اهتمامهم على تاريخ الأحداث السياسية يسجلونها مع وثائقها ، وقد نجد أحياناً أن الفقيه والمحدث قد تنحيا عن مكانيهما أحياناً في تدوين التاريخ السياسي فقط وظلا على استئثارهما بكتابة التراجم وابقاء هذا الميدان تحت نفوذهما فترة طويلة . وإذا كان التاريخ السياسي أكثر قرباً إلى معنى التاريخ لا سيما بعد تحوّله إلى حوليات عن الأسر المالكة وحوادث الحكام فإن وجهة نظر رجال الدين تجعل تراجم « العلماء (وهم) ورثة الأنبياء » أصدق تعبيراً عن التاريخ الحق للأمّة الاسلامية من النظم السياسية الزائلة[1] التي تشوب أخبارها الأعمال

---

(١) انظر جب – الموسوعة الإسلامية – مادة تاريخ (في الترجمة العربية ج ٤ ص ٤٩٦) .

المنافية للدين في كثير من الأحيان .

وهكذا بينما نجد السلسلة القديمة من المحدثين ورجال الدين والرواة المؤرخين مستمرة وتهتم بالتراجم خاصة نجد أن مجموعة أخرى قد نشأت بجوارها من كبار الموظفين وقد قدمت الكثير من الإنتاج التاريخي الممتاز . ويأتي في طليعة المجموعة مسكويه ، والصولي وثابت بن سنان ثم هلال الصابىء والروذراوري في العراق ، والبيهقي أبو الفضل محمد بن الحسن المتوفى سنة ٤٧٠ صاحب تاريخ بيهق الذي يزيد على ثلاثين مجلداً . والثعالبي صاحب الغرر ، والعتبي (ت ٤٢٧) صاحب اليميني ونظام الملك الوزير من إيران ، والمسبحي الوزير وابن أبي مريم والقاضي القضاعي من مصر ، وكل هؤلاء فيما بين القرن الرابع والخامس ويستمر الأمر ويتسع في القرنين التاليين :

فنرى في الشام ابن زريق التنوخي (المتوفى بعد سنة ٥٠٨) وحمدان أبا الفوارس بن أبي الموفق (المتوفى سنة ٥٤٢ أو سنة ٥٥٤) والحصكفي القاضي المرتضى (ت ٥٤٩) وابن القلانسي صاحب ذيل تاريخ دمشق (ت ٥٥٥) ، والعظيمي صاحب تاريخ حلب (توفي بعد سنة ٥٥٨) والعماد الأصبهاني الأديب المعروف (ت ٥٩٧) والقاضي العماد الأصبهاني أيضاً صاحب البستان الجامع وابن عنين الوزير الشاعر (المتوفى سنة ٦٣٠) وابن المستوفي صاحب تاريخ اربيل (ت ٦٣٧) وابن نظيف الكاتب الحموي (ت بعد ٦٣١) وابن أبي الدم الحموي (ت ٦٤٢) وابن حمويه الجويني (ت ٦٤٢) .

ونرى في العراق وإيران : السمناني أبا القاسم (المتوفى سنة ٤٩٩) والباشاني أحمد بن محمد (ت ٥٠١) والإقليدي صاحب كتاب الوزراء (ت ٥٠٧) وابن بابه الكاشي (ت ٥٤٤) وشهردار بن شيرويه (ت ٥٥٨) وابن حمدون صاحب التذكرة (ت ٥٦٠) . وأبا غالب الشيباني الكاتب صاحب الذيل على الطبري (ت ٥٩٧) وابن الأزرق الفارقي (ت بعد سنة ٥٧٦) وابن فندق ظهير الدين البيهقي (ت ٥٦٥) والمنجنيقي الحراني (ت ٦٢٦) والقيلوي البغدادي (ت٦٣٣)

والبنداري الأصفهاني (ت ٦٤٣) والنسوي شهاب الدين محمد (ت ٦٤٧) والزيلري (ت ٦٤٧) وابن الشعار الموصلي (ت ٦٤٥) صاحب عقود الجمان .

ونرى في مصر : القاضي الرشيد ابن الزبير (٥٦٢) وابن مسيلمة الكاتب وابن منجب الصيرفي (ت ٥٥٠) وابن الطوير القيصراني . وابن ظافر الأزدي (سنة ٦١٣) والقاضي الفاضل (٥٩٧) وابن وصيف شاه (ت بعد ٦٠٦) وابن مماتي (ت ٦٠٦) والقفطي الوزير (ت ٦٤٦) ...

(ب) وقد دخل في جوقة التأليف التاريخي أيضاً بعض الأمراء والملوك في هذه الفترة ومنهم : الأمير منصور ابن شاهنشاه الأيوبي صاحب مضمار الحقائق وابن ماكولا الأمير الوزير صاحب الاكمال ، وابن ندى الجزري والأمير العباسي أبو الحسن يوسف (ت ٦٥٦) وابن أبي الهيجاء وابن مأمون البطائحي وأسامة بن منقذ ، بل ثمة خبر يذكر أن ملك شاه السلطان السلجوقي كتب رسالة يصف بها مملكته[1] ويروي أخباره كما أن نور الدين محمود بن زنكي كتب كتابين أحدهما في الجهاد والثاني هو الفخر النوري[2] . وقد نقل ابن أيبك الدواداري عن كتاب تحفة القصر في عجائب مصر الذي ينسب إلى العاضد الفاطمي[3] آخر الخلفاء الفاطميين . كما نقل ابن أبي أصيبعة بعض أخبار الحارث ابن كلدة الطبيب عن كتاب البستان الذي ألفه الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧ — ٢٣٢)[4]. وأمّا ابن المعتز فمعروف التأليف وله في التاريخ الأدبي كتاب طبقات الشعراء وغيره .

ويلحق بهذه الطبقة بعض الاشراف من العلويين وآل بيت النبي الذين اهتموا خاصة بعلم الأنساب وألفوا فيه المؤلفات الضخمة التي بلغت أحياناً

---

(١) البغدادي — هدية العارفين ج ٢ ص ٤٧١ .
(٢) انظر سبط ابن الجوزي — مرآة الزمان ج ٨ ص ٣١٣ .
(٣) انظر ابن ايبك — كنز الدرر — الدرة المضية ج ٦ ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .
(٤) انظر ابن ابي أصيبعة — طبقات الأطباء (ط . بيروت ١٩٦٥) ص ١٦٥ .

١٠ و٢٠ و٦٠ مجلداً ، كابن عبد الصمد الهاشمي (أواسط القرن السادس) والشريف العابد الدمشقي وابن زهرة الحسيني الحلبي (بعد سنة ٥٨٠) وابنه القاضي الزيدي والجواني نقيب الاشراف (سنة ٥٨٨) والادريسي الاسكندراني (سنة ٦١٠) وأبو طالب الهاشمي (٦٢١) وعزيز الدين العلوي المروزي (٦٣٢) صاحب حظيرة القدس في ٦٠ مجلداً .

(جـ) ولم يقتصر ميدان التاريخ على هؤلاء وأولئك من الفقهاء والمحدثين من جهة أو رجال الإدارة والسياسة من جهة أخرى ، ولكن دخله كذلك أصحاب المهن الحرة بل والأعمال المهنية الصغيرة المحدودة الدخل .

فقد ظهر مثلاً عدد من الأطباء المؤرخين من جملتهم : سعيد بن البطريق (ت سنة ٣٢٨) الذي اشتهر بالطب شهرته بالتاريخ ، وابن بطلان (المتوفى بعد سنة ٤٥٥) وابن جرير التكريتي (ت ٤٧٢) صاحب زيج التواريخ.وابن شرلره الحلبي (ت ٤٩٠) . وابن أبي صادق النيسابوري (حوالى ٤٧٠) . وابن جزلة أبو غالب (ت ٤٩٣) . وابن أبي الصلت أمية بن عبد العزيز المصري (ت٥٢٩). وابن المارستانية (ت ٥٩٩) الذي وضع تاريخ بغداد في مائة مجلد . وابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الأطباء وابن زقيقة الشيباني (ت ٦٣٥)والدنيسري (ت بعد ٦١٥) صاحب تاريخ دنيسر . وابن اللباد عبد اللطيف البغدادي (ت ٦٢٩) ... الخ .

وظهر في المؤرخين كذلك بعض أصحاب المهن المتواضعة من النساخين والوراقين والفرضيين الشروطيين : ومنهم مثلاً : أبو الحسين ابن القواس الوراق (من القرن الخامس) ومحمود الوراق (بعد ٤٥٠) . وشجاع الذهلي الوراق النساخ (ت ٥٠٧) الذي ذيل على تاريخ بغداد . وأبو اسحق الحبال الوراق ، وابن حنظلة وأولاده باعة الكتب (القرن السابع) وابن شنيف أبو الفضل الكتبي (ت ٦٤٠) .

وقد برز من هؤلاء خاصة جماعة قفزوا إلى الصف الأول في المؤرخين :

فابن النديم (ت ٣٨٥) صاحب الفهرست ، أهم كتاب في تاريخ العلوم الاسلامية حتى أواخر القرن الرابع ، كان وراقاً . والمؤرخون الثلاثة الأواخر الذين كانوا آخر من ذيل على الطبري في القرنين السادس والسابع كانوا من هذه المجموعة ، فالهمذاني محمد بن عبد الملك (ت ٥٢١) صاحب تكملة تاريخ الطبري كان فرضياً . وأبو الفرج صدقة الحداد (ت ٥٧٠) كان فرضياً ناسخاً والقادسي محمد بن أحمد كان كتبياً (ت ٦٣٤) . ومثل هؤلاء كان أبو شجاع محمد بن الدهان (ت ٥٩٢) فهو فرضي منجم ، والحظيري أبو المعالي سعد ابن علي دلال الكتب (ت ٥٦٨) وهو صاحب زينة الدهر .

ولعل أبرز المؤرخين النساخين اثنان هما ابن أبي طي (ت ٦٢٦) المؤرخ الضخم الذي كتب أربعة عشر مؤلفاً في التاريخ بعضها في مجلدات عديدة ولم يبق من أعماله أي كتاب . وياقوت الحموي التاجر النساخ الذي كان ينسخ الكتب ويتاجر بها وبغيرها والذي ترك للتراث الاسلامي أشهر معجمين البلدان والأدباء .

وبالرغم من المفارقة الظاهرية بين النشاط العلمي والاقتصادي فقد وجد بين المؤرخين أيضاً بعض التجار من أمثال : ابن المجاور الدمشقي (ت بعد ٦٣٠) صاحب تاريخ المستبصر ، وأبي الثناء الحراني (ت ٥٩٠) صاحب تاريخ حران .. والطيمي أبي الخطاب (ت ٥٧٤) المعروف بابن حوائج كاش . كما أن ياقوت الحموي نفسه كان يعمل بالتجارة مع التأليف والنسخ .

(د) وأخيراً فثمة ظاهرة في التأليف التاريخي لا بد من تسجيلها هي ظهور أسر مؤرخة ، كما كانت ثمة أسر يتوارث رجالها العلم والفقه والحديث . ولعل هذا من ذاك . وتوارث الاهتمام التاريخي كان يستمر عدة أجيال أحياناً في الأسرة الواحدة . وغالباً ما كانت هذه الأسر ، من تلك التي تتوارث « الوظائف » الحكومية أو جاه المكانة العلمية والوظائف الدينية . ومن تلك الأسر مثلاً :

ـ آل الجراح : وهي أسرة كتاب ووزراء ظهر منها ما بين أواسط القرن الثالث وأواسط الرابع علة كتاب مؤرخين كداود بن الجراح كاتب المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥١ / ٨٦٢ ـ ٨٦٦) ثم ابنه محمد بن داود ، ثم حفيده علي بن عيسى بن داود (المتوفى سنة ٣٣٤) وزير المقتدر وابن الحفيد الآخر أبي القاسم عبد الله بن علي بن محمد بن داود (المعروف بابن أسماء وهي أخت علي بن عيسى) ...

ـ آل الصابيء : وهي أسرة الكتاب الصابئة التي قضت معظم أيام بروزها وخدمتها للخلافة العباسية وهي على دينها الأول . وكان منها : أبو اسحق ابراهيم بن هلال الصابيء (المتوفى سنة ٣٨٤ / ٩٩٤) ثم حفيده الذي خلفه أبو الحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم (المتوفي سنة ٤٤٨ / ١٠٥٥) وقد أسلم في أواخر حياته وجاء من بعده ابنه المؤرخ الثالث في الأسرة محمد غرس النعمة (المتوفى سنة ٤٨٠ / ١٠٨٦) ...

ـ ومن مثل هذه الأسر الكتابية المؤرخة ولكن على جيلين مثلاً : ابن أبي طاهر وابنه عبد الله ، وثابت بن سنان بن قرة ثم ابنه سنان.. وأبو صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وابنه محمد الذي عمم كتاب ابيه في التاريخ إلى سنة ٣٠٠[1] .

وأما من أسر الفقه والعلم فهناك مثلاً :

ـ آل السمعاني أسرة العلم المروزية : وإذا كان أشهرهم هو عبد الكريم ابن محمد بن أبي المظفر منصور (المتوفى ٥٦٢ / ١١٦٧) فإن أباه (المتوفى سنة ٥١٠) وجده من قبله قد شاركا في التأليف التاريخي كما شارك به ابنه عبد الرحيم من بعد وقد توفي سنة ٦١٤ .

ـ آل البناء : وهم أسرة بغدادية واسعة من الفقهاء الحنابلة وكان منها

---

(١) ابن النديم ص ١٤٧ وص ١٢٤ .

عدد من المؤرخين أصحاب المعاجم والتعليقات التاريخية ، منهم : أبو علي الحسن بن أحمد (المتوفى سنة ٤٧١ / ١٠٧٨) صاحب التعليق ، وأبو غالب أحمد بن أبي علي الحسن (المتوفى سنة ٥٢٧ / ١١٣٢) .

- وآل أبي جرادة : أسرة القضاة الحلبيين .. وأبرز أبنائها كان في آخرها تقريباً وهو كمال الدين عمر بن العديم المؤرخ الذي كشف في مؤلفه عن أسرته ، وفي مؤلفه التاريخي الواسع بغية الطلب عن إسهام أبيه وجده وعميه في التدوين التاريخي .

- آل المقدسي : أسرة الفقه الحنبلي في دمشق منذ أواسط القرن السادس إلى ما بعد أكثر من قرنين وقد برز منها في التاريخ والتراجم خاصة تقي الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد (المتوفى سنة ٦٠٠/١٢٠٤) وابن قدامة وموفق الدين عبد الله بن أحمد (المتوفى سنة ٦٢٠ / ١٢٢٣ وابن قدامة الآخر أبو العباس أحمد بن عيسى (المتوفى سنة ٦٤٣) وضياء الدين محمد بن عبد الواحد (المتوفى أيضاً سنة ٦٤٣ / ١٢٤٤) .

- آل عساكر : وقد كان أولها أبرز الرجال فيها وهو ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق (المتوفى سنة ٥٧١ / ١١٧٥) ثم جاء ابنه من بعده (المتوفى سنة ٦٠٠) فأضاف على مؤلف أبيه كما حاول التأريخ من بعده ابن أخيه أبو سعد عبد الله بن الحسن وقريبه الآخر نظام الدين أبو سعد علي (المتوفى سنة ٦٤٥) .

- ومن الأسر : آل الجوزي وقد أطلعت اثنين كلاهما من كبار المؤرخين في الإسلام : أبا الفرج عبد الرحمن (المتوفى ٥٩٨) وسبطه يوسف ابن قزأوغلو المعروف بسبط ابن الجوزي (المتوفى سنة ٦٥٤) .

- والأمراء من آل منقذ : إخوة وأبناء وأحفاد أسامة بن منقذ (المتوفى سنة ٥٨٤) . فقد عمل هو على التأريخ كما عمل أخوته الثلاثة : علي بن مرشد (المتوفى سنة ٥٤٥) وأبو عبد الله محمد ، وأبو المغيث منقذ (المتوفيان

في أواسط القرن السادس) وعمل عليه كذلك مرهف بن أسامة (المتوفى سنة ٦١٤) والحفيد مرهف بن مرهف .

٣ ـ في التكوين العلمي والاهتمامات الفكرية والمهنية

(أ) لم يكن التكوين العلمي الأول لمختلف المؤرخين متفقاً أو متشابهاً، فقد جاءوه من أبواب مختلفة وعبر تكوّنات ثقافية متعددة . بلى ! كانت القاعدة الثقافية للجميع تقوم على أساس من العلوم الدينية . باعتبارها القاسم المشترك بين مختلف المسالك إلى العلوم ، والجانب الاجباري في عملية التربية ومواد التعليم كانت هي « العلم » . ولكن التميز والاختصاص بالتاريخ لم يكن نتيجة الدراسة والانصراف العلمي كالحديث والفقه أو الفلسفة أو الطب بقدر ما كان نوعاً من الهواية المباحة والميدان الحر يمارسه الكثيرون ودون استعداد مسبق في كثير من الأحيان .

وإذا كان بين المؤرخين ، في هذه الفترة العباسية ـ الفاطمية عدد كبير من المحدثين والفقهاء الذين ملأوا الميدان التاريخي بالتراجم خاصة ، فقد وجد أيضاً عدد واسع من ذوي الثقافة الأدبية والشعرية : من أمثال : الثعالبي صاحب اليتيمة وذيلها (ت ٤٢٧) والباخرزي صاحب دمية القصر (ت ٤٦٧) وأبي الفضل البيهقي صاحب تاريخ بيهق والأبيوردي الشاعر (ت ٥٠٧) وهلال الصابيء وابنه محمد غرس النعمة والحظيري الأديب (ت ٥٦٧) والعماد الأصبهاني ، والقاضي الفاضل ، وأسامة بن منقذ وابن عنين الشاعر وابن القلانسي ، وابن نظيف الأديب الشاعر وابن شاهنشاه الأيوبي وابن حمدون الكاتب والقاضي الرشيد ابن الزبير (ت ٥٦٢) والعظيمي الشاعر (ت بعد ٥٥٨) وسبط ابن التعاويذي (ت ٥٨٤) وعمارة اليمني (ت ٥٦٩) وابن الشعار الموصلي وأبي النصر العتبي .

كما وجد بينهم عدد من اللغويين والنحويين والقراء ومنهم : المجاشعي

(ت ٤٧٩) صاحب كتاب الدول (٣٠ مجلداً) وأبو بكر الباطرقاني المقرىء (ت ٤٦٠) صاحب تاريخ القراء . والأخسيكثي أبو الوفا (ت ٥٢٠) وأخوه أبو رشاد (سنة ٥٢٦) والماندائي أبو العباس أحمد (ت ٥٥٢) وابن هلال الصعيدي النحوي (ت ٥٢٠) صاحب خطط مصر . وابن الأنباري اللغوي النحوي (ت ٥٧٧) والطوائفي مجد الدين النحوي (ت ٦١٧) .

وبعضهم دخل التاريخ عبر علوم الأوائل وعلى أساس من الثقافة الفلسفية أو الطبية . وقد تميز هؤلاء عامة بنظرة أعمق وأشمل في التدوين التاريخي وحاول بعضهم فلسفته كما حاول بعضهم الجمع بينه وبين الكون والوجود بنوع من الصلة والتسلسل . ويبرز في هذا الميدان قدامة بن جعفر صاحب كتاب الخراج وزهر الربيع في التاريخ. والمسعودي الذي نثر معلوماته الدينية والفكرية الغزيرة في كل مكان من مؤلفاته . ومسكويه صاحب تجارب الأمم الذي درس الكيمياء والفلسفة والمنطق والأدب . وابن الداية (ت٣٣٩) مؤرخ ابن طولون والوزير عز الملك المسبحي (ت ٤٢٠) الكاتب المنجم والذي كتب تاريخ مصر في ١٣ ألف ورقة (٢٦ ألف صفحة) تنتهي حوادثه سنة ٤١٦[1] ، والمطهر المقدسي صاحب البدء والتاريخ . وابن اللباد عبد اللطيف البغدادي وأغابيوس المنبجي صاحب العنوان الكامل المحكمة ، وابن فندق ظهير الدين البيهقي صاحب مشارب التجارب وتتمة صوان الحكمة (ت ٦٥) ، والطرطوشي أبو بكر (ت ٥٢٠) وابن أبي أصيبعة الكحال .

(ب) ومن جهة أخرى فيمكن أن نلاحظ في هذه الفترة العباسية – الفاطمية أن التاريخ كمادة علمية أخذ يستغرق جهد بعض العلماء جميعه : بمعنى أنه أصبح موضوع نشاطهم الفكري الوحيد أو الرئيسي وليس أحد النشاطات الهامشية أو الثانوية . فالمسعودي مثلاً كان بحثه وانتاجه كله منصباً على المواضيع

---

(١) ثمة في مكتبة الاسكوريال جزء منه . وكتاب تاريخ مصر واحد من حوالي ثلاثين مؤلفاً للمسبحي هناك عدد منها تتراوح أوراقه ما بين ١٠٠٠ إلى ٣ آلاف ورقة .

التاريخية الفكرية وابن زولاق رغم تفقّهه لم يترك سوى مؤلفات في التاريخ وبها اشتهر . وكذلك هلال الصابىء والروذراوري والبيهقي وابن القلانسي وابن الطوير الشيباني والقفطي وابن العديم . وقد مزج بعضهم معه الشعر : كالعظيمي وابن عنين وابن نظيف .

وبعضهم حمل بسبب من عنايته بالتاريخ لقب : التاريخ أو التاريخي. وإذا كان أحمد بن محمد الرازي قد حمل لقب التاريخ في الأندلس ففي المشرق عرف : محمد بن اسماعيل (القرن السادس) بلقب : التاريخ لكثْرة اشتغاله به . وكان يحيى بن علي بن عبد اللطيف المصري (القرن السادس) يعرف « بتاريخ الشام » .

ومن الملاحظات الهامة في هذا المجال أن نموذج المسعودي ومسكويه اللذين ظهرا في القرن الرابع ومطالع الخامس والمقتصر اهتمامهما على التاريخ وحده وكانا في الوقت نفسه من كبار المؤرخين هذا النموذج لن يظهر فيما بعد حتى يأتي العصر المملوكي . وبالرغم من أنا نعدّ عدداً من أهم المؤرخين ظهروا خاصة في أواخر الفترة العباسية من أمثال ابن الأثير وسبط ابن الجوزي وابن النجار فإن هؤلاء وأمثالهم كانت لهم اهتمامات فقهية أو حديثية موازية للاهتمام التاريخي ولعلها كانت بالنسبة إلى عصرهم هي الاهتمام الأساسي وهي السبب في سمعتهم الكبرى بين المعاصرين وإن كان الأثر التاريخي الذي تركوه هو الذي جعل أسماءهم كمؤرخين كبار تبرز فيما بعد وتبقى للناس .

(جـ) ومن جهة ثالثة فإن الجماعات غير المسلمة في المجتمع الاسلامي ، في هذه الفترة أسهمت بدورها في تدوين التاريخ . وإذا لم يظهر لليهود خاصة في هذه الناحية الا النشاط الذي لا يكاد يذكر فإن عناصر مسيحية عديدة منها القبطية ومنها السريانية قد دخلت ميدان النشاط التاريخي . وإذا كان بعضها قد اقتصر على أمور طائفية خاصة أحياناً مثل عمرو بن متى وأبي صالح الأرمني فإن بعضها كتب تاريخ العالم مثل ابن العبري ، وأغابيوس المنبجي ، وابن

،راهب وبعضها كتب تاريخ عصره مثل ابن جرير وابن شرارة أو سيرة بعض الحكام كابن عماني وأتوا جميعهم على أي حال بحصيلة وافرة من المعلومات التاريخية إلى هذا العلم .

٤ ــ في أقاليم المؤرخين (المدارس الإقليمية)

إذا كان تدوين التاريخ قد بدأ في الاسلام ، في أقاليم محددة كونت لنفسها مدارس خاصة في المادة والتنظيم فإن المدرسة العراقية عادة ، في القرن الثالث خاصة ابتلعت المدارس الأخرى واستقطبتها . فلم يبق من مدارس الشام والمدينة واليمن سوى بقايا وأقباس في الوقت الذي كانت فيه بغداد تجتذب كافة العلماء من كل صقع ومن كل اختصاص . غير أن هذا التألق الذي ساق إلى مدرسة بغداد بكافة القدرات الفكرية عاد فخمد منذ مطالع القرن الرابع ، ونلاحظ أن توزيعاً جديداً للمدارس التاريخية قد ظهر . ومع أن جلوة بغداد لم تخمد في هذا التوزيع وظلت هي المدينة ــ الأم التي تلخص الفكر الاسلامي كله إلا أن أقاليم جديدة من العالم الاسلامي دخلت بدورها ميدان التأليف التاريخي هي مصر والمغرب والأندلس خاصة وظهرت لها تقاليدها في الرواية التاريخية الاقليمية وفي التأليف الاقليمي بعد أن كانت في القرنين الأولين على الأقل وبعض الثالث من العهد الاسلامي صامتة سلبية تنتظر ما يأتيها من المشرق كما أن الأقاليم القديمة النشاط في التأريخ ظلت تطلع بدورها أقباساً من العلماء المؤرخين ثم ما لبثت أن تحولت بدورها إلى مدارس متوطدة . وسرعان ما أعطى العلماء هذه الاقليمية التاريخية فلسفتها والتبرير :

ــ فمن ذلك تزايد التاريخ مع الزمن . يقول المسعودي : « ... ووجدنا الأخبار زائدة مع زيادة الأيام ، حادثة مع حدوث الأزمان وربما غاب البارع منها عن الفطن الذكي ولكل واحد قسط يخصه بمقدار عنايته»[1]

---

(١) المسعودي ــ مروج الذهب (طبعة بلا) ج ١ ص ١٢ .

— وقد وجد في البلاد المختلفة من شعروا بهذه الحقيقة وبأن لديهم من الأخبار والأحوال ما يستحق التسجيل وما يقولونه بالاضافة إلى ما يسجله أصحاب التواريخ العامة ، وفي ذلك الكثير من النزعة الوطنية من جهة ، ومن نزعة التقدير للأخبار المحلية المشهودة مقابل الأحداث البعيدة غير المشهودة من جهة أخرى وهذا مثلاً هو مبرر ابن القلانسي تأليفه « المذيل في تاريخ دمشق » على تاريخ هلال الصابيء ، ومبرر تأليف عدد من التواريخ البلدانية والاقليمية الأخرى .

— ومن جهة ثالثة فإن « لكل قطر — كما قال المسعودي — عجائب يقتصر على علمها أهله . وليس من لزم جمرات وطنه وقنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قطع الأقطار ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار واستخرج كل دقيق من معدنه ... »[1] ويزيد المقريزي هذه الناحية إيضاحاً في قوله : « وأهل كل قطر أعرف بأخباره . ومؤرخو مصر أدرى بماجرياته .. » . « وان ابن زولاق أعرف بأحوال مصر من ابن الأثير ... فإنه كان حاضراً ومشاهداً ...»[2] .

— ومن جهة رابعة ، فإن « ... الواجب على صاحب المعرفة من أهلها (البلاد) أن يعلم جل أبنائها ويحفظ أيام أمرائها . ولا شيء أزرى عايه من أن يجهل أخبار أرضه . ولعله يتطلب أخبار غيرها فيكون كمن ترك الواجب وتبع النوافل ... » تلك وصية أبي الحسين علي ابن أحمد السلامي في كتابه (أخبار ولاة خراسان) نقلها عنه جمال الدين اليغموري والسخاوي[3] وقد ذكروا أيضاً أن على طالب الحديث أن يعرف أخبار المحدثين وأهل العلم من بلده أولاً ثم من البلاد الأخرى . يقول صالح

---

(١) المصدر ذاته .

(٢) المقريزي — اتعاظ الحنفا (طبعة الشيال) ج ١ ص ٢٣٢ .

(٣) انظر السخاوي — الاعلان (ط . روزنتال المترجمة) ص ٤٤١ — ٤٤٣ .

ابن أحمد التميمي الحافظ (ت ٣٨٤) في كتابه طبقات الهمذانيين : « ينبغي لطالب الحديث ومن عني به أن يبدأ بكتب حديث بلده ومعرفة أهله .. ويعرف أهل التحديث به وأحوالهم معرفة تامة إذا كان في بلده علم وعلماء قديماً وحديثاً . ثم يشتغل بعد بحديث البلدان والرحلة فيه ...»[1] .

ولا شك مع كل أولئك في أن التفكك السياسي الذي عرفته البلاد الاسلامية ما بين القرن الرابع والسابع ، أثره في ظهور الأنواع الاقليمية من التواريخ . أنها إنما كانت محاولة لاثبات الشخصية المحلية وتبرير الانفصال السياسي واعطائه الأساس التاريخي بجانب ما في ذلك أحياناً من الفخر أو محاولة إثبات الحقوق الشرعية أو المبادىء المذهبية والسياسية .

ولا شك من جهة أخرى في أن التفاخر بحمل الروايات والحديث والتنافس بين الأمصار في الرواة والرجال والسند المتين وكثرة الحفاظ أثرها الآخر في ظهور الكثير من مؤلفات التاريخ الإقليمي والبلداني . وكثير من المؤلفين برروا اقدامهم على التأليف لمدنهم بالرغبة في ابراز علماء المصر واثبات فضله وبعضهم سمى هذا النوع من التاريخ : « فضائل » مثل فضائل الاسكندرية مثلاً لابن الصباغ وفضائل الشام والقدس وغيرها وبعضهم سماه بشكل أدق : طبقات المحدثين مثل كتاب : طبقات المحدثين بأصبهان[2] لأبي الشيخ الأنصاري عبد الله بن محمد بن حيان (ت ٣٦٩) أو تاريخ مدينة بغداد أو مدينة دمشق ..

ومن هذا وذلك توزعت الأقطار الاسلامية تدوين التاريخ مرة أخرى ، ولكن على أساس جديد لعبت به القوى السياسية الدور الأول بمعنى أن المدارس الجديدة إنما كانت تقوم وتتوطد حيث تظهر الدول المتقطعة : قامت في الأندلس والمغرب حيث ظهرت إمارة ثم خلافة الأمويين وظهرت إمارة الادارسة

---

(١) الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد ج ١ ص ٢١٤ .
(٢) من هذا الكتاب نسخة مخطوطة في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم ٦٥ تاريخ .

والأغالبة وسوف ندرسها فيما بعد في فصل خاص ، وقامت في مصر حيث ظهر الأخشيديون بعد الطولونيين ثم الفاطميون ثم الأيوبيون ، وقامت في إيران حيث أخذت – مع وجود اللغة الفارسية والعواطف القومية والرواسب الزرادشتية – طابعاً خاصاً ندرسه بدوره لوحده . أما الشام واليمن فلأنهما على ما يبدو ظلا قطرين تابعين تارة الخليفة العباسي وولاته وتارة أخرى لخليفة مصر الفاطمي وولاته فإن مدرستهما التاريخية ظلت أضعف في القوى غير مشهورة المؤلفات ولا كثيرة المؤلفين نسبياً .

على أنه من الضروري أن نسرع إلى القول إن هذه المدارس الاقليمية لم تكن تنسى بجانب الأحداث المحلية الخاصة النظرة الآفاقية الشاملة للعالم الاسلامي عامة . لم تكن تشغلها التفاصيل الإقليمية عن أحداث الأقطار الاسلامية الأخرى والاهتمام بها وخاصة منها ببغداد عاصمة الخلافة . وهذا يعني أنه مقابل تلك النظرة الانطوائية المتجهة إلى الداخل وإلى الاقليم الخاص كان ثمة لدى المؤرخين في هذه الفترة ذاتها نظرة انفتاحية معاكسة تتجه بهم إلى خارجه وإلى ما وراءه من أقاليم الاسلام . وإنما كانت الكتب التاريخية إذ ذاك حصيلة التأثر على مستويات مختلفة بهاتين النظرتين المتناقضتين : وإذا كان الاهتمام المحلي بالأمور التاريخية الاقليمية إنما ينبع :

(أ) من حب الوطن والتعصب له والتفاخر برجاله .

(ب) من الحاجة الحياتية لمعرفة التجارب السياسية المحلية والاستفادة منها .

(جـ) من الرغبة في تمجيد الحكام المحليين لأغراض سياسية أو نفعية .

(د) من قرب المعلومات وأصحابها إلى المؤلفين والاهتمام بالقريب أكثر من البعيد .

(هـ) ومن أسباب سياسية واقتصادية شتى تتعلق بتحول الأحداث الهامة مع الأيام من منطقة إلى أخرى .

إذا كان ذلك كله ، فإن عوامل أخرى كانت تعمل عملها بالمقابل في اتجاه

الشمولية الاسلامية ، وفي اتجاه إدخال تواريخ الأقاليم الاسلامية المختلفة ضمن التاريخ الإقليمي المحدود ولعل أهم هذه العوامل في تلك الفترة :

(أ) نمو واستقرار الشعور بأن المسلمين يكونون أمّة واحدة . والنصوص القرآنية في ذلك : «كنتم خير أمة أخرجت للناس» و «إن هذه أمتكم أمّة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» كانت تجد تعبيرها العملي في اهتمام المؤرخين الاسلاميين بكل بلد إسلامي . ولهذا مثلاً نجد في «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي أخبار المغرب ، ونجد في زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم أخبار السلاجقة في العراق وإيران ، وفي تاريخ بيهق ، بعض تاريخ العراق وفي تاريخ مصر لابن ميسر أخباراً من الشام والعراق والمغرب ... وتاريخ ميافارقين للفارقي كان نوعاً من التاريخ الاسلامي كله وتاريخ أحداث بغداد ...

(ب) الارتباط السياسي بالخلافة في بغداد خاصة أو في القاهرة . ومع أن هذا الارتباط كان شكلياً وخاصة مع الخلافة العباسية في بغداد فان مؤرخي الأقاليم كانوا لا يستطيعون اغفال أخبار العواصم التي ترتبط بها أقاليمهم . وهم لا يغفلونها لأنها على الأقل مؤثرة التأثير المباشر أو غير المباشر على تطورات الحكم المحلي ورجاله .

(جـ) الرحلة بين أقطار العالم الاسلامي . فقد كانت دار الإسلام مملكة واحدة في نظر العلماء والجغرافيين والتجار والرحالة . وكانت حركتهم فيها خلال تلك العصور حركة ناشطة ، مستمرة ، للدرجة نستطيع معها أن نعتبر «الرحلة» لمختلف الأغراض احدى مميزات القرون الاسلامية الوسطى (ما بين الرابع إلى السابع) . وإذا كانت الحركة التجارية سبباً أساسياً في الرحلة بين الأقطار ، فإن آثارها كانت محدودة في التدوين التاريخي وأهم منها في هذا المجال رحلة العلماء في طلب العلم .

وقد بدأ هذا النوع من الرحلة في جيل الصحابة إذ كان بعضهم يرحل من قطر إلى قطر في طلب حديث لم يسمعه بنفسه ومن هؤلاء جابر بن عبد الله وأبو أيوب الأنصاري . واتبع جيل التابعين السنّة ذاتها لتلقي العلم على الصحابة المتفرقين في الأمصار بعد الفتوحات وكان لظهور الوضع في الحديث والأخبار أثره في تنشيط هذه الحركة ، ومن التابعين الرّحالة : سعيد بن المسيب والحسن البصري وأبو العالية الرياحي وعامر الشعبي ومسروق. ثم اتسع نطاق الرحلة بعد ذلك حتّى صارت الرحلة في القرون الثالث والرابع والخامس ولا سيما إلى بغداد وعلمائها وإلى مراكز العلماء الأخرى في نيسابور أو دمشق أو القاهرة تقليداً علمياً لا يعتبر العالم عالماً حقاً ان لم يقم به ولا نجد ترجمة لعالم معروف في تلك العصور ليس فيها على الأقل زيارة لبغداد وأخذ عن علماء هذا البلد أو ذاك . ويقدم الرامهرمزي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد (المتوفى سنة ٣٦٠) قائمة بأسماء المحدثين الذين رحلوا في الاقطار مرتبة على الطبقات فذكر من رحل إلى عدة أقطار ومن قصد قطراً واحداً ...[١]

وقد كان أثر هذه الرحلات واضحاً جداً في أمرين :

انعكس الأول في امتزاج علم الأمصار الذي ظهر في مجاميع الحديث وفي الأخبار المدونة في القرن الثالث خاصة مما قلل أثر التعصب الإقليمي في هذه النواحي وان لم يترك أثراً كبيراً في الفقه كما لم يمنع أصحاب كل اقليم من التوسع في رواية أخبارهم الخاصة أكثر من توسعهم في رواية أخبار المناطق الأخرى .

وانعكس الثاني ، من ناحية التدوين التاريخي خاصة ، في تواريخ الأقاليم المختلفة المنظمة على أساس التراجم ، فإنها أضحت تحوي ، بجانب التراجم المحلية مجموعة واسعة من تراجم العلماء العابرين والزوّار من كل صقع ،

---

(١) الرامهرمزي – المحدث الفاصل (مخطوط الظاهرية بدمشق – رقم ٢٦ ، ٤٠٠ عام) ج ١ ورقة ١٧ ظهر – ١٨ وجه .

وهكذا أضحى تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، في واقعه ، تاريخاً لعلماء العالم الإسلامي منذ ظهور بغداد حتّى أواسط القرن الخامس وصارت ذيوله من بعده موسوعات لهؤلاء العلماء . وصار تاريخ دمشق لابن عساكر مصدر معلومات عن عدد من علماء إيران ومصر . وصار تاريخ نيسابور أو مرو أو همذان يعني كل باحث في تاريخ الفكر الإسلامي في أي قطر من أقطاره .

ونضيف أخيراً إلى هذا كله أن الرحلات لأسباب أخرى ، كرحلات الحج ، والوفود وحب الاستطلاع والتجسس والدعوة كلها كانت تسهم في كسر الطوق الاقليمي عن التواريخ وتدفعها ، رغم عناوينها الإقليمية أحياناً واهتماماتها المحلية ، إلى الإحاطة بأخبار بعض أقاليم العالم الاسلامي أو كلها .

وقد أعطى هؤلاء المؤرخون ، منذ القرن الرابع خاصة ، علم التاريخ ملامحه الأساسية وأبعاده الفكرية المميزة . ويمكن أن نرى جانباً من هذه الملامح والأبعاد إن درسنا ما طرأ من تطور على مادة التاريخ من جهة وعلى منهج التاريخ من جهة أخرى ثم نظرنا أخيراً في الميزات العامة للفكر التاريخي الاسلامي في هذه القرون ما بين الثالث والسابع من جهة ثالثة ...

ذلكم موضوع الفصول التالية .

الفصل الثامن

تطوّر المادّة التاريخية

مادة التاريخ هي التي تطورت أوسع التطور في تلك القرون التي تلت القرن الثالث في المشرق وأوسع ما أصابها من التطور إنما كان خاصة في القرن الرابع (العاشر الميلادي). ولقد نستطيع أن نرى ملامح هذا التطور في كثرة المادة وتأثرها بالنمو الحضاري وبحاجات السياسة والإدارة وبنمو العلوم الأخرى وبالتمزق السياسي كما نرى تلك الملامح في ظهور أنواع من تواريخ المدن والأسر والسير والمذكرات والقصص.

١ ـ تكاثر المادة في الكمية

أبرز ما طرأ على مادة التاريخ هو الكثرة والوفرة، الكثرة في عدد المؤلفات والوفرة في كمية المادة المدونة وفي تنوعها. وإذا كانت كثرة المؤلفات ناجمة عن دخول الكثيرين ميدان التاريخ بالمئات فإن وفرة المادة المدونة قد جعلت تلك المؤلفات تتضخم تدريجياً إلى أحجام كبيرة رغم ما يعترضها من ارهاق النسخ، وبعد أن كان التأليف التاريخي في القرنين الأول والثاني لا يجاوز أحياناً كثيرة رسالة من بضع ورقات صارت مؤلفات القرن الثالث خاصة كتباً من عدة

مئات من الأوراق ثم جاء الطبري في نهاية هذا القرن ليكرس تقليداً جديداً سوف يستمر من بعده بجعل كتب التاريخ في عدة ألوف من الأوراق وعدة أجزاء ضخمة ، وليس يقتصر هذا التضخم على كتب التواريخ العالمية الجامعة ولكنه قد يصيب أحياناً كتب تواريخ المدن أو الأسر والنسب والتراجم أو حتى بعض الفترات المحدودة من التاريخ التي قد لا تزيد على عشرات من السنوات ، كما قد تصيب كتب القصص التاريخي المرسل أو بعض التاريخ الحضاري ...

وهكذا فقد كتب المسعودي في القرن الرابع كتاب أخبار الزمان في ثلاثين مجلداً ثم اختصره في أربع مجلدات هي مروج الذهب. ولعل ضخامته قد كانت السبب الأساسي في ضياعه فلم يبق منه سوى المجلد الأول . وقد كتب أبو الحسن علي بن عيسى بن الفرج الربعي الزهيري النحوي المتوفى سنة ١٠٢٨/٤٢٠ أو كتب المجاشعي أبو الحسن بن فضال القيرواني (المتوفى سنة ١٠٨٥/٤٧٩) كتاب الدول ، رآه ياقوت في الوقف السلجوقي ببغداد في أكثر من ثلاثين مجلداً [1] ولئن كتب ابن الجوزي في القرن السادس تاريخه العام المنتظم في ١٠ مجلدات وطبع نصفه وأعقبه ابن الأثير بتاريخه الكامل في ١٢ مجلداً فبقي إلى اليوم وطبع فان سبط ابن الجوزي ألف مرآه الزمان في ٤٠ مجلداً هي مبعثرة المخطوطات اليوم في أنحاء الدنيا ولم يطبع منها سوى قسم محدود.

وقد حظيت تواريخ المدن بدورها بالضخامة الواسعة بما حملته من مفهوم « التراجم » الذي حولها من تاريخ سياسي — عمراني إلى تاريخ الرجال ممن عرفوا تلك المدن ولادة أو نزولاً أو زيارة وهو نبع لا ينضب من الأسماء والمعلومات. وهكذا كتب الخطيب البغدادي على أساس التراجم تاريخ بغداد في ١٥ مجلداً فكان مطلع سلسلة من الكتب حول بغداد كتب حلقاتها عدد من المذيلين منهم السمعاني الذي وضع الذيل الأول في ١٥ — ٢٠ مجلداً وابن النجار الذي ذيل في ١٧ مجلداً حتى جاء ابن الفوطي في النهاية بذيل من ٥٥ مجلداً ... وتفرد ابن

(١) انظر ياقوت — معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٨٩ .

المارستانية أبو بكر عبيد الله بن علي التيمي الفقيه الطبيب (المتوفى سنة ٥٩٩/ ١٢٠٣) فكتب : ديوان الاسلام الأعظم في تاريخ مدينة السلام (بغداد) في مائة مجلد . ولعله لم يتمه وحال الموت بينه وبين التمام .

وقلد مؤرخو المدن الآخرون تواريخ بغداد في الضخامة فكتب ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق في ثمانين مجلدة . وكتب السمعاني تاريخ مرو في عشرين وكتب النسفي عمر بن محمد (المتوفى سنة ١١٤٢/٥٣٧) كتاب (القند في تاريخ سمرقند) في عشرين مجلدة أيضاً . وكتب العباسي الخوارزمي مظهر الدين أبو محمد محمود بن محمد الأسلابي (المتوفى سنة ٥٦٨) ثماني مجلدات في تاريخ خوارزم ...

وإذا كانت التراجم هي التي تمد هذه المؤلفات بالرفد وتساعدها على التضخم فإن بعض المؤلفات التاريخية لم تكن في حاجة إلى التراجم ولا كانت في حاجة إلى شمول التاريخ العالمي العام كي تتضخم وتحتل المجلدات بالعشرات . بعض المؤلفين كانوا من الخصب ومن الولع بالتفاصيل والوثائق بحيث قدموا عدداً من التواريخ الضخمة لفترات محدودة من الزمن وأحياناً في منطقة محددة أيضاً . فقد كتب هلال الصابىء (المتوفى سنة ٤٤٨) تاريخ قرن تقريباً (ما بين سنتي ٣٦٣ ــ ٤٤٧) في ٤٠ مجلداً بقي منها واحد . وكتب العماد الأصبهاني اقامته في الشام مع صلاح الدين (٥٦٢ ــ ٥٨٩) في سبع مجلدات سماها البرق الشامي . بل كتب أبو الفضل محمد بن الحسين البيهقي (المتوفى سنة ٤٧٠ / ١٠٧٧) تاريخ بيهق خلال فترة لا تزيد عن نصف قرن في ثلاثين مجلدة بقي منها خمس فقط (بالفارسية) .

وإذا كانت مصر إقليماً لا مدينة فقد تميزت بأن تواريخها المحلية كانت في الغالب تواريخ اقليم لا تاريخ مدينة (الفسطاط أو القاهرة) وقد كتب الوزير المسبحي تاريخ مصر حتى مطالع القرن الخامس في ٢٦ ألف صفحة .

وسرت العدوى ذاتها إلى كتب المعلومات التاريخية على اختلافها وهكذا

صرنا نرى : كتاباً في الأخبار التاريخية المرسلة مثل كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي يزيد على احدى عشرة مجلدة ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يبلغ إحدى وعشرين ! وكتاب تاريخ القراء لابن العطار (المتوفى سنة٥٦٨) يصل الى عشرين مجلداً . وإذا كتب الثعالبي كتاب يتيمة الدهر في أربع مجلدات لتاريخ الشعر والأدب فان بعض ذيوله مثل كتاب خريدة القصر للعماد الأصبهاني وكتاب زينة الدهر للحظيري أبي المعالي (المتوفى سنة ٥٦٨) بلغ كل منها عشر مجلدات . ولقد كتب ابن الشعار الموصلي (المتوفى سنة ٦٥٤ / ١٢٥٦) في القرن التالي عشر مجلدات في تاريخ أدباء عصره سماها (عقود الجمان) .

وسمحت الأنساب وفروعها وعلاقاتها لعلماء النسب في التوسع وهكذا كتب السمعاني ثماني مجلدات في (الأنساب) وكتب ابن القاضي الزبيدي (المتوفى سنة ٥٩١) كتابه نزهة عيون المشتاقين في عشر مجلدات . وكتب أبو طالب الهاشمي العباسي (المتوفى سنة ٦٢١) (الحاوي لأنساب الناس) في أكثر من عشر. وأمّا المروزي اسماعيل بن الحسين العلوي (المتوفى سنة ٦٣٢) فكتب : (حظيرة القدس) في الأنساب في ستين مجلدة .

٢ ـ تنوع المادة مع الازدهار الحضاري

وكما تضخمت المؤلفات تنوعت المعلومات التاريخية وتعددت المواضيع المطروقة التعدد الواسع . شعر الناس أن كل شيء يستحق أن يسجل ويكتب من جهة وأن الحياة السياسية أصبحت تراثاً طويلاً من جهة أخرى . كما شعروا بارتباط التاريخ مع العلوم والمعارف الأخرى فأطلوا بها عليه . وهكذا بينما دخل ـ وعلى نطاق واسع ـ ما نستطيع أن نسميه التاريخ الحضاري على أبحاث التاريخ الاسلامي تأثر التاريخ بالمقابل سواء بحاجات التنظيم السياسي أو بمختلف أنواع العلوم المجاورة له ومن هذا وذاك وأولئك كانت له ثروة هائلة من المعلومات لم يعرفها تاريخ أمة من قبل .

وقد عدد الذهبي ما سماه « فنون التاريخ » التي تدخل في تاريخه الكبير المحيط : تاريخ الاسلام . ولم ينهض لها على حد قوله — ولو عمله ، على أساسها لجاء في ٦٠٠ مجلد[1] — فجعل تلك الفنون « أربعين » فناً ونوعاً يشكل تاريخ السيرة والأنبياء والصحابة والخلفاء والملوك خمسة فنون منها أما باقي الفنون فانما تتعلق تارة بتاريخ التنظيم السياسي (تاريخ الوزراء . تاريخ الأمراء والأكابر ونواب الممالك والولاة وكبار الكتاب) أو بتاريخ الحضارة (تاريخ البخلاء وتاريخ التجار وتاريخ أولي الصنائع العجيبة . وقطاع الطريق . ولعاب الشطرنج والنرد والقمار وتاريخ الملاح والعشاق وشربة الخمور وأهل الخلاعة وأولي الدهاء والمخنثين وأهل المجون وعقلاء المجانين وتاريخ السائلة والشحاذين والوراقين والقصاص والندماء والأذكياء والمطربين ... وتاريخ الرهبان وأولي الصوامع . وعجائب الأسفار والشجعان والفرسان والشطار والسعاة ...) أو تتعلق بالعلوم والعلماء (تاريخ الفقهاء . الحفاظ . النحاة . القضاة . الوعاظ . الأطباء . الفلاسفة المتكلمين . الشيعة . الخوارج ...) وإذا كان الذهبي متأخراً عن العصر الذي ندرس حوالى القرن مما قد يمنع من الاستشهاد بتوزيعه التاريخي فإن الاعتراض ينتفي إذا تذكرنا أن كافة فنون التاريخ التي صنف وعدد إنما كانت موجودة معروفة قبله بقرون وقد توطدت وألف الناس فيها أو في معظمها منذ القرن الثاني والثالث الهجريين ثم انتشرت في القرون التالية .

فأمّا في نواحي الحضارة والحياة فإن بلوغ المجتمع الاسلامي في القرن الثالث والرابع أوج تطوره وفاعليته الحضارية أوجد حاجات فكرية مستجدة عليه ، وقد انعكست هذه الحاجات ، في إنتاجه الفكري وفي الكتب التي ألفها الناس وتداولوها وكلها تدور لحد كبير في نطاق التاريخ .

وإذا أفرز الخيال الشعبي قصصاً خيالياً يمتد بين الأسطورة وبين ألف ليلة وليلة فإنّه أنتج بين هذا وذاك قصصاً تاريخياً أيضاً غرضه الأسمار والتثقيف

(١) لا يوجد هذا النص في تاريخ الاسلام الكبير للذهبي وإنما ذكره السخاوي نقلا عن ابن حجر . انظر السخاوي — الاعلان (ط . روزنتال) ص ٥١٨ — ٥٢٢ .

والوعظ والتبسيط . وقد ذكر ابن النديم عشرات من هذه المؤلفات القصصية التاريخية التي كان يشترك أحياناً في تأليفها بعض المؤرخين المعروفين كعمر بن شبة والهيثم بن عديّ وأحمد بن أبي طاهر والجهشياري . أو كانت تنسب إلى إلى مؤرخين معروفين كقصص الفتوح المنسوبة للواقدي أو يضعها الوراقون والمصنفون بأسماء وهمية .

وقد ذكر ابن النديم قول محمد بن اسحق : « كانت الأسمار والخرافات مرغوباً فيها ومشتهاة في أيام خلفاء بني العباس وسيما في أيام المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠) فصنف الوراقون وكذبوا ... »[1]

وهكذا ظهرت قصص عنترة ، والنعمان ، والأميرة ذات الهمة من المؤلفات الكبرى الواسعة وقصص العشاق والحروب القبلية العربية وشيبان مع كسرى أنو شروان من المؤلفات المحدودة . وهي تحوي من الجو الاجتماعي لتلك العصور ما لا تحويه كتب التاريخ نفسها .

وإذا لم يكن الخاصة بالذين تفتنهم مثل هذه الأخيلة الشعبية فقد كانت لهم بدورهم مؤلفاتهم الخاصة للأسمار والمنادمة . ويلفت النظر أن يحاول الجهشياري خاصة (المتوفى سنة ٣٣١ / ٩٤٣) من رجال البلاط تأليف كتاب للسمر يختار له ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم . كل جزء يقوم بذاته ليلة كاملة في خمسين ورقة . وقد كتب في ذلك ٤٨٠ ليلة أي ٤٨ ألف صفحة وتوفي قبل أن يكمل مشروعه[1] الذي ضاع من بعده . وكان العمود الفقري في هذه الأسمار هو التاريخ دون شك . ويمكن أن يدخل في هذا الباب نفسه ذلك القصص التاريخي الحر الذي كان يؤلف ويروى عن المتصوفة والزهاد وعن النوادر أو الأجوبة المسكتة أو أخبار الغلمان والجواري والنساء ... الخ ، وما كتبه التنوخي مثلاً في كتبه : (الفرج بعد الشدّة) و (المستجاد من فعلات الأجواد) والكتابان

(١) ابن النديم — الفهرست ص ٣٠٨ .
(٢) ابن النديم — الفهرست (ص ٣٠٦) .

مطبوعان ، وما كتبه هو نفسه في المجلدات التي تزيد على العشرة والتي سماها نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، وما كتبه ابن ظافر عن بدائع البدائه وما كتبه غرس النعمة عن (الهفوات النادرة) وما كتبه المقدمي عن (التوّابين) وكتبه ابن الجوزي عن (عقلاء المجانين) وعبد القاهر بن علوي المصري في (نزهة الناظر وروضة الخاطر)[1] وأبو العلاء محمد بن محمود النيسابوري في كتاب (سر السرور)[2] وغيرها كثير . وكلها من حكايات التاريخ المرسلة التي تتحدث عن « تاريخ ما أهمله التاريخ » من حياة الناس العاديين أو الطبقات المترفة على السواء ... ويدخل في هذا الباب بعض الكتب الجنسية أيضاً وكتب اللّهو والضحك . ومن ذلك :

- كتب أبي حسّان محمد بن حسان النملي ، من أيام المتوكل، ومنها : كتاب برجان وصاحب أخبار النساء والباه . كتاب البغاء وكتاب السحق ...[3]

- كتب الكنجي ومنها : كتاب جامع الحماقات وأصل الرقاعات . كتاب الملح والمحمقين . كتاب المخرقة . كتاب الصفاعنة...[4]

- كتب ابن الشاه أبي القاسم علي بن محمد الظاهري . وكان أديباً مفاكهاً في نهاية الظرف وله : كتاب أخبار الغلمان . كتاب أخبار النساء . كتاب عجائب البحر[5]

- كتب جراب الدولة أحمد بن محمد بن علوجة السجزي وكان طنبورياً من الظرفاء والمطايبين ويلقب بالريح . وله : كتاب النوادر والمضاحك

---

(١) انظر ابن العديم – بغية الطلب (مخطوط فيض الله رقم ١٤٠٤) ورقة ٢٥٠ وجه .
(٢) المصدر نفسه – مخطوط أحمد الثالث ج ٥ ورقة ٢١١ ظهر و ٢١٢ ظهر .
(٣) ابن النديم – الفهرست ص ١٥٢ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٥٣ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

في سائر الفنون والنوادر وقد سماه : ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح وهو كتاب كبير جعله فنونا ...[1]

- كتب أبي العبر الهاشمي محمد بن أحمد بن نسل عبد الله بن العباس (المقتول سنة ٢٥٠) ومنها كتاب سماه جامع الحماقات ومأوى الرقاعات . كتاب المنادمة وأخلاق الخلفاء والأمراء[2] .

- كتب الصيمري أبي العنبس محمد بن اسحق البصري وكان من أهل الفكاهة والمعرفة بالنجوم وقد أدخله المتوكل في جملة ندمائه وظل من ندماء البلاط في أيام المعتمد ومن كتبه : نوادر القواد . نوادر الحوصي . كتاب الراحة ومنافع العبارة . كتاب الدولتين في تفضيل الخلافتين . كتاب الجوابات المسكتة . كتاب السحاقات والبعامير . كتاب مساوي العوام وأخبار السفلة الأغتام . كتاب أخبار أبي فرعون كندر بن جحلر...[3]

- كتب المنادكي الذي وضع : كتاب الهمج والرعاع وأخلاق العوام . كتاب نوادر الغلمان والخصيان[4] .

- كتب الحكيمي أبي عبد الله محمد بن أحمد ، وكان من الأخباريين ومن كتبه : حلية الأدباء وهو كتاب أخبار . كتاب الفكاهة والدعابة...[5]

- كتب أبي العيناء ، أبي عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمي، (المتوفى سنة ٢٨٣ / ٨٩٦) عن ٩٢ سنة . وهو بصري الأصل ومن

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص ١٥٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٥٢ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٥٣ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٥١ .

ندامى المتوكل . كتب كتاباً في نوادره باسم أخبار أبي العيناء روى فيه بعض القصص الحمقاء التي عاشها . وهو من أقدم من صنف في ذلك وكان كتابه أساساً لكتاب ابن الجوزي بعده بثلاثة قرون : كتاب الحمقى والمغفلين (وقد نشر في دمشق سنة ١٣٤٥) .

- كتب ابن خلاد الرامهرمزي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن القاضي . ومن رواة الشعر والأدب والأخبار وله كتاب ربيع المتيم في أخبار العشاق . وكتاب النوادر والشوارد كتاب أدب الموائد . كتاب المناهل والأعطان والحنين إلى الأوطان ...[1]

- كتب عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر ومنها : كتاب المتظرفات والمتظرفين[2] .

هذا إلى كتب بالعشرات ألفت في هذه المواضيع من مثل : كتاب المأثور في ملح الخدور لأبي القاسم الحسين بن علي المغربي الوزير الفاطمي[3] وكتاب المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري (المتوفى سنة ٣١٠/ ٩٢٢) وهو قصص ومقامات في ٤٧ باباً ومخطوطه موجود في باريس ودمشق . وكتاب هواتف الجنان وعجيب ما يحكى عن الكهان لأبي بكر محمد بن جعفر ابن سهل الخرائطي السامري الذي قدم من دمشق سنة ٣٢٥ وتوفي سنة ٩٢٨/٣٢٧ والذي كتب أيضاً كتاب اعتلال القلوب في أحاديث المحبة والمحبين ... ومنه مخطوطة في القاهرة[4] وكتاب عقلاء المجانين للحسن بن محمد بن الحسين النيسابوري (المتوفى سنة ٤٠٦ / ١١١٥) وكان عالماً بالمغازي والقصص والسير

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٥ .

(٢) ابن النديم – الفهرست ص ١٤٧ .

(٣) انظر ابن العديم – بغية الطلب (مخطوط فيض الله ١٤٠٤) ورقة ٢٥٩ ظهر ، ورقة ٩٤ وجه ومخطوط أحمد الثالث ، ج ٧ ورقة ٢٩٢ ظهر و ٢٩٣ وجه .

(٤) انظر بروكلمان (الترجمة العربية) ج ٣ ص ١٣٨ .

وكتابه هذا نشر في دمشق سنة ١٩٢٤ [1]

هذا إلى كتب عديدة في الجو نفسه كتبت في القرون التالية وتقع بين قصص السمر وبين التاريخ ونعود فنلتقي فيها بما كنا أسميناه بالتاريخ الحر أو سمر الخاصة ومن ذلك ما كتبه :

- غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء (المتوفى سنة ٤٨٠) فله بجانب كتاب الهفوات النادرة (المطبوع) كتاب الربيع الذي نجد مقتطفات منه لدى ابن العديم[2] .

- ابن عقيل أبو الوفا علي الظفري البغدادي (المتوفى سنة ٥١٣) وكان الرجل قمة في الفقه وفي الخصب الفكري بحيث خلط جميع معارفه في الفقه والتاريخ والأخبار والشعر في كتاب واحد سماه (الفنون) ... رأى منه بعض العلماء المجلد كذا بعد الأربعمائة[3]-. ولم يبق من الكتاب سوى مجلد واحد (طبع قسماً منه جورج المقدسي - بيروت سنة ١٩٧٠) .

- الحظيري أبو المعالي سعد بن علي دلال الكتب (المتوفى سنة ٥٦٨) وبين كتبه كتاب : لمح الملح وهو مخطوط موجود .

- البسطامي ضياء الدين أبو شجاع عمر بن محمد (المتوفى سنة ٥٦٢) وله : لقطات العقول .

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) ابن العديم - بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ٢ ورقة ٦٢ ظهر وورقة ٢٠٣ ظهر و ج ٣ ورقة ٢٨٧ وجه و ج ٤ ورقة ٩٣ وجه ... الخ .

(٣) انظر ابن الحنبلي - شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٥ - ٤٠ . والذهبي هو الذي يروي خبر عدد المجلدات في كتاب الفنون وابن الجوزي يجعلها مائتين بينما يجعلها بعضهم ثمانمائة . ويعلق الذهبي على ذلك . أنه لم يصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب .

– الشيرازي أبو القاسم مسلم بن محمود (المتوفى أواخر القرن السادس) وله : عجائب الأسفار وغرائب السير .

– الأزدي أبو منصور ظافر بن حسين (المتوفىسنة ٥٩٧) وقد كتب تاريخ الشجعان .

– جمال الدين محمد عوض المتوفى بعد سنة ٦٣٣ . وقد كتب لباب الألباب وجوامع الحكايات (وهما مطبوعان) .

أما الذي أوفى على الجميع في هـذا الباب وجعله جانباً هـاماً من نشاطه الفكري ومن تأليفه فهو :

– ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن (سنة ٥٩٧) ففي قائمة كتبه التي تزيد على ٨٠٠ مؤلف نجد مجموعة واسعة من الكتب من عناوينها : أخبار الأذكياء (مطبوع) ؛ الظراف والمتماجنون (مطبوع) ؛ عيون الحكايات (مجلدان) . ملتقط الحكايات (مجلد) ؛ تلبيس ابليس (مطبوع) كتاب القصص (مجلد) كتاب صيد الخاطر (٣ مجلدات) . كتاب الأُنس والمحبة ، كتاب البر والصلة ، كتاب فتوح الفتوح ، كتاب ملح الأعاريب ، كتاب فضائل العرب ، كتاب تنوير الغبش في فضل السودان على الحبش ... الخ[1] .

ولم تكن الكتب المتعلقة بالغناء والطرب بأقل من ذلك انتشاراً وإثارة للاهتمام . فإذا نحن وضعنا جانباً ذلك الصرح التاريخي الضخم الذي أقامه أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني وهو تراث كامل في تاريخ هذا الفن في الاسلامْ غطى على المؤلفات الأخرى ومحاها كما غطى تاريخ الطبري على مؤلفات من سبقه في التاريخ فان المؤلفات في الغناء وتاريخه وفي الطرب والطنبوريين وفي الخمر والشراب كثيرة ومن ذلك :

(١) انظر القائمة الكاملة في كتاب ابن الجوزي لعبد الحميد العلوجي ونجد جانباً منها كبيراً لدى سبط ابن الجوزي – مرآة الزمان ج ٨ ص ٤٨٣ – ٤٨٩ .

– كتب اسحق بن ابراهيم الموصلي : (١٥٠ – ٢٣٥) وهو من رجال أيام ما بين الرشيد والواثق ، ولكن تلك الكتب كانت ثروة الناس من بعد في بابها . كان راوية واسع الاطلاع ترك ما يزيد على عشرة كتب في أخبار مشاهير المغنين (عزة الميلاء . ابن مسجح . حنين الحيري . الأبجر . الغريض . ابن سريج . ابن عائشة . ابن صاحب الوضوء . معبد ... الخ) . كما أن له كتب : الاختيار من الأغاني كتبه للواثق . كتاب الشراب . كتاب الرقص والزفن . كتاب الندماء . كتاب المنادمات . كتاب قيان الحجاز . كتاب القيان . كتاب النوادر المتخيرة . كتاب الاختيار في النوادر ... وأما أهم كتبه فهو كتاب الأغاني . وكان بين الأيدي في تلك الفترة كتابان ينسبان بهذا الاسم إلى اسحق : واحد من تأليفه فيما يظهر يروي أخبار المغنين واحداً واحداً ، وثان يدعى بالأغاني الكبير ، ويذكر ابن النديم أنه موضوع من قبل أحد الوراقين المسمى سندي بن علي وكان يورق لاسحق فاتفق هو وشريك له على وضع الكتاب الذي أصبح يعرف بكتاب الشركة وكان في أحد عشر جزءاً [١] .

– كتب أبي حشيشة : محمد بن علي بن أمية الكاتب ، وكان طنبورياً حاذق الصنعة وله كتاب في أخبار الطنبوريين [٢] .

– كتب جحظة أبي الحسن أحمد بن جعفر من نسل خالد بن برمك وهو شاعر مغنّ طنبوري حسن الأدب ، وقد لقي العلماء والرواة وأخذ عنهم ، توفي سنة ٣٢٦ وله : كتاب الطنبوريين . كتاب النديم . كتاب المشاهدات . كتاب ما شاهده من أمر المعتمد .

– كتب أبي أيوب المدني : سليمان بن أيوب ، من أهل المدينة من

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص ١٤٠ – ١٤١ .
(٢) ابن النديم – الفهرست ص ١٤٥ .

الظرفاء العارفين بأخبار المغنين ، وله في ذلك ـ كما يقول ابن النديم عدة كتب منها : أخبار عزة الميلاء . كتاب قيان الحجاز . كتاب قيان مكة . كتاب طبقات المغنين . كتاب المنادمين . كتاب أخبار ظرفاء المدينة . كتاب أخبار ابن عائشة . كتاب أخبار حنين الحيري . كتاب ابن سريج . كتاب الغريض . كتاب ابن مسجح ...[1]

- كتب السرخسي أبي الفرج أحمد بن الطيب وهو أديب كثير الرواية وله من الكتب : كتاب أدب الملوك وكتاب الدلالة على أسرار الغناء[2].
- كتب ابن خرداذبه أبي القاسم عبد الله بن أحمد . كان يتولى البريد للخليفة المعتمد كما كان من ندمائه المختصين به وله من الكتب : كتاب الشراب . كتاب الندماء والجلساء . كتاب اللّهو والملاهي . كتاب أدب السماع ...[3]
- يحيى بن أبي منصور الموصلي . وكتبه كانت واسعة الانتشار في القرن الرابع ومنها : كتاب الأغاني ، الذي عمله على الحروف الأبجدية . وكتاب العود والملاهي ...[4].
- كتب ابن المرزبان أبي عبد الله محمد بن خلف . وكان حافظاً للأخبار والأشعار والملح وقد كتب : كتاب المتيمين المعصومين . كتاب الشراب ويحتوي على عدة كتب . كتاب الروض . كتاب الجلساء والندماء. كتاب النساء والغزل. كتاب أخبار العرجي. كتاب ذم الحجاب. كتاب ذمّ الثقلاء . كتاب الهدايا [5]
- كتب الكسروي علي بن مهدي ، وكان أديباً حافظاً متصلاً بحاشية

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٩ .
(٣) المصدر نفسه ١٤٩ .
(٤) المصدر نفسه ١٤٩ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٤٥ .

الخلفاء العباسيين في القرن الرابع ومن كتبه : كتاب الأعياد والنواريز . كتاب مراسلات الاخوان ومحاورات الخلان[1].

– كتب ابن بسام علي بن محمد الشاعر وهو من الظرفاء الكتاب وله من الكتب : كتاب الزنجيين وهم المعاقرون[2].

– كتب أبي اسحق ابراهيم بن أبي عون المنجم ، وكان من أهل الأدب وان يكن ممخرق الدين . وقد ألف كتاب الجوابات المسكتة . وكتاب بيت مال السرور[3].

– كتب حماد بن اسحق الموصلي ومنها : كتاب الأشربة . وكتاب أخبار الندامى[4] .

– كتب حمدون بن اسماعيل الكاتب ومنها كتاب الندماء والجلساء [5] .

– كتب يونس بن سليمان الكاتب المعروف بيونس المغني ، وكانت له كتب مشهورة في الأغاني والمغنين منها كتاب القيان[6].

– كتب ابن بانة عمرو بن محمد . وكان من ندماء المتوكل وقد توفي سنة ٢٧٨ وله كتاب : مجرد الأغاني[7] .

– كتب النصبي حسن بن موسى ، وقد ألف للمتوكل كتاب الأغاني على

---

(١) المصدر نفسه ١٥٠ .
(٢) المصدر نفسه ص١٥٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٤٧ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢ – ١٤٣ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٤٤ .
(٦) المصدر نفسه ص ١٤٥ .
(٧) المصدر نفسه ص ١٤٥ .

حروف المعجم وذكر فيه أشياء لا يعرفها غيره وذكر من أسماء المغنين والمغنيات في الجاهلية والاسلام كل طريف وغريب وله كتاب مجردات الأغاني ...[1] .

- كتب أبي الحسن علي بن هارون وكان راوية للشعر أديباً ظريفاً نادم جماعة من الخلفاء إلى أن توفي سنة ٣٥٢ وعمره خمس وسبعون سنة. وله من الكتب : كتاب النوروز والمهرجان . وكتاب ناقض به أبا الفرج الأصبهاني .

هذا إلى كتب قريض الجراحي المغني (المتوفى سنة ٣٢٤) في (صناعة الغناء وأخبار المغنين) وكتب الجاحظ : رسالة القيان ، طبقات الندماء والمغنين عند الفرس والاسلام (ضمن كتابه التاج في أخلاق الملوك) وكتابه (طبقات المغنين) الذي طبع مع مجموعة رسائله ، وكتاب الطنبوريين والطنبوريات لعلي بن الحسين ابن علي بن كوجك العبسي الحلبي الذي نقل عنه ابن العديم[2] ، وكتاب شمار الندماء لأبي الحسن محمد بن أحمد الأفريقي[3] وكتاب جامع الفنون وسلوة المحزون في ذكر الغناء والمغنين لأبي الحسين بن الطحان[4] من القرن الرابع وكتاب أبي العباس أحمد بن أحمد بن علي بن بابه الكاشي (المتوفى سنة ٥١٠) واسمه رأس مال النديم وهو مخطوط في مكتبة بتنة (الهند) رقم ٢٢٤٧ وكتاب ابن حموية الجويني أبي المظفر يوسف بن محمد الدمشقي(المتوفى سنة ٦٤٧ / ١٢٤٩) واسمه تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم وهو مخطوط بدار الكتب في القاهرة .

ويدخل في باب هذه الكتب التاريخية الحضارية دون شك كتب الديارات

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٥ .
(٢) ابن العديم – بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ٨ ورقة ١٣٩ وجه .
(٣) المصدر نفسه . مخطوط ج ٨ ورقة ٥٩ وجه .
(٤) المصدر نفسه . مخطوط ج ٨ ورقة ١٩٤ ظهر ، ج ٧ ورقة ٦٥ ظهر .

التي كانت تجمع أخبار الغناء واللهو والخمر والندامى والأعياد ... وكانت مادة من مواد التأليف التاريخي الأثيرة إلى الكثيرين . ولعلّ أقدم كتاب فيها إنما كان : كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العباديين لهشام ابن محمد الكلبي (ت ٢٠٤ / ٨١٩) وقد ضاع .

ونعرف بعده :

- كتاب الديارات لأبي الفرج الأصبهاني ، وهو ضائع بدوره ، وإنما ذكره له ابن خلكان والصفدي وحاجي خليفة[١] ، وقد نقل عنه البكري في معجم ما استعجم ونقل ياقوت في البلدان وابن فضل الله العمري[٢] في مواضع كثيرة .
- كتاب الديرة للسري الرفاء الموصلي (المتوفى سنة ٣٦٢ / ٩٧٢) وقد ذكره ياقوت وابن خلكان .
- كتاب الديارات للخالديين الأخوين أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد شاعري سيف الدولة وخازني كتبه وقد توفيا في أواسط القرن الرابع (٣٥٠ و٣٨٠) .
- الأديرة والأعمار في البلدان والأقطار . للشمشاطي (أو السميساطي) أبي الحسن علي بن محمد بن المطهر العدوي من حاشية الحمدانيين في المائة الرابعة (توفي سنة ٣٨٠) . ذكر ابن النديم أنّه يعاصره[٣] وقد وصف في كتاب الرجال النجاشي بأنّه أكبر كتاب عمل (في موضوعه) فيه

---

(١) انظر ابن خلكان – الوفيات ج ٣ ص ٣٠٨ الصفدي – الوافي ج ١ ص ١١٨ (ط . ريتر) حاجي خليفة – كشف الظنون ج ١ ص ٧٦٢ .

(٢) انظر البكري – معجم ما استعجم (ط . غوتنغن سنة ١٨٧٦) مثلا ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ ... الخ . وانظر العمري – مسالك الأبصار ج ١ ص ٢٦٣ ، ٢٦٩ و ٣٠٨ .. الخ .

(٣) ابن النديم – الفهرس ص ١٥٤ وانظر هدية العارفين ٢ ص ٦٨٣ .

بضعة وثلاثون ديراً وعمراً . ونقل عن هذا الكتاب ابن العديم[1] ويسميه كتاب الديرة وقد رآه بخط المؤلف .

- كتاب الديرة لمحمد بن الحسن بن رمضان النحوي — وقد أشار إليه ابن النديم[2] ونقل عنه ياقوت .

- كتاب الديارات لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي (المتوفى سنة ٣٨٨ / ٩٩٨) وهو أشهر هذه الكتب ، والوحيد بينها الذي وقع في أيدينا وقد طبع أكثر من مرة (بتحقيق كوركيس عواد منذ سنة سنة ١٩٥١) . ونجد فيه من الأنباء والأحداث التاريخية ما لو استخلص لكان مؤلفاً في الأخبار والتراجم والتقاليد الاجتماعية وفي أنباء الموسيقى والغناء والتصوير والطعام واللباس والزيارة وأساليب العيش وأمر الأدباء والندمان والوزراء والمغنين في ذلك العصر عدا قيمته البلدانية والأدبية .

واستمر التأليف في الأديرة بعد ذلك ولكن على ضعف . وممن ألف فيها :

- ابن بطلان : أبو الحسن المختار بن عبدون الملقّب بـ «يوانس الطبيب» (المتوفى بعد سنة ٤٥٥ / ١٠٦٢) وقد كتب كناش الأديرة والرهبان . وثمة من هذه الرسالة ثلاث نسخ مخطوطة على الأقل .

- أسامة بن منقذ الأمير الشيزري (المتوفى سنة ٥٨٤) فإن له بين مؤلفاته التي تبلغ ٢٤ مؤلفاً كتاب المنازل والأديرة .

ويدخل في باب التاريخ الحضاري ما كتب المؤلفون منذ القرن الثالث الهجري حول أخبار الهدايا والتحف وهو موضوع راج الرواج الكبير في القرن الرابع ، مع استبحار الحضارة . ومن المؤلفات في ذلك :

---

(١) النجاشي — الرجال ص ١٨٧ . وانظر ابن العديم — بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ٨ ورقة ٢٢٠ ظهر وورقة ٩١ وجه وورقة ١٧٠ ظهر .
(٢) ابن النديم — الفهرس ص ٨٤ .

- كتاب الهدايا المنسوب للجاحظ (٢٥٥هـ) وقد ذكره ياقوت[1] وأضاف أنّه منحول . ولكنّ الكتاب على أي حال كتب ووجد من قبل مؤلف مجهول .

- كتاب الهدايا للمؤرخ الشاعر أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور (٢٨٠هـ) ذكره ابن النديم[2] .

- كتاب الهدايا والسنّة فيها للفقيه الحنبلي ابراهيم بن اسحاق الحربي (٢٨٥هـ) ذكره ياقوت[3] .

- كتاب الهدايا لأبي عبد الله محمد بن خلف بن المرزبان (٣٠٩) البغدادي. ذكره ابن النديم[4] .

- كتاب الهدايا لأبي بكر بن المرزبان (ولعله المؤلف السابق نفسه) وقد وصلنا مختصر منه . بعنوان منتخب من الهدايا في إحدى عشرة ورقة ولها مختصر في ليدن .

- كتاب الهدايا الذي نسبه ابن النديم لمجهول سماه بالجنديسابوري[5] .

- كتاب التحف والهدايا من تأليف الأخوين أبي بكر محمد ، وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالديين وقد توفي الأول سنة ٣٨٠ في أغلب الظن وتوفي الثاني بعده سنة ٣٩٠ . والكتاب في أحد عشر باباً تحوي أخبار التحف والهدايا والذخائر الثمينة ومنه أربع نسخ مخطوطة في استامبول والقاهرة . وقد طبع بتحقيق سامي الدهان (دار المعارف — القاهرة ١٩٥٦م) .

---

(١) ياقوت – معجم الأدباء ج ١٦ ص ١٠٨ .
(٢) ابن النديم – الفهرست (ط . فلوجل) ص ١٤٦ .
(٣) ياقوت – الأدباء ج ١ ص ١١٢ .
(٤) ابن النديم – الفهرست ص ١٤٩ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٧١ .

- كتاب الهدايا وضعه أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد الخراساني . الراوية الكثير السماع (المتوفى سنة ٣٧٧) . ذكره ابن النديم وأضاف أنّه كان في ٣٠٠ ورقة وأنه شهد منه نسخة بخطه[١] .

- كتاب التحف والطرف لابن لبيب غلام أبي الفرج الببغاء . والببغاء شاعر معروف (توفي سنة ٣٩٨) وقد ذكر الثعالبي هذا الكتاب في اليتيمة[٢] .

- كتاب التحف والطرف لابن عفيون . ذكره المقري في نفح الطيب وأضاف أن الكتاب وقع لأبي الحسن ابن زنون وهو أسير ونقل منه[٣] .

- كتاب التحفة والطرفة لعبد الرحمن بن نصر الدمشقي (من رجال القرن الخامس أوالسادس ؟) ذكره ابن ظافر الأزدي في بدائع البدائه ونقل عنه بعض الخبر[٤] .

- كتاب الهدايا والتحف لمؤلف مجهول من عهد المستنصر الفاطمي (القرن الخامس الهجري) كان في حاشية الخليفة ومات بعد سنة ٤٦٣ . وقد نشر الكتاب خطأ بعنوان الذخائر والتحف كما نسب خطأ إلى القاضي الرشيد بن الزبير (نشر في الكويت بتحقيق محمد حميد الله سنة١٩٥٩). وقد توفي القاضي الرشيد الأسواني سنة ٥٦٢ بينما يذكر المؤلف أنّه شهد تحف القصر الفاطمي تباع أيام الشدة المستنصرية (بين سنتي ٤٥٧ - ٤٦٤) وشهد رسل البيزنطيين الى المستنصر الفاطمي .

- كتاب الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني وهو ضائع .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٢ وياقوت ، الأدباء ج ١٨ ص ٢٧١ .

(٢) الثعالبي - يتيمة الدهر (ط. مصر) ج ١ ص ٢٠٥ .

(٣) المقري - نفح الطيب (ط . أوروبا) ج ٢ ص ٤٢٤ .

(٤) ابن ظافر - بدائع البدائه (ط . محمد أبو الفضل ابراهيم سنة ١٩٧٠) ص ٣٨٧ .

- كتاب التحف والهدايا للسمعاني تاج الإسلام عبد الكريم بن محمد (المتوفى سنة ٥٦٣ / ١١٦٨)، وهو ضائع .
- كتاب العجائب والطرف والهدايا والتحف القاضي الرشيد ابن الزبير الأسواني المقتول سنة ٥٦١ أو سنة ٥٦٢ ، وهو ضائع أيضاً . وقد اختلط أمر هذا الكتاب على ناشر الكتاب السابق الذكر وحسبه إياه .

كما يدخل في باب التاريخ الحضاري كذلك ما كتب من أخبار الفروسية والحرب والسلاح والخيل والبيزرة وطرق القتال . وقد كان مثل هذه الكتب موجوداً منذ العهد الساساني ، وترجم منها للعربية كتب : الرمي لبهرام جور ، والضرب بالصوالجة ، وتعبية الحروب وآداب الأساورة . وأدب الحروب لأزدشير بن بابك . كما كتب مثلها للمنصور (كتاب آداب الحروب وصورة العسكر الذي وضعه عبد الجبار بن عدي) وكتب للمأمون أيضاً كتاب الخيل للهرثمي الشعراني — وهو مخطوط موجود —[1] . وقد استمر الخط نفسه في هذه الكتب ومنها :

- كتاب الخيل والفروسية الذي وضعه محمد بن يعقوب ابن أخي خزام الختلي وقد نقل عنه ابن العديم[2] .
- كتاب تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب لمرضي ابن علي الطرسوسي[3] .
- كتاب الحروب والسياسة لابن المهندس أبي الفضل الدمشقي (المتوفى سنة ٥٩٩ / ١٢٠٣) وهو ضائع .

---

(١) انظر حول هذه الكتب : ابن النديم — الفهرست ص ٣١٤ — ٣١٥ .
(٢) ابن العديم — بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ٨ ورقة ١٣١ ظهر .
(٣) نشر هذا الكتاب كلود كاهن في نشرة الدراسات الشرقية (المعهد الفرنسي بدمشق) سنة ١٩٤٧ — ٤٨ .

– كتاب عمدة السالك في سياسة الممالك (وهو في أساليب الحرب) لأبي يوسف المنجنيقي (المتوفى سنة ٦٢٦) وقد ذكره ابن خلكان[١] .

– التذكرة الهروية في الحيل الحربية لعلي بن أبي بكر الهروي (المتوفى سنة ٦١١ / ١٢١٤) بحلب ، وقد نشر محققاً مرتين (سورديل – دمشق سنة ١٩٦٠ ، المرابط – دمشق ١٩٧٢).

٣ – أثر الحاجة السياسية والإدارية

وننتقل إلى حاجات التنظيم السياسي والإدارة لنجد أن جهداً متصلاً قد بذل عن طريق التدوين التاريخي لتأصيل وتوطيد المؤسسات التي تقوم عليها الدولة ولتعليم الأجيال اللاحقة ، تجارب الأجيال السابقة . وهكذا فتح على علم التاريخ باب واسع آخر من المعلومات من خلال الكتب التي تتحدث عن الوزراء والحجاب والكتاب والقضاة والولاة والشُرط وكتب الخراج والحسبة وكتب التعليم السياسي وأخبار كل أولئك ، وهي بالعشرات ومعظم مواضيعها أضحى عنواناً لسلاسل طويلة من المؤلفات عبر العصور عصراً بعد عصر واختصت أحياناً بقطر واحد دون قطر ... ففي كتب الوزارة جاءت سلسلة طويلة يبدو أن أول من بدأها هو :

– أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح (المتوفى سنة ٢٩٦ / ٩٠٨) بتأليفه (كتاب الوزراء)[٢] وقد كان ابن الجراح نفسه وزير يوم وليلة لابن المعتز خليفة يوم وليلة ! وقد ضاع الكتاب ... كما ضاعت الكتب التي تابعته ، وقد تابعه بالفعل جماعة متعاصرون في مطلع القرن الرابع وأهم

(١) ابن خلكان – وفيات ٣٣٦/٢ (ط . بولاق) وانظر كذلك حاجي خليفة – كشف الظنون ج ٢ ص ١١٦٧ .
(٢) ابن النديم – الفهرس ص ١٢٨ .

الموضوع الجديد فاندفعوا يؤلفون فيه ويعلأونه دون شك بذكرياتهم .

– واحد منهم هو صاحب ابن الجراح : أحمد بن عبيد الله بن محمد ابن عمار الثقفي الكاتب (المتوفى سنة ٣١٩ / ٩٣١) (وكان يعرف بحمار العزير) وله مشاركة تاريخية واسعة تجلت في عدد من الكتب التي كتبها مثل : أخبار مقاتل آل أبي طالب (ويدعى كتاب المبيضة) ورسالة في بني أمية ، ورسالة في تفضيل بني هاشم وكتاب أخبار عبد الله بن معاوية وكان من كتبه أيضاً ، الزيادات في أخبار الوزراء[1] .

– ثم شاركهما في الكتابة كذلك : أبو الحسن علي بن الفتح الكاتب (المتوفى بعد سنة ٣٣٦ / ٩٤٧) ، وكان يعرف بالمطوق . وقد انتهى إلى سنة ٣١٩ / ٩٣١ ووزارة أبي القاسم عبيد الله الكلوذاني وروى أخبار عدة من وزارة المقتدر[2] في كتابه مناقب الوزراء .

– وكتب ابراهيم بن محمد بن نفطويه (المتوفى سنة ٣٢٣ / ٩٣٤) بدوره وفي الوقت نفسه كتاب الوزراء .

– وابراهيم بن موسى الواسطي ، الذي عارض كتاب ابن الجراح[3] .

– وأبو الحسن علي بن الحسن وقد لقّب بابن الماشطة ، وقد عاش لما بعد (سنة ٣١٠ / ٩٢٢) وبلغ في تصنيفه : أخبار الوزراء إلى آخر أيام الراضي بالله[4] .

وقد نجا من هذه المجموعة من المصنفات المتعاصرة كلها مصنف واحد وضعه :

---

(١) المصدر ذاته ص ١٤٨ ويسميه الكتاب خطأ ابن عماد .

(٢) أشار إلى هذا الكتاب المسعودي (مروج الذهب ج ١ ص ١٦) وحفظ بعض الفقرات منه المؤلف المجهول صاحب كتاب العذار والتحف ص ٤٧ ، ص ٢٢٩ ، وابن حجر في رفع الأصر (مخطوط باريس) ورقة ٨٠ ظهر ، وذكره ابن النديم في الفهرس ص ١٢٩ .

(٣) المسعودي – مروج الذهب ج ١ ص ١٦ .

(٤) المسعودي – مروج الذهب (ط . بلا) ج ١ ص ١٥ .

- الجهشياري أبو عبد الله محمد بن عبدوس الذي (توفي سنة ٣٣١) . ونحن نجهل الكثير عنه . ولكننا نعرف أنّه عاش تلك الفترة واكتوى بما اكتوى به أمثاله من الكتّاب في ذلك العصر من المصادرة والاضطهاد ، والكتاب الذي كتبه باسم كتاب الوزراء مؤلف ضخم بقيت لنا منه القطعة الأولى وتقف عند وزارة الفضل بن سهل للمأمون . أي أن هذا الباقي يحرمنا من شهادة الجهشياري لعصره ومشاهداته فيه ولكنه مملوء بالوثائق والأخبار الهامة .

ثم جاء بعد ذلك :

- أبو بكر محمد بن يحي بن عبد الله الصولي الكاتب(المتوفى بين سنة ٣٣٥ و٣٣٦ / ٩٤٦ - ٩٤٧) الذي وضع (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء) الذي بقي لنا منه بعضه وقد ذكر عنه المسعودي أن « فيه غرائب لم تقع لغيره وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها ... » .
- أبو عبد الله محمد بن أحمد الفارسي الرازي (المتوفى سنة ٣٦١) وله كتاب أخبار الوزراء[1] .
- الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد بن عباس الطالقاني (المتوفى سنة ٣٨٥ / ٩٩٠) فكتب (أخبار الوزراء)[2] ... وهو ضائع بدوره .
- ثم ألف التوحيدي أبو حيّان علي بن محمد بن عباس (المتوفى سنة ٤٠٠ / ١٠٠٩) كتاب مثالب الوزيرين (العميد وابن عباد) وقد ضاع أيضاً .
- وجاء الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري (المتوفى سنة ٤٢٩ / ١٠٣٨) فكتب بدوره (تحفة الوزراء) الذي قدمه إلى

---

(١) انظر هدية العارفين ج ٢ ص ٤٧ .
(٢) ابن النديم - الفهرست ص ١٣٥ .

وزير خوارزمشاه الغزنوي أبي عبد الله الحمدوني . ومنه مخطوط في القاهرة (دار الكتب رقم ٥ نحو ش في ٤٢ ورقة) وقد رتبه الثعالبي على خمسة أبواب : أصل الوزارة . آدابها ، فضائلها ، أقسامها ، نكت الوزراء .

– ثم جاء أبو الحسن هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابيء . الكاتب (المتوفى سنة ٤٤٨ / ١٠٥٥) فوضع (تاريخ الوزراء والأمراء) . وقد نشر المستشرق آمدروز ما وجده منه (بيروت سنة ١٩٠٤) .

– وجاء الماوردي نور الدين أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب المتوفى سنة ٤٥٠ / ١٠٥٧) صاحب الأحكام السلطانية . فكتب أيضاً : (كتاب الوزارة) ومنه مخطوط في استامبول (أمانة رقم ١٣٤٥ في ٧٢ ورقة بخط جميل مجدول ، كتب هدية إلى أحد الوزراء) .

– وكتب ابن ماكولا ، بعد ذلك . أبو نصر علي بن هبة الله بن علي العجلي البغدادي الأمير الوزير (المتوفى سنة ٤٨٧ / ١٠٩٣) فكتب (كتاب الوزراء) الضائع .

– وكتب الاقليدي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسين الفارسي (المتوفى سنة ٥٠٧ / ١١١٣) كتاب الوزراء الضائع بدوره[1] .

– وأعقبه أبو الحسن محمد بن عبد الملك الهمداني (المتوفى سنة ٥٢١ / ١١٢٧) بوضع : كتاب أخبار الوزراء الذي لم نعرف عنه غير اسمه وجعله ذيلاً على كتاب الصولي .

على أن الكتاب التالي كتب بالفارسية أولاً وهو الذي وضعه :

– أنو شروان ابن خالد الوزير السلجوقي المتوفى سنة ٥٣١ فقد وضع

---

(١) هدية العارفين ج ٢ ص ٨١ ومن المحتمل أن يكون الاقليدي هذا والرازي المذكور في الصفحة السابقة شخصاً واحداً كرره صاحب هدية العارفين بتاريخين مختلفين للوفاة .

الوزراء السلاجقة تاريخاً باسم (فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور) أرّخ فيه للدولة السلجوقية من أول عهد ملكشاه حتى عهده فجاء ابن أخيه :

- العماد الأصبهاني أبو عبد الله محمد بن صفي الدين محمد بن حامد الكاتب المشهور (المتوفى بدمشق سنة ٥٩٧ / ١٢٠١) فعرب ذلك الكتاب وأضاف عليه أخبار الوزراء وتاريخ السلاجقة حتى سنة ٥٧١ وسماه : نصرة الفطرة وعصرة القطرة في أربع مجلدات . والكتاب مخطوط موجود في باريس ولكن مختصره الذي صنعه البنداري هو الذي طبع منذ سنة ١٩٠٠ باسم تاريخ الدولة السلجوقية .

- وكتب بعد ذلك القادسي محمد بن أحمد الحنبلي الكتبي البغدادي (المتوفى سنة ٦٣٤ / ١٢٣٧) . (كتاب تاريخ الوزراء) وقد ضاع[1] .

- ثم جاء كاتب اسمه خليل بن المحسن فكتب كتاباً في الموضوع نفسه ضاع بدوره بالرغم من أنه حظي بذيل عليه كتبه :[2]

- أبو طالب تاج الدين علي بن أنجب بن عثمان بن الساعي البغدادي السلامي ، خازن كتب المستنصرية (المتوفى أيضاً سنة ٦٧٤ / ١٢٧٥) كتاب : أخبار الوزراء في دول الأئمة الخلفاء ... وهو ضائع بدوره[3] .

وفي الوقت نفسه تقريباً وضع :

---

(١) لم تذكر المصادر كتاباً في الوزراء للقادسي غير أنا وجدنا الإشارة إليه لدى ابن خلكان (ج ٦ ص ٢٣٠ ترجمة الوزير ابن هبيرة) .

(٢) ذكر عبد الله مخلص في مقدمة لكتاب الإشارة إلى من نال الوزارة رجلين كتبا في تاريخ الوزراء متاليين باسم تاج الدين علي وتوفيا سنة ٦٧٤ أحدهما علي بن الحسين والثاني علي بن أنجب ونظن أنه وهم وأنهما شخص واحد هو ابن الساعي نفسه (انظر ص ١٠ من كتاب الاشارة ، طبع المعهد الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٢٤) .

(٣) كشف الظنون ج ١ ص ٢٧٨ والسخاوي – الاعلان (ط . روزنتال) ص ٥٥٢ .

- أبو الفضل جمال الدين أحمد بن مهنا العبيدي الحسيني (المتوفى سنة ٦٨٢ / ١٢٨٣) كتاب وزراء الزوراء التي نقل عنه ابن الفوطي عدداً من التراجم والأخبار[١].

وسوف تظل السلسلة متصلة من بعد ... في العصور التالية.

ولم تكن الكتب في الكتاب والقضاة والولاة أقل اغراء للمؤرخين وقد تركوا فيها تراثاً واسعاً. وغالباً ما كان أهل كل عمل يؤرّخون لسابقيهم فيه، وكما كان الوزراء والكتّاب يؤرّخون لأنفسهم كان القضاة يؤرخون لأبناء مهنتهم بدورهم. وكانت هذه التواريخ تأخذ أحياناً شكل الدليل المهني للصنعة وشكل المعلومات التي يعدّ حفظها من أول المؤهلات لها. ومن مؤرخي القضاة:

- أبو بكر محمد بن خلف بن حيّان المعروف بوكيع القاضي (المتوفى سنة ٣٠٦ / ٩١٨) وهو معاصر للطبري وقد كتب أوسع كتاب حتى عهده في «أخبار القضاة» وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٦٤٧).

- الإصطخري أبو سعيد بن أحمد بن يزيد بن عيسى من ولد هانيء بن قبيصة (٢٤٤ – ٣٢٨ / ٨٥٨ – ٩٤٠) قاضي قم وقد صنف كتاباً حسناً في (أدب القضاء) لم يصنف مثله في بابه[٢] على حد قول ابن كثير.

- وكتب أبو بكر أحمد بن كامل الشجري (٢٦٠ – ٣٥٠ / ٨٧٣ – ٩٦١) كتاب أخبار القضاة الشعراء ومخطوطه في استامبول (يني ٢/٢٢٣)

- وكتب الحافظ عبد الغني بن سعيد بن علي بن بشر الأزدي المصري السمرقندي (المتوفى سنة ٤٠٩ / ١٠١٨) كتاباً في أخبار القضاة[٣].

---

(١) انظر ابن الفوطي – تلخيص مجمع الآداب (نشر مصطفى جواد – دمشق ١٩٦٣) القسم الأول من الجزء الرابع ص ١٠٢ ، ١٠٤ ، ٢٣٠ ، ٢٢٣ ، ١٤٥ ، ٢٧٩ ، ٢٩١ والقسم الثالث ص ١٠٤ ، ص ٣٠٤ .

(٢) ابن كثير – البداية والنهاية (حوادث سنة ٣٢٨) ج ١١ ص ١٩٣ .

(٣) ذكره السخاوي – الاعلان بالتوبيخ (ط . روزنتال) ص ٥٧٤ .

- وكتب كل من سليمان بن علي بن عبد السميع وأبي الحسن الموسوي الرضى بدورهما كتابين في الموضوع نفسه[1] .
- وكتب الماوردي المعروف (ت . سنة ٤٥٠) كتاب أدب القاضي وهو رغم اختصاصه يحوي الكثير من الأمور التاريخية . طبع بتحقيق محيي هلال سرحان في بغداد سنة ١٩٧٢ في جزأين .
- ثم كتب القاضي أبو القاسم علي بن محمد السمناني الرحبي (المتوفى في نهاية القرن الخامس سنة ٤٩٩ / ١١٠٥) مؤلفه روضة القضاة وهو مخطوط نشر قسمه الأول[2] وفي نهاية الكتاب فصول في تاريخ القضاة حتى زمانه .
- وتبعه القاضي أبو العباس أحمد بن بختيار بن علي المانداني الواسطي (المتوفى سنة ٥٥٢ / ١١٥٦) فوضع كتاب الحكام وولاة الأحكام في دار السلام .

وانقضى عهد القضاة الكبار في بغداد قبل أن تنطفيء هي نفسها سنة ٦٥٦ فلم يظهر من تاريخ خاص بهم من بعد ذلك فيما نعلم .

ويلحق بكتب تاريخ القضاة كتب الحسبة وهي ألصق بالتاريخ الحضاري منها بتاريخ الاحتساب والمحتسبين . كانت كتباً تعالج الأمور العملية ، في طابع تعليمي يوضح عمل المحتسب ولم تكن تحوي إلا القليل عن تاريخ هذه المؤسسة الاجتماعية الكبيرة الأهمية في تاريخ المدن الاسلامية . ونعدّ من كتب الاحتساب المعروفة ما كتبه :

- أبو العباس أحمد بن محمد بن مروان السرخسي (المتوفى سنة ٢٨٦)[3] . وقد سماه الحسبة الكبيرة . وهو أول كتاب نعرفه في هذا الموضوع .

---

(١) ذكرهما المصدر السابق نفسه ولكنا لم نعثر على تراجم لهما ولعلهما من القرن الخامس .

(٢) نشر الأستاذ صلاح الدين الناهي في بغداد سنة ١٩٧٠ القسم الأول من الكتاب وهو قضائي لا تاريخي ثم نشر الجزء الثاني بعد سنتين .

(٣) حاجي خليفة – كشف الظنون ج ١ ص ٦٦٥ .

وتباعدت الفترات من بعده لظهور الكتب المماثلة فلم يظهر من كتاب فيها حتى جاء :

— الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (المتوفى سنة ٤٥٠) فوضع (كتاب الرتبة في طلب الحسبة) الذي ضاع[١] .

— وأدخل الغزالي أبو حامد محمد بن محمد بن محمد (المتوفى سنة ٥٠٥ / ١١١١) فصلاً واسعاً في الموضوع ضمن كتابه إحياء علوم الدين .

— ثم كتب عبد الرحمن بن نصر الشيزري (المتوفى سنة ٥٨٩ / ١١٩٣) أهم كتاب في الحسبة نعرفه بعنوان نهاية الرتبة في طلب الحسبة (وقد طبع في القاهرة — الباز العريني ١٩٤٦) فكان الكتاب الأم الكتب التي كثرت في العصر المملوكي من بعد كما ظهرت في الأندلس والتي يبلغ مجموعها أكثر من ثلاثين كتاباً في أيدينا منها سبعة عشر مخطوطاً واثنا عشر مطبوعاً ...

وقد أرّخ الكتاب بدورهم لأبناء صناعتهم ، كما فعل القضاة . وممّن عمل على ذلك بعد أحمد بن الحارث الخزار (صاحب كتاب أسماء الخلفاء وكتابهم والصحابة) وبعد أبي علي أحمد بن اسماعيل بن الخصيب الأنباري المعروف بنطاحة صاحب (طبقات الكتاب) :

— محمد بن أحمد بن الحسين بن الحرون (من مطالع القرن الرابع) وهو بغدادي من أولاد الكتاب وقد ألف بين ما ألف :(كتاب الكتاب)[٢] .

— داود بن علي بن الجراح (النصف الثاني من القرن الثالث) الذي كتب : أخبار الكتاب .

— وتلاه حفيده علي بن عيسى بن داود الوزير (المتوفى آخر سنة ٣٣٤)

---

(١) تذكر بعض المصادر للماوردي كتاباً بهذا الاسم . ومن الأرجح أنهم إنما يقصدون ذلك الجزء من كتابه (الأحكام السلطانية) الذي يتحدث فيه عن الحسبة . فإن صح هذا فالكتاب موجود مطبوع .

(٢) ابن النديم — الفهرست ص ١٤٨ .

بعد أن وزر ثلاث مرات الخليفة المقتدر : فكتب كتاب الكتّاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء .

وكتب بعد ذلك في الموضوع نفسه ثلاثة من المؤلفين في أواسط القرن الرابع هم:

- أبو الحسن أحمد بن محمد بن حمارة الكاتب صاحب كتاب امتحان الكتّاب وديوان ذوي الألباب . .

- أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن زنجي الكاتب (المتوفى سنة ٣٣٤ / ٩٤٦) صاحب كتاب الكتّاب والصناعة الذي كان أحد مصادر كتاب الوزراء للصابيء وقد فقد ...

- أبو اسحق ابراهيم بن أبي عون أحمد بن المنجم مؤلف كتاب الدواوين[١]

وتلاهم بعد ذلك :

- ابن حاجب النعمان الكبير أبو الحسين علي بن عبد العزيز بن ابراهيم الكاتب الملقّب برئيس الرؤساء (وقد توفي سنة ٤٢٣) بعد خدمة للخلفاء دامت أربعين سنة وعمر وصل الثالثة والثمانين ، وقد كتب (ذخيرة الكتّاب) لأبناء مهنته[٢] . ونقل عنه ابن النديم بعض الصفحات.

- هلال الصابيء (المتوفى سنة ٤٤٨ / ١٠٥٦) وقد ألف .: كتاب الكتّاب[٣] .

غير أن هذا النوع من التواريخ للكتاب اضمحل بعد ذلك فلا نكاد نسمع عن تاريخ يخص هذه الفئة لأنها لم تعد ذات مكانة سياسية أو ثقافية كبيرة بينما صار الوزراء هم رأس هذا الجهاز الإداري الصغير بالنسبة للخليفة وقصره

---

(١) انظر في هؤلاء الثلاثة : ابن النديم - الفهرست ص ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٧ .

(٢) ابن النديم - الفهرست ص ١٩٣ ، ص ٢٣ .

(٣) الصفدي - الوافي بالوفيات . ترجمة هلال الصابيء (نقلا عن مقدمة آمدروز لكتاب الوزراء طبعة سنة ١٩٠٤) .

كأن الوزير في البلاط السلجوقي قد ابتلع مكانة الكاتب ونفوذه لدى السلاطين السلاجقة كما أضحى منصب الكتابة ثانوي اللغة (يكتب بالفارسية والعربية) ويختص بانشاء الرسائل فقط ويشترك معه فيها صاحب الطغراء الذي يشبه أن يكون نائب الوزير ورئيس الكتّاب والديوان وحامل الأختام الرسمية . ولهذا اقتصرت الكتب المؤلفة للكتّاب على تعليمهم «الصناعة» ليكونوا موظفين بارعين.

ولم يهمل المؤرخون الحجّاب ، بجانب الوزراء الكتاب فكتبوا عنهم ومن ذلك :

- ابن أبي طاهر أبو الفضل أحمد (المتوفى سنة ٢٨٠ / ٨٩٣) صاحب تاريخ بغداد الذي كتب في الوقت نفسه (كتاب الحجاب) الضائع[1] .
- المرزباني أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد (المتوفى سنة ٣٧٨ / ٩٨٨) وهو خراساني الأصل ، اخباري واسع التصنيف جداً . مؤلفاته ليست كثيرة في العدد فقط ولكن في الأوراق التي تبلغ المئات دوماً وتنيف أحياناً كثيرة على الآلاف . ومنها : كتاب زهر الحجاب في مائتي ورقة .
- وكتب هلال الصابيء (المتوفى سنة ٤٤٨ / ١٠٥٥) كتاب : رسوم دار الخلافة يروي نظم المراسم وتقاليد القصر التي يسهر على تنفيذها الحجاب ، والكتاب مطبوع .
- سبط ابن التعاويذي أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن نشتكين البغدادي الشاعر (المتوفى سنة ٥٨٤ / ١١٨٨) وقد كتب (الحجبة والحجاب) .

وكما لحق بالقضاة أمر الحسبة لحق بالكتاب أمر الخراج وقد كان هذا الموضوع من الأهمية في النظام السياسي ومن المساس بتكوين الدولة وأوضاع الرعية ، ومن الضرورة العلمية والعملية لأصحاب الدواوين والكتاب والناس

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص ١٤٦ .

بحيث تكاثرت فيه الكتب منذ كتاب[1] أبي عبيد الله معاوية بن يسار وزير المهدي الذي نقل الخراج إلى المقاسمة وصنف كتاباً ذكر فيه كافة أحواله فكان أول مصنف في هذا الموضوع ثم تبعه مؤلف أشهر منه هو أبو يوسف قاضي الرشيد . وكانت المؤلفات في الخراج تحمل اسم (الخراج) وقد تحمل أحياناً اسم الأموال ولكنها تحوي في الحالين اشارات ومعلومات تاريخية في الدرجة الأولى من القيمة والشأن وقد ذكر منها ابن النديم ثمانية عشر كتاباً حتى عهده (في النصف الثاني من القرن الرابع) ومن المؤلفين في ذلك :

– أبو عبيد القاسم بن سلام بن مسكين (المتوفى سنة ٢٢٤ / ٨٣٩) وكتابه (الأموال) من أهم الكتب التي وصلتنا في موضوعه مع كتاب أبي يوسف.

– أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الكهم ويعرف باسم أبي سهل الأحول (المتوفى سنة ٢٧٠) وله كتاب الخراج وقد نقل عنه ابن العديم في القرن السابع بعض أخبار التاريخ[2] .

– ابن الماشطة أبو الحسن علي بن الحسن ولقبه المظلوم بابن الماشطة (توفي بعد ٣١٠) وقد ناهز التسعين ، وله كتاب الخراج[3] وكان متقدماً في هذا العمل .

– ابن بشّار أحمد بن محمد بن سليمان الكاتب (من مطالع القرن الرابع) وقد وضع في الخراج كتاباً كبيراً في نحو ألف ورقة رآها ابن النديم بخطه[4] .

---

(١) القلقشندي – الأحكام السلطانية ص ١٦٣ ويذكر ابن النديم أن حفصويه هو أول من ألف كتاباً في الخراج (انظر ص ١٢٥ من الفهرست) ولم نستطع التحقق من سنة وفاة حفصويه لنعرف سبقه لمعاوية الوزير .

(٢) ابن العديم – بغية الطلب (مخطوط اياصوفيا) الورقة ٦٢ وجه .

(٣) ابن النديم – الفهرس ص ١٢٥ .

(٤) ابن النديم – الفهرست ص ١٢٥ .

وقد ازدحم النصف الأول من القرن الرابع بعدد من المؤلفين تناوبوا الكتابة في هذا الباب كدليل على اهتمام الناس بمعرفة أصل نظامهم المالي ، ومنهم :

- الكلواذاني ، أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن محمد ويرقى نسبه - إن صح - إلى أزدشير بن بابك . كان صاحب ديوان السواد في مطالع القرن الرابع وتوفي بعد سنة ٣٣٦ ، وقد كتب كتاباً للخراج سنة ٣٢٦ ثم عدله بنسخة أخرى سنة ٣٣٦[1] .

- عبد الرحمن بن عيسى بن الجراح ، الكاتب ، وزير المتقي (٣٢٩ - ٣٣٣ / ٩٤٠ - ٩٤٤) شقيق الوزير علي بن عيسى . وله كتاب تاريخي هام ضائع هو : سيرة أهل الخراج وأخبارهم وأنسابهم في القديم والحديث . بجانب كتاب آخر في الخراج كبير لم يتمه . وكتاب في التاريخ منذ سنة ٢٧٠ حتى أيامه[2] .

- قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (المتوفى سنة ٣٣٧ / ٩٤٨) وكتابه : (كتاب الخراج وصنعة الكتابة في البلاد ومعرفة خراجها وترتيب الكاتب وما يحتاج إليه من الرياسة) كتاب معروف وقد بقي لنا منه نصفه الثاني ومنه نسخة مخطوطة في استامبول (مكتبة كوبريلي رقم ١٠٧٦) نشر بعض المستشرقين قسماً منها .

- العياشي أبو النضر محمد بن مسعود وهو من كبار فقهاء الشيعة الإمامية قيل أنّه تميمي الأصل وقد عاش في سمرقند في أواسط القرن الرابع . أنفق على العلم ٣٠٠ ألف دينار ورثها عن أبيه وكانت داره كالمسجد بين ناسخ أو قارىء أو مقابل أو معلق مملوء من الناس...[3] وقد ألف

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣١ .

(٢) ابن النديم - الفهرست ص ١٢٩ .

(٣) انظر الخوانساري - روضات الجنات (طبع حجر - طهران ١٣٤٧) ص ٥٣٠ .

ما يزيد على ٢٠٨ كتب من بينها كتاب الجزية والخراج[١].

ثم جاء من بعد ذلك :

ـ أبو الحسين اسحق بن يحيى بن سريج النصراني (ولد سنة ٣٠٠ / ٩١٢ ومات بعد سنة ٣٧٧ / ٩٨٧) وكان عارفاً بأمور الدواوين ومناظرة العمال وصناعة الخراج فكتب كتاب الخراج ، كبيراً في جزأين ثم كتب كتاب الخراج الصغير . بجانب كتاب جمل التاريخ[٢].

ـ أبو الفرج محمد بن محمد بن سهل الشلحي الكاتب (المتوفى سنة ٤٢٣ / ١٠٣١) ، وقد ألف أيضاً : كتاب الخراج[٣] .

ـ عميد الرؤساء ابو طـالب محمد بن ايوب بن سليمان البغدادي الوزير (المتوفى سنة ٥٤٨ / ١٠٥٥) كتب للخليفة القائم ١٦ سنة وقد ألف كتاباً في الخراج[٤]

وتغيب أمثال هذه الكتب بعد هذه الفترة لأن الحكم السلجوقي الذي ساد المنطقة منذ سنة ٤٤٨ قد عدل النظام المالي الخراجي القديم التعديل الواسع فلم يعد له سوى القيمة التاريخية ...

ولم يهمل المؤلفون موضوع النقود والسكة . كانوا يبحثونه تارة مع كتب الخراج (كما فعل أبو يوسف) أو مع كتب الفتوح (كما فعل البلاذري) أو مع الأحكام السلطانية وشؤون الكتابة (كما فعل الماوردي) على أنهم كانوا أحياناً يفردونها ومن أولئك :

ـ أبو بكر المعروف بوكيع القاضي صاحب أخبار القضاة وله كتاب التصرف والنقد والسكة ، وكتاب المكاييل والموازين .

---

(١) انظر قائمة كتبه الطويلة لدى ابن النديم – الفهرس ص ١٩٤ – ١٩٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٦ .

(٣) الصفدي – الوافي ج ١ ص ١١٦ .

(٤) ابن الفوطي – تلخيص معجم الألقاب (نشر مصطفى جواد – دمشق ١٩٦٢) ج ٤/٢ ص ٩٣٩ – ٩٤١ .

٤ ـ التأثر بمادة العلوم الأخرى ونحوها

ولم يكن في وسع التاريخ أن يعيش في عزلة عن تلك الحركة العلمية الواسعة التي أخذت الناس منذ القرن الثاني الهجري وبلغت أوجها في القرن الرابع . كان لا بد لنمو الفلسفة والمنطق وتطوّر الفكر الجغرافي بالاطلاع والرحلات وضلوع الكثيرين في الفلك والأزياج أن تؤثر بشكل أو بآخر على الفكر التاريخي نفسه وعلى طرائق التدوين . لقد وجد المؤرخون في العلوم الأخرى مادة عقلية جديدة ، وإذا سمحت لهم هذه المادة بتوسيع مصادرهم وبالتالي في إضافة مادة جديدة إلى مصادر التاريخ فأهم من ذلك أنها أدت خاصة إلى تطوير للنهج التاريخي وإدخال طرائق جديدة تزيد في دقة وسعة معلوماته من جهة وفي منطقية الأحداث من جهة أخرى .

وعلاقة التاريخ بالنجوم والفلك نجمت عن امتداد المنجمين أنفسهم على ميدان التاريخ . واخوان الصفا يجعلون مما ينبغي على المنجم معرفته : « معرفة التواريخ والبدايات » و « وللملل والدول وتبدل الأشخاص على سير الملك . والحروب والفتن والحوادث والكائنات من الغلاء والرخص والخصب والجدب والوباء والأمراض ... وحوادث الأيّام ... الخ » . فكأنما عمل المنجم هو التاريخ ولكن المستنتج من الأفلاك لا المروي من قبل الناس . وهكذا فان كتب النجوم كانت تحوي بعض المادة التاريخية ومن أمثلتها كتاب الألوف لأبي معشر ممّا يجعل القفز بينها وبين التاريخ والنقل عنها إليه ميسوراً للمؤرخين ومغرياً لهم .

وهكذا فقد كان من شأن انتشار علم الفلك والنجوم أن استخدمت الأزياج والعلوم الفلكية في تأريخ الأحداث وتحديد أوقاتها . وأحياناً في تعليلها . ولعل من أقدم الأمثلة على هذا التأثر « العلمي » في التاريخ كتاب الآثار الباقية لأبي الريحان البيروني (٤٤٠ / ١٠٤٨) . على أننا نجد الكثير من التحديدات الفلكية للأحداث بالأبراج وغيرها لدى حمزة الأصفهاني في تاريخ سني ملوك الأرض

والأنبياء واليعقوبي : والمسعودي ، والمطهر المقدسي وابن حوقل وابن ميسر في مصر وابن القلانسي في دمشق وابن العديم في حلب .

ولقد أخذ بعض المؤرخين عن أصحاب النجوم والفلكيين حساباتهم المتعلقة بتاريخ الدنيا وتاريخ الأمم فيما قبل الاسلام . يقول حمزة الأصفهاني « ولم أجد لتواريخ سني (القبط) ذكراً في الكتب إلا في الزيجة »[1] وبهذه الوسيلة توفر لهم مقدار من المادة التاريخية الهامة . وكان اليعقوبي يشير في بداية حكم كل خليفة إلى الطوالع والتنجيم. وكثير من التواريخ البلدانية كانت تشير إلى الطوالع التي كانت قائمة عند بناء أي مدينة من مثل ما ذكره ابن العديم عن تاريخ حلب وتاريخ أنطاكية وما ذكره ابن الأزرق عن بناء ميافارقين .

وكثيراً ما كانت معرفة النجوم والطوالع سبيلاً إلى تعليل بعض الأحداث : كمقاتل بعض الناس[2] أو خلود بعض المدن[3] أو ميلها إلى الفتن[4] أو تفسير بعض الكوارث الطبيعية من فيضانات وأوبئة ومجاعات .

(ب) واستخدمت معطيات الفلسفة والمنطق وعلم السياسة خاصةً وعلم الكلام في بعض الكتب التاريخية وعلى مستويات مختلفة تدل كثرتها على تلك الصلة الواشجة ما بين الفكرين الفلسفي والتاريخي : فقد شهد القرن الرابع خاصةً محاولات للمزاوجة بين التاريخ والفلسفة في نظام فكري منسجم متكامل . يذكر المسعودي أن سنان بن ثابت بن قرة اهتم بتأليف كتاب « استفتحه بجوامع من الكلام في أخلاق النفوس وأقسامها من الناطقة والغضبية والشهوانية وذكر

---

(١) حمزة الأصفهاني – تاريخ سني ملوك الأرض (ط . دار الحياة – بيروت) ص ٧٤ .

(٢) انظر ما ذكره روزنتال في هذا الصدد في علم التاريخ عند المسلمين النص الانكليزي ص ٩٨ – ١٠٠ ، والترجمة العربية ص ١٥٥ – ١٥٧ .

(٣) انظر الطبري ج ٩ ص (١٤٦٣/٣) حوادث سنة ٢٤٧ والتنبؤ فيه بمقتل المتوكل .

(٤) انظر ما يقوله ابن حوقل عن دمشق ومكة وسمرقند واردبيل وصقلية – صورة الأرض (طبعة دار الحياة – بيروت) ص ١٦٢ .

لمعاً من السياسات المدنية مما ذكر أفلاطون في كتابه في السياسة المدنية وهو عشر مقالات، ولمعاً مما يجب على الملوك والوزراء . ثم خرج إلى أخبار زعم أنها صحّت عنده ولم يشاهدها ووصل ذلك بأخبار المعتضد بالله وذكر صحبته إياه وأيامه السالفة معه ثم ترقى إلى خليفة خليفة في التصنيف مضادةً لرسم الأخبار...» وانتقده المسعودي فقال انه : « انتحل (بذلك) ما ليس من صناعته واستنهج ما ليس من طريقته ... »[1] وجرت محاولة أخرى على المستوى نفسه ولعلها أكمل منها وأعمق لأنها كانت محاولة لفلسفة التاريخ واخضاع احداثه من الناحية الظاهرية على الأقل للاطار الفلسفي . وصاحبها هو المطهر بن طاهر في كتابه البدء والتاريخ، الذي ألّفه سنة٣٥٥/٩٦٦ . فقد بدأ الكتاب ببحث نظري طويل حول المعرفة والعقل والكون وإثبات الباري وصفاته والرسالة والنبوّة ليصل إلى الخلق ثم آدم ثم الأنبياء ثم الرسول وتاريخه والصحابة ثم تاريخ الأمويين والعباسيين . « فالناظر في هذا الكتاب كالمشرف المطلع على العالم مشاهداً حركاته وعجيب أفعاله والسابق له قبل تركيبه وحدوثه ... »[2] غير أن هذه المحاولة كانت فجّة من جهة كما لم تجد الحماس لدى المؤرخين من جهة أخرى فلم يظهر من يتابعها فبقيت تجربة فريدة أروع ما فيها هو تلك الرغبة الحارة في ربط الكون والحياة بنظرة كلية شاملة توحد ما بين الفلسفة والتاريخ في نظام فكري واحد .

بل ! جرت بعض المحاولات الفلسفية الأخرى ولكن على مستوى ثانٍ كانت تنظر إلى التاريخ من زاوية مكانه بين العلوم وتصنيفه في اطارها العام . ومن ذلك محاولة الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم ومحاولات اخوان الصفا في رسائلهم وأكثر منها جدية وقيمة محاولة متأخرة قام بها فخر الدين الرازي في كتابه جامع العلوم[3] (أواخر القرن السادس / الثاني عشر الميلادي) فقد بحث فيه

---

(١) المسعودي – مروج الذهب (ط . بلا) ج ١ ص ١٦ – ١٧ .

(٢) المقدسي – البدء والتاريخ ج ١ ص ١٧ (ط. هوارت) .

(٣) كتبه الرازي في الأصل بالفارسية بعنوان حدائق الأنوار في حقائق الأسرار وقد ضاع وبقيت –

مكانة التاريخ وجعله خادماً للدين ثم أعطى بعض الآراء التي فلسف فيها طبيعة علم التاريخ ذاكراً أنه لا يعرف معالجة مشاكله بصورة منظمة متدرجة من البسيط إلى المعقد ، ولا يميز بين المعلومات الواضحة وغير الواضحة . وطرق بحثه بعضها معقد وبعضها مبسط ولا تدرُّج في الانتقال بينها ثم استنتج من ذلك عدم وجود ترتيب منطقي في بحث التاريخ وعلى ذلك فقد قسم أبحاثه إلى تسع زمر أو فصول تبدأ بتاريخ ملوك العجم ثم تاريخ الرسول وتنتهي بأحوال « ملك البشر علاء الدنيا والدين قطب الإسلام والمسلمين » تكش بن خوارزمشاه الذي عاش الرازي في كنفه .

على أننا نجد تأثير الفلسفة في التاريخ على مستوى ثالث لدى مؤرخين آخرين من القرن الرابع أيضاً كالمسعودي . فان الرجل رغم فكره الموسوعي العجيب وثقافته الواسعة لم يحاول محاولة المقدسي في خلق نظرة كلية وإنما بث قراءاته الفلسفية ومعلوماته الواسعة في الإلهيات والطبيعيات والمنطق وما وراء الطبيعة وعلم الكلام وعلم الأديان ، في ثنايا كتبه وإذا كانت كتبه الباقية (مروج الذهب والتنبيه والاشراف وجزء أخبار الزمان) تكشف بوضوح عن ذلك فإن عناوين كتبه الأخرى التي تبلغ خمسة وثلاثين كتاباً تكشف كلها عن طبيعتها الفلسفية – التاريخية . إن طريقة المسعودي كانت في بث معطيات الفكر في ثنايا الأحداث التاريخية . ولم يكن يترك فرصة لا ينتهزها لتلخيص كتاب أو عرض فكرة أو ذكر جدل جرى أو شرح مذهب أو استطراد وراء مناقشة فلسفية أو وضع بعض الخطوط في فلسفة التاريخ وقد نجد المنهج نفسه ولكن على مقياس أضيق بكثير لدى مسكويه ، ولدى قدامة بن جعفر كما نجده لدى بعض المؤلفين ، في القرن الرابع الهجري خاصة ممّن كتبوا تواريخ العالم ، وذكروا فيها تاريخ الهند والصين والرّوم والأغريق وأدخلوا ضمن تلك التواريخ اشارات

– ترجمته العربية التي أعطيت عنوان جامع العلوم ومنه مخطوطتان في اكسفورد رقم
Or. Fraser 182, 183 (Ethe 1481, 1982)

وموجزات عن الأفكار الفلسفية والدينية لتلك الأمم . كاليعقوبي وحمزة الأصفهاني والبيروني ولكنها كانت تدخل المؤلفات ، كما دخلتها عند المسعودي كمادة تاريخية تزيد في غناها وليس كمنهج فكري للتطبيق التاريخي فيها .

أمّا الجانب الأهم الذي ظهر فيه أثر الفكر الفلسفي في التاريخ ، منذ القرن الرابع خاصة فهو ناحيتان :

أولهما : الحكمة والموعظة : وهي طفولة الفلسفة ولمّا كانت العبرة هي بعض أهداف التاريخ فإن تسرب الحكمة الشعبية والآراء والنظرات المبتسرة كان سهلاً ميسوراً ومقبولاً في الوقت نفسه وقد وجد المؤرخون الأخلاقيون في التراث الإسلامي من الآيات والأحاديث والأمثال العربية المرسلة والشعر ، وفي تراث الفرس التاريخي مما يروى عن بزرجمهر وأزدشير وأنوشروان ، وفيما يروى من حكم الإغريق والاسكندر وأرسطاطاليس معيناً لا ينضب من الحكم والمواعظ والشعارات التوجيهية الجاهزة للدخول في ثنايا المواقف التاريخية واعطائها صفة المنطق اللازب أو القانون الحياتي أو البديهية الفكرية أو التحذير القدري ... « وقد كوّنت هذه الحكميات بصورة عامة ، جزءاً هاماً من السير والتراجم في كتب التاريخ المؤلفة على النمط التقليدي »[1] وأكثر المواضيع الفلسفية التي تعاورت عليها الأقلام في البحث التاريخي هي تلك التي تتصل بجذور دينية وتجد منابعها في بعض الآيات والأحاديث كقصر الحياة ، وزوال النعيم الدنيوي ، وجزاء السيئة بالسيئة وعصيان الله وفضل الاحسان .. ولا يكاد يخلو مؤلف في التاريخ من استشهاد بقصة أو بآية أو حديث أو مثل أو بيت شعر أو قول من أقوال الحكماء يدعم به أخباره ويعطيها طابع الفكر والحتمية والتوجيه . ذلك كان من الأثقال الهامة التي حملها التاريخ الإسلامي على العصور.

ثانيهما : علم السياسة : وآداب السلطان ولعله الأهم والأبقى من الفكر الفلسفي ــ التاريخي . وبالرغم من أن المؤلفات فيها كانت في معظمها

---

(١) روزنتال ــ علم التاريخ ص ١٠١ (١٦٠ من الترجمة العربية) .

تأخذ شكل الحكمة والموعظة مما يجعلها من ثمرات الناحية السابقة إلا أن إفراد الباحثين كتباً خاصة لهذه المواضيع وكثرة هذه الكتب جعلت منها تياراً فكرياً ـ فلسفياً مميزاً يزدوج فيه تأثير الدين وواجباته بتأثير الفلسفة ومعطيات السياسة مع مبادىء الأخلاق فهو خليط من كل أولئك ، أضيف إليه في الوقت نفسه أثر أجنبي من آداب السلطان الفارسية وبعض نواحي علم الأخلاق الإغريقي ... وهكذا ظهرت مجموعتان من المؤلفات : كتب السياسة وكتب الإمامة .

في شئون السياسة : كتبت منذ القرن الثالث الهجري وبدون انقطاع سلسلة من الكتب الفكرية السياسية ، ذات جذور ومستند من التاريخ الاسلامي والأحداث التي مرت به وبغيره ولكنها تهدف إلى هداية الملوك والأمراء سواء السبيل في الحكم على الأساس الاسلامي القويم . وقد سمّيت هذه الكتب أحياناً بآداب السلطان وأحياناً بسياسة الملوك ، ويزعم صاحب كل مؤلف فيها وضع نظرية سياسية تطبيقية . متكاملة أو شبه متكاملة على أساس من العقيدة الاسلامية لسياسة الحكم . على أن هذه الكتب ظلت جميعاً في إطار النصيحة والموعظة لم تجاوزها إلى إيجاد النظرية السياسية الكاملة . وظلت في حدود التعليمات النظرية لم تحاول اختراقها إلى الواقع العملي واقتراح المؤسسات ، وظلت ذات طابع مثالي لم تتنقل منه إلى ادانة الواقع الظالم ورفضه بله الدعوة للثورة عليه وأخيراً فقد اعتمدت أولاً وأخيراً على الوازع الديني الإلهي والمؤيد العلوي الفوقي وندر أن اهتمت إلا من باب الشفقة والاحسان والمرحمة ـ بالمآسي الحياتية التي تعيشها الرعية معتبرة أن مسؤولية الحاكم فيها لم تكن أمام الرعايا ولكن أمام الله . الرابطة الوحيدة التي كانت تربط هذه الكتب بالتاريخ وتجعل منها نوعاً من فلسفة التاريخ السياسي أو تنظير الحكم هي الأمثلة العديدة التي كانت تلتقط من التاريخ حسب المناسبات للتدليل على صحة الرأي المقترح . وكانت تشتمل أحياناً على مختصرات التاريخ الاسلامي .

كان أول ظهور هذه الكتب السياسية — التاريخية جواباً على الكتب السياسية الأجنبية التي ترجمت إلى العربية منذ مطالع العصر العباسي ، فإن موجة من الكتب الفارسية السياسية قد دفعت إلى الناس من قبل التراجمة الإيرانيين ومن أمثلتها : خداي نامه ، الأدب الكبير ، الأدب الصغير ، والكاه نامغ واختيار نامه ، وسيرة أزدشير وأنوشروان ... أقنعت الناس أن للفرس السياسة والآداب والحدود والرسوم كما اقتنع الناس من ترجمة غيرها أن « للروم العلم والحكمة وللهند الفكر والروية والخفة والسحر والأناة والترك للشجاعة والإقدام ... »[1] وزاد في الاقتناع بذلك أن جمهرة الكتّاب التي اتخذها الخلفاء العباسيون أعواناً على الإدارة كانت من الإيرانيين . وقد أجاب أنصار الفكر الإغريقي على ذلك بترجمة كتب السياسة الإغريقية : لأفلاطون وأرسطو ونحلوا الإغريق أحياناً ما لم يكتبوا ، كما فعل يوحنا بن البطريق ترجمان المأمون في كتابه سر الأسرار لتأسيس السياسة وتدبير الرياسة[2] وذلك رغبة منهم في إثبات الفكر السياسي الإغريقي أمام الفارسي ... وبين هذا وذاك وجد متكلمو الإسلام والمفكرون المجادلون دونه أنهم بدورهم مطالبون بصياغة الفكر السياسي الإسلامي ، من خلال العقيدة والتاريخ ومن هذا المزيج ، ظهر تيار من الكتب طويل كان من مؤلفيه :

— سهل بن هارون بن رامنوي الدستميساني (المتوفى سنة ٢١٥ / ٨٣٠) صاحب خزانة الحكمة للمأمون وكان شديد الشعوبية وان وصف الجاحظ براعته وفضله وقد كتب كتاب تدبير الملك والسياسة[3] ولعلّه من أقدم المؤلفات في هذا الباب .

— الفتح بن خاقان بن أحمد بن عزطوح البغدادي وزير المتوكل الذي

---

(١) انظر أبا حيان التوحيدي — الامتاع والمؤانسة (ط . القاهرة ١٩٣٩) ج ١ ص ٧٤ .
(٢) نشر هذا الكتاب وأثبت انتحاله على الاغريق عبد الرحمن بدوي في كتابه (الأصول اليونانية للنظريات السياسية الإسلامية — القاهرة ١٩٦٤) .
(٣) ابن النديم — الفهرست ص ١٢٠ والجاحظ — البيان والتبيين ج ١ ص ٢٤ .

قتل معه سنة ٢٤٧ وله بين كتبه العديدة كتاب أخلاق الملوك[١].

— ويعزى كتاب بالعنوان نفسه أيضاً إلى رجل من حاشية الفتح بن خاقان هو محمد بن الحارث التغلبي[٢].

— أبو الحسن علي بن ربن الطبري الطبيب النصراني (المتوفى حوالى سنة ٢٤٧) وقد أسلم على يد المتوكل وكتب كتاب الدين والدولة مزج فيه التاريخ بالمناقشة الفلسفية لإثبات تفوق الإسلام «وفساد اليهودية وبطلانها ومخازي الثنوية والدهرية وضلالها ...» وقد أعانه المتوكل نفسه على كتابة هذا الكتاب[٣] وقد ذكر ابن النديم لابن ربن كتاب تحفة الملوك أيضاً.

— الجاحظ (سنة ٢٥٥) وله بين كتبه المشهورة الكثيرة كتاب التاج في أخلاق الملوك وثلاثة أرباع الكتاب من التاريخ الاسلامي والفارسي وباقيه أفكار وآراء فكرية لتنظيم علاقة الملك بالحاشية والناس. وقد أهداه الجاحظ الفتح بن خاقان.

— ابن أبي طاهر أبو الفضل أحمد (سنة ٢٨٠) صاحب تاريخ بغداد كتب بدوره: كتاب خبر الملك العالي في تدبير المملكة والسياسة.

— أبو أحمد عبيد الله بن عبد الله (سنة ٣٠٠) له كتاب الرياسة في السياسة.

— أبو زيد البلخي أحمد بن سهل (سنة ٣٢٢) وقد كتب: كتاب السياسة

---

(١) المسعودي – مروج الذهب ج ١ ص ١٤ ووفيات العارفين ج٢ ص ٨١٤ والفتح بن خاقان هذا هو غير سميه الآخر الإشبيلي الأندلسي الوزير المقتول أيضاً سنة ٥٢٨ بمراكش، مؤلف قلائد العقيان ومطمح الأنفس وغيرهما.

(٢) انظر ابن النديم ص ١٤٨.

(٣) كان الكتاب قد طبع في مانشستر سنة ١٩٢٣ وقد طبع بالعربية في بيروت سنة ١٩٧٣ بتحقيق عادل نويهض.

الكبير وكتاب السياسة الصغير[1] .

ـ السرخسي أبو الفرج أحمد بن الطيب وله كتاب السياسة ، وكتاب أدب الملوك[2] .

ـ أبو جعفر أحمد بن يوسف بن ابراهيم المنجم المصري (بعد سنة ٣٣٠) المعروف بابن الداية المؤرّخ وقد كتب كتاب العهود اليونانية نحله اليونان وهو من وضعه في قواعد السياسة[3] .

ـ أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني (سنة ٤١٢) وله من جملة كتبه كتاب أدب السلطان والتأدب له في عشر مجلدات كتبه وهو في خدمة العزيز بالله الفاطمي[4] .

ـ الخطيب الاسكافي أبو عبد الله محمد بن علي (سنة ٤٢١) وله كتاب لطف التدبير في الرياسة ومنه مخطوط في مكتبة أحمد الثالث باستامبول رقم ٢٦٣٣ .

ـ هلال الصابيء أبو الحسن بن المحسن (سنة ٤٤٨) الكاتب المؤرخ وله أيضاً كتاب السياسة .

ـ وقد عاصره الماوردي أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري (سنة ٤٥٠) صاحب كتاب الأحكام السلطانية في الولايات الدينية الذي اشتهر بسبب ارتباطه بمؤسسات الدولة رغم طابعه الفقهي النظري . وللماوردي كتاب آخر على المنهج نفسه هو سياسة الملك .

ـ الفراء أبو يعلى محمد بن الحسين الحنبلي (سنة ٤٥٨) وقد عاصر الماوردي

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص ١٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٩ .
(٣) نشره عبد الرحمن بدوي في كتابه الأصول اليونانية .
(٤) الصفدي – الوافي ج ٢ ص ٣٠٤ – ٣٠٦ .

وكتب كتاباً بالعنوان نفسه الذي كتب به الماوردي : الأحكام السلطانية وليس من خلاف كثير بين الكتابيين سوى اضافة وجهة النظر الحنبلية في بعض الأمور .

- نظام الملك الحسن بن علي الطوسي الوزير (القتيل سنة ٤٨٥) وقد ألف خلال وزارته الطويلة للسلطان ملكشاه السلجوقي كتاب سياسة نامه بالفارسية أو سير الملوك وجعله على تسعة وثلاثين فصلاً نثر فيها آراءه في إقامة الدولة وتنظيمها مع الشواهد التاريخية .

- وكتب الإمام الغزالي أبو حامد محمد بن محمد بن محمد (سنة ٥٠٥) بالفارسية أيضاً كتابه : التبر المسبوك في سياسة الملوك ، الذي ترجم في القرن التالي إلى العربية وبقي إلى اليوم فعرفته العربية بهذه الترجمة.

وقد تكاثرت أمثال هذه الكتب في القرن السادس وخاصة في ظل حكم نور الدين وصلاح الدين اللذين أنعشا بأعمالهما الفكر الإسلامي :

- كتب الطرطوشي أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف الفهري (سنة ٥٢٠) كتاب سراج الملوك وهو مطبوع .

- وألف نظامي عروضي السمرقندي الوزير (سنة ٥٦٠) كتاب جهار مقالة بالفارسية وجعله أربع مقالات في كل مقالة عشر قصص تاريخية تتعلق بأركان الملك الأربعة : الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب .

- وكتب ابن ظفر المكي أبو عبد الله محمد بن محمد النحوي (سنة ٥٦٨) كتاب : سلوان المطاع في عدوان الطباع ، وجعله في قوانين الحكمة ونوادر أخبار السلاطين على لسان الطيور والوحوش . وبالرغم من أنه كتبه لبعض القوّاد في صقلية إلا أنه انتشر في مصر والمشرق وترجم بسرعة إلى الفارسية في القرن السابع .

- عبد الرحمن بن نصر الشيزري (سنة ٥٨٩) وله كتاب المنهج المسلوك ،

في سياسة الملوك ، ومنه مخطوطات في استامبول (أحمد الثالث رقم ٣٠١٤) ودار الكتب بالقاهرة (٢٩٢٧ أدب) وقد طبع .

- ابن الجوزي الإمام أبو الفرج (سنة ٥٩٧) وله حسن السلوك إلى مواعظ الملوك ، ومنه مخطوطات عديدة في أيا صوفيا (رقم ٤٨٢٥)[1] ومخوطا رقم (١٨٨٠) والمتحف البريطاني .

- ابن المهندس أبو الفضل محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثي الدمشقي (سنة ٥٩٩) ومن تصانيفه كتاب الحروب والسياسة .

- القناوي أبو الحسن شيث بن ابراهيم بن محمد (سنة ٥٩٩) وقد كتب : تهذيب ذهن الواعي في اصلاح الرعية والراعي .

- وثمة مخطوط مجهول المؤلف في مكتبة البودليان بأكسفورد (Or Sale 74) من القرن السادس بعنوان ايضاح المسالك وتدبير الدول والممالك .

- وكتب ابن مماتي أسعد بن المهذب (سنة ٦٠٦) صاحب قوانين الدواوين كتاب حجة الحق على الخلق في التحذير من سوء عاقبة الظلم وبيان حسن السياسة وهو كبير وكان صلاح الدين يديم النظر فيه وقال القاضي الفاضل وقفت من الكتب على ما لا تحصى عدته فما رأيت والله كتاباً يكون قبالة باب منه . وإنّه والله من أهم ما طالعه الملوك[1] .

- ابن ظافر الأسدي جمال الدين علي بن ظافر بن الحسين الوزير (سنة ٦١٣) وله بين كتبه العديدة كتاب أساس السياسة[2] .

- ابن حمويه الجويني أبو محمد عبد الله بن عمر بن علي (سنة ٦٤٢) وقد كتب كتاب السياسة الملوكية[3] .

---

(١) انظر المقريزي - الخطط ج ٣ ص ٥٩ .

(٢) هدية العارفين ج ٢ ص ٧٠٦ .

(٣) سبط بن الجوزي - مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٤٨ وابن كثير البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٦٥ .

- ابن الحداد محمد بن منصور بن حبيش الواعظ ، وقد كتب الجوهر النفيس في سياسة الرئيس . ونسخة المؤلف بخطه ما تزال محفوظة في مكتبة أياصوفيا باستامبول رقم (٤٨٢٤)[١] .

- الأمير ابن ندى الجزري محيي الدين بن الصاحب شمس الدين المتوفى بدمشق سنة ٦٥١ وكان صاحب الجزيرة وقد كتب عدة كتب سياسية هي : لطائف الواردات ، معالم التدبير ، مراشد الملك ، ضوابط الملك ، وظائف الرئاسة والتذكرة الملوكية[١] .

- سبط ابن الجوزي يوسف بن قزأوغلو (سنة ٦٥٤) صاحب مرآة الزمان وله : كنز الملوك في كيفية السلوك[٢] .

- ابن أبي الربيع شهاب الدين أحمد بن محمد (المتوفى حوالى أواسط القرن السابع) ألف للخليفة المستعصم آخر خلفاء بني العباس كتاب سلوك المالك في تدبير الممالك (وهو مطبوع) .

- وجاء في نهاية القرن السابع ابن الطقطقى فكتب كتاب الفخري في الآداب السلطانية فجعل نصفه لوصف الحاكم المثالي ولقواعد السياسة والنصف لتلخيص التاريخ الإسلامي كله .

وسوف تستمر هذه السلسلة وتتوسع أكثر التوسع في القرون التالية .

وأمّا كتب الإمامة : فقد تفرد هذا الموضوع وانتزع من ضلع البحث السياسي الفكري وحده لأنّه كان المحور الذي قامت من حوله خلافات الدنيا الإسلامية منذ أيامها الأولى . وإذا كان الجدل حوله سياسياً في صدر الإسلام الأول فقد تحول مع الأيّام إلى جدل تاريخي - سياسي من جهة كما دخلته معطيات الفكر الفلسفي ورواسب للديانات الأخرى من جهة ثانية ، فإذا

(١) الصفدي - الوافي بالوفيات ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣ .
(٢) كشف الظنون ج ١ ص ١٥١٩ .

به يتضخم على الأيام ككرة الثلج وتتفتح فيه مذاهب بعد مذاهب من الرأي . وإذا كان الشيعة أولاً والخوارج هم الذين حددوا أركان نظرياتهم في الخلافة وكتبوا في ذلك الرسائل والمؤلفات فقد كان طبيعياً أن يتبلور الجدل مع الأيام وخاصة بعد أن وطد العباسيون المذهب السني في عصرهم الأول فيدخل على نظرية الإمامة أمور من الفلسفة والتاريخ والفقه والمنطق والأدب .

ومن الصعب أن نتابع كل فرقة فيما ألفت حول هذا الموضوع ولكن من المؤكد أن نظريات الإمامة ولا سيما الشيعية منها قد دخل عليها الكثير من المعطيات الفكرية الفلسفية التي تتلاءم مع تطوّر المذهب الباطني وتعقده بصورة خاصة . وقد كانت الكتب الأولى في الإمامة أكثر تبسيطاً بكثير وأكثر اعتماداً على المعطيات التاريخية من الكتب المتأخرة التي يظهر فيها أثر الفقه والمنطق والالهيات ... وإذا بكّر الخوارج (وخاصة الأباضية) والشيعة في جمع الأدلة التاريخية والدينية والسياسية والفلسفية والمنطقية على صدق نظرتهم فقد اضطر السنّة بالمقابل لمجاراتهم واللحاق بهم وكثيراً ما كانت كتب السنيين تأخذ شكل « الرد على ... » مثل كتاب الباقلاني أو شكل الاستعراض لمختلف الفرق والنحل مثل كتب ابن حزم والشهرستاني ، كما كانت كذلك كتب الخوارج وكثير منها في الرّد على المرجئة وعلى المعتزلة وعلى الشيعة ... وقد ضاع الكثير من كتب الجدل حول الإمامة من مختلف الفرق منذ زمن طويل وابن النديم في أواخر القرن الرابع يكتب معترفاً بجهله كتب الخوارج قائلاً : « ولعلّ من لا نعرف له كتاباً قد صنف ولم يصل إلينا لأن كتبهم مستورة محفوظة »[1] .

ومن المؤلفين القدماء في الإمامة :

— ابراهيم بن اسحق الأباضي (سنة ١٤٥) وله كتاب الإمامة ولا شك أنه يعكس رأي الخوارج الاباضية [2] .

---

(١) ابن النديم — الفهرس ص ١٨٢ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٣ .

- الناجي الهيثم بن الهيثم وكتاب الإمامة الذي كتب هو بدوره أباضي .

- وكان علي بن اسماعيل بن ميثم التمار الطيار أول من تكلم في مذهب الإمامة الشيعي وكتب كتاب الإمامة. وكان جدّه من أصحاب الإمام علي .

- وهناك أبو محمد هشام بن الحكم مولى شيبان ، وهو أحد أصحاب جعفر الصادق ومن كبار متكلمي الشيعة ، وقد توفي فيما بين نكبة البرامكة وخلافة المأمون وله كتاب الإمامة .

- مؤمن الطاق (ولقّبه أهل السنّة شيطان الطاق) أبو جعفر محمد بن النعمان الأحول من أصحاب الإمام الصادق وقد كتب كتاب الإمامة أيضاً ...

ويتوالى المؤلفون بعد ذلك من الشيعة الإمامية : الشكال صاحب هشام ابن الحكم ، وأبو جعفر بن محمد بن قبة ، ثم أبو سهل اسماعيل بن علي النوبختي صاحب كتاب الاستيفاء في الإمامة وابن أخته أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي وكلاهما متكلم مشارك في الفلسفة والمنطق والكلام مؤلف فيها . ثم يأتي السوسنجردي ، والطاطري ، والجواليقي وأبو عبد الله ابن مملك الحضرمي(١) وهناك من مؤلفي الشيعة الزيدية في الإمامة : أبو الجارود وهو أبو النجم زياد ابن المنذر العبدي ، وفضيل الرسان بن الزبير ، وأبو خالد الواسطي وابن أبي الأسود والحسن بن صالح ابن حي ومقاتل بن سليمان ...(٢) .

ومن العلماء والمؤرخين المؤلفين في الإمامة أيضاً (٣) :

- الواسطي أبو عبد الله محمد بن زيد من كبار المتكلمين (توفي سنة ٣٠٦)

---

(١) يراجع في هذه الأسماء وما قبلها المصدر السابق فيما بين ص ١٧٥ - ١٧٨ .

(٢) انظر في هؤلاء ابن النديم - الفهرست ص ١٧٨ و ١٧٩ .

(٣) لا نذكر هنا الكتاب المنسوب إلى ابن قتيبة (سنة ٢٧٦) المسمى الإمامة والسياسة فهو كتاب تاريخ لا سياسة ولا يظهر فيه تأثير الفلسفة والعلوم على التاريخ .

« وله كتاب الإمامة وقد جوّد فيه » .

- ابن أبي ثلج أبو بكر محمد بن أحمد البغدادي الكاتب (٣٢٥) وله : تاريخ الأئمة .

- المسعودي (سنة ٣٤٦) ونجد في قائمة كتبه كتابي : الاستبصار في الإمامة والصفوة في الإمامة . وقد لخص هو نفسه موضوع الأول بقوله إن فيه وصف أقاويل الناس في ذلك من أصحاب النص والاختيار وحجاج كل فريق . كما قال عن الثاني إن فيه « ضروب علم الظواهر والبواطن والجلي والخفي والدائر والموافق ... » وفي ذلك ما يكفي لبيان وقوف الكتابين على العدوة بين التاريخ والفلسفة .

- أبو الحسين الملقي (سنة ٣٧٧) وله كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ونسخته المخطوطة في الظاهرية بدمشق (وقد طبع سنة ١٩٤٩ في القاهرة) .

- وثمة رسالة في الإمامة مخطوطة في مكتبة الاسكندرية (رقم ٣٨٤٣ج) لعلها من تأليف الوزير أبي القاسم اسماعيل بن عباد الملقب بالصاحب (المتوفى سنة ٣٨٥) وابن النديم يذكر له كتاب الإمامة في تفضيل علي[1] .

- وكتب الطبري محمد بن جرير بن رستم (غير صاحب التاريخ) من رجال القرن الرابع كتاب : دلائل الإمامة وهو على المذهب الشيعي (طبع في النجف سنة ١٩٤٩) .

- وكتب أبو عبد الله بن رزام (من القرن الرابع) كتاب الرد على الإسماعيلية .

- كما كتب سعد بن محمد أبو عثمان الغساني القيرواني النحوي كتاباً في الرد على الملحدين .

---

(١) ابن النديم – الفهرس ص ١٣٥ .

- وكتب الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب (سنة ٤٠٣) منطلقاً من مذهبه السني كتاب التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة . ومناقشته تقوم بين التاريخ والفلسفة ، كما كتب كتاب : كشف الأسرار وهتك الأستار في الرد على الباطنية .
- الشيخ المفيد محمد بن محمد النعمان البكري البغدادي (سنة ٤١٣) وقد كتب بين كتبه الكثيرة : الإفصاح في إمامة علي بن أبي طالب(مطبوع)
- البغدادي أبو منصور عبد القاهر بن طاهر (سنة ٤٢٩) صاحب كتاب الفرق بين الفرق .
- المرتضى علي بن الحسين (سنة ٤٣٦) وله : الشافي في الإمامة (مطبوع).

ويلاحظ منذ مطالع القرن الخامس أن كتب الخوارج حول هذا الموضوع قد انقطعت منذ فترة طويلة وأن كتب الشيعة قد استقرت على الشكل الجدلي وعلى التصعيد في حرمة البيت العلوي وبعضها انقطع بعد أن اطمأن إلى قيام خلافة أخرى لآل البيت في مصر (الفاطمية) ، وأنظمة متعددة لهم في مواقع متفرقة (المغرب مثلاً وطبرستان) بينما اتجهت الكتب السنيّة الباحثة في هذا الموضوع إلى « تنظير » الخلافة العباسية ووضع القواعد والنظريات والحدود والمراسم لها كجزء من نظام الكون كله ، ومن واقع ما جرى في التاريخ العباسي. ويتجلى هذا خاصةً في كتابي الماوردي والفراء (الأحكام السلطانية) اللّذين ظهرا في أواسط القرن الخامس .

وهكذا فإن الكتب المقبلة تأخذ كلها طابع الجدل الفكري النظري والمناقشة التي تستند إلى الفقه والفلسفة وعلم الكلام أكثر مما تستند إلى التاريخ ولم يكن السبب في ذلك فقط أن الحجج التاريخية قد تثلمت وانقطعت ولكن بسبب أن الخصمين الأساسيين اللّذين كانا يقفان في تلك الفترة للخلافة العباسية هما : الشيعة الإمامية التي مشت في طريق الجدل النظري دون العمل الثوري والباطنية التي انتشرت وفشت بين الناس بسبب ظهور الفاطميين وتنظيمهم الدعوة

وإقامتهم مركز « الأزهر » لها ولدعاتها . والباطنية تقوم على قاعدة فكرية فلسفية واسعة ولهذا أخذت مشكلة الإمامة منذ القرن الرابع والخامس شكل الجدل بين الفريق العباسي ، والفريق الفاطمي الباطني وضمن هذا الإطار كان بين المؤلفين :

– على بن سعيد الإصطخري (من مطالع القرن الخامس) كتب كتاباً في الرد على الباطنية .

– وفي الوقت نفسه ألف معتزلي آخر هو اسماعيل بن أحمد البستي كتاباً بعنوان : كشف أسرار الباطنية . منه نسخة مخطوطة لدى المستشرق غريفيني في ميلانو .

– محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي اليماني (أواسط القرن الخامس) من فقهاء السنّة في اليمن وقد كتب (كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة) ومنه نسخة خطية في دار الكتب بمصر وطبع سنة ١٩٣٩م.

– الجويني عبد الملك بن عبد الله المعروف بإمام الحرمين (سنة ٤٧٨) وقد كتب كتاب غياث الأمم في التياث الظلم يتحدث به عن الإمامة . ومنطلقاته سنية عباسية تتناول صفات أهل الحل والعقد وصفات الإمامة والمناسبات التي توجب الزعامة والطواريء التي توجب الخلع والانخلاع وإمامة المفضول كما يعنى بالحديث عمن يلي الأئمة والولاة . ومنه مخطوط في دار الكتب بالقاهرة (التيمورية) رقم ٨ اجتماع ، ونسخ أخرى في بلدية الاسكندرية (رقم ٩٢ تاريخ) .

– الإمام الغزالي أبو حامد محمد بن محمد بن محمد (سنة ٥٠٥) نصب من نفسه مدافعاً عن نظرية الإمامة العباسية في كتابه المستظهري الذي دعي أيضاً بفضائح الباطنية لأنّه كتبه في غمرة استفحال أمر الباطنية الإسماعيلية خاصةً وانتشار ارهابهم في الناس وفند أعمالهم ومعتقداتهم في الإلهيات والنبوات والإمامة والقيامة والتكاليف الشرعية وفي التأويل

الباطني ... وانتهى « بإقامة البراهين الشرعية على أن الإمام القائم بالحق الواجب على الخلق طاعته في عصرنا هذا (عصر الغزالي) هو الخليفة المستظهر بالله ... » .

– وكتب مجهول لعلّه من القرن السادس (الهجري) كتاباً « في ذكر الإمامة وما يتعلق بوجوبها وجوازها والأحكام الخاصة والعامة وإقامة الأدلة والبراهين على صحتها ... » وهو مخطوط كتب بخط عمر ابن ابراهيم الواسطي سنة ٦٣٢ نسخته في مكتبة فيض الله باستامبول (رقم ١١٧٢) .

– وكتب ابن الخشاب أبو محمد عبد الله بن أحمد البغدادي النحوي (المتوفى سنة ٥٦٧) كتاباً في تاريخ الأئمة منه نسخة مخطوطة في إيران .

وتظهر بعد القرن السادس ، وبين الفينة والأخرى كتب في الموضوع لا تعدو أن تكون أصداء وتكراراً القديم ومنها ما كتبه :

– سبط ابن الجوزي في كتابيه تذكرة الخواص ، وخواص الأئمة .

– ابن طاووس رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر (سنة ٦٦٤) وله على المذهب الشيعي اليقين في إمرة أمير المؤمنين . وكشف المحجة لثمرة المهجة .

– الأربلي أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح (سنة ٦٩٣) وله على التشيع أيضاً كتاب كشف الغمة في معرفة الأئمة .

ولقد وددنا لو كان في الوسع تناول هذه الكتب وما فيها بشيء مهما قل من التحليل والمقارنة لولا أن الموضوع يخرج بنا خارج نطاق البحث المحدد . على أنّه يجب أن لا تفوتنا هنا تسجيل ملاحظة هامة هي أنّه ما من شك في أن دراسة عن قرب أكثر إلى هذه الكتب المتشابهة الموضوع خلال العصور المتتالية من شأنها أن تكشف الكثير من المفاهيم السياسية والدينية العميقة للعصور التي

صدرت فيها . وتكشف بصورة خاصة تطوّر النظرية السياسية الإسلامية تحت تأثير التاريخ المعاش ، والأحداث التي اغتنت بها التجربة السياسية للشعوب الإسلامية .

(جـ) وتأثر التاريخ إلى هذا وذاك كله بنمو الجغرافيا وتكاثر رحلات الناس . وإذا كانت الحضارة الإسلامية العباسية حضارة « التاجر » فإن الفترة ما بين القرن الثالث حتى أواخر الرابع كانت الفترة التي بلغ فيها ذلك التاجر أوج نشاطه وتنقله واطلاعه على مختلف البلدان والطباع والأجناس والمناطق والامتزاج بها .

أن نوعاً من الجوع العلمي لأنواع المعرفة قد ظهر في القرن الرابع وهذا « الجوع » ميزة من ميزات العصور المتجهة نحو الاشباع الثقافي ونحو فترات الأوج الحضاري . وإذا كان القرن الرابع فيما يذكرون هو قرن الجغرافيا لأن كافة الكتب الأساسية فيها إنما ظهرت في هذا القرن فإنه كذلك قرن التاريخ ، وقرن تأثر التاريخ بهذا الفيض من المعلومات الجغرافية ، ممّا نجم عنه ظهور جيل من المؤرخين الجغرافيين .

ولعلّ أبرز من تمثل فيه التأثر بالجغرافيا من المؤرخين هو المسعودي في كتابيه الباقيين (مروج الذهب) و (التنبيه والاشراف) فقد كان لا ينقطع ، كلما سنحت الفرصة ، وخاصة في الأجزاء الأولى ، عن ايراد المعلومات الجغرافية العامة التي جمعها أو قرأها وهي خليط من الجغرافيا الفلكية والبشرية والتاريخية والطبيعية .

ويشبه المسعودي في التأثر الجغرافي اليعقوبي الذي قال عن نفسه « ... أني عنيت في عنفوان شبابي ... بعلم أخبار البلدان ... لأني سافرت حديث السن واتصلت أسفاري ودام تغربي فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ؟ وعن بلده ؟ ... زرعه ما هو ؟ وساكنيه من هم عرب أو عجم ؟ ... وعن شرب أهله حتى أسأل عن لباسهم ... ودياناتهم ومقالاتهم

والغالبين عليه ... واستظهر بمسألة قوم بعد قوم ... حتى سألت خلقاً كثيراً ... من أهل المشرق والمغرب وكتبت أخبارهم وذكرت من فتح بلداً .. بلداً وجند مصراً مصراً من الخلفاء والأمراء ومبلغ خراجه وما يرتفع من ماله ... » [1]

غير أن اليعقوبي الذي جمع بهذا الشكل الاستقرائي التراكي « علم أخبار البلدان » فصل علم الأخبار عن البلدان عند التأليف بعكس المسعودي فجعل للتاريخ كتاباً وللبلدان كتاباً آخر وان كان كل منهما متأثراً أوسع التأثر بالآخر .

ونجد التأثر ذاته وإن يكن على شكل إقليمي لا عالمي في تاريخ المستبصر الذى كتبه :

– ابن المجاور الدمشقي (؟) أبو الفتح يوسف بن يعقوب (بعد سنة ٦٣٠) فجاء الكتاب كتاب جغرافيا بشرية وتاريخية أكثر مما هو تاريخ لمنطقة جنوب الجزيرة العربية وعمان .

ولقد كانت المعلومات الجغرافية في كتب التاريخ قليلة قبل القرن الرابع وذات صبغة عملية : إدارية – شرعية تتصل بعلاقات الشعوب في الدولة الإسلامية مع نظام الحكم كما يتجلى ذلك في كتب الفتوح (فتوح البلاذري مثلاً). وكتب الخطط . أما بعد القرن الرابع فقد كان دخول المعارف الجغرافية إلى التاريخ نابعاً من الرغبة في المعرفة وسعة الاطلاع وتنويع المصادر . وقد شجع على ذلك أن بعض كتب الجغرافيا كانت مثقلة بأخبار التاريخ مثل كتاب ابن حوقل (صورة الأرض) وكتب المسالك والممالك ...

غير أن المؤرخين ، بعد القرن الرابع ، لم يذهبوا قدماً مع هذا التأثر الذي انحصر فيما بعد في اتجاهات خمسة :

الأول : فأمّا في كتب التاريخ العامة (العالمية) فان من تابعوا الطبري في خطه التاريخي (مثل ابن الأثير) لم يأبهوا كثيراً بالوصف الجغرافي للأقاليم

(١) اليعقوبي – البلدان (ط . دي غويه) ص ٢٣٢ .

رغم أن عدداً منهم قد أقرّ (مثل مسكويه) بأن أخبار البلدان تشكل مجموعة خاصة من المصادر التاريخية التي يمكن المؤرخ أن يستخدمها[1] ومن تابعوا المسعودي اكتفوا بإيجاد تقليد في التأليف التاريخي يقضي ببدء المؤلفات بلمحة جغرافية عامة عن المناطق والأقاليم في الأرض ، ونجد ذلك واضحاً في المنتظم وموجزه شذور العقود لابن الجوزي وفي الجزء الأول من مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ... وفي البداية والنهاية لابن كثير فيما بعد ولدى العيني والدواداري ...

الثاني : وأمّا في كتب التاريخ الإقليمية فقد جرى تقليد آخر من النوع نفسه هو التمهيد للبحث التاريخي بنظرة جغرافية طبغرافية للإقليم : جباله وأنهاره ومدنه وأديانه وسكانه . ومن أمثلة ذلك كتاب الإكليل للهمداني في تاريخ اليمن وكتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم وكتاب الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لعز الدين بن شداد .

الثالث : ومثل ذلك التقليد جرى في التواريخ البلدانية المتعلقة بالمدن وبخاصة بعد المقدمة الطبغرافية التي قدم بها الخطيب البغدادي لتاريخ بغداد وبعد شهرة هذا التاريخ شهرة جعلته النموذج للاحتذاء فلا يكاد يخلو تاريخ مدينة من مقدمة طبغرافية . وإذا تركنا جانباً مثال تواريخ مكة والمدينة وتفصيل مواقعها ممّا يرجع إلى حاجات الحجيج والعبادات الدينية فإن النرشخي قد قدم لتاريخ بخارى بمقدمة طبغرافية ، كتب مثلها أبو نعيم لكتابه تاريخ أصفهان ، والحسن ابن محمد القمي لتاريخ قمّ والمفضل المافروخي في محاسن أصفهان .

ونجد التنظيم نفسه في تاريخ دمشق لابن عساكر الذي خصص جزءاً واضحاً لطبغرافية المدينة .

---

(١) انظر مسكويه – تجارب الأمم ج ١ – المقدمة (ط . كايتاني – ليدن ، لندن ١٩٠٩) .

الرابع : ذكر خطط المدن : ولم يكن يقصد بها ذكر تخطيط المدينة القائم زمن المؤلف ولكن تخطيطها التاريخي والأثري . وقد ظهر هذا النوع من التأليف قبل ظهور التأثير الجغرافي . وأمّا السبب فيظهر من أسماء المدن التي اتجه التأليف الأول إليها : فهناك خطط الكوفة للهيثم بن عديّ وخطط البصرة له أيضاً وكتاب القبائل والخطط لأبي زكريا الأزدي صاحب تاريخ الموصل ، وهذا يعني حفظ منازل العرب في أمصارهم الجديدة . ويعني أيضاً أنّه تأليف خاص بالمدن الإسلامية المنشأ .

غير أن هذا النوع من الدراسة الطبغرافية الأثرية لم يجد صدى له إلا في مصر (الفسطاط) فهنالك استقر وازدهر وظلت كتب الخطط تظهر تباعاً للفسطاط فالقطائع فالقاهرة حتّى القرن التاسع الهجري (١٥ ميلادي) وكان ممّن عمل على ذلك :

- الكندي أبو عمر محمد بن يوسف التجيبي (٣٥٠/ ٩٦١) صاحب كتاب الولاة والقضاء وقد كتب من جملة كتبه : كتاب الخطط عن إنشاء الفسطاط وأحيائها ومعاهدها وآثارها . فهو حسب قول المقريزي أول من رتب خطط مصر وآثارها .
- وبعد قرن جاء القضاعي : أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر الشافعي (٤٥٤ / ١٠٦١) فكتب : المختار في ذكر الخطط والآثار .
- ابن هلال الصعيدي النحوي أبو عبد الله محمد بن بركات (٥٢٠ / ١١٢٦) وقد كتب تاريخ خطط مصر .
- الجواني شرف الدين أبو علي محمد بن أسعد نقيب الأشراف (٥٨٨) وله خطط مصر .

ثم جاء ابن عبد الظاهر بعد ذلك ، وابن المتوج الذي كان آخر من

كتب خطط مصر قبل المقريزي .

الخامس : ذكر المنازل والديار والمواقع في الجزيرة العربية . ذلك أن علاقات هذه المواقع بالتاريخ العربي وبالأدب والشعر واللغة جعل من الضروري معرفة تلك المواقع وتاريخها . ومن ذلك مثلاً :

- كتاب الزمخشري (٥٣٨) المسمى كتاب الجبال والبقاع والمياه .
- وكتاب ابن عراق أبي الحسن علي بن محمد الخوارزمي العمراني (سنة ٥٦٠) المسمى : اشتقاق أسماء المواضع والبلدان .
- وكتاب الإسكندري أبي الفتح نصر بن عبد الرحمن الطوسي (٥٦٠) المسمى أسماء البقاع .

وقد اختصره من بعده مؤلفان : أبو موسى محمد بن عمر الأصبهاني (سنة ٥٨١) وأبو بكر محمد بن موسى الحازمي (سنة ٥٨٤) وكلها تمزج التاريخ بجغرافية المواقع وخاصة في الجزيرة العربية .

٥ ـ أثر التمزق السياسي

وتأثر التاريخ في هذه الفترة بالتمزق السياسي الذي أصاب الشرق الاسلامي العباسي منذ أواخر القرن الثالث . وبالرغم من أن هذا التأثر هو موضوع جدل ولا نستطيع أن نؤكد إلى أي حد يمكن اعتبار «محلية» التاريخ هي المقابل في الحياة الفكرية لفقدان الوحدة السياسية إلاأننا لا نستطيع اهمال هذه الظاهرة . ذلك أن ضعف المركز السياسي (بغداد) الذي سمح للقوى المحلية في أنحاء الخلافة العباسية بأن تنمو وتملأ حدودها الخاصة قد رافقه في الوقت نفسه ظهور تواريخ محلية مستقلة عن تاريخ الوحدة السياسية الواسعة للخلافة العباسية ، كما وازاه أيضاً وكصدى للحكم الاستبدادي ولبروز الشخصيات الحاكمة من جهة

ولحكم الأسر وبروز الأسر الصغرى المتسلطة من جهة أخرى ظهور السير للشخصيات البارزة من سياسية وعلمية وظهور التواريخ الخاصة للأسر المحلية الصغيرة . وإذا هزت بعض الأحداث الفاجعة التي تعرض لها دون انقطاع أبناء الأسرة العلوية والطالبيون بصورة عامة فظل الشيعة يعملون على تسجيل ذلك باستمرار محبة لآل البيت وتفجعاً وتأكيداً للولاء وشحذاً لعزائم الفرق الشيعية فان الاهتمام بالمواضيع المحددة قد ضعف بالمقابل وأخذت تخبو تلك الطريقة ، الأخبارية الأصل ، في التأريخ لبعض الأحداث الهامة ، بكتب أو رسائل خاصة .

وهكذا فإن التواريخ العالمية التي توجت وأعقبت عصر النضج السياسي العباسي والتي تمثلت في تاريخ الرسل والملوك للطبري (المتوفى سنة ٣١٠) وتاريخ أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ، ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (المتوفى سنة ٣٤٦) تغيرت مفاهيمها في الوحدة أولاً فصارت مع مسكويه (المتوفى سنة ٤٢١) تاريخ تجارب الأمم المتعددة . ثم ضعف مفهوم التواريخ العالمية الواحدة نفسه وغاب عن التأليف التاريخي ، انسجاماً مع الواقع السياسي الممزق ، وغياب الوحدة الاسلامية ، فلم تعد تظهر هذه التواريخ حتى نهاية الفترة العباسية حين عادت من جديد ، مع ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠) في «الكامل» ومع سبط ابن الجوزي (المتوفى سنة ٦٥٤) في «مرآة الزمان» ...

بلى ! ظهر الكثير من المؤلفات في التاريخ العام ولكن عناوينها تكشف مفاهيم التفرق والخصوصية فيها . وقد كانت هذه العناوين على الأشكال التالية : إما مقتصرة على الخلفاء مثل :

- أخبار الخلفاء للدولابي[1] أبي بشر محمد بن أحمد بن حماد الأنصاري الوراق الحافظ (المتوفى سنة ٣١١ أو سنة ٣٢٠) .

---

(١) الصفدي – الوافي بالوفيات ج ١ ص ٥١ ، والسمعاني – الأنساب ورقة ٢٣٢ ظهر .

- سير الخلفاء. الرازي[1] أبي بكر محمد بن زكريا الطبيب (المتوفى سنة ٣١١).
- تاريخ الخلفاء . السرخسي أبي نصر زهير بن حسن بن علي الجذامي (المتوفى سنة ٤٥٤ / ١٠٦١) .
- تاريخ الخلفاء . لشيرويه أبي شجاع بن شهردار الهمداني (المتوفى سنة ٥٠٩ / ١١١٥) .
- الأنباء في تاريخ الخلفاء . العمراني جمال الدين محمد بن علي بن محمد (المتوفى بعد سنة ٥٦٠ / ١١٦٥) .
- الاكتفاء بأخبار الخلفاء . لابن الكردبوس عبد الملك بن قاسم التوزري (المتوفى بعد سنة ٥٧٥ / ١١٨) .
- تاريخ الخلفاء . الرومي (السروجي) أبي الحسن عليّ بن عبد الله بن أبي السرور المصري (المتوفى سنة ٦٤٨ / ١٢٥٠) .
- الأصطفا في أخبار الملوك والخلفا . لابن طاووس أبي القاسم علي بن موسى الحسني الحلبي (المتوفى سنة ٦٦٤ / ١٢٦٦) .
- أخبار الخلفاء (٣ مجلدات) لابن الساعي علي بن أنجب البغدادي (المتوفى سنة ٦٧٤ / ١٢٧٥) .

أو كانت مقصورة ومحددة باسم العباسيين مثل :

- تاريخ بني العباس . لسمكة أحمد بن اسماعيل بن عبد الله البجلي القمي الشيعي (المتوفى حوالى سنة ٣٣٠) .
- أخبار العباسيين . لأحمد بن يعقوب المصري (المتوفى في حدود سنة ٣٠٠) أحد مصادر المسعودي .
- أخبار بني العباس . لعبد الله بن الحسين بن سعد الكاتب (المتوفى سنة ٣٧٢) .

وبعد أن كانت هذه التواريخ العامة العباسية تحمل اسم : «كتاب الدولة»

---

(١) المسعودي – مروج الذهب ج ١ ص ١٥ ، والصفدي – الوافي ج ١ ص ٥١ .

في القرن الثالث — وقد كتبها تحت هذا العنوان نفسه ، سبعة مؤلفين على الأقل وهم : الهيثم بن عدي ، ومحمد بن الهيثم بن شبابة ، وابن ناجية وابن النطاح وابن مهران ، والمدائني وسلمويه والراوندي والحسن بن ميمون البصري — تحوّل العنوان بعد ذلك إلى « الدول » المتعددة ، فصارت العناوين :

- كتاب الدول . وقد كتبه الربعي أبو الحسن علي بن عيسى بن الفرج الزهيري (المتوفى سنة ٤٢١) في ثلاثين مجلداً ، أو كتبه المجاشعي[1] أبو الحسن بن فضال القيرواني (المتوفى سنة ٤٧٩ / ١٠٨٦) .
- كتاب تاريخ البلاد الإسلامية لأبي منصور ظافر بن الحسين المصري الأسدي (المتوفى سنة ٥٩٧ / ١٢٠١) .
- كتاب الدول المنقطعة لابن ظافر جمال الدين علي بن الحسن الأسدي (المتوفى سنة ٦١٣ / ١٢١٦) .
- كتاب نزهة المقلتين في أخبار الدولتين (وليس يعني بذلك الدولة العباسية بل الفاطمية والصلاحية) لابن الطوير القاضي (المتوفى سنة ٦١٧ / ١٢٢٠) .
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) لأبي شامة عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي (سنة ٦٦٥) .
- كتاب الدول لياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦) .

بل أخذت العناوين ملامح التمزّق الأوسع والندب المؤلم ، كما يتجلى ذلك في عناوين :

- كتاب زهر الربيع في الأخبار والتاريخ لقدامة بن جعفر (المتوفى ٣٣٧).
- كتاب الأوراق وكتاب « الأخبار المنثورة »[2] للصولي أبي بكر محمد ابن يحيى (المتوفى سنة ٣٣٥ / ٩٤٧) .

---

(١) انظر ياقوت – الأدباء ج ٥ ص ٢٨٩ .
(٢) أما الأوراق فمعروف وأما الأخبار المنثورة فذكره ابن خير الأندلسي في فهرسه ص ٤٠٧ .

– كتاب البداية والنهاية لابن منقذ أبي الحسن علي بن مرشد بن علي الكناني (المتوفى سنة ٥٤٥ / ١١٥٠) .

وحتى حين ظهر في أواخر القرن السادس (بين سنة ٥٧٠ – ٥٧٥) كتاب المنتظم لابن الجوزي أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى سنة ٥٩٧) وأراد صاحبه أن يجعله تاريخاً عاماً لم يكن ذلك التاريخ على ضخامته ولا سيما في نصفه الثاني المطبوع أكثر من تاريخ لبغداد خاصة ومنطقة العراق المحيطة بها بصورة عامة . لقد كان ابن الجوزي يمثل في الواقع ويؤرخ تلك الفترة التي استيقظت فيها الخلافة العباسية وأضحت فيها لا خلافة شاملة كما كانت من قبل ولكن مجرد إمارة محلية عراقية يحكمها خليفة بغداد الذي حمل بجانب اسمه الديني المحدود سلطة زمنية في منطقة العراق يومذاك . الوحيدون من المؤلفين الذين حافظوا على فكرة « الوحدة » الاسلامية ومثلوا تلك الفكرة على مستواها فضه من الضعف والضبابية ، وعبروا عن بقائها في النفوس رغم التمزق السياسي الظاهر هم أولئك الذين ذيلوا على الطبري واعتبروا تواريخهم مكملة لتاريخه . لقد كانوا يعبرون بذلك عن إيمانهم بوحدة تجارب الأمة الاسلامية ، وباستمرار تاريخها الواحد المتصل . وهكذا فان السلسلة التي توالت فيها أسماء أبي اسحق السقطي (أواسط القرن الرابع) وعريب بن سعيد (المتوفى سنة ٣٦٠) وعبد الله ابن أحمد الفرغاني (المتوفى سنة ٣٦٢) ثم هلال ابن ابراهيم الصابيء (المتوفى سنة ٤٤٧) ثم ابنه غرس النعمة (المتوفى سنة ٤٨٠) ثم محمد بن عبد الملك الهمداني (المتوفى سنة ٥٢١) ثم أبي الحسن علي بن عبيد الله الزاغوني (المتوفى سنة ٥٢٧) ثم صدقة الحداد (المتوفى بعد سنة ٥٧٠) ثم أبي غالب الشيباني (المتوفى سنة ٥٩٧) ثم محمد بن أحمد القادسي (المتوفى سنة ٦٣٤) . هذه السلسلة من أصحاب الذيول المتتالية إنما كانت تحاول الابقاء على التقاليد ودعم فكرة الوحدة الاسلامية بالاستمرار في كتابة التاريخ بروح اسلامية شاملة (بان اسلامية) ولكن أعمال هؤلاء التي لم يكشف عن وجود معظمها حتى الآن قد توحي بأنها من الدرجة الثانية في القيمة التاريخية وقد تدفع إلى الاعتقاد بأنها تركز خاصة

على العراق وعلى المناطق المتصلة به الاتصال المباشر .

وإذا لم نعتبر ضياع معظم هذه الذيول التي كتبها هؤلاء وضياع معظم تواريخ « الأوراق » و « الدول » وتواريخ « العباسيين » و « الخلفاء » التي سبق ذكرها دليلاً على قيمتها المتواضعة فإنا قد نفسر ذلك الضياع بأنه الدليل على اهمال الناس لمنطلقها التاريخي العام الشامل أو أنها كانت من الإقليمية بحيث لم تستطع الارتقاء ولا البرهان على وجود الوحدة الشاملة والا فمن العجيب ضياع الكثرة الكاثرة من هذه المؤلفات وأن يضيع منها خاصة كتاب « الدول » الضخم الواسع للربعي بينما بقي بالفعل ما ألف قبلها من تآليف الطبري والمسعودي وما ألف بعدها على يد ابن الأثير وسبط ابن الجوزي ثم الذهبي والآخرين ...

والواقع أننا يجب أن ننتظر حتى نهاية الفترة العباسية التي ندرس أي حتى النصف الأول من القرن السابع لنرى من جديد يقظة التواريخ العامة الواسعة ، تبعاً ليقظة العالم الاسلامي في وجه الغزوين الصليبي والمغولي والأزمة الخطيرة التي عاناها ذلك العالم أمام تلك الهجمات المدمّرة المبيدة . ففي تلك الفترة ما بين سنة ٦٠٠ حتى ٦٥٠ ظهرت في وقت واحد مجموعة واسعة من الكتب « البان .. إسلامية » الشاملة ومن التواريخ العامة الجامعة لمختلف نواحي الحياة الاسلامية. وإذا كان الطبري قد كتب في مطالع القرن الرابع تاريخه الشامل فقد جاء ابن الأثير ليكتب بين سنة ٦١٥ ـ سنة ٦٢٩ كتابه « الكامل» . وإذا كتب المسعودي بعد الطبري مباشرة كتابه « أخبار الزمان » فقد استيقظ هذا الاسم نفسه من جديد في عصر ابن الأثير وكتب :

ـ ابن أبي طي يحيى بن حامد النجار الغساني الشيعي (المتوفى سنة ٦٣٠ / ١٢٣٣) كتابه حوادث الزمان ، جعله لأحداث التاريخ على الاحرف الأبجدية في خمس مجلدات وكتب أيضاً تاريخه الضخم الآخر : معادن اللهب في تاريخ الخلفاء والملوك وذوي الرتب ، وقد ضاع الكتابان

إلا من بعض المقتبسات التي أخذها ابن الفرات (المتوفى سنة ٩١٠) من الكتاب الثاني .

— سبط ابن الجوزي يوسف بن قزأوغلي (المتوفى سنة ٦٥٤ / ١٢٥٦) الذي كتب (مرآة الزمان) في أربعين مجلداً ما تزال في معظمها مخطوطة موزعة في المكتبات .

— ابن نظيف الحموي أبو الفضائل محمد بن علي بن عبد العزيز الغساني الحموي (المتوفى بعد سنة ٦٣١ / ١٢٣٤) الذي كتب في عدة مجلدات كتاب الكشف والبيان في حوادث الزمان . بجانب كتابه المختصر الآخر في التاريخ العام « التاريخ المنصوري » .

— ابن أبي الدم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله الحموي (المتوفى سنة ٦٤٢ / ١٢٤٤) وقد كتب كتاب (المقفى) على الأحرف الأبجدية في مجلدات عديدة بجانب المختصر الآخر في التاريخ العام (التاريخ المظفري) .

واستيقظ أيضاً ذلك العنوان الذي كتبه في عصر المسعودي :

— ابن سوار أبو عبد الله محمد بن الحسين (ابن أخت عيسى بن فرخان شاه) واسم تاريخه : التاريخ الجامع لفنون الأخبار . فكتب العماد الأصفهاني القاضي (وهو غير العماد الكاتب) تاريخاً بعنوان :

البستان الجامع للتواريخ .. وقد توفي العماد القاضي بعد سنة٥٩٣/١١٩٧ .

وانتشرت عدوى التواريخ العامة في تلك الفترة من أواخر عهد الخلافة العباسية فأعطتنا عدداً من أهم المؤلفات التاريخية الكبرى ويكفي أن نعد منها كتب :

— ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ومعجم البلدان ، كتاب الدول (وهو ضائع) .

— ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة . الكامل في التاريخ .

– والمقدسي عبد الغني بن عبد الواحد الحنبلي (المتوفى سنة ٦٠٠) كتاب الكمال في معرفة الرجال في خمس مجلدات .

– والقفطي (المتوفى سنة ٦٤٦) إنباه الرواة على أنباه النحاة، وإخبار العلماء بأخبار الحكماء وأخبار المصنفين ومؤلفاتهم .

– ابن النجار محب الدين بن محمود البغدادي (المتوفى سنة ٦٤٣) الكامل في معرفة الرجال .

– سبط ابن الجوزي سنة (٦٥٤) : مرآة الزمان .

– وابن أبي أصيبعة (المتوفى سنة ٦٦٨) كتاب : طبقات الأطباء . وكتاب معالم الأمم وأخبار ذوي الحكم (ضائع) .

فكأنما كان هؤلاء المؤلفون يقيمون جرد الحساب الأخير لتاريخ وحضارة العصور العباسية كلها ويجمعون أطراف أخبارها وأعمال رجالها حتى أواسط القرن السابع ، ويكاد هذا القرن في الاهتمام التاريخي يعدل القرن الرابع .

٦ – ظهور التواريخ المحلية والخاصة

ومقابل هذا التراخي في الاهتمام بالتواريخ العامة (في أواسط الفترة) ظهرت بالطبع التواريخ الإقليمية والمحلية وتواريخ المدن . كان ذلك نوعاً من التعويض . ضاقت رقعة التواريخ،مع ضيق مناطق الدول ورقاع الإمارات كما قصرت وتقلصت أحياناً كثيرة في الزمن . فاقتصرت على فترة محددة أو على أسرة معينة أو على مدينة أو على شخصية واحدة . وبالرغم من أنه لم يكن ثمة حد واضح ولا خط فاصل لدى المؤلفين بين التاريخ الإقليمي والتاريخ العام ولا بين الأخبار الحضارية والسياسية ، فإن مجموع الكتب التاريخية التي أرخت الفترة الممتدة ما بين القرن الرابع حتى القرن السابع كانت محدودة المدى الزمني كما أخذت العناوين المحلية أو عناوين المدن ، أو اختصت بأسر أو بأشخاص ... وقد اختفت تدريجياً من بينها تلك العناوين «الأخبارية» والمواضيع التي تفرد

لحدث خاص أو واقعة سياسية محددة كما كان عليه العهد بالرسائل والكتب التاريخية في القرنين الثاني والثالث . ومعظمها إنما كان في القرن الرابع وما يجاوزه . وهكذا كانت أعداداً محدودة تلك الكتب التي تتحدث مثلاً : عن البرامكة ، كالكتب التي ألفها :

– أبو حفص عمر بن الأزرق (من القرن الرابع) وكتابه أخبار البرامكة كان أحد مصادر ابن العديم في كتابه بغية الطلب وقد نقل عنه[1].

– وللمرزباني (المتوفى سنة ٣٧٨) وقد ألف فيهم كتاباً أشار إليه ياقوت وأخذ عنه[2] وذكر ابن النديم أنه في ألف صفحة .

– وابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧) وقد أشار إلى كتابه في البرامكة صاحب كشف الظنون[3].

– وذكر السخاوي لبعضهم من المؤلفين المجهولين كتاباً في أخبار البرامكة في مجلدين[4].

وكتب آخرون في أخبار الزنج ، أو أخبار الخوارج أو ثورة بابك الخرمي أو يزيد بن معاوية والأمويين ومن ذلك :

– في أخبار صاحب الزنج كتاب أبي بشر أحمد بن ابراهيم بن أحمد القمي الشيعي (المتوفى بعد سنة ٣٥٠) وكان جده من أصحاب ذلك الزعيم علي بن محمد من عبد القيس الذي تزعّم ثورة الزنج .

– وكتاب شيلمة محمد بن الحسن الخارجي الكاتب (المتوفى محروقاً سنة

---

(١) ابن العديم – بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ٨ ورقة ٢٦١ ظهر ، ومخطوط (المكتبة الأهلية بباريس رقم ٢١٣٨ Ar) وورقة ١٠ ظهر .

(٢) انظر ياقوت – الأدباء ج ٧ ص ١٣٤، ج ١٨ ص ٢٦٩ وانظر ابن النديم – الفهرس ص ١٣٤.

(٣) حاجي خليفة – كشف الظنون ج ١ ص ١٨٥ رقم ١٨٤ (ط . فلوجل) و ج ١ ص ٢٦ (ط . طهران) .

(٤) انظر السخاوي – الإعلان ص ٥٧٦ .

٢٨٠) واسم كتابه أخبار صاحب الزنج ووقائعه[1].

وفي أخبار الخوارج الذين كانت ثوراتهم الحادة قد خمدت واستقر أمر بعض فرقهم في عمان وأفريقية ومنها :

– كتاب كتبه المسعودي (المتوفى سنة ٣٤٦) .

وفي أخبار بابك كتب واقد بن عمر التميمي كتاباً قرأه ابن النديم ونقل عنه[2].

وفي أخبار المقنّع كتب مؤلف مجهول اسمه ابراهيم نقل عنه النرشخي في تاريخ بخارى[3].

وفي أخبار يزيد بن معاوية كتب كل من :

– أبي العباس محمد بن العباس اليزيدي المتوفى سنة ٣١٣ .

– وأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري اللغوي (المتوفى سنة ٣٧٠)[4].

كما كتب أبو عبد الرحمن خالد بن هشام الأموي كتاب التاريخ وأخبار الأمويين ومناقبهم وذكر فضائلهم وما أتوا به عن غيرهم وما أحدثوه من السير في أيامهم[5].

وندر جداً أن توقف مؤرخ في العصور التالية للقرن الرابع ليؤرخ حادثاً مفرداً كما فعل مثلاً :

– ابن زريق أبو الحسن يحيى بن علي بن محمد التنوخي المصري (المتوفى

---

(١) انظر الطوسي – الفهرس ص ٥٤ وانظر ابن النديم – الفهرس ص ١٢٧ .
(٢) النرشخي – تاريخ بخارى ص ٩٤ .
(٣) انظر ابن النديم – الفهرس ص ٣٤٣ .
(٤) انظر كشف الظنون ج ١ ص ٢٨٩ و ج ١ ص ٣١ (ط . طهران) .
(٥) المسعودي – مروج الذهب ج ١ ص ١٥ .

بعد سنة ٥٠٨ / ١١١٤) والذي أرخ لدخول السلاجقة والصليبيين إلى الشام في كتاب ضاع أثره .

- والعماد الأصفهاني الكاتب المعروف (المتوفى سنة ٥٩٨ / ١٢٠٢) في كتابه الفتح القدسي حول معركة حطين .

إن الموضوع الوحيد الذي استمر حيا على الأقلام والتأليف بسبب من ارتباطه المذهبي بالفرق الشيعية هو موضوع مناقب ومصارع آل أبي طالب وقد ألف فيه الكثيرون ومنهم :

- ابن حمزة العلوي أبو عبد الله محمد القرشي (المتوفى سنة ٢٨٧ / ٩٠٠) وقد سمى كتابه مقاتل الطالبيين .
- الثقفي أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عمّار الثقفي الكاتب (المتوفى سنة ٣١٩) واسم كتابه : كتاب المبيضة في أخبار مقاتل آل أبي طالب[1] .
- أبو الفرج الأصبهاني (المتوفى سنة ٣٥٦) وكتابه مقاتل الطالبيين مطبوع معروف .
- الشيخ المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري العربي الحارثي (٣٣٦ - ٤١٣ / ٩٤٧ - ١٠٢٢) وقد كتب : الارشاد إلى معرفة حجج الله على العباد ، وهو تاريخ الأئمة الإثني عشر (مخطوط في لندن والقاهرة وطهران) وقد طبع في طهران منذ حوالى مائة سنة (١٢٩٧ و١٣٠٨) .
- الطبرسي أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (المتوفى بين أواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس) والذي كتب : تاريخ الأئمة .
- وابن الخشاب أبو محمد عبد الله بن أحمد البغدادي النحوي (المتوفى

---

(١) ابن النديم - الفهرس ص ١٤٨ .

سنة ٥٦٧ / ١١٧١) وله أيضاً تاريخ الأئمة (مخطوط) .

– والطبرسي أبو جعفر محمد بن علي بن شهراشوب المازندراني (المتوفى ٥٨٨ / ١١٩٢) وقد كتب بين كتبه العديدة : مناقب آل أبي طالب .

– ابن الأخضر عبد العزيز بن محمود (المتوفى سنة ٦١١ / ١٢١٤) وله : معالم العترة النبوية ومعارف أهل البيت الفاطمية العلوية .

– الكنجي أبو عبد الله محمد بن يوسف القرشي الدمشقي (المتوفى سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠) وقد كتب : كفاية الطالب في مناقب آل أبي طالب (مطبوع) .

وإذا كانت التواريخ المحلية التي ظهرت في مصر خاصة وفي الشام واليمن قد كونت نوعاً من المدارس التاريخية الإقليمية في هذه البقاع مما يرشحها لأن تبحث في فقرات خاصة بها من بعد ، فان المدرسة العباسية – الأم تفضنها اقتصرت تواريخها الشاملة منذ القرن الرابع على المناطق العراقية خاصة والايرانية مما جعلها بدورها مدرسة اقليمية كبرى وان تكن أمّ المدارس الأخرى . كما تمزقت تواريخها أيضاً منذ القرن الرابع ما بين أنواع من التواريخ : بعضها للأقاليم والمدن وبعضٌ للأسر وبعض لسير الأشخاص أو التراجم . وهذا التمزق لم يكن قاصراً بالطبع على هذه المدرسة ولكنه شمل المدارس الثانوية التابعة لها بدورها أيضاً ، في مصر خاصة وفي الشام واليمن على السواء .

وطغيان تواريخ المدن على التدوين التاريخي يعكس شعور هذه المدن والأقاليم المرتبطة لها بالانفصال عن المركز والتفرد في المصير وبوضوح الاسهام اللذاتي لديها ضمن التراث المشترك . وبالرغم من أن تاريخ بغداد لم يكن أول التواريخ البلدانية التي كتبت – وكان طبيعياً أن لا يكون أولها لأن بغداد العاصمة الكبرى سوف تتأخر كثيراً قبل أن تشعر بوحدتها وتعترف بانفضاض الأقاليم عنها – ومع ذلك فان تاريخ بغداد حين كُتب توالى على كتابة الذيول عليــه عدد واسع من المؤرخين حوالى ثلاثة قرون . ولما كانت هي المدينة – الأم فقد أضحى تاريخها

بدوره التاريخ الأم، والنموذج المحتذى للمدن الأخرى. وبعد أن كان ابن طيفور في القرن الثالث خاصة قد كتب تاريخ بغداد على أساس سياسي وأرخ لخلفائها من العباسيين الأوائل وممن تبعهم فقد كان انحطاطها السياسي سبباً في تحول الأنظار المؤرخة إلى فعالياتها العلمية والفكرية . وقد جاء الخطيب البغدادي فعبر عن عملية التعويض هذه حين كتب تاريخ هذه المدينة لا على أساس أحداثها السياسية وخلفائها ووزرائها والكتابة في اطار النسيج التاريخي السنوي أو الحادثي، ولكن على أساس الرجال الذين اضطربوا في أسواق تلك المدينة وجوامعها ومدارسها وبلاطاتها وقصورها والصوامع ... مزق المدينة كوحدة أحداث تاريخية اجتماعية متفاعلة ليجعل منها تجمع أفراد وتراكماً عرضياً لأشخاص متروكين لمصائرهم ... وصار الاطار المكاني لهذه المدينة ولغيرها من سور وأبواب هو الرابطة وناسج الوحدة والصلة بين هؤلاء الأفراد الذين كان تنظيمهم في هذه التواريخ « المدنية » البلدانية على أساس المعاجم وحروف الأسماء يسهم مرة أخرى في تمزيقهم أيضاً بما يجمع بين أصحاب العصور المتباعدة ، بسبب التقارب في الاسم أو يباعد بين المتعاصرين لتباين الاسم أيضاً...

على أن هذا التحطيم لعلاقات الزمان من جهة ولنسيج الأحداث التاريخية بتحويلها إلى تراجم من جهة أخرى كانت تقابله حسنة واحدة هامة هي أن المؤرخين البلدانيين بصورة عامة اعتبروا رجال العلم والفكر هم التاريخ وهم أولى الناس باحتلال صفحاته دون رجال السياسة أو على الأقل أكثر بكثير من رجال السياسة من كتاب ولاة وملوك وأمراء .. عدم الاعتراف بالزمن واهمال التطور الحادثي في التواريخ البلدانية قابلهما تركيز متصل على ابراز الفاعليات الفكرية ومساهمتها في الحركة الحضارية العامة . وإذا كان في هذا الموقف اعتراف بتفاهة الدور السياسي لهذه المدن ولأصحاب الحكم فيها ، فإن فيه بالمقابل إدراكاً للقيم الفكرية الخالدة وتقديراً لقيمة الإنسان وعمله ولمسؤوليته عن ذلك العمل . وليس يهم أن يكون مصدر هذا التقويم نابعاً من الرغبة في الحفاظ على التراث الديني خاصة فالهام هو النتيجة التي نجمت عن ذلك وهي ربط

وتسجيل الجماعات العلمية في الاسلام مجموعة مجموعة مع بلدانها ، بشكل نستطيع معه بكل سهولة أن نكتب تاريخ الحركة الفكرية الاسلامية وعلاقات رجالها بعضهم مع بعض على المستوى نفسه من الوضوح وأحياناً في وضوح أشد من التأريخ للتحركات السياسية .

وقد استمر اعتبار المدن وحدات حضارية فكرية فترة طويلة من الزمن تزيد على أربعة قرون (ما بين أواسط القرن الثالث ونهاية القرن السابع) ، وكانت هذه الفترة كافية لكي يظهر لبعض المدن الهامة ، ذات التراث الحضاري أو القيمة السياسية ، سلسلة من التواريخ توالى على كتابتها عدد من أبناء تلك المدن ، حتى أضحت كتابة هذه التواريخ البلدانية نوعاً من التقليد لدى العلماء يدرسه في جيل بعد جيل أبناء تلك المدن ويكمله بين فترة وأخرى أحد أولئك الأبناء البارزين. ومن الهام أن نلاحظ هنا أن أوائل التواريخ البلدانية إنما نشأت منذ القرن الثالث . وإذا وضعنا جانباً تاريخ مكة للأزرقي الذي يمت في جوهره إلى ما ألف في السيرة النبوية فإن أقدم تاريخ لقطر من الأقطار هو : تاريخ مصر وفتوح المغرب الذي ألفه عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم (٢٥٧/ ٨٧١) وهو يفتقر إلى النقد الصحيح، « ومن الغريب أنه لم يعتمد في تاريخ مصر القديم على مواد مصرية أصلية ولكن على مصادر يهودية وروايات منقولة عن أهل المدينة » ، « ويلاحظ هذا المزج الخالي من النقد بين السير الخرافية والروايات الصحيحة نوعاً ما في الكتاب الجامع لآثار اليمن الموسوم بالاكليل للهمداني (٣٣٤ / ٩٤٦)[1] » وقد استطاع صاحب تاريخ بغداد : ابن أبي طاهر طيفور أن يكون أكثر دقة واتزاناً لأنه إنما كان يتكلم عن مدينة حديثة الظهور ، ولكن الكثير من التواريخ البلدانية التي وصلتنا لا تخلو من العناصر الخيالية والأوهام والخبر الأسطوري ولا سيما حين تتناول في الأقسام الأولى منها التواريخ القديمة للمدن . ومن أمثلة ذلك ما نراه في الفصول الأولى من تاريخ

---

(١) انظر فيما يتعلق بهذه النقاط جب – مادة علم التاريخ – الموسوعة الاسلامية (الترجمة العربية) ج ٤ ص ٤٩٣ – ٤٩٤ .

بخارى للنرشخي وتاريخ طبرستان لابن اسفنديار وفي الجزء الأول من تاريخ دمشق لابن عساكر والأوراق الأولى من تاريخ ميافارقين لابن الأزرق الفارقي وفي الجزء الأول من بغية الطلب ومن زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم . على أن هذه التواريخ نفسها قد حفظت لنا بالمقابل الكثير من المواد القيمة التي استبعدت كتفاصيل أو اهملت أو اختصرت في التواريخ الجامعة الواسعة ، ومن هنا تأتي قيمتها الكبيرة .

وسوف نطوي الأمثلة على هذه التواريخ البلدانية في هذا الفصل لأن متابعتها تخرج بنا إلى دراسة المدارس ولأنها أيضاً من الكثرة والسعة بحيث تكاد تستغرق الجهد التاريخي كله أو معظمه . ولهذا نكتفي ها هنا بتسجيلها كظاهرة أساسية في الفكر التاريخي ونتابع بحث الاتجاهات التي تتصل بها .

وكما انتشرت تواريخ المدن والأقاليم وتكاثرت ، انتشرت وتكاثرت بالمقابل تواريخ الأسر الصغيرة والأفراد البارزين ومعظم ما كتب في هذا الباب فإنما كان إما نوعاً من التفاخر وتسجيل الأمجاد الخاصة ، أو نوعاً من الملق والتقرب للحكام طلباً للزلفى والإنعام .

وتواريخ الأسر ، إذا تجاوزنا آل البيت ، كانت لا تقتصر على الأسر الكبيرة الهامة ولكنها تتناول أحياناً بعض الأسر المحدودة القيمة والأهمية والتي يؤرخ بعض أفرادها لأسرته بغية التأكيد على شأنها وقيمتها السياسية أو الفكرية أو الاجتماعية . وإذا كان التاريخ لبعض الأسر الحاكمة يتحول غالباً إلى تاريخ اقليمي أو تاريخ للدول فإن التأريخ للأسر الصغيرة كان ظاهرة اجتماعية تتصل بالطبقة الاجتماعية القبلية أو الاقطاعية ، أو كان ظاهرة فكرية ، دفاعية في الغالب ، التغطية بفخر العلم على تواضع النسب أو لجمع المجد من أطرافه في نبل الأصل والعلم في وقت ما .

فمن أمثلة تواريخ الأسر ما كتبه بعض المؤرخين عن البرامكة من أمثال أبي حفص عمرو بن الأزرق الكرماني وغيره . وقد كانت تواريخهم بالعربية

إلا أننا نجد مؤلفاً في القرن الثامن يكتب عنهم بالفارسية هو :

عبد الجليل بن نظام الدين يحيى بن عبد الجليل اليزدي ، الذي كتب أخبار البرامكة سنة ٧٦٢ في مجلد[1] .

ومن المؤلفين في الأسر الأخرى :

– أبو اسحق ابراهيم بن هلال الصابىء (المتوفى سنة ٣٨٤ / ٩٩٤) حول الأسرة البويهية باسم : التاجي في أخبار الدولة الديلمية ، لأنه ألفه بطلب من تاج الملة عضد الدولة البويهي ولم تبق منه إلا قطع قليلة مخطوطة (طبع منها في بغداد سنة ١٩٧٧ قطعة المنتزع من كتاب التاجي).

– مؤلفو الكتب التي صدرت بالفارسية باسم سلجوق نامه : أحدها لظهير الدين النيسابوري (المتوفى سنة ٥٨٢ / ١١٨٦) وقد ذيل عليها مؤلفان في أواخر القرن السادس هما :

– عبد الحميد الكرماني وأبو حامد محمد بن ابراهيم الكرماني والكل مطبوع .

– كما ألف بالعربية وفي الفترة نفسها كتاب مجهول المؤلف باسم : مطالع الشروق في محاسن بني سلجوق .

– وجاء القفطي الوزير الحلبي (المتوفى سنة ٦٤٦) فكتب : أخبار السلجوقية . وهو ضائع .

– وكتب القفطي نفسه : كتاب الأيناس في تاريخ بني مرداس ، الذين حكموا حلب في معظم القرن الخامس .

– وكتب ابن الأثير المؤرخ (المتوفى سنة ٦٣٠) كتاب الباهر في الدولة الأتابكية لتاريخ هذه الأسرة .

– وألف قبل ذلك أبو البقاء هبة الله بن نما بن علي بن حمدون الحلي

---

(١) انظر ذيل كشف الظنون البغدادي ج ١ ص ٤١ .

الربعي (المتوفى سنة ٥٢٠ / ١١٢٦) كتاب المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية . يؤرخ لبني مزيد الأسرة العربية التي حكمت جنوب العراق ما بين القرن الخامس حتى أواسط السادس للهجرة .

– وكتب عدد من آل منقذ ، تلك الأسرة العربية التي حكمت قلعة شيزر في أواسط سورية ما بين أواسط القرن الخامس وأواسط القرن السادس ، تاريخ هذه الأسرة .

كتبه أولاً ، في أواسط السادس ، أبو عبد الله محمد بن مرشد المنقذي الكناني (شقيق أسامة) ثم كتبه مؤرخ مجهول من واقع الوثائق التي وجدها في أواخر القرن السادس . وكتبه أيضاً أسامة بن منقذ ، لشهر أمراء هذه الأسرة ... وكل أولئك قد ضاع .

وإذا كانت هذه التواريخ نماذج لتواريخ الأسر السياسية الحاكمة فإن ثمة أمثلة على الأسر الاقطاعية الواسعة أو العلمية ومن ذلك :

– أخبار بني سليمان ، التاريخ الذى كتبه لأشهر أسر معرة النعمان علماً ومالاً واحد من أبنائها هو القاضي أبو المعالي أحمد بن مدرك ابن سليمان التنوخي المعري في أواسط القرن السابع وكان أحد المصادر التي اعتمدها ابن العديم[1] .

– نسب بني صالح (بن علي بن عبد الله العباسي) وقد كتبه القاضي أبو طاهر صالح بن جعفر الهاشمي الحلبي (النصف الأول من القرن السابع) وقد أخذ عنه ابن العديم أخباراً كثيرة[2] .

– كتاب الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة وقد كتبه المؤرخ

---

(١) ابن العديم – بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ١ ورقة ١١٤ وجه ، ١٩٧ وجه ، ١٩٨ وجه ، ٢٢٣ وجه .

(٢) انظر مثلا ابن العديم – بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ١ ورقة ٢٣٩ ظهر ج ٢ ورقة ١٦٤ ظهر ج ٥ ورقة ٢٨٣ وجه .

ابن العديم في تاريخ أسرته في عشرة كراريس بطلب من ياقوت الحموي الذي نثر الكتاب كله تقريباً في معجم الأدباء .

وندخل تاريخ الأسر من بابه الأوسع ان نحن اعتبرنا — ومن الحق أن نعتبر — كتب الأنساب في اطار التاريخ وعند ذلك نجد أن فيضاً هائلاً من كتب الأنساب الأسرية يدخل التاريخ من مثل ما كتبه :

— أبو الفرج الأصبهاني المعروف (المتوفى سنة ٣٥٦) — عدا مقاتل الطالبيين — حول نسب بني شيبان ونسب المهالبة (بني المهلب لانقطاع الأصبهاني إلى الوزير المهلبي) .

— وأبو عبد الله محمد بن محمد بن أسعد الجواني النسابة (من أواسط القرن السابع) الذي كتب (نزهة القلب المُعَنَّى في نسب بني المهنا) ونقل عنه ابن العديم بعض المقتبسات[1] ويذكر السخاوي كتب أنساب الظاهريين والنويريين والطبريين والقسطلانيين والفهود... الخ[2] .

٧ — ظهور السير الفردية والذاتية والمذكرات والقصص التاريخي

فأما سير الأفراد فان نحن تجاوزنا السيرة النبوية ، التي كان لها على الدوام من يتناولها بالرواية والاختصار والبسط والنظم واعادة الكتابة ، وجدنا بابها قد اتسع ، وورد فيه زمر بعد زمر من السير . فهناك سير أعداد من الصحابة وسير الخلفاء الراشدين وسير عدد من رجال البيت والأئمة خاصة . وفي كل هذه النواحي كتبت ثم كتبت أعداد من الكتب والرسائل لم يكن القصد منها الإبداع التاريخي بقدر ما كان التعبير عن الاحترام والتقدير. ولعل أهم الزمر هي تلك

(١) انظر المصدر السابق ج ٩ ورقة ٢٤٤ وجه ، ٢٤١ ظهر .
(٢) انظر السخاوي — الاعلان ص ٥٩٧ ، ص ٥٨٤ .

التي كانت تحمل اسم « المناقب » وقد توجهت لتكريم كبار الرجال الدينيين في المجتمع الاسلامي ، نصبتهم نمـاذج للمسلم الكامل وللأسوة الحسنة . وأبرز كتب « المناقب » التي تكررت معاودة المؤلفين لكتابتها ، وتعاوروا على تناولها جيلاً بعد جيل هي التي تتعلق بمناقب « الفقهاء » الكبار ، أصحاب المذاهب الكبرى .

وهكذا نجد أكثر من اثنى عشر كتاباً في مناقب أبي حنيفة ونجد ضعف هذا العدد لمناقب مالك بن أنس كما نجد أكثر من ذلك في مناقب الشافعي . وأقل قليلاً كانت الكتب في مناقب ابن حنبل[1] . أما في مناقب جعفر الصادق والأئمة فالكتب عشرات بعد عشرات وإذا كانت الكتب في أئمة مذاهب السنة نوعاً من التمجيد لمذاهبهم فالكتب في أئمة الشيعة كانت تعبيراً عن الولاء لهم ولآل البيت .

وقد نال كبار رواة الحديث وكبار الحفاظ بعد ذلك ونتيجة لذلك نصيب من هذا التكريم و « المناقبية » . وانا لنجد كتباً تفرد لتراجم البخاري مثلاً ومسلم بن الحجاج وأبي داود السجستاني وابن ماجه والترمذي والنسائي وهم أصحاب الصحيحين والسنن الأربعة . كما نال التكريم نفسه كبار الزهاد والمتصوفين فلهم بدورهم كتب تروى سيرهم وكراماتهم وأقوالهم ... وأكثر ما قام بذلك هم الوعاظ المعروفون[2] كابن الجوزي . وفي الوقت نفسه كانت القيمة الاجتماعية للشعر والأدب والغناء تدفع في اتجاه آخر إلى كتابة سير « الشعراء » خاصة مع حفظ أشعارهم وسير المغنين البارزين .. ومن هذا الباب ثمة أعداد كبيرة جداً من الكتب في أخبار فلان أو فلان من الشعراء والأدباء

---

(١) من شاء تفصيل أسماء كتب المناقب وجدها لدى السخاوي في الجواهر والدرر . والنص مطبوع في كتاب روزنتال – علم التاريخ عند المسلمين (ص ٥١١ – ٥١٥) من النص الانجليزي ص ٧٣١ – ٧٣٦) .

(٢) ألف ابن الجوزي مثلا في سير كل من : الحسن البصري وسعيد بن المسيب وسفيان الثوري ومعروف الكرخي ـ الخ .

أو المغنين . وكثيراً ما كان بعض تلاميذ أو أنصار كبار العلماء أو الرجال البارزين في المجتمع الاسلامي يكتبون بدورهم سيرهم تعبيراً عن الإعجاب والاحترام . ومن أمثلة ذلك ما كتبه السلفي الحافظ من سيرة أبي المظفر محمد ابن أحمد بن محمد الأبيوردي ، وكتبه الضياء المقدسي من سيرة أبي عمر محمد ابن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي وسيرة عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي ... وهي بضاعة راجت بصورة خاصة بعد القرن السابع أي في العصر المملوكي وكثر طارقوها والكاتبون فيها كثرة واسعة[1] .

وما من شك في أن هذه الزمر المتعددة من كتب السير المختلفة وان كانت ذات مقاصد دينية (اجتماعية وعلمية) أو أدبية فإنها كانت في الوقت نفسه من كتب التاريخ ومن ميدانه رغم ما كانت تضمه أحياناً من التعاليم الدينية ، أو مسائل الفقه أو الأدب والشعر أو المواعظ ، أو القصص الخرافي والأوهام . ولعل هذه الأمور كانت تعطي بعض كتب المناقب والسير هذه ملامح التاريخ الحضاري والاجتماعي وكانت تعكسه أكثر مما تعكسه السير الأخرى المتعلقة بأقطاب السياسة . لقد كانت أحياناً كثيرة نوعاً من الاحتجاج على الظلم السياسي والاجتماعي ومحاولة من قبل المؤلفين لتوجيه رجال السياسة إلى الطريق الصحيح وتوجيه الناس إلى المذهب الأقوم أو تعليمهم سبيل الخلاص من الظلم والفساد بالزهد والهرب والترفع وإيثار الآخرة . ولهذا نلاحظ تزايد هذا النوع من كتب المناقب والسير للزهاد والأولياء والصالحين مع تقدم العهد حتى تصبح في العصر المملوكي من المواضيع التقليدية وتصبح أعدادها بالعشرات بعد العشرات ...

ولم يكن أهل الحل والعقد ورجال السياسة أقل حظاً في مجال السير . وسيرهم الشخصية كانت تسجل تاريخ نظمهم في الفترات التي عاشوها ومعظم هذه

(١) انظر القائمة الطويلة التي أوردها السخاوي في الجواهر والدرر (مخطوط دار الكتب) الأوراق ٢٩٥ ظهر – ٢٩٨ وجه (روزنتال ٧٣٩ – ٧٥٠) .

السير ان لم يكن كلها إنما كانت أماديح ، وقصائد منثورة ترمي من خلال الأحداث والقصص والأقوال المروية إلى تمجيد صاحب السيرة وتخليده . ولهذا فقد كتب معظمها في عهود أصحابها وقلما كتب من بعده إلا أن يكون ذلك من قبل بعض الأتباع المعجبين أو أقربائه الأقربين ... على أن ظاهرة كتابة السير للحكام لم تظهر إلا في العهود التي ظهر فيها حكام بارزون لا يخجل الكاتب من أن يخصص لتاريخ حياتهم سيرة يسطرها للناس . فلقد كان في مثل هذا النوع من التاريخ للأفراد من الحرج يأتي من أن السيرة الوحيدة الجديرة بالرواية في القناعة العامة هي السيرة النبوية التي لا يمكن لأي سيرة أن تقارنها في الشأن .

ومن نماذج السير الأولى كتاب أفرده بعضهم عن المأمون[1] . والسيرة التي كتبها ثابت بن سنان بن قرة للخليفة المعتضد بالله (المتوفى سنة ٢٨٩ / ٩٠٢) وقد نقل عنها ابن العديم[2] والسيرة التي نظمها شعراً ابن المعتز (المقتول سنة ٢٩٦) وسماها سيرة الإمام في تاريخ ابن عمه المعتضد أيضاً .

ولا نكاد نجد في القرن الرابع سوى سيرة سيف الدولة التي ألفها أبوالحسن علي ابن الحسين الزراد الديلمي وقد أخذ عنها ابن العديم[3] كما قد عاصرتها أربع سير كتبها ابن زولاق في مصر لكل من ابن طولون وابنه خمارويه ثم للأخشيد ولجوهر الصقلي .

ثم لا نكاد نجد في القرن الخامس سوى السيرة التي كتبها أبو النصر محمد ابن عبد الجبار العتبي (المتوفى سنة ٤٢٧) للسلطان يمين الدولة محمود الغزنوي

---

(١) ذكره السخاوي في الجواهر والدرر (مخطوط دار الكتب القاهرة) ورقة ٢٩٥ وجه انظر علم التاريخ لروزنتال ص ٧٣٦٥ .

(٢) انظر ابن العديم – بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ١ ورقة ١٢١ ظهر ج ١ ورقة ١٧٦ ظهر .

(٣) انظر مثلا المصدر السابق ج ٨ الورقة ١١٣ وجه ، ج ٤ ورقة ١٢ ظهر .

بسط فيها حياته وترجمة أبيه سبكتكين وحروبه وأعماله حتى آخر أيامه في أسلوب بليغ أسر الكثيرين وكان السبب في بقاء الكتاب في عدة نسخ مخطوطة وفي ظهور شروح عديدة له في العصور التالية ، وظهور ترجمة فارسية ... وقد عرفت هذه السيرة باسم اليميني (نسبة ليمين الدولة) محمود سبكتكين الغزنوي (المتوفى سنة ٤٢١ / ١٠٣٠) وفي القرن نفسه كتبت ثلاث سير في مصر للوزير المغربي أبي القاسم الحسين بن علي (المتوفى سنة ٤١٨ / ١٠٢٧) اقتبس عنها ابن العديم عدداً من النقول[1] كما كتبت سيرة رابعة للوزير اليازوري أبي الحسن علي بن عبد الرحمن وزير المستنصر بمصر . ويبدو أن ظهور عدد من الأخطار والأبطال في التاريخ الاسلامي في القرن السادس ومطالع السابع قد فتح الباب لظهور أعداد كثيرة من السير ، إذ ظهر من كتابها :

- أبو الحسن محمد بن عبد الملك الهمذاني (المتوفى سنة ٥٢١ / ١١٢٦) الذي ذيل على الطبري وكتب عن الوزراء وقد ألف (أخبار دولة السلطان محمد ومحمود) السلجوقيين .
- ابن بنجه الأشتري (من رجال أواسط القرن السادس) وقد كتب سيرة لنور الدين نقل عنها أبو شامة .
- ابن الجوزي الإمام المؤرخ (المتوفى سنة ٥٩٧ / ١٢٠١) وقد كان أخصب المؤرخين جميعاً في باب السير : فله — عدا سير رجال التصوف والزهد — سير شتى لرجال السياسة منها كتب : المفاخر في أيام الملك الناصر، المصباح المضيء لدعوة الإمام المستضيء (أوفضائل المستضيء)، الأعاصر في ذكر الملك الناصر (وربما كان هذا هو نفسه الكتاب

---

(١) أصحاب هذه السير الثلاث هم : جلال الدولة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي ابن عباد وخلف بن عبد الله بن هبة الله السعدي ثم القاضي الجليس عبد القوي بن عبد العزيز بن الجباب ، أما النقل منها فانظر ابن العديم — بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ٤ ورقة ٢٩ وجه وظهر وغيرها .

الأول) ، الفخر النوري ، المجد الاصلاحي ، المجد العضدي (كل واحد من الخمسة في مجلد » ... ويقال أن له : عقـــد الخناصر في ذم الملك ناصر ...)[1] .

– ابن المارستانية أبو بكر (صاحب تاريخ بغداد الضخم المسمى ديوان الاسلام الأعظم) المتوفى سنة ٥٩٩/١٢٠٣) وقد كتب سيرة للوزير ابن هبيرة المتوفى سنة ٥٦٠/ ١١٦٥ .

– ابن مماتي الأسعد بن المهذب بن زكريا (المتوفى سنة ٦٠٦ / ١٢١٠) وهو من كتّاب مصر الأقباط وقد كتب بين ما كتب سيرة منظومة لصلاح الدين الأيوبي ، لعلها بعد قصيدة ابن المعتز ثاني السير المكتوبة شعراً . وقد ضاعت .

– ابن شداد القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع الحلبي (المتوفى سنة ٦٣٢) وقد رافق صلاح الدين في القسم الأخير من حياة هذا السلطان ثم كتب سيرته في كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) ويعتبر من أهم المصادر عن حياة صلاح الدين .

– القادسي محمد بن أحمد بن محمد الحنبلي (المتوفى سنة ٦٣٤ / ١٢٣٧) وقد كتب الذيل الأخير للطبري بعنوان الفاخر في أيام الملك الناصر (وهو ضائع) .

– النسوي شهاب الدين محمد بن أحمد (المتوفى سنة ٦٤٧) وقد كتب سيرة السلطان جلال الدين منكوبرتي آخر السلاطين الخوارزميين الذي كان انهياره أمام المغول أشبه بانهيار السدود أمام السيول (والكتاب مطبوع) .

---

(١) انظر السخاوي – الجواهر والدرر (مخطوط دار الكتب) ورقة ٢٩٥ ظهر (روزنتال صفحة ٧٣٧) .

- القفطي جمال الدين الوزير (المتوفى سنة ٦٤٦ / ١٢٤٨) وقد كتب بين تواريخه الكثيرة تاريخ محمود بن سبكتكين (ضائع) .
- البصري علي بن أبي الفرج بن الحسين الذي كتب بعد سنة ٦٥٩ وانهيار خلافة العباسيين كتاب : المناقب العباسية والمفاخر المستنصرية (وهو مخطوط) .
- مجد الدين أبو محمد الحسن بن الملك الناصر داوود بن المعظم الأيوبي (المتوفى بعد سنة ٦٦٠) وقد كتب سيرة أبيه في كتاب الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية (مخطوط قيد الطبع) .

ويتصل بكتابة السير موضوعان يتفرعان عنه لحد كبير وهما كتابة السير الذاتية ، وكتابة المذكرات وفيهما الكثير من التعبير عن التميز الذاتي وقيمة التجارب الشخصية . ولم يقصّر الكتاب الاسلاميون في طرق هذا الباب أيضاً من التاريخ في تلك الفترات وما بعدها . فأما في السير الذاتية[1] فيلفت النظر خبر قديم فريد ذكره الطبري عن الحارث بن سريج أحد كبار المرجئة الثائرين للحق والعدل في أواخر العهد الأموي من أنه « كتب سيرته فكانت تُقرأ في طريق مرو والمساجد فأجابه قوم كثير » حتى ضرب بعض غلمان نصر بن سيار الوالي قارئاً من قراء هذه السيرة فقامت الخصومة[2] . ولاشك أن هذه السيرة كانت بسطاً لآراء ابن سريج وعقيدته في الإرجاء ولسنا نجد تكراراً لمثل هذه المحاولة فيما بعد . ولكنا نجد الواقدي يروي شيئاً عن تاريخ حياته[3] وروى

(١) كتب بروكلمان مقالا حول « ما كتبه العرب في أحوال أنفسهم » نشر في كتاب المنتقى في دراسات المستشرقين لصلاح الدين المنجد (القاهرة ١٩٥٥) ص ٣ – ٢٣ ، وكتب قبل ذلك روزنتال بحثاً حول الموضوع نفسه نشر في مجلة Orientalia سنة ١٩٣٥ وقد لخصه عبد الرحمن بدوي وأضاف اليه في بحث نشره في كتابه (الموت والعبقرية) القاهرة ١٩٤٥ .
(٢) الطبري ج ٧ ص ٣٣٢ (١٩٢٠/٢) .
(٣) انظر طبقات ابن سعد (ط . سخاو) ج ٥ ص ٣١٤ وقد نقلت هذه النصوص في كتب شتى بعد ذلك .

ابراهيم الموصلي وابنه اسحق بعض حياتيهما ونجد شيئاً مما رويا في الأغاني[1] كما ألف :

- الحكيم الترمذي (المتوفى سنة ٢٨٥) في أخبار نفسه ومنها نسخة مخطوطة فريدة في كلية اللغة والتاريخ بأنقرة .
- محمد بن الحسن بن يعقوب المعروف بابن مقسم المقرىء (٢٦٥ – ٣٥٤) كتاب أخبار نفسه[2].
- وكتب ابن سينا الفيلسوف (المتوفى سنة ٤٢٨) مختصراً في تاريخ حياته أكمله تلميذه الجوزجاني ، ونقل عنه القفطي وابن أبي أصيبعة .
- وكتب الإمام أبو حامد الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥) تاريخه الفكري في كتاب (المنقذ من الضلال) .
- وكتب البيهقي ابن فندق أبو الحسن علي بن زيد (المتوفى سنة ٥٦٥) شيئاً عن نفسه في كتابه : مشارب التجارب ونقل عنه ياقوت الحموي في معجم الأدباء[3] .
- وألف ابن الجوزي أبو الفرج (المتوفى سنة ٥٩٨) رسالة : لفتة الكبد في نصيحة الولد يوصي فيها ابنه أن يقلده في حياته .
- وألف ابن عربي محي الدين أبو بكر محمد بن علي الحاتمي الصوفي (المتوفى سنة ٦٣٨) رسالة : مناصحة النفس ، يخبر فيها عن نفسه ورياضته الروحية ...

وتشبه هذه المؤلفات في معناها المذكرات أو السير وكثيراً ما تختلط بهما ، فإن كتاب ابن شداد باسم النوادر السلطانية هو نوع من المذكرات عن أيامه مع

---

(١) انظر الأغاني (ط. دار الكتب) ج ٥ ص ١٦٠ .
(٢) الصفدي – الوافي ج ٢ / ٣٣٧ .
(٣) انظر ياقوت – الأدباء ج ٥ ص ٢٠٨ .

صلاح الدين كما أنه سيرة له وكذلك بعض ما نذكر من الكتب التالية فهو تارة من السيرة أو من التاريخ المعاصر أو من الترجمة الذاتية على شكل المذكرات ومن ذلك :

- مذكرات الفضل بن مروان بن ماسرجيس النصراني وقد خدم المأمون ووزر المعتصم وتوفي في أواسط القرن الثالث عن ٩٣ سنة . وقد كتب كتاب المشاهدات والأخبار التي شاهدها ورآها[1] ولعله أول كتاب مذكرات .

- وكتب أحمد بن الطيب السرخسي الوزير « أخبار سير المعتضد بالله (الخليفة ما بين ٢٧٩ - ٢٨٩) من مدينة السلام إلى وقعة الطواحين بفلسطين ثم انصرافه عنها » وهي الحملة العسكرية التي قادها سنة ٢٧١ / ٨٨٤ ضد خمارويه بن طولون . فكانت هذه المذكرات أساس السيرة التي كتبها ثابت بن سنان بن قرة عن المعتضد وقد دفعها الخليفة إليه لهذا الغرض .

- وكتب أبو الحسن أحمد بن جعفر بن جحظة البرمكي (٢٢٤ - ٣٢٤ / ٨٣٨ - ٩٣٦) كتاب ما شاهده من أمر المعتمد على الله[2] كما كتب المشاهدات ، وكتاب ما جمعه مما جربه المنجمون فصحّ من الأحكام .

- والصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عبّاد (المتوفى سنة ٣٨٥ / ٩٩٥) كتب روزنامجة أي يوميات بقيت منها مقتطفات عديدة لدى الثعالبي وابن ظافر الأزدي وياقوت[3] .

- أبو الفرج محمد بن أحمد بن الحسن الكاتب الوزير (من القرن الخامس)

---

(١) ابن النديم - الفهرست ص ١٢٧ .
(٢) انظر ياقوت - الأدباء ج ٢٤٣/٢ أو ج ٣٨٤/١ وابن النديم ص ١٤٠ .
(٣) انظر الثعالبي - يتيمة الدهر (ط . دمشق) ج ٢ ص ١١ ، ابن ظافر - بدائع البدائه ، وياقوت - الأدباء ج ١٠ ص ١١٢ وما بعدها .

كتب روزناعاً أنشأه لولده الحسن يذكر فيه رحلته إلى الحج من أذربيجان وعبوره بحلب ومعرة النعمان سنة ٤٢٨ وقد نقل عنه ابن العديم عدة صفحات(١) .

وقد ظهر في القرن السادس عدة كتاب سجلوا المذكرات كل على طريقته فإذا تركنا عمارة اليمني الذي كتب مذكراته في مصر وجدنا :

- أسامة بن مرشد بن منقذ (المتوفى سنة ٥٨٤) وكتابه الاعتبار الذي يأخذ شكل الذكريات لا المذكرات ويروي بعض الطرف التي عرفها في حياته .
- القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (المتوفى سنة ٥٦٦) وله اليوميات التي تسمى بالمتجددات أو المياومات أو الدستور وقد ذكر فيها ما مرّ به في مكانه من دولة صلاح الدين من أمور يومية .
- العماد الأصبهاني الكاتب (المتوفى سنة ٥٩٧) وقد كتب سلسلة من المذكرات في مجلدات عديدة هي : (البرق الشامي) الذي روى فيه ما شهده من أحوال دولة نور الدين وصلاح الدين ما بين سنتي ٥٦٣ - ٥٨٩ في سبع مجلدات ، ثم (عقبى الزمان) في تاريخ الدولة الأيوبية منذ وفاة صلاح الدين حتى آخر سنة ٥٩٢ ذيل فيه على البرق الشامي ثم نحلة الرحلة الذي روى فيه مرة أخرى ما شهده من أحداث العهد الأيوبي منذ وفاة السلطان حتى أواخر سنة ٥٩٣ ثم (خطفة البارق وعطفة الشارق) روى فيه ما شهده من التاريخ الأيوبي منذ مطلع سنة ٥٩٣ حتى أول رمضان سنة ٥٩٧ ... ويمكن أن يعتبر كتابه : (الفتح القسي في الفتح القدسي) حول حطين وفتح فلسطين من كتب المذكرات أيضاً .

---

(١) ابن العديم - بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ١ ورقة ٢١٨ وجه وما بعدها .

وأخيراً كان مما دخل على مادة التاريخ من التطور في القرن الرابع وما بعده أمـران :

(أ) ظهور القصص التاريخي وهي ظاهرة نجمت دون شك عن ازدياد الاهتمام الشعبي بالتاريخ وعن وصول هذا الاهتمام إلى الطبقات الدنيا في المجتمع الاسلامي . وإذا كان الوعاظ من جهة والسُّمار من جهة أخرى وأنصار الفرق الدينية من جهة ثالثة هم الذين سطوا على المعلومات التاريخية أول الأمر ، واستخدموها في الوعظ والسمر ودعم الآراء الدينية المتناحرة فلا شك أن وجود وتكاثر جمهور التاريخ في ذلك المجتمع هو المسؤول عن اتساع ذلك الاهتمام وعن ظهور العديد من الكتب نصف التاريخية حيث يمتزج الوهم بالتاريخ ويختلط الخيال والأسطورة بالمعطيات الواقعية . يقول جب :

« ... ولم يكن جل هذه المفتريات محض اختلاق بل كان يستند إلى أساس من الرواية الصحيحة مزج بصنوف الرويات الشعبية والقصص الخيالي ومواد الدعاوة والحزبية وكان يرمي في الغالب إلى هدف سياسي أو ديني معين . أنظر على سبيل المثال مواد ابن اعثم وابن قتيبة والمرتضى والأشرف والواقدي . شأنه في كل ذلك شأن مؤلفات سيف بن عمر ... »[1] .

والواقع أن مادة كثيرة زائفة قوامها الاختلاق والتزيين والإثارة دخلت على مادة التاريخ في هذه الفترة وأصابت بصورة خاصة فترات الفتوح ثم تاريخ الفترة الجاهلية وتاريخ الفرس وتركت طابعها المضلل في الواقع التاريخي . وقد أوجدت في الحقيقة لوناً جديداً من الأدب لا لوناً من التاريخ ، هدفه ارضاء تلك الرغبة العفوية لدى الناس في رواية القصص وشحذ الخيال وتركيب الصور والوقائع . وقد قدم ابن النديم مسرداً واسعاً من أسماء القصص الشعبية التاريخية

---

(١) جب – الموسوعة الإسلامية – مادة التاريخ (ج ٤ ص ٤٩٠ من الترجمة العربية) .

ومؤلفيها يطول استعراضه[1] ولكنه على أي حال يدخل في باب علاقة التاريخ بالأدب .

والأمر الثاني هو أن بعض التاريخ تلوّن في هذه الفترة بألوان الهوى السياسي والطائفي للكتّاب . لم يكن ثمة مناص من أن يبدو في رواية الطبقات الدينية وغير الدينية التي تكتب التاريخ ما عرف عنها من تحيز إلى فكرها الخاص واكتفاء بالنظر إلى المسائل السياسية والاجتماعية من وجهة نظر واحدة . وليس يقتصر هذا على فريقي السنة والشيعة ولكن يمتد حتى لتظهر فيه التحيزات الفرعية المذهبية ، وأنظر مثلاً ما يكتبه ابن الجوزي الحنبلي عن ابن عساكر الشافعي أو ما يكتبه أبو شامة السني عن نسب الفاطميين ، أو ما كتبه ابن أبي طي الشيعي عن نور الدين وصلاح الدين ... الخ . ونستطيع القول أنه ظهرت في بعض الأحيان لكل جماعة دينية أو اجتماعية تواريخها الخاصة التي تعكس آراءها واهتماماتها .

الفصل التاسع

تطوّر المنهج التاريخي ـ ١

في التدوين

كان لابد للتاريخ الاسلامي ، بعد أن استقر علماً بين العلوم ، وفاعلية من فاعليات الفكر الرائجة ، وبعد أن تكاثر عدد العاملين عليه وتضخمت مؤلفاته وتنوعت أوسع التنوع مواضيعه ، وبعد أن تنوع الطارقون له والمحتاجون إليه فشملوا كافة الطبقات ومختلف نواحي الحياة ، كان لا بد لكل أولئك من أن ينعكس أثره لا في مادته كثرة وألواناً فقط ولكن منهجاً وأسلوباً وهدفاً ومصادر وتنظيماً أيضاً . وبديهي أن هذا التغير في المناهج التاريخية لا يمكن أن يكون مفاجئاً ، ولا ابن القرن الرابع وما بعده فان جذوره ومطالعه انما تبدأ منذ القرن الثالث أو قبل ذلك إلا أن النضج الحضاري في القرن الرابع خاصة ، واكتمال الفكر التاريخي في هذا القرن وما بعده هو الذي أبرز هذه التغيرات وجعلها من الملامح المميزة لعلم التاريخ الاسلامي من بعد .

ويمكن أن نراقب ما طرأ على مناهج التاريخ الاسلامي من تطور من خلال أمرين : تدوين المادة التاريخية ، وتنظيم هذه المادة .

١ ـ في تدوين المادة التاريخية

ثمة عدد من التطورات في تدوين المادة التاريخية يمكن أن نسجل منها :

أولاً : سقوط الإسناد تدويناً وقيمة توثيقية . تلك الزائدة التي كانت تتقدم الأخبار مسندة ما فيها إلى رواتها ، راويةً بعد راويةٍ فقدت وظيفتها وانقرضت. وانقرض بانقراضها أهم صلة تصل التاريخ بعلم الحديث ، وأعلن التاريخ بهذا الشكل استقلاله بمنهجه الخاص . وقد أسهم في الوصول إلى هذه المرحلة عدد من العوامل منها : انتشار الورق والمخطوط المكتوب ثم عدم ترتب أمور فقهية شرعية أو حياتية هامة على التاريخ المدوّن (ممّا كان من قبل يستوجب تحري الدقة في التدوين والصحة) ومنها كذلك الرغبة في الاختصار مع تضخم المادة المتزايد . وعدم مطالبة الناس بسند للحديث التاريخي يوازي تشددهم في تطلب السند للحديث النبوي ... الخ ، على أن هذا كله كان يعني في الوقت نفسه استقرار الرواية التاريخية المستقلة وتوطدها .

وإذا كان الطبري آخر ممثل للطريقة الحديثية فإن المسعودي الذي ظهر مباشرة بعده ومات بعد ٣٦ سنة منه يمكن أن يعتبر أبرز ممثل للطريقة التاريخية اللاسندية . على أن العدد الكبير من المؤرخين حتى في القرون التالية كانوا يحاولون الإبقاء على اشارة موجزة في مطلع الخبر تشير إلى المصدر. وبينما كان بعض المصنفين المتأخرين يستغنون في معظم الأحيان الاستغناء الكامل عن كشف مصدر أخبارهم (ومن أبرزهم مثلاً ابن الأثير) فإن المنهج الحديثي مع ذلك لم ينقرض تماماً ونظل نرى دون انقطاع ظهور السند بكل جلاله وطوله ولا سيما لدى المؤرخين المحدّثين وفي الكتب التاريخية التي تستهدف تراجم الرجال ورواة الحديث . وأكثر ما يظهر ذلك في التواريخ البلدانية ونماذج تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (القرن الخامس) وتاريخ دمشق لابن عساكر (القرن السادس) وبغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم (القرن السابع) نماذج كافية واضحة في هذا السبيل إن لم نذكر الكثير من غيرها .

وكانت خطوة هامة نحو التوثيق التاريخي المستقل ان يلتزم المؤرخون بذكر المصادر التي نقلوا عنها أخبارهم ونصوصهم . وقد اتبعوا في ذلك طريقين :

- بعضهم ممّن استغنى عن الإسناد في صلب الكتاب جمعها جميعاً عند مقدمته في سلاسل وجعلها المصدر الإجمالي لما يرويه كما فعل ابن أعثم الكوفي (سنة ٣١٤) في مقدمة كتابه الفتوح . وكان بعضهم يجمع بدل الإسناد أسماء الكتب التي اعتمدها ويضعها في المطلع كما فعل المسعودي.

- وبعضهم كان يعزو كل خبر إلى المؤلف أو الكتاب الذي أخذ عنه بشكل موجز قد يقتصر أحياناً كثيرة على كلمتي « قال فلان » . مثال ذلك ما نراه مثلاً لدى أبي شامة في كتاب الروضتين ولدى سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان .

على أن بعض المتشددين في السند كانوا بالمقابل إذا افتقدوا الرواية الشفهية على طريقة المحدثين ، واضطروا إلى النقل عن الكتب المخطوطة يوثقون ذلك النقل توثيقاً عجيباً في دقة فلا يكتفي أحدهم بذكر اسم الكتاب الكامل واسم صاحبه بالكامل أيضاً ولكنه يضيف إلى ذلك وصف الكتاب المخطوط ومكان وجوده وأحياناً اسم ناسخه ، واسم من يملك الكتاب أو من أهداه ، أو أعاره والنموذج الممتاز في هذا الصدد نجده في ابن العديم . وكثيراً ما نجده يكتب مثلاً : « قرأت الحكاية (حكاية عن الأعسر الكلابي الفارس مع سيف الدولة) في مجموع قديم مكتوب في أيام سيف الدولة أو قريب من عصره وشاهدتها في المجموع على الصورة التي ذكرها بخط بعض الاخباريين في جزء وقفت عليه في وقف الإمام الناصر أبي العباس بالخلاطة في الجانب الغربي من بغداد . قال ... »[1] .

أو يكتب : « ... وجدت بخط الشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد

(١) ابن العديم – بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ٣ ورقة ٢٥٠ وجه و ٢٥٤ ظهر .

ابن أحمد بن الخشاب في أثناء مجموع من تعليقه في دار وقف القرآن بسنجار ما صورته . أنشدني ... »[1] أو يكتب : « قرأت في تاريخ أبي المحاسن ابن سلامة الحراني ، بحرّان ، دفعه إلى الخطيب ابن تيمية وذكر أنه نقله من خط المؤلف قال وفي سنة ٥٩٣ ... »[2] .

وهذا كله إنما يعني أن التاريخ إن افتقد السند واستغنى عنه فإنه لم يهمل التوثيق وتحري الدقة في النقل وينهج لذلك طرائقه الخاصة . ونذر أن أهمل المؤرخون ذكر المصادر اهمالاً كاملاً إلا في الموجزات الحولية والمختصرات التواريخ العامة . ويكاد يكون ابن الأثير من الأمثلة النادرة في هذا الباب إذ أهمل ذكر مصادره في تاريخه (الكامل) ولو أنّه لم تغب عن الباحثين تلك المصادر التي تبلغ حوالى خمسة وثلاثين مصدراً .

ثانياً — تزايد الاعتماد على الوثائق : ما كانت الوثائق الرسمية (نصوص المعاهدات أو نصوص الرسائل والخطب وغيرها) بالغائبة عن التدوين التاريخي الإسلامي منذ مطالعه ولكن الاعتماد عليها ازداد بعد أن عمل على هذا التدوين الكتّاب والموظفون الرسميون أيضاً وأدخلوا في مصنفاتهم ما يقع تحت أيديهم من محفوظات الدواوين وأحياناً من نصوص الكتب التي يكتبونها هم أنفسهم .

وهكذا فإذا كان من النادر أن نجد وثيقة في كتب التراجم ولدى المؤلفين ذوي الثقافة الحديثية إلا ما اتصل منها بموقف ديني أو فقهي شرعي فإنا بالمقابل نجد الوثيقة السياسية (من رسالة رسمية بصورة خاصة ، أو درج نسب أو تقرير أو مرسوم تعيين أو وقف أو توقيع أو كتاب بولاية ... الخ) قد دخلت في صلب الكتب التاريخية التي ألفها أمثال الروذراوري ، والبيهقي ، والصولي، والصابيء ، ومسكويه ، وابن القلانسي ، والمسبحي ، والعماد الأصبهاني ، والقاضي الفاضل ، وابن شداد ، وأبي شامة ، وعمر بن شاهنشاه الأيوبي

---

(١) المصدر نفسه ج ٨ ورقة ١٦٣ ظهر .
(٢) المصدر نفسه ج ١ ورقة ٢١٠ وجه .

(صاحب مضمار الحقائق) ويبدو أن هذه الأقلام المتكاثرة من هؤلاء على كتابة التاريخ ، قد شعرت بنقص التوثيق في مدوناتها بالمقارنة مع التدوين الحديثي ذي الإسناد فكان عليها أن « توثق » معلوماتها بنصوص أصلية تأخذها مباشرة عن منابع المعلومات وعن محفوظات الدواوين . على أننا يجب أن لا نغفل دافعاً آخر أتى بالوثائق إلى كتب التاريخ هو الدافع الأدبي فكثيراً ما كانت الوثيقة تنقل بنصها الكامل أو في معظمها لا لقيمتها السياسية أو الأخبارية ولكن لقيمتها الأدبية . والنصوص التي كتبها كبار الكتّاب كانت إنما تنقل كنماذج يحتذيها الكتّاب الناشئون .

ومؤرخو القرن الرابع وان احتفظوا من المحفوظات الديوانية التي وقعت لهم الكثير من الوثائق بنصوصها إلا أنهم كانوا أحياناً يعتمدون على معلوماتها دون ايراد نصوصها كما فعل أحياناً كثيرة مسكويه والصولي أو كانوا يوردون بعض الفقرات منها طبقاً لحاجاتهم . وكتب الخراج كانت تحوي الكثير من ذلك . ومع أن هاتين الطريقتين اتبعتا من قبل المؤرخين في القرون التالية كالروذراوري والصابيء ، ثم ابن القلانسي ثم أبي شامة ، إلا أنا نشهد في القرن الخامس ظهور النصوص بحذافيرها لدى بعض المؤرخين ، إعجاباً منهم بأساليبهم أو بأساليب أساتذتهم كما فعل المسبحي والبيهقي (في تاريخ بيهق) فإذا جاء القرن السادس توسع بعض الكتاب في ذلك فتضخمت مؤلفاتهم أوسع التضخم بما تنزل فيها من نصوص الرسائل والوثائق الكثيرة المتدافعة كما فعل العماد الأصبهاني مثلاً وابن شاهنشاه . ويصل هذا المد الوثائقي إلى أوجه لدى القاضي الفاضل الذي طبع التاريخ الأدبي قروناً بطابعه والذي بلغ دون شك من اعجابه بما دبج من الرسائل والتقارير التي لو جمعت كلها جاءت في ما يقارب مائة مجلد...[1]

---

(١) لا شك أن شكله النثري قد أسهم في تضخيم الأنا عنده . وهي عقدة حبذا لو درست من قبل الأدباء . وتقدير الرسائل بمائة مجلد ذكره ابن خلكان – الوفيات ج ٣ ص ١٥٨ – ٩ (ط. عباس – بيروت) .

أنه جمع منها مجلدات عديدة وأعطاها اسم « المتجددات » (وتسمى أحياناً بالمياومات أو بالتاريخ) فهي ثالث كتاب تاريخي خالص الوثائق فحسب . لم يتكرر مثال آخر من نوعها في التاريخ الاسلامي .

والهامّ في كل هذا أن الروح « الوثائقية » قد توطدت باستمرار كطريقة أساسية في المنهج التاريخي الاسلامي ولكن دون أن تحوّل التاريخ مع ذلك إلى « تاريخ رسمي » . فالكاتب الذي كان يستعمل الوثائق لم يصبح مؤرخاً « رسمياً » للدولة ولكن مؤرخاً موثوقاً واحتفظ رغم ارتباطه الوظيفي بحريته في اختيار ما يريد من الوثائق إلا في بعض الحالات النادرة كحالة ابراهيم الصابيء وكتابه التاجي في تاريخ بني بويه . وهكذا فإذا انتهى إلغاء السند إلى استقرار الرواية التاريخية واستقلالها ؛ فقد انتهت الوثائقية فيه إلى إقرار أهم عنصر من عناصر الموضوعية فيه .

ثالثاً : التأثر بالعلوم الأخرى والتاريخ لرجالها : فقد تركت العلوم المختلفة في نموها الواسع أثرها في التاريخ ، في تلك العصور فإنا نجد أنها أخذت بدورها حيزاً خاصاً من اهتمام المؤرخين لا كعلوم ولكن كرجال وحملة فكر وعلم . وقد سجل المؤلفون تطور الثقافة الاسلامية على اختلاف فروعها من خلال التأريخ لرجالها والتسجيل لآثارهم العلمية . فكأن العلم عندهم هو رجاله وبهذا الشكل ارتبط التاريخ الاسلامي بالأجيال المتتالية من رجال العلم الذين ظهروا فيه قدر ارتباطه برجال السياسة والحرب الذين ظهروا فيه .

وانهالت على التاريخ ؛ من هذا الباب كتب بعد كتب لا تحفظ ذكر الرجال فقط ولكنها تسجل في الوقت نفسه وفي ثنايا التراجم مع مسائلهم وروابطهم دقائق الحياة الفكرية والاجتماعية لعصورهم تسجيلاً جعلها المنجم الغني بالمادة الأولية التاريخية . وما من علم من العلوم البارزة في الفكر الاسلامي العربي إلا ولرجاله كتب تتحدث عنهم وعن آلائهم .

وإذا كان علم الحديث هو الذي بدأ « التاريخ » بمعنى تسجيل أسماء رواة

الحديث فطبيعي جداً أن يستمر ذلك « التاريخ» فيما بعد وأن ترتبط كلمة التاريخ ، في هذا المجال خاصة ، بمعنى التراجم وأن ينسحب هذا المعنى أحياناً على تواريخ المدن فتصبح تراجم لرجالها فقط ، وأحياناً لرجالها من رواة الحديث . ولم يكن هؤلاء الرواة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية بالقليلي العدد. فانهم يزيدون على ستين بالمائة من رجال العلم والفكر. وقد نستطيع القول أننا لا نكاد نجد «عالماً» لم يشارك من قريب أو بعيد في حمل الحديث وروايته. فقد كان ذلك « فخراً » علمياً لا يهمله إلا الأقلون وكان لقب « الحافظ » من أجلّ الألقاب إن لم يكن أجلّ الألقاب التي يحملها عالم .

وهكذا وصلت الكتب التاريخية التي تجمع تراجم رجال الحديث في العدد ، الى المئات العديدة والألوف . وأضحى من الصعب حصرها وغلبت زمراً بعضها يحمل اسم الطبقات ،وبعضها اسم الرواة وبعضها اسم المعاجم وبعضها اسم الشيوخ وبعضها اسم الرجال وبعضها اسم تاريخ مدينة كذا وبعضها اسم التاريخ مجرداً .

وتفرعت عنها فروع منها الأنساب (بالمعنى الثاني الذي برز فيه السمعاني) ومنها المؤتلف والمختلف ومنها كتب الكنى والألقاب ، ومنها طبقات أهل أهل المذاهب المختلفة . ولا ضرورة لأن نأتي بالأمثلة عليها لا لأنها تفوق الطوق في الحصر والتعداد ولكن لأنها أضحت تشكل أكثر من نصف مادة التاريخ الإسلامي .

وإذا نحن تجاوزنا علم الحديث إلى العلوم والمعارف الأخرى هبط بالطبع عدد الكتب التاريخية لرجالها إلى العشرات وأحياناً إلى الأعداد المحدودة . ومن ذلك الكتب حول المتصوفة والأطباء والحكماء والقراء والنحويين والشعراء والأدباء ...

فأمّا حول التصوف والزّهد وأهله فمن الملاحظ أن التأليف في هذا الباب قد تأخر حتّى بلغت الحضارة العربيـة الاسلاميـة فترة النضج في القرن الرابع وعند ذلك تنبه المؤلفون إلى هذه الفئة من المتدينين الذين لم يسجل فهرست ابن النديم (وهو من أواخر القرن الرابع) حولهم أي كتاب تقريباً : بينما سجل العلماء الزهاد عشرات بعد عشرات من الكتب التي تعلم الزهد وجعل لهم فصلاً خاصاً (هو الخامس) من المقالة الخامسة . الكتابان الوحيدان اللذان ذكرهما :

- كتاب الرهبان لابن الجنيـد ، وكتاب المتمين من السيـاح والعباد والمتصوفين لأبي حمزة الصوفي[1] . ولا شك أنّه قد ألّف غيرهما أيضاً ، قبـل القرن الرابع الذي ظهر فيـه وفي القرون التاليـة عدد من المؤلفين في تاريخ العباد والصوفية والزهاد منهم :
- أبو زيد أحمد بن سهل البلخي (المتوفىسنة ٣٢٢ / ٩٣٤) وله بين كتبه التاريخيـة العديدة كتاب العتاك والنساك[2] .
- أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد ابن الاعرابي العتري (المتوفى سنة ٣٤١ / ٩٥٣)[3] وله كتاب : طبقات النساك .
- المرزباني أبو عبد الله محمد بن عمران (٢٩٧ — ٣٧٨) وبين مؤلفاته الواسعـة الكثيرة كتاب الزهد والزهاد[4] .
- أبو العباس أحمد بن محمد بن زكريا النسوي (المتوفى سنة ٣٩٦ /

---

(١) ابن النديم — الفهرست ص ١٨٥ و ١٨٦ .
(٢) المصدر السابق ص ١٣٨ .
(٣) ابن الجوزي — المنتظم ج ٦ ص ٣٧١ ، وكشف الظنون ج ٢ عمود ١١٠٨ .
(٤) انظر ابن النديم — الفهرست ص ١٣٣ .

١٠٠٥)[1] صاحب طبقات الصوفية .

- سعيد بن أسد الأموي (ولعله من القرن الرابع) مؤلف : فضائل التابعين وأخلاق الصالحين[2] .

- عبد الواحد بن سياه الشيرازي (ولعله من القرن نفسه) ، وقد اقتبس ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد من كتابه ترجمة علي بن محمد الزنجاني[3] .

وكثرت هذه الكتب في القرن الخامس التالي ، كتبها :

- أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي (المتوفى سنة ٤١٢ / ١٠٢١).
- وأبو سعيد محمد بن علي بن عمرو النقاش (المتوفى سنة ٤١٤ / ١٠٢٣) .
- وأبو الحسين (أو الحسن) علي بن عبد الله بن جهضم (المتوفى سنة ٤١٤ أيضاً) صاحب : « بهجة الأسرار ولوامع الأنوار في حكايات الصالحين والأخيار والصوفية الحكماء الأبرار » .

- وأبو منصور معمر بن أحمد بن زياد العارف (المتوفى سنة ٤١٨ / ١٠٢٧) وله : طبقات النساك .

- وقد جاء بعد ذلك أبو نعيم أحمد بن عبد الله (المتوفى سنة ٤٣٠ / ١٠٣٨) صاحب تاريخ أصبهان ، فوضع كتاب حلية الأولياء الذي طبع في عشرة مجلدات وصار من أشهر الكتب في تاريخ الصوفية . وقد ذكر فيه أخبار جماعة من الصحابة والتابعين والخلفاء العشرة الأوائل . وقد اختصره ابن الجوزي في كتاب (صفوة الصفوة) .

---

(١) البغدادي – تاريخ بغداد ج ٥ ص ٩ ، ويذكره بروكلمان (ملحق ١ ص ٩٤٩) باسم السوسي .

(٢) السخاوي – الاعلان ص ٥٧٤ .

(٣) انظر ابن النجار – ذيل تاريخ بغداد (مخطوط باريس Ar ٢٢٣١) ورقة ٣٣ وجه .

– وجاء القشيري بعد ذلك : أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن النيسابوري (المتوفى سنة ٤٦٥ / ١٠٧٢) عن ٨٩ سنة . وقد كتب هذا الصوفي كتاباً لا يقل شهرة وشأناً عن سابقه عُرف باسم : الرسالة القشيرية في ٥٤ باباً وثلاثة فصول .

– وكتب ابن خميس الكعبي مجد الدين أبو عبد الله الحسين بن نصر ابن محمد الجهني (المتوفى سنة ٥٥٢ / ١١٥٧) كتاب طبقات الأولياء وكتاب مناقب الابرار والكتابان من المخطوطات اليوم .

– وألف ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الجزري (شقيق المؤرخ المعروف) المتوفى سنة ٦٠٦ كتاب : المختار في مناقب الأخيار وهو مخطوط .

– كما ألف في الوقت نفسه مؤلف آخر اسمه جمال الدين محمد بن أبي الحسن المصري الشافعي كتاب أخبار الأخيار .

– وجاء ناصح الدين الحنبلي عبد الرحمن بن عبد الوهاب الأنصاري الشيرازي الدمشقي (المتوفى سنة ٦٣٧ / ١٢٤٠) فألف كتابين هما : الاستسعاد بمن لقيت من صالحي العباد في البلاد . وتاريخ الوعاظ .

– وكتب الحسين بن علي بن الحسن بن ظافر الأزدي (ابن المؤرخ المعروف) في أواسط القرن السابع بدوره كتابين أحدهما لابنه في (أخبار الأولياء) والآخر باسم تاريخ الصوفية . والأول مخطوط موجود .

وتكاثرت الكتب المتعلقة بمثل هذه المواضيع فيما بعد . كان عدد من الظروف الحياتية والسياسية ومن المفاهيم الدينية يدعو إلى جعل التصوف والزهد نوعاً من الحياة المثلى ، ويدعو بالتالي إلى كثرة الحديث عنها وعن رجالها والتأليف فيهم .

أمّا الطب ورجاله فقد لرتبط تاريخهم – بسبب ارتباط العلم نفسه – مع

رجال الفلسفة والحكمة . كانت علوم الأوائل دائرة علمية واحدة . فاختلطت تواريخ الأطباء والحكماء بعضهم مع بعض ، من جهة كما كانت أخبار الفلاسفة والأطباء اليونان تملأ غالباً القسم الأول من تلك التواريخ من جهة أخرى ... بل كانت الكتب الأولى التي صدرت في هذه المواضيع مجرد تواريخ للأطباء والحكماء الأغريق : وهكذا جاء المؤلفون :

- اسحق بن حنين (المتوفى سنة ٢٩٨) وقد نشر كتاب (تاريخ الأطباء والحكماء) وكان يجب أن يضيف إلى العنوان كلمة الاغريق لأنّه إنما تحدث فقط عنهم معتمداً على تاريخ اغريقي في الموضوع نفسه كان كتبه يوحنا الغراماطيقي (يحيى النحوي) . وقد نشر روزنتال هذا الكتاب (مجلة Oriens سنة ٩٥٤) .

- حنين بن اسحق المترجم المعروف (المتوفى سنة ٢٦٠) وترجم عدداً من (نوادر الأطباء) وهي مقتطفات من آداب وأقوال الفلاسفة اليونان مع بعض أخبار عنهم وقد جمع مؤلف مجهول من أقوال حنين هذه النوادر في كتاب نجده مخطوطاً في الاسكوريال (رقم ٧٥٦) ولدى ابن أبي أصيبعة نقول منه[1] .

- وجاء طبيب مترجم آخر هو فينون الترجمان (من القرن الثالث) — ويرد الاسم أحياناً على شكل فيثون) فوضع كتاباً نقل عنه ابن أبي أصيبعة كثيراً من تراجم الأطباء في العصر العباسي الأول ونقلها القفطي كذلك دون أن ينسبها إليه وتمتاز بأنها دقيقة تحدد الأخبار بالتواريخ[1] .

- اسحق بن علي الرهاوي (من أواخر القرن الثالث ومطالع الرابع) وكتابه : أدب الطبيب هو من مصادر أبي أصيبعة والقفطي على السواء،

---

(١) انظر مثلا ابن ابي أصيبعة – طبقات الأطباء (طبعة بيروت ١٩٦٥) ص ٩٥ و ٩٦ .

(٢) انظر ابن أبي أصيبعة – طبقات الأطباء (ط . بيروت ١٩٦٥) ص ١٨٣ – ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٨ – الخ .

نقلا عنه بعض التراجم[1].

- أبو علي القيباني (من العصر نفسه) وله هو بدوره كتاب كان أحد مصادر ابن أبي أصيبعة [2].
- ثم وضع أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (المتوفى سنة ٣١٣ / ٩٢٥) سيرة الحكماء التي لم تصلنا منها سوى منقولات ابن أبي أصيبعة .
- وكتب أبو الحسن يوسف بن ابراهيم المعروف بابن الداية (وهو أخو المعتصم بالرضاع) (١٨٠ – ٢٦٥ / ٧٩٦ – ٨٧٨) كتابي : أخبار الأطباء ، وأخبار المنجمين وينقل ابن أبي أصيبعة[3] والقفطي كثيراً عن الكتاب الأول .
- أبو القاسم مسلمة المجريطي (المتوفى سنة ٣٩٥ / ١٠٠٥) الذي كتب تاريخ فلاسفة العرب . وقد ضاع الكتاب الا من ذكره في كتاب آخر للمؤلف هو (غاية الحكيم – مقالة الطلسمات) [4] .
- أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجزي (السجستاني) المنطقي (المتوفى أواخر القرن الرابع) صاحب كتاب صوان الحكمة الذي وصلنا منتخب له .
- عبيد الله بن جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع (المتوفى سنة ٤٥١ / ١٠٥٨) . بميافارقين وهو طبيب معروف ألف (مناقب الأطباء) وذكر فيه شيئاً من أحوال الأطباء ومآثرهم وأخباراً عن أبيه وجده . كتب ذلك

---

(١) انظر المصدر السابق الصفحات ١٩١ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ـ الخ

(٢) المصدر نفسه ، الصفحات على سبيل المثال : ٢٠٨ ، ٢٢٨ .

(٣) المصدر نفسه الصفحات : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٨ ، ٢١٦ – ٢٢٥ ، ٢٣٢ – ٢٣٩ ، ٢٥٧ – ١٥٩ ـ الخ ، وبعض المصادر تجعل الكتاب لأحمد بن يوسف المذكور مع أنه للأب (وانظر خاصة ص ١١٧ – ١٢١ من طبقات الأطباء) .

(٤) انظر آغا بزرك – الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ٣ ص ٢٧٣ والمؤلف الدلسي ذكرناه للاشارة إلى أننا سنترك ذكر الأندلسيين الآخرين .

سنة ٤٢٢ ونعرف بعض فقرات الكتاب عن طريق ابن أبي أصيبعة[1]

- أبو الخير المبارك بن شرارة الحلبي الطبيب (المتوفى سنة ٤٩٣ / ١٠٩٩) بحلب وقد كتب تاريخ أطباء العصر .
- البيامي أمين الدين أبو زكريا يحي بن اسماعيل (المتوفى أواسط القرن السادس) كتب تعليقات حول أطباء عصره .
- زين الدين عمر بن سهلان الساوي (المتوفى سنة ٥٤٠) اختصر صوان الحكمة وهو مخطوط موجود .
- الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد (المتوفى سنة ٥٤٨ / ١١٥٣) صاحب الملل والنحل . كتب أيضاً تاريخ الحكماء ومنه مخطوط في مكتبة أحد المستشرقين وله ترجمة فارسية في الهند [2].
- ابن فندق ظهير الدين أبو الحسن على بن زيد البيهقي (المتوفى سنة ٥٦٥ / ١١٦٩) كتب أيضاً تتمة صوان الحكمة وقد طبع في لاهور بالهند بهذا العنوان سنة ١٣٥١ بينما طبع بدمشق بعنوان تاريخ حكماء الاسلام سنة ١٩٤٦.
- موفق الدين أسعد بن الياس بن المطران (المتوفى سنة ٥٨٧ / ١١٩١) كتب : (بستان الأطباء وروضة الألباء) ومنه نسخة خطية في مكتبة الجيش الطبية – كليفلاند (تحت رقم ٨) بالولايات المتحدة .
- الأمير المبشر بن فاتك (المتوفى سنة ٥٨٩ / ١١٩٣) كتب بدوره (مختار الحكم ومحاسن الكلم) ومخطوطه موجود في استامبول (أحمد الثالث رقم ٣٢٤٩) .
- مؤلف مجهول كتب في أواخر القرن السادس تاريخ الفلاسفة السابقين

---

(١) ابن ابي اصيبعة – طبقات الأطباء ص ١١١ ، ١١٢ ، ١٥٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٣٠٨ – ٣١٠ – ٣٢١ وترجمة ص ٢١٤ .

(٢) انظر زيدان – تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٠٤ .

وهو مخطوط موجود في استامبول (أحمد الثالث رقم ٢٠٥٥) كان قد استخدمه ابن خلكان وعليه خطه بذلك .

– أبو الثناء شديد الدين محمود بن عمر بن محمد الشيباني المعروف بابن رقيقة الطبيب (المتوفى سنة ٦٣٥ / ١٢٣٨) كتب (قانون الحكماء وفردوس الندماء) الذي نقل عنه ابن أبي أصيبعة بعض النقول .

– أسد الدين عبد العزيز بن أبي الحسن علي (المتوفى سنة ٦٣٥) أيضاً كتب نوادر الأطباء وهو ضائع بدوره إلا من نقول عنه لدى ابن أبي أصيبعة .

– جمال الدين علي بن يوسف القفطي الوزير (المتوفى سنة ٦٤٦ / ١٢٤٨) كتب بين الكتب التاريخية الكثيرة التي كتب : أخبار العلماء بأخبار الحكماء وقد وصلنا مختصر الكتاب على يد الزوزني ، وقد طبع (ليبزيغ سنة ١٩٠٣) كما أن في استامبول مخطوطاً (مكتبة يني جامع رقم ٨٥٤) بعنوان روضة العلماء في تاريخ الحكماء ويذكر عليه أنه من جمع حفيد المؤلف .

– ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (المتوفى سنة ٦٦٨ / ١٢٧٠) وقد كتب أوسع وأهم كتاب في هذه السلسلة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء وله طبعات عديدة ... ومع أنه ليس آخر الكتب في هذه المادة إلا أنه يكاد يكون آخرها . فما ظهر من بعده في العصور التالية كان معظمه بالفارسية من جهة كما كان أقل شمولاً وسعة بكثير منه .

ويمكن أن نجد في تاريخ النحويين وطبقاتهم سلسلة ليست أقل طولاً ولا غنى من سلسلة تاريخ الحكماء والأطباء . وهكذا بعد أن ألف أول المؤلفين أمثال محمد بن يزيد المبرد ، وأحمد بن يحيى المعروف بثعلب ومحمد بن عبد الملك التاريخي[1] ما بين القرنين الثاني والثالث أول الكتب في هذا الموضوع

(١) انظر ياقوت – الأدباء (المقدمة) ج ١ ص ٤٧ .

ظهرت الكتب الواسعة في القرن الرابع كتبها :

- ابن درستويه أبو محمد جعفر بن محمد (المتوفى بعد سنة ٣٣٠) وهو بصري متعصب وقد كتب أخبار النحويين[١] .

- أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (المستشهد سنة ٣٥١ / ٩٦٣ في دخول الدمستق الرومي إلى حلب) وله : مراتب النحويين (ويسميها السيوطي مراتب اللغويين) ومنه نسخة مخطوطة قديمة في القاهرة (التيمورية رقم ١٤٢٥ تاريخ في ١٦٥ صفحة) .

- أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي (المتوفى سنة ٣٦٨ / ٩٨٩) وقد كتب طبقات النحويين واللغويين (طبع في بيروت سنة ١٩٣٦) ومنه مخطوط في استامبول (شهيد علي رقم ١٨٤٢) بعنوان أخبار النحويين .

- أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (المتوفى سنة ٣٧٨ أو ٣٨٤ / ٩٨٨ أو ٩٩٤) وله : المقتبس في أخبار النحاة[٢] وقف عليه ياقوت الحموي في ١٩ مجلداً وقال إنه كتاب حفيل ولكنه قليل التراجم بالنسبة لحجمه محشو بآراء النحويين وينبغي أن يسمى مسند النحويين ..

- أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله الزبيدي (المتوفى سنة ٣٧٩ / ٩٨٩) وقد ألف طبقات النحويين واللغويين الذي نشر في القاهرة (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم سنة ١٩٥٤) وقد جمع فيه النحاة من صدر الاسلام حتى شيخه الرياحي (المتوفى سنة ٣٥٨) .

- أبو محمد عبد الله بن اسماعيل بن محمد بن خزرج اللخمي (من أواخر

---

(١) ابن النديم - الفهرس ص ٦٣ .

(٢) انظر ابن النديم ص ١٣٣ ، السخاوي - الاعلان ص ٥٦٦ ، وانظر ياقوت - الأدباء ج ١ ص ١٧ .

القرن الرابع) وقد انتقى من كتابي الزبيدى[1] والسيرافي كتاب المنتقى من طبقات النحويين واللغويين[2].

- أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عمر اليماني (المتوفى سنة ٤٠٠ / ١٠٠٩) وله تاريخ النحاة[3] . وقد ذكره القفطي ونقل عنه في مواضع كثيرة من كتابه إنباه الرواة على أنباء النحاة .

- أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر المغربي النحوي القاضي (المتوفى سنة ٤٤٢ أو سنة ٤٤٣ / ١٠٥٠ — ١٠٥١) وقد كتب أخبار النحاة من البصريين والكوفيين[4] .

- أبو الحسن علي بن فضال المجاشعي القيرواني (المتوفى سنة ٤٧٩ / ١٠٨٦) وقد كتب بجانب كتابه الدول (٣٠ مجلداً) كتاب : (شجرة الذهب في أخبار أهل الأدب) وهو على قول ياقوت كثير التراجم ولا يعنى بالأخبار ولا يعبأ بالوفيات والأعمار .

- وجاء ابن الأنباري بعد قرن : كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن ابن محمد (المتوفى سنة ٥٧٧ / ١١٨١) فكتب تاريخ النحاة منذ أبي الأسود حتى شيخه ابن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ ضمن كتابه : (نزهة الألباء في طبقاء الأدباء) وقد طبع على الحجر في القاهرة منذ سنة ١٢٩٤ وأعيد طبعه في العراق سنة ١٩٥٩.

- ثم جاء القفطي الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (المتوفى

---

(١) ابن خير الأندلسي — فهرس ابن خير ص ٢٥١ — ٢٥٢ .
(٢) في هذه الفترة نفسها (النصف الثاني من القرن الرابع) كتب مؤلف أندلسي هو أبو بكر محمد بن الحسن الاشبيلي كتاب طبقات النحويين يؤرخ فيه النحويين في المشرق وصلاتهم بعضهم مع بعض .
(٣) بروكلمان — الملحق ١ ص ٢٠٢ .
(٤) السخاوي — الاعلان ص ٥٦٦ .

سنة ٦٤٦ / ١٢٤٨) فكتب بين ما كتب من التواريخ : كتاب : (إنباه الرواة إلى أنباء النحاة) رتبهم فيه على حروف المعجم وقد طبع الكتاب في القاهرة في ٤ أجزاء (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم منذ سنة ١٩٥٤) .

ولم تنقطع السلسلة بعد ذلك في العهد المملوكي التالي . وكان أبرز من أتمها السيوطي في كتابه بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة .

ولعل القوائم تطول بنا إن نحن تتبعنا ما كتب حول تواريخ رجال العلوم والفنون المختلفة الأخرى ، وقد يكفينا لختام هذه الجولة الواسعة أن نشير إلى المؤلفات في تاريخ الأدب والشعر وتاريخ الفرق الدينية :

فأمّا في تاريخ الأدباء والشعراء : فقد كتب الاخباريون والرواة فيضاً هائلاً من الرسائل والكتب منذ القرن الثاني وخلال القرن الثالث منها ما حمل اسم طبقات الشعراء (مثل كتاب ابن سلاّم الجمحي المتوفى سنة ٢٣١) أو اسم الشعر والشعراء (مثل كتاب ابن قتيبة الدينوري) . واستمر التأليف تحت هذين العنوانين فترة من الوقت ما بين أواخر القرن الثالث ومطالع الرابع . فكان من المؤلفين :

- عبد الله بن المعتز الخليفة القتيل سنة ٢٩٦ مؤلف كتاب طبقات الشعراء .
- أبو عبد الله محمد بن خلف بن المرزبان (المتوفى سنة ٣٠٩ / ٩٢١) وله كتاب الشعر والشعراء .
- أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي (مطالع القرن الرابع) الفقيه الأديب الشاعر الراوية ، وقد كتب بدوره الشعر والشعراء في مصنف كبير ولم يتمه حسب رواية ابن النديم[1] .
- ابن الحرون محمد بن أحمد بن الحسين بن الأصبغ (مطالع القرن الرابع)

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص ١٤٩ .

وهو بغدادي من أولاد الكتاب وبين مصنفاته العديدة هناك كتاب الشعر والشعراء أيضاً[1] .

– أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني الخراساني (٢٩٧ – ٣٧٨ / ٩١٠ – ٩٨٨) وهذا المؤلف الخصيب الذي كتب ما يزيد على خمسين مؤلفاً في حوالى ٥٤ ألف ورقة (١٠٨ آلاف صفحة) كتب في تاريخ الأدب العربي[2] .

– كتاب الموفق (٥ آلاف ورقة) : أخبار الشعراء المشهورين من الجاهلية حتى أول العباسيين .

– كتاب المستنير (١٠ آلاف ورقة) : أخبار الشعراء المشهورين والمكثرين في العصر العباسي حتى ابن المعتز .

– كتاب المفيد (٥ آلاف ورقة) : أخبار المقلين من الشعراء ، ونعوتهم ومذاهبهم ... الخ .

عدا الكتب العديدة الأخرى المفردة لمواضيع شتى في التاريخ الأدبي وفي أخبار الشعراء المفردين ، وقبل أن نلاحق سلسلة يتيمة الدهر في القرن الخامس وما بعده نذكر :

– أبا سعد محمد بن الحسين بن علي بن عبد الرحمن الوزير (المتوفى سنة ٤٣٩ / ١٠٤٧) صاحب طبقات الشعراء . وقد سبقه مؤلف بلغ من قيمة مؤلفه أنه لم يبق حتى الآن فقط ولكنه جر وراءه سلسلة طويلة من الكتب المتممة له جيلاً بعد جيل مدة حوالى القرنين هو :

– الثعالبي عبد الملك بن محمد (المتوفى سنة ٤٢٩ / ١٠٣٨) الذي كتب : يتيمة الدهر في ذكر شعراء العصر في أربع مجلدات ثم عقب عليه هو نفسه بذيل اليتيمة ، متمماً له .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٨ .
(٢) انظر مؤلفاته لدى ابن النديم ص ١٣٢ – ١٣٤ .

ثم تتالت الذيول على هذا الكتاب وجاء في السلسلة :

- أبو الحسن بن المظفر النيسابوري (المتوفى سنة ٤٤٣) فكتب (الذيل على تتمة اليتيمة) .
- الباخرزي أبو الحسن علي بن الحسن بن علي (المقتول سنة ٤٦٧ / ١٠٧٤) فكتب مجلدين بعنوان دمية القصر (مطبوع ومخطوط) .
- وتلاه بعد قرن البيهقي ابن فندق ظهير الدين أبو الحسن علي بن زيد (المتوفى سنة ٥٦٥ / ١١٦٩) فألف : وشاح الدمية (وبعضه مخطوط موجود) .
- وكتب في الوقت نفسه أبو المعالي سعد بن علي بن القاسم الحظيري الأنصاري دلال الكتب (المتوفى سنة ٥٦٨ / ١١٧٢) كتاب : زينة الدهر في ذكر شعراء أهل العصر ، وهو ضائع حتى الآن ، وألطاف شعراء العصر ، ولمح الملح (وهو مخطوط في الأسكوريال) .
- ولئن ذيل أسامة بن منقذ الأمير (المتوفى سنة ٥٨٤) ذيلاً ضائعاً على يتيمة الدهر فقد كتب :
- العماد الأصفهاني محمد بن محمد (المتوفى سنة ٥٩٧ / ١٢٠١) كتاب : خريدة القصر وجريدة العصر في عشر مجلدات (موجودة طبع معظمها) .

وخلال ذلك كان كتاب آخرون يؤرخون خارج هذه السلسلة التاريخ الأدبي ومنهم :

- ابن بديع أبو النجم هبة الله بن محمد الأصبهاني (القتيل سنة ٥٠٢ / ١١٠٨) الأديب الوزير بدمشق وحلب ، وقد كتب : صناعة الشعراء وبضاعة الأدباء . في شعراء عصره .
- وألف ابن بشرون عثمان بن عبد الرحيم بن عبد الرزاق الأزدي المهدوي (المتوفى بعد سنة ٥٦١ / ١١٦٦) كتاب المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر . ألفه تلك السنة وقد ضاع .

– وألف القاضي الرشيد أبو الحسن أحمد بن علي بن الزبير (المتوفى سنة ٥٦٢) كتاب جنان الجنان وحدائق الأذهان في شعراء الزمان. وكان عدة مجلدات ضاعت.

– والشيباني أبو غالب جمال الدين عبد الواحد بن مسعود بن الحسين الكاتب (المتوفى سنة ٥٩٧) والذي ذيل على الطبري كتب في الوقت نفسه كتاباً في تراجم الشعراء على حروف المعجم.

– وكتب ابن حمدان تاج الدين الحسن بن محمد بن الحسن البغدادي (المتوفى سنة ٦٠٨ / ١٢١١) كتاب (أخبار الشعراء) الضائع بجانب كتاب آخر بعنوان أخبار العلماء.

– وابن أبي طي يحيى بن حامد بن ظافر الغساني (المتوفى بحلب سنة ٦٣٠) وهو النساخ المؤرخ الشيعي الذي ضاعت كتبه التاريخية الثمينة: ألف كتاب تراجم رجال الأدب والشعر.

– وظهر في الوقت نفسه تقريباً كتاب أبي الفتوح عبد السلام بن يوسف ابن محمد الدمشقي المسمى: أنموذج الشعراء والأعيان. وقد ضاع.

أمّا الكتاب الضخم الذي ظهر مع هذين الكتابين الأخيرين وكان قمة التأريخ الأدبي الموسوعي لعدة قرون فهو كتاب:

– ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ / ١٢٢٩) وهو: ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب وقد عرف باسم معجم الأدباء (طبع في عشرين جزءاً مرة وفي سبعة أجزاء مرة أخرى).

ولم تنقطع السلسلة من بعده لأن الشعراء والأدباء لم ينقطعوا وهكذا بدأ العصر المملوكي التالي بكتاب ابن أنجب الساعي حول شعراء زمانه في خمس مجلدات ثم كتاب ابن الفوطي حول شعراء المائة السابعة وهكذا ...

وأما في تاريخ الفرق الدينية فثمة أيضاً سلسلة ليست أقل طولاً لكنها تبدأ متأخرة عن غيرها. منذ أواسط القرن الرابع ويرد فيها:

- حفص بن أشيم من الخوارج (من رجال القرن الثالث فيما نظن) وله كتاب الفرق والرد عليهم[1].
- أبو القاسم سعد بن عبد اللطيف الأشعري (المتوفى سنة ٣٠٠ / ٩١٢) صاحب كتاب : المقالات والفرق (مطبوع في طهران).
- أبو بشر أحمد بن ابراهيم بن أحمد القمي (المتوفى بعد سنة ٣٥٠) الفقيه الشيعي وله بين كتبه التاريخية الكثيرة كتاب الفرق الذي يقول الطوسي إنه « كتاب حسن غريب »[2].
- المرزباني (المتوفى سنة ٣٧٨) وله :أخبار المتكلمين.
- أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي (المتوفى سنة ٤٢٩ / ١٠٣٧) وقد كتب : « الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية ».
- البيروني أبو الريحان (المتوفى سنة ٤٤٠) وله كتاب : أخبار المبيضة والقرامطة[3] ترجم فيه بعض الأخبار عن الفارسية وثورة المقنع.
- عبد الرحمن بن محمد الفوراني (المتوفى سنة ٤٦١ / ١٠٦٨) وله : كتاب الفرق الإسلامية.
- أبو المظفر شاهفور بن طاهر بن محمد الأسفرايني (المتوفى سنة ٤٧١ / ١٠٧٨) وله كتاب : (التبصر في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين)، (وهو مطبوع).
- أبو المعالي محمد بن علي الحسيني البغدادي (المتوفى ما بين سنة ٤٦٥ — ٤٨٥) وقد كتب بالفارسية كتاب : بيان الأديان (مطبوع).
- فخر الدين أبو محمد عثمان بن عبد الله بن الحسين العراقي (المتوفى سنة ٥٠٠ / ١١٠٦) وقد كتب الفرق المفترقة بين الزيغ والزندقة (مطبوع).

---

(١) ابن النديم — الفهرست ص ١٨٢.
(٢) الطوسي — الفهرس ص ٥٤.
(٣) انظر البيروني — الآثار الباقية ص ٢١١.

– الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد القاضي (المتوفى سنة ٥٤٨ / ١١٥٣) وله أشهر كتاب تقريباً في هذا الموضوع (كتاب الملل والنحل) المطبوع .

– أبو الفتوح الحسين بن علي بن محمد الخزاعي النيسابوري (المتوفى سنة ٥٣٥ أو ٥٦٠) الفقيه الشيعي الذي ألف : تبصرة الأنام في الملل والنحل) .

– الرازي فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين التيمي البكري (المتوفى سنة ٦٠٦ / ١٢١٠) الفيلسوف المعروف وقد كتب أيضاً : كتاب الملل والنحل (مطبوع) .

– ابن أبي الدم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم الحموي (المتوفى سنة ٦٤٢ / ١٢٤٥) وله كتاب الفرق الاسلامية (ضائع) .

– الرسعني عز الدين عبد الرزاق بن رزق الله بن أبي بكر بن خلف الحنبلي (المتوفى سنة ٦٦١ / ١٢٦٣) وله كتاب : مختصر الفرق بين الفرق (مطبوع) .

– ابن طاووس رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى الحسني الحسيني الحلي (المتوفى سنة ٦٦٤ / ١٢٦٦) وقد كتب بدوره كتاب التعريف بمذاهب الطوائف (المخطوط) .

ولم تنقطع بالطبع هذه السلسلة من بعد ... ولقد نستطيع على النهج نفسه أن نجد سلاسل عديدة أخرى من الكتب التاريخية من مثل كتب المناقب وهي تملأ الصفحات وكتب الطبقات وليست أقل منها بل لعلها أكثر منها بكثير عدداً، وكتب الأنساب ، وكتب الأسماء والكنى وكتب المتفق والمفترق ، والمختلف والمؤتلف ، وكتب الضعفاء والمتروكين ، وتواريخ القراء ومعاجم البلدان ... وهي إنما تبرهن كلها على الحقيقة التي أردنا من أن تاريخ العلوم قد جاء التاريخ

بثروة طائلة من المعلومات زادت في سعة أقنيته من جهة وامتداد آفاقه من جهة أخرى .

رابعاً : والتطور الرابع الذي طرأ على التدوين التاريخي إنما كان في أسلوب الكتابة :

أوائل الكتابات التاريخية لم تكن تأبه كثيراً بطريقة التعبير والأسلوب الأدبي بقدر ما كانت تأبه بالخبر أي القصص وإيراد الشعر المناسب له إن وجد الشعر ، تلكم هي طريقة الاخباريين التي ظلت سائدة حتى أواخر القرن الثالث . ونجد نماذجها الكاملة في ما ألف الطبري وابن قتيبة والبلاذري ... غير أن دخول « الكتاب » ميدان التاريخ أدخل على الصياغة بعض التأنق .. وأدخل عليها الشكل الأدبي المنمق . على أنّه بالرغم من محاولات الكثير من الكتاب جعل التاريخ أحد فنون الأدب فان الصفة الاخبارية فيه كانت تجره بعيداً عن الصناعة الأدبية باستمرار ولهذا فبينما نجد بعض مؤلفاته يسير إلى ما يشبه الكلام الدارج ويرتكب المؤلفون فيه العديد من الأخطاء النحوية واللغوية (مثل ابن الأزرق الفارقي في تاريخ ميافارقين مثلاً) نجد بالمقابل أن الكتاب الأدباء ظلوا يسيرون مع هوايتهم الأدبية لدرجة تسخير التاريخ لبلاغتهم الأسلوبية .

وهكذا لم يبتدع أسلوب خاص للكتابة التاريخية وانما جرى التدوين ضمن أسلوبين :

- الأسلوب المرسل الذي كتب به معظم المؤرخين كتبهم منذ الطبري إلى المسعودي إلى الهمذاني وابن الجوزي والخطيب البغدادي وأبي نعيم وابن الأثير وسبط ابن الجوزي ، وقد يتخلل الكتابة الاستشهاد بآية قرآنية أو حديث أو مثل شائع ، وقد يهبط هذا الأسلوب ليصبح مجرد حديث عادي مكتوب .
- الأسلوب الأدبي المتأنق وقد بدأ هذا الأسلوب في بعض الكتابات

المشرقة على أيدي مسكويه والتنوخي ولكنه سرعان ما غرته أعمال الصنعة البديعية على يد ابراهيم الصابيء في كتاب التاج والعتبي في كتاب اليميني فصار سجعاً بدا أول الأمر نوعاً من البراعة في الجمع بين الأدب والتاريخ ثم ما لبث أن أسرف في الصنعة وثقلت عليه القشور اللفظية حتى لتغيم الفكرة التاريخية أحياناً وراء الكلمات الطنانة المرصوفة رصفاً. ذلكم كان الأسلوب الذي انتهى إليه العماد الأصفهاني في مجلداته التاريخية التي تصل إلى الثلاثين مجلداً.

الفصل العاشر

تطوّر المنهج التاريخي ـ ٢

في تنظيم المادة

إذا كانت نشأة علم التاريخ الإسلامي حتى القرن الثالث قد حددت بعض الطرائق لتنظيم مادته فقد تبلورت واستقرت مناهج وطرق تنظيم هذه المادة العلمية ، فيما بعد القرن الثالث . وإذا كان التدوين التاريخي في القرن الرابع وما بعده قد تابع الطرق والتنظيمات التي عرفها المؤرخون الأولون من قبل فإنه قد أضاف إليها في الواقع طرائق وتنظيمات إضافية جديدة تبعاً للحاجات التي كانت تظهر في إطار التاريخ الإسلامي النامي باستمرار والمتعدد النواحي باستمرار . ولعلنا نستطيع أن نرصد هذه التطورات التنظيمية في النقاط التالية :

« أ » في التاريخ العام. انتهى القرن الثالث وبين يدي الناس ثلاثة نماذج من التاريخ العام العالمي سجل بها التأريخ العربي الإسلامي تكامله العلمي :

ـ الأخبار الطوال لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (سنة ٢٨٢) وهو

رغم اسمه ، أصغر تلك النماذج حجماً ، ولكن عدم التوازن في أجزاء الكتاب ينبىء عن نقص في الفكر التاريخي لدى أبي حنيفة فقد خصص الباب الأول للأحداث التاريخية منذ آدم إلى العرب البائدة إلى ملوك الحبش والفرس واليمن وبني إسرائيل . وجعل الباب الثاني لتاريخ الفرس وعرض في الباب الثالث وهو ثلاثة أرباع الكتاب تقريباً حروب العرب مع العجم والفتوح الإسلامية وتاريخ الخلفاء حتى المعتصم . وقد سقطت هذه المحاولة لعدم كمالها وانصرافها لوجهة النظر الفارسية ، ولعل عذرها أنها من المشاريع الأولى في هذا السبيل .

— تاريخ اليعقوبي أحمد بن اسحق (سنة ٢٩٢) ، وهو أوسع من الأول وأكثر توازناً ودقة جعله صاحبه في قسمين الأول لتاريخ ما قبل الإسلام مبتدئاً بقصة الخلق ثم الأنبياء والملوك في التعاقب الزمني . وقد اعتمد التوراة والإنجيل في مواضعهما من التاريخ واعتمد المصادر الأصلية فيما عدا ذلك. وكان إذا أعوزه الخبر السياسي سد الثغرة بالأخبار الثقافية وهكذا تحولت أخبار الإغريق والهند إلى ذكر الفلاسفة والأفكار الدينية ، وكذلك فعل في الأخبار الجاهلية . أمّا في القسم الثاني الإسلامي فإنه في الوقت الذي لم يتخلّ فيه عن اهتمامه الفكري بالحكميات والمعرفة أضاف الاهتمام بالروايات الشيعية وأخبار الأئمة وحكمهم المأثورة،وبعد ذكر السيرة النبوية انصرف يعرض تاريخ الإسلام خليفة خليفة في تكثيف وتلخيص دقيقين مع ختام كل عهد بصفات الخليفة وذكر ولاته وكبار رجاله والفقهاء في عهده وأمراء الحج والحملات الحربية التي كانت في عهده ... وقد مزج تاريخه بالنجوم ، ففي مطلع عهد كل خليفة طالعه عند تولي الخلافة .

— وتاريخ الطبري وهو أضخم النماذج الثلاثة وآخرها ظهوراً ، اعتبر التاريخ البشري سلسلة من الرسل والأنبياء ، آخذاً عن الإسرائيليات

وبعض تواريخ الروم والتاريخ الفارسي في ما قبل الإسلام ، ثم انصرف إلى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي يتخير الأحداث الهامة عند أهم الرواة في نظره فيرويها بتلقيق المحدّث وبصيرة الفقيه العملي السياسي وعقلية أهل الكلام وطول تقسّيهم حولاً بعد حول . غير أنّه اختصر الحديث عن عصره واقتصر فيه على وجهة النظر البغدادية الرسمية . ويبدو أن ذلك لم يكن عن رياء ومسايرة ولكن لعدم وجود مؤلفات يأخذ عنها أحداث العصر لعدم اهتمامه بجمع الأخبار المختلفة عنها لما على يديه من أعمال الفقه والحديث والرواية والتدريس .

غير أن القرن الرابع جاء في التاريخ العام العالمي بخمسة نماذج أخرى تجلت فيها روح العصر وثقافته المتوسعة باطراد :

أولها : سلسلة التواريخ الخصبة التي كتبها المسعودي أبو الحسن علي ابن الحسين (المتوفى سنة ٣٤٦ / ٩٥٧) ، ويأتي في مطلعها تاريخه الأكبر :

أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة في حوالى ثلاثين مجلداً ، ثم الكتاب الأوسط الذي تلاه ثم كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ مجلدات ضخمة) الذي اختصر أخبار الزمان ثم كتاب التنبيه والاشراف الذي اختصر المروج في مجلد واحد .

وللمسعودي بجانب هذه السلسلة سلسلة أخرى ذكرها أيضاً على الشكل التالي :

فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف — وهو صنو أخبار الزمان .

ذخائر العلوم وما جرى في سالف الدهور — ويعدل الكتاب الأوسط أو المروج .

نظم الجواهر في تدبير الملك والعساكر — ويبدو أنه في تعليم السياسة .

وأخيراً كتاب الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار – وعليه بني التنبيه[1]

ولو تركنا جانباً بقية الكتب الخمسة والثلاثين التي ألفها المسعودي والتي تكشف عناوينها عن عقلية جبارة في التهام المعرفة والفلسفة في التأليف ومنها ما هو في أصول الديانات والمذاهب والنحل ومنها ما هو في الفلسفة والحكمة والسياسة ومنها ما هو في الأخبار والطرائف (مزاهر الأخبار وطرائف الآثار) ... لو تركنا جانباً هذه المجموعات الفكرية التي لا شك في أن ضياعها خسارة للتراث العربي الإسلامي فإن المسعودي في السلسلتين اللتين كتبهما للتاريخ العالمي يبدو نموذجاً فريداً في التأريخ الإسلامي كله . ليس ثمة في المؤرخين الإسلاميين من أصدر سلسلتين معاً ولا من جعل لتاريخه الأكبر مختصراً أولاً ثم مختصراً ثانياً ثم موجزاً أخيراً صغيراً ...

هذا الإصرار إنما هو تعبير في الواقع عن إدراك روح العالمية في التاريخ وترابط الأفكار والأديان رغم تنوعها وتوحّد الإنسانية أحداثاً ومصائر رغم تعدد الشعوب واختلاف الأزمان والملوك . وقد مثل المسعودي بذلك أوج ما وصلته الحضارة الإسلامية في القرن الرابع (وفي كل القرون) من إدراك لتلك الرّوح .

لقد بلغ من شدة النهم للمعرفة أنه لم يكتف بالاطلاع الواسع على ما كتب

---

(١) يبدو من خلال كلام المسعودي في مقدمة التنبيه والاشراف (ص ٤) أنه يسقط كتاب نظم الجواهر في تدبير الملك والعساكر من هذه المجموعة ويعتبر الكتب « السبعة » الباقية سلسلة واحدة متكاملة . ولكنه يعود في نهاية التنبيه (ص ٢٤٧) ليضع كتاب نظم الجواهر ضمن المجموعة . علماً بأنه كتب التنبيه والاشراف في نسخة أولى ثم عاد فكتبه كرة أخرى في زيادات وتنقيح .

وألف ولكنه أراد أن يقرن ذلك بالمعاينة المباشرة . وهكذا ساق قلمه في كل أفق فكان كما قال« تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة ، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين والزابج وتقحمنا الشرق والغرب فتارة بأقصى خراسان وتارة بوسائط أرمينية وأذربيجان والران والبيلقان وطوراً بالعراق وطوراً بالشام ، نسري في الآفاق سرى الشمس بالإشراق ... »[1].

وإذا اتخذنا كتاب مروج الذهب نموذجاً لفكر المسعودي وجدناه يخصص نصف الكتاب تقريباً لتاريخ ما قبل الإسلام من الأمم . بادئاً من قصة خلق العالم ماراً عبر بني إسرائيل إلى ذكر أهل الفترة (من الموحدين) ممن كان بين المسيح ومحمد ﷺ . وبعد أن يذكر جملاً من أخبار الهند الثقافية والدينية يعطف إلى وصف طبيعة الأرض وظواهرها الجغرافية من بحار وأنهار كبار وجبال ثم يعود إلى ذكر ملوك الصين والترك وأخبار الأمم من اللان والسرير والخزر وجبل القبخ والبرغر (القوقاز والبلغار) ثم ملوك السريان والآشوريين وملوك بابل الكلدانيين وملوك الفرس الأولى ثم الطوائف الثانية ثم الساسانية ثم اليونان فالروم ثم الروم المتنصّرة ثم ينتقل إلى مصر فيذكر أخبار نيلها وملوكها والاسكندرية ثم يذكر السودان وأجناسهم وملوكهم ثم الصقالبة ثم الفرنجة والجلالقة وملوكهم والنوكبرد وملوكها ليعطف في النهاية إلى أخبار عاد وثمود وجرهم في مكة وملوك اليمن والحيرة وغسان وتاريخ العرب الثقافي في الجاهلية . ويقف وقفة واسعة عند أسس التاريخ والتقويم عند الأمم المختلفة وعند البيوت المعظمة لديها قبل أن يصل إلى البعثة النبوية فيوجز السيرة لينتقل إلى الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعبّاسيين خليفة خليفة حتى سنة ٣٣٥ سنة تأليف الكتاب . يستوفي المسعودي في تاريخه العالمي ذكر مختلف الأمم ويمنحها في نوع من التوازن نصف الكتاب ويؤكد على العناصر الحضارية في تواريخها والعناصر الفكرية والدينية . ورغم

---

(١) المسعودي – مروج الذهب (ط . بلا) ج ١ ص ١٠ .

صدق إيمانه بدينه فهو لا يتردد في ذكر أخبار الأديان الأخرى ومقالاتها بقلم العالم الموضوعي المحايد . وإذا أورد بعض المعلومات الكلامية والفلسفية في ثنايا التاريخ فقد أورد في الوقت نفسه بعض أخبار الخوارق والعجائب وأحياناً بعض الأساطير ... وعلى أي حال فإنّ مفهومه للتاريخ العالمي هو أوسع المفاهيم حتى عهده كما أن زاوية نظره حضارية لا سياسية ، وفكرية لا مادية وشعوره « بالإنساني » وبتطور « الإنسانية » وتوازن الأفكار والعقائد والأمم شعور واضح .

ثالثها : تاريخ صغير ولكن له أهميته كنظرة عالمية من خلال الزمن هو :

تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء . الذي ألفه أبو عبد الله حمزة بن حسن الأصفهاني (المتوفى قبل سنة ٣٦٠ / ٩٧١) وجعله في عشرة أبواب سرد فيها سني ملوك الفرس والروم واليونان والقبط والإسرائيليين ثم ساق تواريخ لخم وغسان وحمير وملوك كندة ثم « تواريخ قريش ملوك عرب الإسلام » جاعلاً للكتاب مقدمة مختصرة في توزع الأمم في الأرض في تقاويمها المتعددة . وخاتماً الكتاب بفصول سرد فيها تواريخ النيروز بعد الهجرة ، وبعض الأحداث الطريفة المتعلقة بالنجوم والآثار والكوارث الطبيعية ثم اضطراب أمر الخلافة قبل وصول البويهيين للحكم (بين سنة ٣٠٨ وسنة ٣٢٠) وأخيراً بذكر ولاة خراسان منذ أبي مسلم حتى الحسن بن بويه وسنة ٣٢٩ ...

وأهمية الكتاب ليست في معلوماته المحدودة ولكن في إدراكه مفهوم الزمن التاريخي وأبعاده وتطبيق ذلك على التاريخ . هذا المفهوم يغمض جداً لدى الطبري ليصبح مجرد رقم من السنين وهو يزداد سعة لدى المسعودي بما ينفتح عليه من الأمم ومن الامتداد الجغرافي ، ولكنه لا يمتد عمقاً في الماضي كما يمتد لدى الأصفهاني . ولعلّ السبب أن الرجل اعتمد حسابات المنجمين والأزياج الفلكية ونظمها في نسق متصل ليضع الأمم على أبعاد الزمن وهكذا كان في الواقع هدفه . وقد وضعه في العنوان فهو لم يكتب تاريخاً ولكن تاريخ « سني »

ملوك الأرض والأنبياء ... فتاريخه عمقي زمني ، كما أنه بسبب ثقافته العلمية الواسعة أعار النواحي الثقافية مكاناً طيباً فهو « مصدر ثمين جداً للأخبار الثقافية».

ولكن الأصفهاني ضيق النظرة في الشعوب والأرض يختصر الأمم على ست، ثم انّه ينصرف انصرافاً واضحاً لتاريخ الفرس وتاريخ خراسان وطبرستان حتّى ليخصص ربع الكتاب الأخير لأمور وأحداث إيرانية فهو في هذه الناحية : النسخة المطوّرة لأبي حنيفة الدينوري ولكتابه الأخبار الطوال .

ثالثها ــ تاريخ المقدسي : المطهر بن طاهر (من القرن الرابع) والمسمى البدء والتاريخ . وقد ألفه صاحبه سنة ٣٥٥ وينطلق المقدسي في فهم التاريخ العالمي من خلال النظرة المثالية في الفلسفة . إنه يخصص ربع الكتاب الأول (مجلد ونصف المجلد من ستة) لبحث نظري فلسفي في العقل والمعرفة والله والملائكة والسماء والأرض والتاريخ والزمن ليصل بعد ذلك إلى الخليقة. ثم خصص الربع الثاني لذكر الفتن والكوائن حتّى قيام الساعة والأنبياء والأديان ثم أقسام الأرض الجغرافية حيث حشر ذكر الأمم من هند وترك وروم وبربر وحبش وغيرها ليصل إلى أنساب العرب وأقسامها ثم يدخل في النصف الثاني من الكتاب في تاريخ الرسالة المحمدية وما تلاها ... ونجده بعكس التواريخ الأخرى يزداد اختصاراً مع التقدم في الكتاب نحو عصره ويختصر أخبار خلفاء بني العبّاس الآخرين كل الاختصار حتّى عهده ...

وإذا عبر المقدسي في تاريخه عن فهم أوسع لمكان الإنسان كله من الكون والوجود في إطار الإلهيات التي عرف فإنه لم يحتفظ بالنظرة الواسعة نفسها في التاريخ الذي جاء غير متوازن الأبعاد الزمنية ، ولا الاهتمام. وإذا كانت قيمته في أن تاريخه كان « محاولة لاخضاع التاريخ للفلسفة ومن الناحية الظاهرية على الأقل ... » ــ كما قال روزنتال[1] أو محاولة لإقامة جسر اتصال بينهما فإن هذه

---

(١) روزنتال ــ علم التاريخ ص ١٠١ (في الترجمة العربية ص ١٦١) .

القيمة يجب أن تعطى لمجرد المحاولة التي كانت جريئة ومبتكرة دون شك ، أمّا من ناحية التطبيق فإن التاريخ لم يفلسف ولا الحياة والكون وإنما اقتصر الأمر على الصاق بعض أبحاث الإلهيات بأبحاث من التاريخ موجزة معروفة .

رابعها – كتاب تجارب الأمم لمسكويه أبي علي أحمد بن محمد (سنة ٤٢١ / ١٠٢٩) وهو بدوره تاريخ عام[1] بدأه صاحبه بما بعد الطوفان وانتهى به إلى سنة ٣٦٩[2] ، ويمكن من بعض زوايا النظر أن يعتبر ثالوث السلسلة التي بدأها الدينوري ولحقها الأصفهاني . ذلك أنّه بحث التاريخ الفارسي خاصةً لاعتقاده أن أقدم وأهم تاريخ مسجل هو تاريخ ملوك الفرس اللذين تابعهم حتّى سقوط الإمبراطورية الفارسية ذاكراً بعض الإشارات العابرة ، خلال ذلك ، إلى البابليين والإغريق والنصارى والروم وعرب الجاهلية وكأنها لإيضاح التاريخ الفارسي نفسه وقد احتل كل أولئك على أي حال عشر الكتاب أو أقل من ذلك (نصف المجلد الأول) بينما تناول في باقي المجلدات تجارب السياسة خاصة في التاريخ الإسلامي فبحث الجانب السياسي من سيرة الرسول والمشاكل السياسية التي نشأت في العصر الراشد وما بعده مقتصراً في ذلك على الطبري كمصدر يعتمده بعد حذف الأسانيد واللجوء إلى الاختصار ... ولكنه لا يسير على التنظيم الحولي إلا في القسم العباسي والأخير من الكتاب ، أما قبل ذلك وفي

(١) من المؤسف أن الكتاب على شأنه لم يأخذ حظه من النشر الكامل . نشر المستشرق دي غويه الجزء الأول منه تصويراً (ليدن ١٩٠٩ – منشورات جب) وكان دي جويه نشر جزءاً منه من قبل سنة ١٨٧١ وطبعه كرة أخرى سنة ١٩١٢ ونشر آمدروز سنة ١٩١٤ في القاهرة الجزئين الخامس والسادس . وذكر العقيقي في كتاب المستشرقون أن مرغليوث أصدر طبعة كاملة من تجارب الأمم متناً وترجمة في سبعة مجلدات (بمعونة آمدروز في الخامس والسادس) طبع اكسفورد ١٩٢٠ – ١٩٢١ لكني لم استطع التحقق من صدور هذه الطبعة بعد . وثمة من مخطوط الكتاب الأصلي نسخة كاملة في استانبول كان اكتشفها هوروفيتش١٩٠٦ (أيا صوفيا رقم ٣١١٦ – ٣١٢١) .

(٢) القسم الاخير المطبوع من الكتاب ينتهي به عند سنة ٣٦٩ وأما القفطي فيذكر (في أخبار الحكماء ص ٣٣١) أنه يصل سنة ٣٧٢ .

تاريخ صدر الإسلام فهو يتبع أساس المواضيع في التدوين ...

ومنطلقات مسكويه في تاريخه إنما لخصها العنوان نفسه : تجارب الأمم . ولهذا فإنه لم يكلف نفسه لا المنطلق الموسوعي ولا الفلسفي ولكن المنطلق البراغماتي أو السياسي العملي . وهكذا أخرج من الكتاب تاريخ الأنبياء بل والتاريخ الديني للرسول . وقال في الصفحة الثانية من كتابه : « ... وأنا مبتدىء بذكر الله ومنته بما نقل من الأخبار بعد الطوفان نقلته الثقة بما كان قبله ولأن ما نقل لا يفيد شيئاً مما عزمنا على ذكره وضمناه في صدر الكتاب (وهو ذكر التجارب التي تؤخذ عبراً) ولهذا السبب بعينه لم نتعرض لذكر معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم وما تم لهم من السياسات لأن أهل زماننا لا يستفيدون منها تجربة فيما يستقبلونه من أمورهم اللهم إلا ما كان تدبيراً بشرياً لا يقترن بالإعجاز ... » وهكذا جاء الكتاب مشتملاً — في رأي مؤلفه — « ... على كل ما ورد في التاريخ مما أوجبته التجربة وتفريط من يفرط وحزم من استعمل الحزم » . فكأن مسكويه إنما أراد أن يقدم تاريخاً عاماً منظوراً إليه من زاوية التجربة السياسية العملية لا ليكون درساً في الأخلاق — وان حرص مسكويه عليها — ولا نظرية في الفلسفة ولا مجمعاً للأخبار والطرائف والأفكار ولكن دراسة في تدبير أمور الحكم والدول وقصص الدهاء والغلبة والفشل . إن مسكويه ينطلق إذن من وجهة نظر متشائمة لا تبحث عن الحق ولا الخلق والدين ولا الفكر . ولكن عن تطور الأحداث التاريخية وتحليل أسبابها وهو يورد قبل كل حدث قوله : « وأما أسباب ذلك ... » وما التاريخ بالنسبة إليه سوى قصة التجارب والأمثلة على الحزم ومغبة التفريط وأبعاد المكائد . ومسكويه يمثل في هذا زاوية هامة من الفكر التاريخي السياسي ربما كانت متأثرة التأثر القليل أو الكثير ببعض الأفكار الشيعية الباطنية كالمبادىء الإسماعيلية التعليمية ولكنها على أي حال تعكس في الوقت نفسه الموقف الريبي الواقعي الذي وصل إليه الفكر السياسي الإسلامي في القرن الرابع (العاشر الميلادي) أمام الاضطراب الدائم والقلق المتواتر للأحوال السياسية .

خامسها ـ كتاب غرر السير المعروف بكتاب غرر أخبار الملوك وسيرهم لأبي منصور حسين بن محمد المرغني[1] الثعالبي (من رجال أواخر القرن الرابع والعقود الأولى من الخامس) وقد قال في مطلع كتابه : « ... لقد أودعت هـذا الكتاب تاريخ ملوك ايران من كيومرث إلى الملك يزدجرد بن شهريار ثم تاريخ الأنبياء وفراعنة مصر وملوك حمير والعرب والروم والهند والترك والصين وبعد ذلك تاريخ بني المسلمين والخلفاء الراشدين وبني أمية والعباسيين وأبي مسلم والبرامكة وآل طاهر السجزية (يريد الصفاريين) والسامانيين وآل حمدان وآل بويه وبعد ذلك ذكر تاريخ هؤلاء ... بني سبكتكين ... (الغزنويين) ... » وقد جاء ذلك في أربع مجلدات ضخمة ربعها لتاريخ الفرس وربعها تقريباً لتاريخ الأمم الأخرى قبل الإسلام والباقي للتاريخ الإسلامي . ويميل الرجل مع فارسيته فهو حين يصل التاريخ العباسي يقف خاصة عند أبي مسلم والبرامكة ويركز انتباهه في تاريخ ايران وحده لولا ما يذكره من تاريخ بني حمدان ... والكتاب من خلال القطعة الباقية منه[2] كتب بروح أدبية طيبة ودراية حسنة بالتاريخ وثقافة واضحة التأثر ولكنه يكاد فيما عدا ذلك يصبح تاريخاً عادياً . ولولا أنه حفظ في أوله بعض المقتطفات من بعض كتب التاريخ الفارسي وبعض المعلومات الهامة عن الدول المتقطعة في إيران لما كان فيه جديد في القسم الإسلامي الذي يعتمد أساسياً على الطبري . ولكنه لا يعتمد طريقة التنظيم الحولي ، ولكن تتابع الخلفاء ـ كتتابع ملوك الفرس عنده ـ وإن كان يضيف في حكم كل خليفة فقرات يخصصها للوزراء وكبار رجال البلاط ... ويهتم بالأمور الثقافية وخاصة في تاريخ ما قبل الإسلام حيث تعوزه الأخبار السياسية .

(١) نشر المستشرق زوتنبرغ قسم الفرس من هذا الكتاب (باريس ١٩٠٠) مع الترجمة الفرنسية ، ونسبه إلى أبي منصور الثعالبي المشهور عبد الملك بن محمد صاحب يتيمة الدهر . وقد أعيد طبعه في طهران سنة ١٩٦٣ وذكر مقدم الطبعة مجتبي مينوي أنه للمرغني وليس لعبد الملك .

(٢) ثمة غير القسم المطبوع قسم اسلامي مخطوط في مكتبة البودليان ـ اكسفورد :
D'Orv. X₁ (542) Uri 130.

وتنقطع سلسلة التواريخ العامة هذه بعد مسكويه والثعالبي قرابة القرنين إلا من (كتاب الدول) الضائع والذي كتبه في ثلاثين مجلداً أو تزيد المجاشعي أبو الحسن (وسوف يأتي ذكره) ...

وعلى أي حال فإن ذلك الازدهار في النظرات التاريخية العامة والعالمية التي نبتت في ذلك الجو الثقافي الخصيب من القرن الرابع لم يكن لها غد . وتلك المحاولات المبتكرة التي حاول فيها المسعودي رسم الخط الموسوعي في التاريخ أو المقدسي ربط التاريخ بالحياة والكون عن طريق الفلسفة أو حاول فيها مسكويه تحويل التاريخ إلى دروس في السياسة العملية . كل أولئك فشل ولم يجد بعد هؤلاء من يتابع المحاولة خطوة أخرى.

منهج عام واحد في التاريخ العام العالمي هو الذي بقي وانتشر هو منهج الطبري منهج الخبر الحولي ولكن بعد حذف الاسناد ... في نصف القرن الأخير من هذه الفترة التي ندرس أي ما بين أواخر القرن السادس وأواسط السابع تظهر هبة أخرى من التواريخ العامة تطبع الفترة كلها بطابع الاهتمام التاريخي الواسع على أن أهم ميزاتها أنها مع اتباعها مدرسة الطبري الحولية وسعة نظر اليعقوبي والمسعودي في الشمول الأممي وأسلوب مسكويه في السرد السياسي دون السند ودون الاهتمام بالجو الحضاري قد ضيقت أحياناً مفهوم التاريخ العام كما أضافت منهجين جديدين إليه :

أولاً : فأمّا ضيق المفهوم فتجلى في اقتصارها التاريخ على تاريخ المسلمين العام وتقصيرها الزمن التاريخي على مدى التاريخ الاسلامي فقط دون السابق له ، ولعل السبب هو توسع هذا التاريخ وتزايد مادته من جهة واعتبار بعض المؤرخين – سواء عن تمنٍ أو عن اقتناع – أن تاريخ الاسلام هو الذي يهم الناس وهو الجدير بالتدوين والمعرفة وما عداه ممّا سلف لا يعدو أن يكون زيادة لا قيمة لها ولا أثر ... ولذلك كثيراً ما نجد كتب التاريخ العامة إنما تبدأ بعصر الرسالة . وسوف

نرى خلال البحث الأمثلة العديدة على ذلك .

ثانياً : أضافت أهم كتب التاريخ العام إلى مادتها في الحوادث مادة جديدة أخذتها من كتب التراجم . وقد جاءت هذه الاضافة ذيلاً وتتمة القسم الإسلامي منها .

ثالثاً : فتحت باباً يأتي في نهاية حوادث كل سنة هو باب الوفيات . لقد دمج المؤرخون منذ أواخر القرن السادس تاريخ الرجال مع الأحداث في كتاب واحد . مفهوم التاريخ العام التقى فيه عندهم لا الأمم المختلفة في المناطق المختلفة فقط ولكن التقى فيه أيضاً فرعا التاريخ الداخليان: الأحداث والتراجم .

ولا نستطيع أن نحكم في هذه الناحية على مؤلفات التاريخ العامة التي ضاعت إلا في التخمين والحدس والأرجح أنها تواريخ حوادث فقط ومنها :

– تاريخ محمود الوراق الذي انتهى به إلى سنة ٤٠٩ / ١٠١٨ ذكره أبو الفضل البيهقي في تاريخ بيهق قائلاً : « شرح هذه الأحداث (عن الأسرة الصفارية) الأستاذ محمود الوراق في تاريخه الذي ألفه سنة ٤٥٠ فإنه ذكر الحوادث منذ آلاف السنين حتى سنة ٤٠٩ ... ومحمود هذا ثقة مقبول القول ... وقد رأيت من مؤلفاته النادرة العشرة والخمسة عشر كتاباً في شتى الموضوعات ... »[1] وهو يدخل في إطار المدرسة الفارسية لأنه كتب على الغالب بها .

– تاريخ المجاشعي أبي الحسن بن فضال القيرواني المتوفى سنة ٤٧٩ /١٠٨٦ وهو كتاب الدول ويزيد على ثلاثين مجلداً قرأ فيها ياقوت في الوقف السلجوقي ببغداد[2] .

---

(١) انظر البيهقي – تاريخ بيهق (الترجمة العربية) ص ٢٨٧ .
(٢) انظر ياقوت – معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٨٩ (ج ١٤ ص ٩١) .

– ياقوت الحموي (سنة ٦٢٦) فإن له عدا معجميه المشهورين : كتاب الدول وكتاب المبدأ والمآل[1] ويبدو أن الأول تاريخ عام منظم على أساس الدول ولعلها الاسلامية فقط وأمّا الثاني فقد وصف بأنّه تاريخ عام .

– تاريخ ابن نظيف ابي الفضائل محمد بن علي بن عبد العزيز الغساني. الكاتب الحموي (بعد سنة ٦٣١ / ١٢٣٤) وقد سماه الكشف والبيان في حوادث الزمان . كان في عدة مجلدات .

– تاريخ القفطي جمال الدين أبي الحسن على بن يوسف القاضي الوزير (سنة ٦٤٦) وله بين مؤلفاته التاريخية التي تزيد على ١٦ مؤلفاً كتاب التاريخ على السنين الذي لخصه ابن مكتوم بعد قرن[2] .

– ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (سنة ٦٦٨) وله عدا طبقات الأطباء المشهور كتابان عامان في التاريخ هما : المختار من عيون التاريخ[3] ، وكتاب معالم الأمم وأخبار ذوي الحكم[4] ولعل الأول في الحوادث والثاني في التراجم .

وقد تلا هذه التواريخ حتى نهاية القرن السابع تاريخان ضخمان :

أولهما : تاريخ أبي طالب تاج الدين علي بن الحسين بن عثمان ابن أنجب المعروف بابن الساعي (سنة ٦٧٤) المؤرخ المشهور واسم كتابه : (الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير) وكان في ٢٥ مجلداً حتى نهاية الدولة العباسية ، وقد ذيل عليه ابن الفوطي في ٨٠ مجلدة

---

(١) انظر هدية العارفين ج ٢ ص ٥١٤ .

(٢) انظر كشف الظنون ج ١ ص ٣٠١ وقد توفي ابن مكتوم أحمد بن عبد القادر سنة ٧٤٩ .

(٣) انظر ابن الفرات – تاريخ ، مخطوط (فينا رقم ١١٩) ج ٢ ورقات ١٥٤ ظهر وجه وج ٤ ص ٦ – ٧ .

(٤) هدية العارفين ج ١ ص ٩٩ .

أخرى . ولابن الساعي كتاب آخر بعنوان سير الملوك ولعله كتاب التاريخ نفسه .

ثانيهما : تاريخ الكازروني ظهير الدين علي بن محمد بن محمود (سنة ٦٩٧) وهو تاريخ عام في ٢٧ مجلداً يحمل اسم روضة الأديب . اختصره الكازروني نفسه في مجلد (مطبوع) .

أما التواريخ العامة التي بقيت لنا فثلاثة من أمهات كتب التاريخ والثلاثة جمعت ما بين الحوادث والتراجم :

- المنتظم لابن الجوزي (سنة ٥٩٧) والرجل تحت تأثير الثقافة الحديثية يعطي التراجم حجماً أوسع من الأحداث . ولكنه في هذه وتلك ورغم الزعم بكتابة التاريخ العام لا يكاد يجاوز بغداد وأحداث ورجال العــراق .
- الكامل لابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الجزري (سنة ٦٣٠) ويعتبر في توازنه وتركيزه وقلة فضوله واستيفاء أبحاثه وشموله أكمل كتب التاريخ الإسلامي العامة .
- مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (سنة ٦٥٤) ويقع في أربعين مجلداً في بعض نسخه المخطوطة ، وفي عشرين في بعضها الأخرى ومن المؤسف أنه لم ير حبر المطبعة منه بعد سوى جزء أخير يتناول ما بين سنتي ٤٩٥ ونهاية الكتاب ، وفي نسخة مختصرة منه .

الثاني : التنظيم الأبجدي وهو ابتكار ظهر في نهاية الفترة أي في النصف الثاني من القرن السابع . ومع أنه نقل عن كتب التراجم إلا أنه يعبر عن فكر موسوعي نما حتى أدخل أحداث التاريخ في اطاره . فان اثنين على الأقل من كبار المؤرخين نظموا حوادث التاريخ على الأساس الأبجدي ، ولسنا ندري أيهما كان السابق في هذا لأنهما متعاصران :

– ابن أبي طي يحيى بن حامد بن ظافر النجار الغساني (سنة ٦٣٠) وهو المؤرخ الشيعي الخصب الذي لم يبق لنا من مؤلفاته الأربعة عشر شيء . وقد كتب : حوادث الزمان على الأحرف الأبجدية في خمس مجلدات .

– ابن أبي الدم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم الحموي (سنة ٦٤٢) وقد كتب بدوره عدة كتب تاريخية من بينها التاريخ المظفري وهو أبجدي بدوره . كما أنه اسلامي فقط وظاهرة التنظيم الأبجدي فيه وصفها لنا السخاوي على الشكل التالي : قال : « ابتدأه بسيرة نبوية ثم بالخلفاء ثم بالفقهاء ثم بالمتكلمين ثم بالمحدثين ثم بالزهاد ثم بالنحاة واللغويين والمفسرين والوزراء والمتقلمين ثم الشعراء . كل هؤلاء من المحمدين ، ثم سرد الكاتب على الحروف مبتدئاً بالصحابة ثم بالخلفاء على الترتيب المذكور وختم بالنساء في كل حرف وسماه التاريخ المقفى »[1] ... وهو مخطوط بالمكتبة الآصفية بحيدر آباد (رقم ١٥١) في ٤٧٣ صفحة .

غير أن هذا المنهج الأبجدي لم يلق الصدى في الناس فلم يتابعه أحد . بل ضاعت أو كادت تضيع هذه النماذج الأولى منه .

«ب» مقابل تلك التواريخ العامة الواسعة التي تصل مجلداتها إلى الثلاثين والأربعين : ومن أجل الحفاظ على القصد والاعتدال لجأ المؤرخون إلى منهجين أولهما : كتابة التواريخ البلدانية والاقليمية (وقد رأينا وسوف نرى الأمثلة الكثيرة عليها) وبها يشبعون تلك الرغبة الملحة التوسع ولتدوين التفاصيل والدقائق دون الإرهاق التواريخ العامة من جهة أو التعرض من جهة أخرى للإملال أو لسوء التأليف أو عدم التوازن في المعلومات بين قسم وقسم من المؤلفات وأما الثاني فهو كتابة :

---

(١) السخاوي – الاعلان (ط. روزنتال) ص ٦٧٤ وفي تسمية الكتاب تصحيف لعله من الناسخ والأصح أنه التاريخ المظفري ، أنظر تعليق روزنتال في الصفحة ذاتها .

المختصرات التواريخ العامة : وهو باب طرقه المؤرخون لمن يريد المعلومات السريعة المكثفة . بعض المؤلفين سمى مؤلفه « بلغة المستعجل » أو « بلغة الظرفاء » اشارة إلى هذا المعنى . وبعضهم سماه « مجمل التواريخ » أو « جمل تاريخ الاسلام » . ذلك أن حاجة الأمراء والعلماء إلى معلومات سريعة يضيق وقتهم عن أوسع منها وتقلّ حاجتهم إلى أكثر منها، ثم ظهور المختصرات في العلوم الأخرى ، ثم داعي الحرب والتخلص من نسخ المجلدات الواسعة والصعوبة العملية في اقتناء وفي نقل المجلدات الضخمة التي هي في الوقت نفسه غالية الثمن وقلما يهمّ بها إلا المتخصصون الهواة ، كل ذلك أوجد المختصرات في التواريخ العامة أو التاريخ الإسلامي . وبعض الكتاب كان يختصر بنفسه تاريخه المطول . ذلك ما فعله إبن الجوزي حين لخص (المنتظم) في كتاب شذور العقود وفعله من قبله المسعودي بشكل ثلاثي كما فعله من بعده ابن نظيف وابن أبي الدم وابن أبي أصيبعة . ونجد في هذا المجال من الأمثلة الكثير فهناك : مثلاً ما كنا ذكرناه من كتب في أخبار الخلفاء وفي الدول .

وهناك كذلك من كتب التاريخ الجامعات المختصرات[1] .

— يعقوب بن سفيان الفسوي الحافظ (سنة ٢٧٧) ، وله كتاب المعرفة

---

(١) تمر معنا في القرن الرابع خاصة وفي غيره مجموعة طويلة من الأسماء تعزو المصادر اليها كتباً باسم « التاريخ » أو كتاب تاريخ أو تقول تاريخ فلان ولسنا ندري على الضبط هل هو كتاب تراجم – على طريقة المحدثين – وهو الأرجح أم أنه تاريخ عام أو تاريخ إسلامي فقط . ومن هؤلاء مثلا :

– ابن الأزهر جعفر بن ابي محمد الاخباري (سنة ٢٧٩) له كتاب التاريخ وهو من جياد الكتب (ابن النديم – فهرس ص ١١٣) .

– ابن يزداد أبو صالح عبد الله بن محمد (ابن النديم ص ١٢٤) .

– المصري صاحب كتاب زهر العيون وجلاء القلوب من مصادر المسعودي (مروج ١ ص ١٦) .

– الجرجاني السعدي عبد الرحمن بن عبد الرزاق ، من مصادر المسعودي (مروج ١ ص ١٦) .

والتاريخ بقيت منه أجزاء من نسخة مخطوطة في استامبول (في مكتبة ريفان كوشك رقم ١٥٥٤ الأجزاء ١٠-١٧ وفي مكتبة أسعد أفندي رقم ٢٣٩١ الأجزاء ١٨-٢٩) وفي الأجزاء الأولى تاريخ عام فقد منه ما قبل سنة ١٢٩ هـ وينتهي الجزء ١٧ بسنة ٢٤١ هـ. وفي الأجزاء الباقية معلومات عن الصحابة، ومجموع أجزائه يبلغ مجلدين).وقد طبع الكتاب اخيراً في بغداد (بتحقيق أكرم ضياء العمري) .

– داود بن الجراح جد الوزير علي بن عيسى وله التاريخ الجامع لكثير من أخبار الفرس وغيرها من الأمم كما قال المسعودي[1] .

– الباهلي أبو الحسن محمد بن محمد (سنة ٣٢١/٩٣٣) وله تاريخ كبير باسم تاريخ الباهلي[2] .

– نفطويه ابراهيم بن محمد بن عرفه الواسطي النحوي (سنة ٣٢٣ / ٩٣٥) وله تاريخ قال المسعودي فيه إنّه « محشو من ملاحات كتب الخاصة مملوء من فوائد السادة . وكان مصنفه أحسن أهل دهره بالنقد وأملحهم تصنيفاً ... »[3] ويقع كتابه في ٢٨ جزءاً أي حوالى ٣ مجلدات .

– أبو عيسى بن المنجم وله « التاريخ ... على ما أنبأت به التوراة وغير ذلك من تاريخ الأنبياء والملوك »[4] .

– الطحاوي الحنفي أبو جعفر أحمد بن محمد (سنة ٣٢٠) (انظر كشف الظنون ج ١ ص ٢٩٨) .

– الخليل بن أحمد بن عيسى وله تاريخ لمختصره الشاطي ونقل عنه ابن العديم (بغية الطلب) مخطوط أحمد الثالث ج ١ ورقة ١١٩ وجه ج ٧ ورقة ٢٩٠ وجه .

– الشجري أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف (سنة ٣٥٠) من أتباع الطبري وكان قاضي الكوفة (انظر ابن النديم ص ٣٢) .

(١) المسعودي – مروج ١ ص ١٤ .

(٢) كشف الظنون ج ١ ص ٢٨٦ .

(٣) المسعودي – مروج ١ ص ١٥ ، وانظر فهرس ابن خير ص ٢٩٨ .

(٤) المسعودي – مروج ١ ص ١٤ .

– قدامة بن جعفر أبو الفرج (سنة ٣٣٧) وله كتاب زهر الربيع في الأخبار والتاريخ يقول فيه المسعودي انه « حسن التأليف ، بارع التصنيف ، موجز الألفاظ ، مقرِّب للمعاني »[1].

– المسعودي (٣٤٦) وكتابه التنبيه والإشراف معروف .

– الخطبي أبو محمد اسماعيل بن علي بن اسماعيل بن يحيى بن بنّان البغدادي (المولود سنة ٢٦٩ والمتوفى سنة ٣٥٠) أستاذ الدارقطني وابن رزقويه . وكان ثقة اخبارياً عالماً بالأدب عارفاً بأيام الناس وأخبار الخلفاء يتحرى الصدق وله تاريخ جامع كبير على ترتيب السنين[2] . ذكره ابن الجوزي والصفدي .

– ابن قانع ولعله الحافظ أبو الحسن عبد الباقي بن قانع بن مرزوق البغدادي (سنة ٣٥١) وله تاريخ جامع مرتب على السنين[3] .

– ابن سوار أبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن أخت عيسى ابن فرخان شاه . وله كتاب الجامع لفنون الأخبار والكوائن في الأعصار قبل الإسلام وبعده بلغ في تصنيفه إلى سنة عشرين وثلاثمائة[4] .

وتختفي هذه التواريخ العامة ما يزيد على القرن (ما بين الرابع والخامس) لا نكاد نجد خلاله منها إلا النزر اليسير اليسير ومن ذلك :

– كتاب في التاريخ لأبي الفتح أحمد بن مطرف الكناني (المتوفى غالباً سنة ٤١٣) قال في تقديمه : « انه اقتنص من تصانيفه كتاباً مجرداً في التواريخ المعينة على الطبقات المبينة مما ينبغي لأهل العلم أن يعلموه

(١) المصدر نفسه ص ١٦ .
(٢) الصفدي – الوافي ج ١ ص ٥٠ وابن الجوزي – المنتظم ج ٧ ص ٣ – ٤ .
(٣) المصدر نفسه ، وانظر كشف الظنون ٢ ص ١٧٣٥ .
(٤) المسعودي – مروج ١ ص ١٤ .

ويستيقنوه ولا يجهلوه ومما يحتاج إليه أهل العلم بالأديان والسير وأهل المعرفة بالأيام والخبر »[1]

– كتاب زيج التواريخ لأبي نصر يحيى بن جرير التكريتي الطبيب الحلبي (بعد سنة ٤٧٣) ويسمي كتابه أحياناً الكتاب الجامع التواريخ . وقد استخدمه ابن العديم وابن شداد[2] وذكر كلاهما أنه يتضمن : « ... مبدأ الدول ومنشأ الممالك ومواليد الأنبياء وأوقات بناء المدن وذكر الحوادث المشهورة ...» .

– وكتب الحميدي أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح (سنة ٤٨٨) كتاب مجمل التاريخ أو (جمل تاريخ الاسلام) . [3]

– وكتب مجهول في أواخر القرن الخامس كتاب : مجمل التواريخ على شكل حوليات باختصار على طريقة حمزة الأصفهاني وأضاف إليها في النهاية بعض المعلومات الجغرافية عن الأماكن المقدسة وخططها وقد طبع الكتاب في طهران سنة ١٩٣٦ .

– السمناني أبو القاسم علي بن محمد (سنة ٤٩٩) وله : الاستظهار في معرفة الدول والأخبار .

غير أن هذا النوع من المختصرات التاريخية يتكاثر في القرن السادس وما بعده ومن ذلك ما كتبه :

– المتقدي أبو الحسن علي بن مرشد بن علي الكتاني (سنة ٥٤٥) وله : البداية والنهاية ، انتهى إلى ما بعد سنة ٥٣٤ .

---

(١) انظر السخاوي – الاعلان (ط . روزنتال) ص ٤٤١ ، وانظر ياقوت – الأدباء ج ٥ ص ٦٣ (ج ٢ ص ١١٥) .
(٢) انظر مثلا ابن العديم – زبدة الحلب ج ١ ص ١٥ ، وانظر ابن شداد الأعلاق الخطيرة (قسم حلب) ص ١٢ .
(٣) انظر الصفدي – الوافي ج ١ ص ٥٠ .

– السهروردي وجيه الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن عمويه الصفوي (سنة ٥٣٢) وله : التاريخ المجاهدي ألفه لمجاهد الدين بهروز حاكم العراق للسلاجقة في تلك الفترة وجعله على حوادث السنين من ابتداء الدنيا إلى سنة ٥٢٤هـ[1] .

الكرخي أبو طاهر أحمد بن الحسن (توفي بعد سنة ٥٣٢) وله تاريخ نقل عنه ابن الفوطي[2] .

– ابن حمدون (المنشىء) محمد بن الحسن بن محمد البغدادي (سنة ٥٤٥) وله تاريخ الحوادث[3] .

– ابن حمدون (الكاتب شقيق السابق) أبو المعالي محمد (سنة ٥٦٢) وقد جعل الجزء الثاني عشر من تذكرته تاريخاً عاماً على الحوادث تارة وعلى السنين أخرى حتى سنة ٥٢٦ . وهذا الجزء مخطوط (أحمد الثالث رقم ٢٩٨١) .

– العظيمي محمد بن علي بن محمد التنوخي (بعد سنة ٥٥٨) وقد كتب تاريخين أحدهما مطول والثاني مختصر باسم تاريخ حلب ولكن النظر في الثاني (المختصر) يكشف أنّه تاريخ عام وهو مخطوط في استامبول (مكتبة قرة مصطفى ٣٩٨) نشر الجزء الأخير منه كلود كاهن .

– الأسفرايني المديني أبو موسى محمد بن عمر بن أحمد الأصبهاني (سنة ٥٨١) وله : الأخبار الطوال .

– الأصبهاني عماد الدين محمد (القاضي لا الكاتب) وقد توفي بعد سنة

---

(١) النظر السلمي – طبقات الصوفية ص ١٨٠ .
(٢) ابن الفوطي – تلخيص معجم الألقاب ج ٤ – قسم ١ ص ٥٩٩ (نشر مصطفى جواد – دمشق ١٩٦٢) .
(٣) الصفدي – الوافي – ج ٢ ص ٣٥٨ .

٥٩٣) وله كتاب البستان الجامع لتواريخ الزمان . وهو مخطوط في استامبول (أحمد الثالث رقم ٢٩٥٩) .

– ابن الجوزي عبد الرحمن الإمام الواعظ (سنة ٥٩٧) وله بين مؤلفاته بالمئات : كتاب الذهب المسبوك في سيرة الملوك (مخطوط في استامبول أسعد أفندي رقم ٢٠٦٥ وقد طبع) وكتاب شذور العقود وهو تاريخ عام موجز اهتم بتلخيص معلومات في الفلكيات والجغرافيا وتاريخ بني إسرائيل الى زمن السيد المسيح ثم يتلو ذلك فصل قصير في ملوك الفرس وموجزات مقتضبة عن الأمم الأخرى قبل أن ينصرف إلى تلخيص التاريخ الإسلامي كله .

– ابن عنين أبو المحاسن محمد بن نصر الله الدمشقي الوزير الشاعر (سنة ٦٣٠) وقد كتب للملك العزيز الأيوبي : التاريخ العزيزي .

– ابن نظيف أبو الفضائل محمد بن علي بن عبد العزيز الحموي الكاتب (بعد سنة ٦٣١) وله تاريخ عام واسع أوجزه في كتاب صغير اسمه التاريخ المنصوري (طبع في موسكو) كما أن له موجزاً آخر باسم مختصر سير الأوائل والملوك (وهو مخطوط) .

– ابن سعادة شمس الدين أبو العباس أحمد بن خليل البودي الخوبي الدمشقي القاضي (سنة ٦٤٧) وله : الروض الباسم في أخبار من مضى من العوالم .

– ابن أبي الدم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم الحموي (سنة ٦٤٢) وله موجز لتاريخه الكبير المقفي (أو المظفري) ، يدعى في المخطوطات أيضاً باسم التاريخ المظفري ولعل اسمه الشماريخ في التاريخ وهو في تاريخ الإسلام وعلى السنين ومنه مخطوطان في الهند (مكتبة خدابخش – بتنه رقم ٢٨٦٨ ورقم ٢٨٦٩) ومخطوط في بلدية الاسكندرية (رقم ١٢٩٢ب) .

- ابن أبي أصيبعة أبو العباس أحمد بن القاسم الكحال (سنة٦٦٨) صاحب طبقات الأطباء وله : كتابان لعلهما تاريخ واسع وموجزه : المختار من عيون التاريخ ، ومعالم الأمم وأخبار ذوي الحكم .

- الكازروني علي بن محمد بن محمود (سنة ٦٩٧) وله : مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العبّاس ومنه مخطوط في استامبول (جار الله رقم ١٦٢٥) بخط المؤلف . كتبه سنة ٦٦٣ وقد اختصر فيه تاريخاً عاماً له كان في ٢٧ مجلداً . وقد طبع المختصر في بغداد .

على أن هذه المختصرات بقيت على أي حال تأخذ شكل التواريخ ، لكن بعض المؤلفين وصلوا في إيجاز كتب التاريخ العامة في القرن السادس والسابع إلى الاقتصار على القوائم المجردة وطريقة الجداول ، ومن ذلك :

- التاريخ المجدول وقد كتبه أبو القاسم محمد بن علي العمادي[1] (من رجال أوائل القرن السادس / الثاني عشر الميلادي) .

- وتاريخ ابن الراهب الذي لا نجد فيه إلا الجداول المتالية لأسماء ملوك الروم وبيزنطة والخلفاء والبطاركة (وهو مطبوع) .

(جـ) ومن جهة أخرى فإن المنهج الحولي في التسجيل هو الذي سيطر تقريباً ولكنه بدوره تطور في اتجاهين :

الأول : تطوّر أحياناً في اتجاه التدقيق الشديد والتقيد بالشهر لا بالحول وأحياناً بالأيام ، ومن الأمثلة على ذلك :

- كتاب الاستظهار في معرفة الدول والأخبار لأبي القاسم علي ابن محمد السمناني وهو في التاريخ على الشهور .

---

(١) ذكره بارتولد في (تركستان حتى الغزو المغولي - بالانجليزية - سلسلة جب التذكارية رقم ٥ - لندن ١٩٢٨) ص ٢٤ .

- وقد ذيل عليه بذيل الاستظهار أبو علي الحسن بن محمد بن اسماعيل القيلوي القاضي (سنة ٦٣٣) .
- كما نظم القاضي الفاضل يومياته على شكل تاريخ يومي سمي بالمياومات ومع أن هذا الاتجاه لم ينتشر بسبب قسوته وعدم توافر المعلومات دوماً فيه إلا أنّه مع ذلك سوف يستمر في العهد المملوكي الثاني ويسجل عدداً من المؤلفات التي نجد في بعض أخبارها ذكراً الساعة التي جرى فيها الحادث .

الثاني : الإتجاه المعاكس وهو التحرر من قيد الزمن كله وترك الأخبار حرة مرسلة لا يربط بينها الزمن ولكن الموضوع وأحياناً تداعي الأفكار وحده . وفي هذا المجال كانت الكتب « الحضارية » وكتب القصص التاريخي والحكايات عن : الأذكياء مثلاً ، وعقلاء المجانين ، والطنبوريين والبخلاء والجواري والتوابين والظراف والمتماجنين « والشجعان ... الخ . كما كانت كتب الحكايات والملح والنوادر ... وقد مرّ معنا من هذا وذلك الأمثلة العديدة الواسعة .

د - وعلى سبل التطور ذاتها تطور المنهج في كتب تراجم الرجال . لقد كانت هذه الكتب في أول نشأتها تحمل اسم الطبقات وقد توسعت في القرن الثالث حتى انتجت الطبقات الكبرى لابن سعد ، غير أنها لم تكن واحدة النهج أي لم تكن تتبع نهجاً في التنظيم ثابت الأسس يمكن لأي مؤلف أن يسير عليه وإنما تتبع التنظيم الذي يختاره المؤلف من خلال منطلقاته الفكرية والدينية والأوليات أو المبادىء التي يضعها لنفسه ، ولكن هذه الكتب اتجهت منذ القرن الرابع نحو توطيد تنظيمها ضمن عدد من الأسس المنهجية العامة. وهكذا في الوقت التي استمرت فيه كتب الطبقات وتنوعت ، ظهرت بجانبها كتب أخرى على مناهج عدة .

ولعله من الهام أن نشير ، قبل الانطلاق في ذكر النماذج والأمثلة في

تنظيم التراجم إلى الكثرة الهائلة فيها مما يضطرنا اضطراراً للاختيار والتنقل من فترة إلى أخرى دون استيفاء الأسماء أو إحصاء المؤلفين الدقيق . لقد عرف هذه المهمة الصعبة من قبل المؤلفين القدامى ومن بينهم الصفدي الذي كتب في مقدمته الوافي : « وأما كتب المحدّثين في معرفة الصحابة وكتب الجرح والتعديل والأنساب ومعاجم المحدثين ومشيخات الحفاظ والرواة فإنها شيء لا يحصره حد ولا يقصره عد ولا يستقصيه ضبط ولا يستدنيه ربط لأنها كاثرت الأمواج أفواجاً وكابرت الادراج اندراجاً ... »[1] وهكذا فسوف نكتفي بالصورة العامة للتفرعات والنماذج :

فبعض كتب التراجم اتخذ خطة الاعتماد على سني الوفيات في تتابع الترجمة وهي الخطة الأشهر والأقدم والمجموعة الأولى التي فتحت الطريق اقتصرت في المؤلفات التي كتبتها على ذكر « وفيات الشيوخ » الذين أخذت عنهم ومن ذلك :

- البغوي أبو القاسم عبد الله بن محمد بن المرزبان (سنة ٣١٠) وله تاريخ وفاة شيوخ البغوي (منه نسخة مخطوطة في دار الكتب الظاهرية بدمشق . أنظر فهرس المكتبة – قسم التاريخ ليوسف العش ص ٢٢٥).
- ابن عقدة أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد (سنة ٣٣٢) نقل عنه ابن نقطة[2].
- ابن الفرات أبو الحسن محمد بن العباس (سنة ٣٨٤) وله وفيات الشيوخ نقل عنه ابن النجار محب الدين البغدادي المؤرخ[3].

---

(١) الصفدي – الوافي ج ١ ص ٥٥ .
(٢) انظر ابن نقطة – إكمال الإكمال ، مخطوط الظاهرية بدمشق (رقم ٤٢٩ حديث) الورقة ٧٨ وجه . في الحديث عن وفاة يعقوب بن يوسف بن ثواب .
(٣) انظر ابن النجار – التاريخ المجدد لمدينة السلام – مخطوط الظاهرية بدمشق (رقم ٤٢ تاريخ) الورقة ١٤٥ وجه ، وقد ذكر ذلك الكتاب في ترجمة ابن عصمة .

- الطحان أبو القاسم عبد الباقي بن محمد البغدادي (سنة ٤٣٢) وقد ذكر له الأدفوي كتاباً في الوفيات[١].

- ابن خيرون أبو الفضل أحمد بن الحسن البغدادي (سنة ٤٨٨) ألف « وفيات الشيوخ » من أول السنة التي ولد فيها وهي سنة ٤٠٦ حتى آخر زمانه. وذكر موالدهم[٢] ونقل عنه ابن نقطة في كتاب التقييد[٣]. وابن مكتوم في تلخيص أنباء الرواة[٤].

- الأنصاري أبو المعمر مبارك بن أحمد (سنة ٥٤٩) وقد ذكر حاجي خليفة مؤلفه في وفيات الشيوخ.

- القرشي أبو أحمد معمر بن عبد الواحد بن الفاخر القرشي الأصبهاني (سنة ٥٦٤) وقد ذكر ابن نقطة كتابه[٥].

- الحاجي أبو مسعود عبد الرحيم بن علي بن أحمد الأصبهاني (سنة ٥٦٦) وقد نشر كتابه في وفيات الشيوخ في بغداد سنة ١٩٦٦ عن نسخة الظاهرية المخطوطة بدمشق.

وفي الوقت الذي استمر فيه هذا النوع من الكتب في وفيات الشيوخ فقد توسع مؤلفون آخرون في مفهوم الوفيات فعمموه في التراجم وكان من ذلك خاصة سلسلة من المؤلفين توالى بعضهم وراء بعض يكملون العمل وفي هذه السلسلة من المؤلفين :

---

(١) انظر الأدفوي – الطالع السعيد ص ٣٦٣ ، ٣٨٢ .

(٢) الصفدي – الوافي بالوفيات – ج ١٠ (المخطوط المصور في الظاهرية بدمشق) الورقة ١٤٦ ظهر .

(٣) ابن نقطة – التقييد لمعرفة رواة الأسانيد – مخطوط مكتبة الأزهر (رقم ١٣٧ – مصطلح الحديث) الورقة ٧٦ وجه .

(٤) وابن مكتوم – تلخيص أنباء النحويين واللغويين – مخطوط دار الكتب بالقاهرة (رقم ٢٠٦٩ تاريخ ، تيمور) الورقة ١١٤ ظهر .

(٥) ابن نقطة – إكمال الإكمال – مخطوط الظاهرية الورقة ٨٢ وجه .

- ابن قانع أبو الحسين عبد الباقي الحافظ (سنة ٣٥١) وقد بدأ من الهجرة ثم وصل في الوفيات إلى سنة ٣٤٦ / ٩٥٧ .

- ابن زبر أبو محمد عبد الله بن أحمد الربعي (٣٢٩ / ٩٤٠) البغدادي الدمشقي قاضي مصر ابتدأ كتابه في الوفيات من تاريخ الهجرة وانتهى به إلى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة / ٩٤٩ .

ثم جاء على كتاب ابن زبر هذا سلسلة من الذيول استمرت أكثر من أربعة قرون كان فيها :

- الكتاني أبو محمد عبد العزيز بن محمد الحافظ الدمشقي الصوفي (٤٦٦) وقد تابع تسجيل الوفيات حتى قريب من وفاته .

- وقد عاصر الكتاني مؤلف آخر على الطريقة ذاتها هو ابن الحبال ابراهيم ابن سعيد النعماني المصري (سنة ٤٨٢) وكتابه في الوفيات ابتدأه من سنة ٣٧٥ وانتهى به إلى سنة ٤٥٦ وقد نشره صلاح الدين المنجد في مجلة معهد المخطوطات[1] .

- كما عاصره مؤلف آخر هو ابن منده أبو القاسم عبد الرحمن (سنة ٤٧٠) وله كتاب في الوفيات يبدو أنه كان واسعاً إلى درجة جعلت الذهبي يمتدحه بقوله : « لم أر أكثر استيعاباً منه »[2] .

- ابن الأكفاني أبو محمد هبة الله بن أحمد بن محمد الدمشقي (سنة ٥٢٤) وهو تلميذ الكتاني وقد تابع كتاب أستاذه بذيل امتد عشرين سنة وصل به إلى سنة ٤٨٥ وسماه جامع الوفيات .

- وذيّل على ابن الأكفاني أبو الحسن علي بن المفضل المقدسي الاسكندراني

---

(١) انظر مجلة معهد المخطوطات العربية الجزء الثاني من المجلد الثاني ص ٢٨٦ - ٣٣٧ .
(٢) الذهبي - العبر ج ٣ ص ٢٧٤ .

الحافظ (سنة ٦١١) وصل بذيله حتى سنة ٥٨١ وسمّاه وفيات النقلة .

- ثم أكمل المنذري أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي (سنة ٦٥٦) العمل بكتابه : التكملة لوفيات النقلة وقد طبع نصفه بتحقيق بشار عواد معروف في أربع مجلدات (بغداد ١٩٦٨ - ١٩٧١) .
- ثم تابع أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسيني الحلبي (سنة ٦٩٥) التأليف بكتاب صلة التكملة لوفيات النقلة ...

وإذا استمرت السلسلة بعد ذلك بأعمال الدمياطي (سنة ٧٤٩) ثم العراقي (سنة ٨٠٦) ثم أبي زرعة (سنة ٨٢٦) فإن كتباً أخرى في الوفيات ظهرت كذلك في القرن السابع موازية لعمل المنذري منها : وفيات ابن دحية أبي الخطاب عمر الكلبي المتوفى سنة ٦٣٣ .

وبعض كتب التراجم اعتمد النظام المعجمي والأبجدية أو كما كانوا يقولون « على الأحرف » وكان هذا قفزة هامة نحو الموسوعية والتنظيم بدأت بذورها بكتب أولية وضعها بعض المؤلفين في تراجم شيوخهم بعنوان : معجم الشيوخ ، ثم ما لبثت « المعجمية » أن أصبحت النهج التنظيمي الأول والأكثر اتباعاً في التأليف منذ مطالع القرن الخامس .

فمن مؤلفي معاجم الشيوخ الأولى مثلاً وهم جماعة واسعة كبيرة :

- أبو يوسف يعقوب الفسوي (سنة ٢٧٧) ولكنه رتبهم على البلدان التي دخلها .
- المقري أبو بكر محمد بن ابراهيم (سنة ٢٨١ / ٨٩٤ أو بعد ذلك) وله معجم الشيوخ .
- الموصلي أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى (سنة ٣٠٧ / ٩١٩) وقد ذكره السخاوي [1] .

---

(١) السخاوي - الاعلان (ط . روزنتال) ص ٦٠٧ .

ـ الأصبهاني أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن حمزة (سنة ٣٥٣ / ٩٦٤) وقد ذكره أبو نعيم الأصبهاني[١] .

ـ الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (سنة ٣٦٠ / ٩٧١) وكان رحالة حافظاً . جمع شيوخه وكانوا ألف شيخ في معجمين : أوسط وصغير[٢] .

ـ الإسماعيلي أبو بكر أحمد بن ابراهيم (سنة ٣٧١ / ٩٨١) .

ـ ابن جميع أبو الحسن محمد بن أحمد (سنة ٤٠٢ / ١٠١١) وقد ذكره السمعاني[٣] .

ـ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني الحافظ (سنة ٤٣٠ / ١٠٣٨) وله معجم شيوخ بجانب تاريخ أصبهان .

ـ ابن شاذان أبو علي الحسن بن أحمد (سنة ٤٢٦) ذكره ابن الجوزي[٤] .

ـ الهروي أبو ذر عبد الله بن أحمد (سنة ٤٣٤ / ١٠٤٣) ذكره الخطيب البغدادي[٥] .

ـ أبو الحسين محمد بن المهتدي بالله علي العباس (توفي بعد سنة ٤٦٥) ذكره الخطيب البغدادي بين مصادره والسمعاني وابن الجوزي[٦] .

ويضيق المكان عن متابعة هذه المؤلفات التي تزيد زيادة كبيرة بعد

---

(١) ابو نعيم – تاريخ اصبهان (ط. ريدرنغ – ليدن ١٩٠١ – ١٩٠٤) ج ١ ص ١٩٩ . والسخاوي المصدر السابق .

(٢) السمعاني – الأنساب (للمخطوط المصور – مرغليوث) الورقة ٣٦٦ وجه وانظر تهذيب ابن عساكر ج ٦ ص ٢٤٠ .

(٣) المصدر السابق الورقة ٣١٥ ظهر والورقة ٥٢١ وجه .

(٤) الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد ج ١١ ص ١٤١ . وانظر السخاوي – الاعلان ص ٦٠٨ .

(٥) ابن الجوزي – المنتظم ج ٨ ص ٨٦ – ٨٧ .

(٦) الخطيب – تاريخ بغداد ج ٣ ص ٨ ، ص ٢٣٥ ، ابن الجوزي – المنتظم ج ٨ ص ٢٨٢ . والسمعاني – الأنساب الورقة ٣٠١ ظهر .

القرن الخامس حتى لتصبح بضاعة كل مؤلف ويرد بينها معاجم شيوخ كل من الشيرازي (سنة ٤٨٦) والحميدي (سنة ٤٨٨) والسمعاني (الجد سنة ٤٨٩) (والأب سنة ٥١٠) والأنصاري (أواخر القرن الخامس) والسقطي (سنة ٥٠٩) والنرسي (سنة ٥١٠) والتنوخي (سنة ٥١٢) وعبد الله بن البناء (سنة ٥١٦) وابن النقاق (سنة ٥١٦) وأبي غالب أحمد بن البناء (سنة ٥٢٧) واليونارتي (سنة ٥٢٧) والخفاف (سنة ٥٤٣) وابن كاهويه (سنة ٥٥٠) ... الخ . وبعد ذلك حتى أواسط القرن السابع ما يزيد على أربعين مؤلفاً آخر، من أبرزهم ابن عساكر وله عدد من المعاجم والسمعاني والسلفي صاحب معجم السفر ، وابن العديم ... الخ .

والتنظيم المعجمي للتراجم منهج قديم لدى المؤرخين الاسلاميين ، وقد بدأ منذ القرن الثالث على أيدي بعض المحدثين من أمثال ابن ياسين (سنة ٢٣٤) في تاريخ هراة والبخاري (سنة ٢٥٦) في تاريخه لرجال الحديث ، غير أنه اتبع خاصة من قبل مؤلفي التواريخ البلدانية ، ومن هؤلاء المعداني (سنة ٣٧٥) في تاريخ مرو ، وأبو نعيم الأصفهاني في تاريخ أصبهان . وإذا التقط هذه الطريقة فعممها على (تاريخ علماء الأندلس) أبو الوليد الفرضي الأندلسي المتوفى سنة ٤٠٣ ، فإن الخطيب هو الذي منحها الانتشار الأكبر بكتابه : تاريخ بغداد فصارت النظام المتبع في التواريخ البلدانية .

ولعل أول من نقل الطريقة المعجمية الى التراجم العامة هو :

- المقدسي تقي الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد الدمشقي (سنة ٦٠٠) ، فقد كتب في أربع مجلدات ضخمة (كتاب الكمال في معرفة الرجال) ومنه أجزاء مخطوطة في الظاهرية بدمشق والجامعة الأمريكية في بيروت ، وكان هذا الكتاب نهاية لخط طويل من تطور « علم الرجال » في التاريخ الإسلامي .

وقد لحقه من بعده أربعة كتب من أهم الكتب في جمع التراجم أبجدياً :

– كتاب التقييد لمعرفة رواة السنن والأسانيد ، لأبي بكر محمد ابن عبد الغني المعروف بابن نقطة الحنبلي (سنة ٦٢٩) ولكنه كان يختص برواة الحديث .

– كتاب الكمال في معرفة الرجال لمحب الدين محمد بن محمود بن النجار المؤرخ البغدادي المعروف (سنة ٦٤٣) وهو بدوره خاص برجال الحديث .

– كتاب في سبع مجلدات كتبه مجهول في أواسط القرن السابع وقد ضاع كله فلم يبق منه سوى فهرسه في مجلد مخطوط يحمل عنوان : (مفتاح تراجم الإسلاميين من بدء الإسلام الى سنة ستمائة وخمسين) وهو عبارة عن جداول لفهرس مرتب على حروف المعجم يحوي أعلام الإسلام على سنة الوفاة وترتيب الطبقة ذاكراً رقم المجلد والصفحة والرقم المسلسل ... والمخطوط موجود في الهند بالمكتبة الآصفية بحيدر آباد (رقم ١٥١ تراجم) .

– كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان أبي العباس أحمد ابن محمد بن أبي بكر الدمشقي (سنة ٦٨١) وهو في ست مجلدات تعتبر ، حتى عهدها ، أوفى وأوجز معجم بيوغرافي. وهو ما يزال الأشهر فيها .

(ه) على أن فروعاً عديدة جداً لهذه المعاجم البيوغرافية قد ظهر في التأليف . وكلها وان كانت على الحروف الأبجدية إلا أن مبدأ الاختيار فيها هو الذي كان يختلف ، ويختلف معه بالتالي نوع التأليف . ونستطيع أن نجد على الأقل عشرة أنواع من هذه المعاجم يتفرع من بعضها بدورها فروع أخرى ...

١ – فهناك أولاً كتب معاجم الصحابة (بعد الطبقات الكبرى) .

– تاريخ الإمام البخاري « أول من صنف فيها فيما علم » على حد قول ابن حجر العسقلاني وقد جعله على حروف المعجم . وابتدأه

بالمحمدين تيمناً باسم الرسول .

وهناك بجانبه تاريخ الترمذي ، وكتاب ابن أبي دؤاد . وتاريخ مسلم (رواة الاعتبار) وتاريخ النسائي (التمييز) ثم هناك كتب :

- عبدان بن محمد المروزي (سنة ٢٩٣) واسمه تاريخ الصحابة .
- أبي عبد الله بن منده الأصفهاني (سنة ٣٠١) وكتاب : معرفة الصحابة عليهم السلام .
- الدغولي محمد بن عبد الرحمن بن عباس (سنة ٣٢٥ / ٩٣٦) وله : تاريخ الصحابة .
- ابن السكن سعيد بن عثمان بن سعيد (سنة ٣٥٣) وهو على الحروف .
- وعاصره ابن حيان محمد بن أحمد (سنة ٣٥٤) وله معرفة الصحابة .
- وهناك الطبراني أبو القاسم اسماعيل (سنة ٣٦٠) وكتابه المعجم الكبير في أسماء الصحابة .
- وكتاب أبي حفص بن شاهين (سنة ٣٨٥ / ٩٩٥) في تاريخ الصحابة .
- وكتاب أبي نعيم الأصفهاني (سنة ٤٣٠) .
- وكتاب أبي يعلى الخليل بن عبد الله (سنة ٤٦٦) واسمه معرفة الصحابة .
- وكتاب ابن عبد البر القرطبي (وهو أندلسي توفي سنة ٤٦٣) ولكنه انتشر في المشرق : الاستيعاب في معرفة الأصحاب .
- وكتاب أبي موسى السفرايني المديني الأصبهاني (سنة ٥٨١) وقد ذيله على كتاب ابن منده .
- ثم كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة للمؤرخ ابن الأثير (سنة ٦٣٠) في ست مجلدات كبار كانت أوفى المؤلفات .

وتفرع عن معاجم الصحابة فروع تناولت من نزل منهم في بعض المدن كحمص والكوفة ... أو من حضر بدراً أو المعارك الأخرى ، أو من كان من قبائل محددة ، أو من روى حديثاً أو من شهد كذا وكذا من المشاهد... الخ.

٢ — وهناك ثانياً كتب الأنساب . ومنذ تراجع النسب القبلي القائم على أساس دموي وبرزت بدلاً منه النسبة إلى الأمكنة أو الحرفة أو الشهرة أو المذهب أو الولاء أو الصفات الجسمية والخلقية ... الخ ، ظهرت الحاجة إلى هذا النوع من كتب الأنساب التي كان أبرزها من الكتب الجامعة :

— كتاب الأنساب للسمعاني أبي سعد عبد الكريم بن أبي بكر (سنة ٥٦٢) وهو كتاب ضخم طبعه تصويراً عن أجزاء مخطوطاته المستشرق مرغليوث كما طبع نصفه في حيدر آباد في الهند .

— كتاب اللباب في تهذيب الأنساب ، وقد اختصر فيه ابن الأثير المؤرخ فصول كتاب السمعاني وأضاف إليه نواقصه ...

غير أن كتب الأنساب الجامعة هذه لم تستو بين أيدي الناس إلا بعد أن ظهر قبلها بكثير كتب كثيرة أخرى تشبه أن تكون الفروع لها مع أنها هي الأصل في ظهور الكتب الجامعة فلا تشابه الأسماء أدى منذ مطالع القرن الرابع إلى ما سمي بكتب « المشتبه » من الأسماء وبعض المؤلفين جعل همه ايضاح الاشتباه في الأسماء أو الكنى أو الألقاب المتقاربة . وقد أخذ هذا النوع العلمي شأنه ومكانه بسرعة بل وأخذ اسمه الخاص أيضاً منذ ألف فيه أوائل المؤلفين وأعطوه اسم : « المؤتلف والمختلف » أو « المتفق والمفترق » .

وهكذا نجد مثلاً في المؤلفين الأوائل فيه :

— أبا جعفر محمد بن حبيب البغدادي النحوي (سنة ٢٤٥هـ) وقد كتب كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء القبائل الذي طبعه وستنفلد سنة ١٨٥٠م.

— أبا الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي (سنة ٣٨٥) وقد وضع كتاباً حافلاً في (المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال) ومنه نسخة مخطوطة في دار الكتب بالقاهرة (تيمورية ٥٤٦ تاريخ) .

- أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري (سنة ٣٨٢) ، وله كتاب مشتبه النسبة .

- وقد عاصرهما أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي الأديب المعروف (سنة ٣٧٠) وقد كتب أيضاً كتاب المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم (وهو مطبوع) .

- وهناك الأزدي عبد الغني بن سعيد الحافظ (سنة ٤٠٩) وقد سمى كتابه مشتبه النسبة . ثم زاد عليه وسماه المؤتلف في تكملة المختلف . ومنه نسخة مخطوطة في برلين . أما مشتبه النسبة فطبع في الله آباد بالهند سنة ١٣٢٧ ، بعناية محمد محي الدين الجعفري الزيني .

- وهناك أبو سعد أحمد بن محمد الماليني (المتوفى سنة ٤١٢) وقد كتب كتاب المؤتلف والمختلف .

وصنف في الموضوع بالعنوان نفسه :

- أبو القاسم يحيى بن علي الحضرمي المعروف بابن الطحان (المتوفى سنة ٤١٦) .

- وأبو العباس جعفر بن محمد المستغفري (المتوفى سنة ٤٣٢) .

- والخطيب البغدادي المؤرخ المعروف (سنة ٤٦٣) وله بين تآليفه كتاب: المتفق والمفترق . وهو كتاب كبير الحجم في ٧٠٠ صفحة منه نسخة مخطوطة في دار الكتب بالقاهرة . وقد ذكر ياقوت للخطيب البغدادي كتاباً باسم : تلخيص المتشابه[1] .

- ثم جاء ابن ماكولا الأمير أبو نصر علي بن هبة الله (سنة ٤٨٧) فزاد على على الجميع في كتاب حافل واسع على حروف المعجم سماه الإكمال

---

(١) انظر ياقوت - معجم الأدباء ج ١ ص ٢٨١ (ترجمة ابراهيم بن عقيل) .

في معرفة الرجال (أو في دفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والألقاب) وهو في مجلدات عديدة طبع بعضها في الهند. وقد استدرك صاحبه على المؤلفين الآخرين بكتاب آخر سماه : تهذيب مستمر الأوهام على ذوي التمني والأحلام وهو مخطوط .

— وعاصر ابن ماكولا وألف في الفن نفسه مؤلف أندلسي هو أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد الغساني الجياني (سنة ٤٦٨) وقد طبع كتابه في تركيا وهو بعنوان: تقييد المحصل وتمييز المشكل ويعنى بضبط أسماء رجال الصحيحين .

— ثم جاء المقدسي القيسراني أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي (سنة ٥٠٧) فكتب كتاب الأنساب المتفقة في الخط المتماثلة في النقط والضبط ، وهو مطبوع (ويسمى أحياناً المختلف والمؤتلف في الأنساب) طبعه دي يونغ في هولندا سنة ١٨٦٥ .

— وكتب الأبيوردي أبو المظفر محمد بن أحمد الشاعر الأموي (سنة ٥٠٧) كتاب ما اختلف وائتلف من أنساب العرب .

— وأتى أبو حامد ابن نقطة محمد بن عبد الغني (سنة ٦٢٩) فكتب ذيلاً على ابن ماكولا سماه الإكمال .

— ثم جاء ابن باطيش أبو المجد اسماعيل بن هبة الله الموصلي (سنة ٦٤٠) فكتب كتاب مشتبه النسبة[1] .

— ثم لحقه ابن الصابوني أبو حامد محمد بن علي (سنة ٦٨٠) فذيّل على ابن نقطة بكتاب (تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب) وقد طبع (في بغداد بتحقيق مصطفى جواد سنة ١٩٥٧) .

---

(١) ذكره له ابن العديم في ترجمته في بغية الطلب . انظر الجزء المخطوط في دار الكتب الوطنية بباريس رقم ٢١٣٨ الورقة ١٣٢ وجه .

– ولحق الجميع بعد ذلك ابن الفوطي المؤرخ (سنة ٧٢٣) فكتب تلقيح الأفهام في المؤتلف والمختلف .

٣ – وهناك ثالثاً المعاجم البيوغرافية على أساس البلدان وهي التي تحولت إلى تواريخ بلدانية . غير أن عدوى التنظيم المعجمي أصابت الجغرافيا التاريخية فتحولت كتبها إلى شكل المعاجم ومنها مثلاً : معجم البلدان لياقوت وسوف نعرض لهذه الناحية فيما بعد .

٤ – وهناك رابعاً المعاجم على أساس العلوم ، تنظم فيها التراجم لرجال كل علم على الأبجدية أيضاً وقد مر معنا في تاريخ العلوم المختلفة سلاسل بعد سلاسل من هذه المعاجم . غير أننا نندر أن نجد معاجم قد نظمت على أساس المهن والأعمال (القضاة مثلاً أو الوزراء والولاة والحجاب والكتّاب) ولعل السبب في ذلك يعود إلى قلة عدد هؤلاء وتفضيل المؤرخين إثبات أسمائهم وتراجمهم حسب توالي العصور ...

٥ – وهناك خامساً المعاجم على أساس المذهب . وإذا كان الأحناف والشوافع والحنابلة والمالكية قد فضلوا في الغالب طريقة الطبقات فإن الشيعة اتبعوا في الرجال غالباً طريقة المعاجم الأبجدية. والمؤلفات التالية التي نذكرها لهم على سبيل الأمثلة ليست كلها على الأحرف أو لسنا واثقين بسبب ضياع معظمها من أنها كانت على الأحرف . ومن مؤلفي الشيعة في الرجال :

– كتاب الكناني أبي محمد عبد الله بن جبلة بن حيان (سنة ٢١٩) وقد وضع كتاب الرجال وهو فيما يذكرون أول من صنف في الرجال قبل ابن سعد والواقدي[١] .

– التيمي الحسن بن علي بن فضال الكوفي (سنة ٢٢٤) وله مؤلف في تاريخ الشيعة ذكره ابن حجر[٢] .

---

(١) ينفي آغا بزرك الطهراني ذلك ويعطي الأولية لعبد الله بن أبي رافع كاتب أمير المؤمنين علي (انظر مصفى المقال ص ٢٥٠) .

(٢) ابن حجر – لسان الميزان ج ٢ ص ٢٢٥ .

– البرقي أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد الكوفي (سنة ٢٨٠) وله حسب رواية النجاشي كتاب الرجال أو المعرفة بالرجال بجانب كتاب آخر في الطبقات[1].

– الشيخ الرشيد سفر بن عبد الله القمي (٢٩٩ / ٩١١) وله كتاب في تاريخ الشيعة.

– الدهقان أبو القاسم حميد بن زياد الكوفي (٣١٠) صنف كتاب الرجال أيضاً.

– الكليني أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحق (سنة ٣٢٩ أو ٣٢٨) صاحب الكافي، أجلّ كتب الأصول عند الشيعة وقد ذكر له النجاشي كتاب الرجال.

– ابن عقدة أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الهمداني الزيدي الجارودي (سنة ٣٣٣) وقد ذكروا له كتاب التاريخ في ذكر من روى الحديث من الناس كلهم العامة والشيعة وأخبارهم ويسمونه أحياناً كتاب تاريخ الرجال.

– الشيخ الصدوق ابن بابويه أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين القمي (٣٨١) وهو «أوسط المحمدين الثلاثة المصنفين للكتب الأربعة التي عليها المدار» لدى الشيعة. وله كتاب المصابيح في من روى عن الرسول والأئمة.

– الجوهري أحمد بن محمد بن عبيد الله البغدادي (سنة ٤٠١) وله كتاب الاشتمال في معرفة الرجال فيه ذكر من روى عن إمام إمام.

– الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان الشهير بابن المعلم الحارثي (٤١٣) وله كتاب الارشاد في الجرح والتعديل.

---

(١) ذكر ابن النديم لوالده محمد بن خالد البرقي أيضاً كتاب الرجال (الفهرس ص ٢٢١).

- الكشي أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز (من أواخر القرن الرابع) وله كتاب في الرجال عنوانه : معرفة الناقلين جمع فيه العامة والخاصة . وقد حرره شيخ الطائفة في كتاب سماه اختيار الرجال (مطبوع) .

- الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى العلوي (سنة ٤٣٦) وله مؤلف في تاريخ الشيعة [١] .

- النجاشي أبو العباس أحمد بن علي الأهوازي الزيدي ثم الإمامي وهو صاحب كتاب الرجال الذي يعتبر في نظر أهل المذهب مرجع الأوائل والأواخر وأفضل ما خط في موضوعه ومن أعظم أركان الجرح والتعديل .

- الطوسي شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (سنة ٤٦٠) وتصانيفه في الرجال كتصانيفه في الحديث من أصول الشيعة . له من الأصول الحديثية اثنان من أربعة (الاستبصار والتهذيب) ومن الأربعة الرجالية ثلاثة (الفهرست والرجال والاختيار) . ويهمنا هنا كتاب الرجال المرتب على الطبقات .

- ابن البطريق يحيى بن الحسين بن الحسين الحلي الأسدي (سنة ٩٠٠) وهو صاحب العمدة المعروف بعمدة ابن بطريق وله رجال الشيعة الذي نقل عنه ابن حجر والسيوطي .

- ابن أبي طي يحيى بن حميدة بن ظافر الغساني الحلبي (سنة ٦٣٠) وله كتاب رجال الشيعة الإمامية ، بين كتبه التاريخية الضائعة . ويسمى أحياناً طبقات الإمامية ولعله على الطبقات .

- الحلي أحمد بن موسى بن جعفر بن محمد الطاووس (سنة ٦٧٣) وله

---

(١) السخاوي – الاعلان ص ٥٨٠ .

بين كتبه الكثيرة كتاب : حل الإشكال في معرفة الرجال .

٦ — وهناك سادساً : المعاجم على أساس نوعية الرواة من ثقة وضعف وهو باب هام من أبواب علم الحديث لما يتصل به من تصحيح الأحاديث وتضعيفها حتى لقد أخذ اسماً خاصاً به ، هو علم الجرح والتعديل واختص به جماعة من علماء الرجال . فمن المؤلفين في الضعفاء مثلاً :

— أبو أحمد عبد الله بن عديّ الجرجاني الحافظ المتوفى سنة ٣٦٥ بجرجان وقد أقرأ سنة ٣٦٤ كتاباً للناس في ذلك وعنوانه : الكامل في معرفة الرجال . قال السخاوي : هو أكمل الكتب المصنفة قبله وأجلّها .

— وقد ذيل عليه أبو الفضل محمد بن طاهر القيسراني (سنة ٥٠٧) بكتاب تكملة الكامل .

ومن المؤلفين في الضعفاء والمتروكين هناك أبو عبد الله البخاري ، وأبو عبد الرحمن النسائي ، وأبو الحسن الدارقطني صاحب كتاب الضعفاء والمتروكين من المحدّثين ، وأبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى العقيلي (سنة ٣٢٢) صاحب كتاب تاريخ الضعفاء في عشرين جزءاً (مجلدين) وأبو يحيى زكريا بن يحيى الساجي الفقيه البصري وكتابه : الضعفاء والمتروكين والمنسوبين إلى البدعة من المحدثين . وأبو الفتح محمد بن الحسين الأزدي الموصلي وأبو علي سعيد بن عثمان ابن السكن (سنة ٣٥٣) وابن الجوزي ... الخ .

وأمّا في الثقات فهنـــاك :

— كتاب أحمد بن عبد الله العجلي (سنة ٨٧٤/٢٦١) .

وهناك أبو حاتم بن حيان وله أحفل الكتب في ذلك وقد جعله على الطبقات ثم جاء محمد بن أبي بكر الهيثمي (سنة ٧٥٧) فحوله على الحروف .

وهناك كتب ابن شاهين ، وأبي العرب التميمي .

٧ — وهناك سابعاً : معاجم صنفت حسب بعض ميزات الرواة : بطول العمر أو بقصره أو كثرة الشيوخ أو من كان من النساء أومن يحمل اسماً معيناً أو من كان في قرن معين ... الخ .

وهكذا وجدت فروع معجمية بعضها معاجم للمعمرين أو للشبان (ولابن عساكر مؤلف فيهم) وبعض للنساء وهناك عدة كتب حولهم وبعض لمن يحمل اسماً خاصاً فهناك كتاب الطبراني فيمن اسمه عطاء وآخر للمحمدين من الشعراء كما فعل القفطي وهناك كتاب الأفراد لمسلم بن الحجاج القشيري ذكر فيه جماعة من الصحابة والتابعين ليس لهم إلا راوٍ واحد ...

٨ — وهناك ثامناً : معاجم كتبت في رواة بعض مشاهير الكتب الحديثية: فرواة موطأ مالك كانوا موضوعاً لأعداد من المؤلفات ، ورجال البخاري موضوعاً لكتب أخرى . ورجال الصحيحين ألفت فيهم المؤلفات .

فمن المؤلفين في رجال الموطأ : ابن الحذا محمد بن يحيى (سنة ٤١٦) ، والأكفاني هبة الله بن أحمد (تسمية من روى الموطأ عن مالك) .

ومن المؤلفين في رجال البخاري أبو نصر الكلاباذي أحمد بن محمد (سنة ٣٩٨ / ١٠٠٧) وسماه الإرشاد .

ومن المؤلفين في صحيح مسلم أبو بكر أحمد بن علي بن منجويه (سنة ٤٢٨ / ١٠٣٦) .

ومن المؤلفين في رجال الصحيحين معاً هبة الله بن الحسن اللالكائي (سنة ٤١٨) وأبو الفضل بن طاهر المقدسي .

وممن ألف في رجال أبي داود أبو علي الجياني ، وفي رجال الترمذي وفي رجال النسائي آخرون . كما ألف في رجال الكتب الستة عبد الغني المقدسي (سنة ٦٠٠) في كتابه الكمال . وابن عساكر (سنة ٥٧٢) وسمّاه الشيوخ النبل ... الخ .

٩ ـ وهناك تاسعاً : معاجم جمعت في الأسماء والكنى والألقاب وهي عديدة كثيرة جداً وممّن صنف في هذا الباب :

ـ علي بن المديني (سنة ٢٣٤) كتاب الكنى .

ـ أحمد بن حنبل (سنة ٢٤١) كتاب الأسماء والكنى .

ـ وأفرد محمد بن اسماعيل البخاري (سنة ٢٥٦) جزءاً من التاريخ الكبير الذي كتبه باسم كتاب الكنى ومعظمه في من عرف بكنيته ولم يعرف باسمه . وقد رتبوا على حروف المعجم . وقد طبع كتاب الكنى على حدة في حيدر آباد سنة ١٣٦٠ .

ـ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (سنة ٢٦١) صاحب الصحيح وله كتاب الكنى والأسماء ومعظمه في من عرفت كنيته واسمه . وبعضهم كأبي أحمد الحاكم النيسابوري يرى أنه منقول عن البخاري . والكتاب في أربعة أجزاء ومنه مخطوط في دار الكتب المصرية (٢٢١ طلعة) وآخر في دار الكتب الظاهرية بدمشق (٢٥٨٢) ونسخة ثالثة في استامبول (شهيد علي ١٩٣١) ورابعة هناك أيضاً (أحمد الثالث ٢٩٦٩ ـ ٣) .

ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدمي (المتوفى سنة ٣٠١) وله كتاب أسماء المحدثين وكناهم ذكره ابن حجر[١] .

ـ أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب النسائي (المتوفى سنة ٣٠٣) وكتابه (الكنى) من تبويب أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج القاضي وهو من أطول كتب الكنى وأجلّها فيما يروي الذهبي[٢] .

ـ أبو محمد عبد الله بن علي ابن الجارود النيسابوري الحافظ (المتوفى سنة

---

(١) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٣٥٨ .
(٢) انظر كشف الظنون ج ٤ ص ١٤٥٣ .

٣٠٧) وله كتاب الكنى في ١٦ جزأً .

- أبو زيد أحمد بن سهل البلخي (المتوفى سنة ٣٢٢) وقد ذكر له ابن النديم كتاب الأسماء والكنى والألقاب[1] بين عشرات الكتب التي ألف .

- وأبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي (المتوفى سنة ٣٢٠) كتاب الكنى والأسماء .

وهو على حروف المعجم . وقد فصل فيه الصحابة عن التابعين والكتاب مطبوع في حيدر آباد سنة ١٣٢٢ في مجلدين .

- وعبيد الله بن أبي سعيد الوراق (النصف الأول من القرن الرابع) وهو النسابة الأخباري الراوية للشعر وقد كتب كتاب الألقاب بجانب كتبه الأخرى عن المدينة وأخبارها وعن الشعراء .

- محمد بن حيان البستي (المتوفى سنة ٣٥٤) وله في هذا الباب كتابان متكاملان : (أسامي من يعرف بالكنى ، وكنى من يعرف بالأسماء) .

- أبو الفتح محمد بن الحسين الأزدي (المتوفى سنة ٣٦٧)وله كتاب تسمية من وافق اسمه اسم أبيه من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المحدثين. ومنه مخطوط في ليدن (رقم ١٠٨٧) .

- الحاكم النيسابوري أبو أحمد محمد بن محمد بن أحمد الكرابيسي الحافظ (المتوفى سنة ٣٧٨ عن ٩٣ سنة) وهو أحد أئمة الحديث . ولي قضاء الشاش ثم طوس . وقد أكثر الترحال جداً وأكثر التأليف جداً وله بين كتبه العديدة كتاب الأسماء والكنى المجردة . ويعتبره بعض المؤلفين أحسن كتب الكنى ترتيباً . ومنه قطعة حسنة مخطوطة في مكتبة الجامع الأزهر تشمل ما بين الجزء الثاني والثامن عشر . وقد كان الذهبي

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص ١٣٨ .

اختصره في كتاب سماه المقتنى في سرد الكنى وقال : « وقد جمع الحفاظ (كتباً) في الكنى ومن أجلّها وأطولها كتاب النسائي ثم جاء أبو أحمد الحاكم فزاد وأفاد وعمل ذلك في ١٤ سفراً لكنه يتعب الكشف منه لعدم مراعاته ترتيب الكنى على حروف المعجم فرتبته واختصرته وزدته ... »[1].

— أبو عبد الله محمد بن اسحق بن محمد بن منده الأصبهاني (المتوفى سنة ٣٩٦) وله كتاب الأسماء والكنى[2] .

— أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف القرطبي الحافظ (المتوفى سنة ٤٠٣) صاحب تاريخ الأندلس . وهو أندلسي ولكنا نذكره هنا لبيان سابقته في عنوان كتابه الذي سيظهر في المشرق مثله وهو : مجمع الآداب في معجم الأسماء والألقاب .

— أبو عبد الله الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله المعروف بابن البيع (المتوفى سنة ٤٠٥) وله كتاب الكنى والألقاب . من مؤلفاته التي تزيد على ٢٠٠ مجلد .

— أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن الشيرازي (المتوفى سنة ٤٠٧) وله كتاب (ألقاب الرواة) وقد وصلنا نسختان مخطوطتان من مختصر له صنعه ابن الأنماطي واحدة في الظاهرية بدمشق وأخرى في مكتبة كوبريلي باستامبول.

— أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن المعروف بالفارسي الجوال (والمتوفى سنة ٤١١) وله كتاب ألقاب الرجال .

— أبو الفضل علي بن الحسين الفلكي (المتوفى سنة ٤٢٧) وله كتاب منتهى الكمال في معرفة ألقاب الرجال وقد أخذ عنه السمعاني أكثر من مرة في الأنساب .

---

(١) انظر كشف الظنون ج ٤ ص ١٤٥٣ .
(٢) انظر الكتاني – الرسالة المستطرفة ص ١٢١ .

— ونشير هنا مرة أخرى الى مؤلف مغربي صقلي لإتمام الصورة هو ابن عبد البر القرطبي (المتوفى سنة ٤٦٣) وله كتاب الاستغناء في معرفة الكنى وكتاب (من عرف من الصحابة بالكنية ولم يوقف له على اسم) وكتاب : أسماء المعروفين بالكنية من التابعين ومن بعدهم مع (كتاب من لم يوقف له منهم على اسم ولا عرف بغير كنية) ومن الكتب الثلاثة نسخ مخطوطة في مكتبة جامع القرويين بفاس (رقم ٢٨٧ ؛ ق ١٤٣ ؛) ضمن مجموع .

— أبو القاسم عبد الرحمن بن منده (المتوفى سنة ٤٧٠) وله كتاب فتح الباب في الكنى والألقاب منه مخطوط في برلين برقم ٩٩١٧ .

وانحسرت موجة التأليف في الكنى بعد القرن الخامس واختلطت مع فنون المؤتلف والمختلف من جهة كما حل محلها كتب الألقاب بسبب انتشار الألقاب المتعددة في الناس وخاصة في المشرق مما يضاف إلى كلمة الدولة أولاً (في القرنين الرابع والخامس) وما يضاف إلى الإسلام (في القرن الخامس) وما يضاف الى الدين في القرون التالية ... وقد عني بذلك بعض المؤلفين ، أما الذي أوفى على الجميع في التأليف بالألقاب في معجم ضخم فهو مؤرخ جاء في مطالع العصر المملوكي هو :

— ابن الفوطي أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد الشيباني (سنة ٧٢٣) فقد كتب تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب في خمس مجلدات بقي الرابع والخامس منها فقط . وقد طبع الرابع وحده في أربع مجلدات بدمشق (تحقيق مصطفى جواد) وطبع الخامس في الهند .

١٠ — وهناك عاشراً : المعاجم لبعض الجماعات الخاصة من ذوي النسب الواحد كالأشراف والطالبيين والقرشيين والمهالبة ... أو من ذوى الميزات الجسمية الواحدة : كالعور والعميان . أو من ذوي الشمائل الخلقية كالعشاق والشجعان والبخلاء والأذكياء ، أو من ذوي المذاهب الخاصة في الحياة كالزهاد والرهبان والمتصوفة ... وقد مرت بنا الأمثلة العديدة على مثل هذه الكتب ...

(و) وأخيراً يأتي في باب تطوّر التدوين التاريخي في هذه الفترة العباسية أن المؤلفين أخذوا يعمدون بطريقة أو بأخرى لتقصير حبل المؤلفات وتضييق رقعتها زمنياً أو مكانياً. بسبب كثرة المادة وصعوبة الحصول على المعلومات البعيدة في الزمان أو المكان أو الاحاطة بها على الوجه الأكمل، وهكذا اتبعت في تضييق رقعة التدوين سبل شتّى لن نضرب عليها الأمثلة ففي الذي فات بيان وكفاية حولها وفي الذي سوف يأتي ونكتفي بتحديد معالمها :

- فبعضهم وجد في الكتب الأمهات قمة التأليف فربط نفسه بها في ذيل قد يأتي من بعده ذيل ثم ذيل لتصبح السلسلة ممتدة إلى عدة مؤلفين عبر عدة قرون .. والأمثلة على هذه الذيول في كتاب التاريخ أو الوفيات أو الأدباء عديدة جداً.
- وبعضهم اقتصر في تاريخ الأحداث على تاريخ الخلفاء أو تاريخ العباسيين أو تاريخ بعض الدول أو بعض الأحداث ...
- وبعضهم اقتصر في التراجم على بعض الطبقات ممّا عاصره أو بعض الشيوخ الذين عرف أو تراجم المعاصرين له. أو الذين توفوا منذ يوم مولده حتى آخر حياته.
- وبعضهم حدد نفسه في إطار بعض السير : لبعض الخلفاء أو الحكام أو الأسر أو الأحداث.
- وبعضهم اكتفى بكتابة مذكراته الشخصية أو مراسلاته التي كتب للدولة أو مشاهداته وما سمع في الناس لعهده مقدماً بذلك نفسه كشاهد العصر ...

وعلى أي حال فإن هذه الطرق على اختلافها سمحت للمؤرخين أن يكمل بعضهم بعضاً وأن يكونوا أغنى خصباً في العطاء وأكثر دقة وتفصيلاً وأبعد حرية في تناول المواضيع التي يكتبون عن معرفة دقيقة مباشرة، ممّا زاد في تطور التدوين التاريخي من جهة وفي نمو الفكر التاريخي من جهة أخرى.

الفصل الحادي عشر

في تطور الخط الفكري

بعد هذه الجولة التفصيلية الواسعة في رحاب التاريخ والمؤرخين ما بين القرن الرابع والقرن السابع نحسب أننا في حاجة إلى بعض النظرات الشاملة الختامية وفي هذا المجال قد نستطيع أن نسجل بعض الملاحظات حول الميزات الفكرية العامة للتاريخ في هذا العصر وهي ميزات قد تنطبق أحياناً كثيرة على مسيرة علم التاريخ الإسلامي في مختلف عصوره .

اولاً – أضحى علم التاريخ جزءاً أساسياً من الثقافة الإسلامية : يتبين ذلك واضحاً لا من أعداد المؤرخين بالمئات الكثيرة ولا من المؤلفات التاريخية بأضعاف المئات ولكن من عدد من الظواهر الأخرى :

فقد أضحى التاريخ لا في جانب التراجم منه فقط ولكن في جانب الحوادث منه أيضاً ركناً أساسياً في « علم » المحدثين ورجال الفقه والدين . بعضهم كان يطالعه ويدرسه وأكثرهم كان يؤلف بشكل أو بآخر فيه . وقد كان التدوين التاريخي في هذه الفترة من مهمات ومشاغل أهل العلوم الدينية أنفسهم .

وبجانب هذا فإن جماعة الحياة السياسية من خلفاء وحكام ووزراء وكتاب

وحجاب ورجال بلاط عملوا بدورهم في الدارة التاريخية . وبعضهم حتى من الخلفاء كتب التاريخ ، وإذا تميز الكتّاب خاصة بكتابة المؤلفات التاريخية فلأنهم كانوا يضعون أيديهم عملياً على « مناجم » التاريخ الأساسية في دواوين الدولة من وثائق ورسائل وغيرها فكان التأريخ أقرب مجالات العلم لعملهم بعد الأدب . هذا بجانب أننا نلاحظ في كتب « التذكرات » والتعلم السياسي وكتب الخراج أن المادة التاريخية قد أضحت مادة أساسية في ثقافة الجهاز الوظيفي كله من القمة إلى القاعدة . لقد خصص ابن حمدون مجلداً من اثني عشر مجلداً تتألف منها تذكرته للتاريخ وحده . وثلث كتاب الخراج لقدامة معلومات تاريخية ...

ولم يكن أصحاب علوم الأوائل – على اهتمامهم العلمي والفلكي والرياضي والفلسفي – بالبعيدين عن الاهتمام التاريخي وثمة الكثير من الفلاسفة والأطباء والفلكيين الذين ألفوا في ميدان التاريخ أيضاً كالرازي وابن جرير التكريتي وابن المارستانية وابن أبي أصيبعة وغيرهم .

وقد تنزّل الاهتمام التاريخي حتى أضحى من اهتمامات الناس العامة ووجد أناس كثيرون جداً يعملون في الرواية التاريخية وإن لم يدونوها ، أو يروون بعض ما شهدوا لمن يؤرخون كما وجدت في الناس اهتمامـات بقصص التاريخ عبرت عن نفسها في فيض من القصص شبه التاريخي بعضه للترفيه والتسلية وبعضه للوعظ والإرشاد وبعض لاشباع رغبة النفوس إلى الغريب والخيال ... وفي كل الأحوال كان الفكر التاريخي هو الرابح سعة من جهة وعمقاً في الجذور من جهة أخرى .

ولعل من النتائج الهامة لرسوخ « النزعة » التاريخية في الثقافة الإسلامية وتحولها إلى جزء أساسي في كيانها أمرين :

الأول : أن البلاد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط والتي كانت لها تواريخها الخاصة ، سواء في مصر أو في سورية والعراق ، هذا إذا

لم نذكر اليمن أيضاً ، قد أعادت صياغة تواريخها على الأساس الإسلامي « أبدلت الروايات التاريخية القديمة التي نعرفها بغيرها ـ كما قال جب ـ أو صاغتها من جديد وفقاً للروح الإسلامية » [1] وهكذا لم تكن الصور التاريخية السابقة للإسلام هي نفسها التي عرفها المسلمون من تواريخ تلك الأمم وخاصة ما اتصل منها باليهودية والمسيحية ولكنها كانت الصور المسلمة ، من خلال معطيات القرآن خاصة، لتاريخ مصر الفرعوني وتاريخ أنبياء اليهود والنظرة الإسلامية للمسيح .

الثاني : إن استقرار الإسلام في الأقطار الشرقية (إيران خاصة) التي لم يكن لها من تاريخ مكتوب (ومثلها في ذلك أفريقيا البربرية أيضاً) أو كانت نزعتها التاريخية محدودة ولا تتعدى بعض الكتب المملوءة بالحكم والقصص المفردة الواعظة الموجهة ، ذلك الاستقرار أدخل معه النزعة التاريخية إليها . وأوجد التدوين التاريخي لدى شعوب لم تكن تعرف التاريخ من قبل . وتحولت إيران خاصة (ومثلها أفريقيا على الطرف الآخر) إلى مصنع واسع لكتب التاريخ . وقد لا نكون مبالغين إن قدرنا مبلغ مساهمة الشعوب الإيرانية في المؤلفات التاريخية الإسلامية بأكثر من نصف تلك المؤلفات ، في هذه الفترة . كان اندفاعها في هذا الاتجاه نتيجة الرغبة في معرفة هذا الأفق الإسلامي العربي الذي أطل عليها من مكة فحلّ محل ملوكها ودينها ولغتها وتقاليدها وأعطاها اتجاهاً جديداً . وبعد أن كانت مطمئنة إلى نظامها الإقليمي المتكامل ديناً ولغة وملوكاً خلال عشرات القرون كان عليها أن تفسر هذا الغزو الغريب من خلال معرفته . وكان عليها أن تبرهن عن انسجامها معه من خلال

---

(١) انظر جب ـ التاريخ (الموسوعة الاسلامية ـ الترجمة العربية) ج ٤ ص ١٩١ .

تبنّيها لكل أسسه وتأكيدها تلك الأسس . أليس هذا ما يفسر ظهور سيبويه في النحو والطبري في التفسير والتاريخ والبخاري والترمذي والسجستاني في الحديث وأبي حنيفة في الفقه ؟ وظهور الآلاف بعد الآلاف من المحدثين من إيران ؟

ثانياً — وضعت في هذه الفترة واستقرت معالم الفكر التاريخي الإسلامي : فلسفةً وغايةً وتدويناً .

١ — فقد استقرت لا من حيث الدين ولكن من حيث الصياغة التاريخية صورة العصر الإسلامي الأول (النبوي — الراشد) بوصفه العصر الذهبي والعصر المثالي للإسلام والمجتمع الإسلامي . وبالرغم من ذلك الخلاف السياسي المحدود بين النظرة السنيّة والنظرة الشيعية إلى طريقة تسلسل الخلفاء الأوائل فإن الطرفين كانا متفقين على استلهام ذلك العصر في الأحكام ونصبه نموذجاً ومجال قياس للعصور التالية . وهذا ما جعل السيرة النبوية خاصة أشبه بقطب الدائرة بالنسبة للتاريخ كله . فما قبلها تاريخ ولكنه تاريخ كفار ومجموعة من أساطير الأوّلين . على مسافة واحدة من الخطأ والصواب ، وسلسلة أنبياء كانت محاولاتهم هى التمهيد والمقدمة للرسالة المحمدية . تاريخ ما قبل الرسالة ليس غير أنواع من الجاهلية . وأمّا ما بعد الرسالة فتاريخ يحاول الوصول إلى مستواها الأكمل ، وإلى مستوى ما دعت إليه . ولأن عهد الرسالة هو أساس القيم فقد كان من الواجب أن يعاد بناؤه التاريخي كاملاً وترمم كل الثغرات فيه بشكل نهائي ، أن تكتمل المعرفة لأدق الدقائق منه وهو ما كان بالفعل . فجاء البناء التاريخي لذلك العهد متوازناً تمام التوازن كعصر عظمة واتصال بأمر الله وعدل وحرية وتقى وتوجيه ، أناسه هم النماذج البشرية الأولى وعلاقاته هي القوانين للأجيال التالية . وإذا ألقى الخلاف السنّي الشيعي بعض الظلال على بعض الخلفاء الأول فإن الصورة العامة ظلت على حالها من النموذجية الكاملة .

ونكاد نشعر أحياناً كثيرة لدى العديد من المؤرخين ولا سيما في العصور

المتأخرة بمحاولات المطابقة المستمرة التي يحاولون دوماً اقامتها بين عهد النبوة وعهود وأعمال الجماعات التالية من أسر حاكمة أو نحل طائفية أو مذاهب فكرية . إن المقياس الذي ارتفع به عهد كعهد عمر بن عبد العزيز أو نور الدين ابن زنكي إنما هو بمقدار ما اقترب من صورة الخليفة العادل « عمر بن الخطاب» ونضال الطوائف العلوية المضطهدة كان يجد الأسوة الحسنة والعزاء في نضال النبي ضد قريش الكافرة الظالمة والنموذج الأكمل لرجل الدين هو الذي يجسد كرة أخرى في ذاته سيرة بعض الصحابة الأولين ... إن سيرة عصر الرسالة التي أخذت شكلها النهائي منذ مطالع القرن الرابع لم تصبح الصورة الوحيدة المكرورة في كافة التواريخ باطارها ومحتواها ولكنها أضحت أيضاً نموذج القياس والقيم والحكم .

ويختلف الأمر تماماً بالنسبة للعصر الأموي الذي إنما كتب تاريخه كله في ظل الرقابة العباسية وبأيديها كتاريخ مهزومين . ولما كان كل من العباسيين والعلويين – على خلافهما الذابح – متفقين على كره بني أمية واعتبارهم الكفرة الغاصبين فإن طول العهد العباسي وانسحابه على مدى خمسة قرون قد سمح للمؤرخين العباسيين – مع الموافقة الكلية من قبل الجانب العلوي – بأن يكتبوا تاريخ بني أميّة على هواهم : تشنيعاً وتشويهاً . محاولات بعض الأمويين في دفع ذلك الظلم لم تفلح إلا في ترك بعض الأصداء الخافتة . والدفاع الذي كتبوه في مؤلفات عديدة غرق في زوايا الإهمال مع استقرار العرش العباسي الطويل ودخوله في وهم الناس على أنه جزء من نظام الكون ... وإذا كان قيام العرش الفاطمي العلوي قد فتح الباب لادخال شيء من التوازن على التاريخ العباسي نفسه وجرح ظاهره المزوق وأبرز النضال العلوي من خلاله فإن سقوط الفاطميين قبل قرن كامل من سقوط بغداد وتولي المؤرخين السنيين بعد ذلك كتابة التاريخ الفاطمي نفسه من خلال النظرة العباسية، علة قرون متتالية، قد ترك بعض الجروح أيضاً في التاريخ الفاطمي محتفظاً على الدوام للصورة العباسية بمكانها المحترم مضيعاً في الوقت نفسه حتّى المؤلفات التاريخية الفاطمية نفسها والشيعية . أو ليس هذا هو

الذي يفسر على الأقل ضياع آثار مؤرخين من أعظم المؤرخين في الاسلام : كالمسبحي وابن أبي طي ؟ إن لم نذكر القرطي وابن مسلمة وابن الطوير ؟

٢ ــ تحددت الاهتمامات التاريخية ، في هذه الفترة ، أيضاً بعدد من أقطاب الاهتمام كان التاريخ هو الجواب عليها أو مصدر الجواب الوحيد .

فإن انتشار الإسلام وصيرورته منذ مطالع القرن الثالث دين الأكثرية في الدولة الإسلامية قد دفع الكثيرين إلى التساؤل عن الأسس الأولى التي تقوم عليها الحياة الإسلامية وإلى محاولة التعرف على التجارب الأولى وعلى مصادر القيم والأحكام ونماذج التقليد . كانت الفترة الإسلامية الأولىٰ بالنسبة للأعداد الواسعة من المسلمين الجدد « ميداناً » مجهولاً تماماً الجهل في الوقت الذي يجدون في أنفسهم كل التوق لمعرفته لأنهم بدخول الاسلام قد تبنوه التبني الكامل .

وفي الوقت نفسه فإن امتداد العهد الاسلامي قرناً بعد قرن واغتناء الجماعة الاسلامية يوماً بعد يوم بالتجارب والخبرات والأحداث جعل من هذه التجارب جزءاً حميماً من حياة ومصير كل فرد في تلك الجماعة . وبالرغم من أن معظم رعايا الدولة الإسلامية في العهد الأموي ومطالع العباسي لم يكونوا يعتبرون النزاع العلوي مع هؤلاء ولا قصص صفين والجمل ولا أخبار المختار ووقعة الحرة والحجاج أكثر من أخبار « الآخرين » الذين جعلتهم القوة العسكرية حكاماً إلا أنهم حين دخلوا في الأمة الإسلامية من بعد أضحت تجارب هذه الأمة وخبراتها وأحداثها قطعة من تاريخهم الخاص أيضاً ملتصقة بهم أشد الالتصاق باعتبارهم جزءاً منها .

ولم يكن مؤرخ كالطبري أو هلال الصابيء أو مسكويه أو المرزباني ، ليكتب التاريخ الذي كتب لولا إيمانه المسبق بوحدة تجارب الأمة من جهة وبوحدته معها من جهة أخرى وبقيمتها المصيرية بالنسبة إليه ، في النهاية من جهة ثالثة .

ولقد شعر الجميع لا بقيمة التجارب فقط ولكن بدورها في صيانة وحدة الأمة الإسلامية وبضرورة صيانة هذه الوحدة من خلالها ومن هنا فقد حملوا مؤلفاتهم رأي ما يسمّى « بأهل السنة والجماعة » بصورة خاصة لا رأي بعض الفرق منها . اتجهوا لجعل تواريخهم تاريخ « المجموعة الأوسع من المسلمين لا تاريخ طائفة محددة أو مذهب معين وهكذا أسهموا في نشر الأيديولوجية السّنية خاصة ، من خلال الإلحاح على تاريخ الجماعة ، أو على الأصح من خلال إقرار وتبرير الواقع الذي ظفر وتحقق واهمال من فشل أو انهزم وحجب الأضواء عنه . وبالرغم من أن الجماعات الصغيرة ، من فرق وطوائف قد كانت لها محاولاتها وقد كتبت دون شك تاريخها وسجلت وجهات نظرها إلا أننا لا نجد في التواريخ الكبرى ولا التواريخ الأخرى المتداولة إلا أخف الظلال منها وأحياناً لا نجد إلا الجانب الأسود من قصتها ، وليس يعني ذلك أن المؤرخين ألغوا الجماعات واستبعدوها . انهم بالعكس بدلاً من أن يلغوها جمعوا كل الأفكار في ميدان واحد وفي كتاب واحد وكتبوا من خلال وجهات نظر الجماعة تاريخ جميع الفرق والأحداث والأسر والملوك معاً بعد أن وضعوها على صعيد واحد ، وكتبوا في النهاية مصيرها ... وبقاء الجماعة . وإذا صان المؤرخون بهذا الشكل « وحدة » الأمة فإنهم دون شك قد أفقروا إلى حد ما مجموعة الألوان الحقيقية التي تلونت بها حياة الجماعة الإسلامية في الواقع الذي كان .

وعلى أي حال فإن التاريخ الذي نظر إليه مؤرخو السنة على أنه استمرار النظام الإلهي الذي اختاره الله (أي النظام العباسي) فإن الشيعة لم يرفضوا منه إلا القمة نفسها (أي الخلافة العباسية) وذيولها السياسية . ونصبوا من خلال التاريخ الخاص لهم قمة أخرى إلهية الاختيار بدورها تتسلسل فيها القيادة والزعامة هي الأئمة . والفرق الشيعية على اختلاف ما بينها في درجة تصعيد العلاقة ما بين هؤلاء الأئمة وبين العزة الإلهية لا يختلفون في زاوية النظر التاريخية إلا من خلال تقييم النظم والرجال بالنسبة لنظرتهم وموقفهم من آل البيت .

ولم تظلم من زاوية الحقيقة التاريخية في الحالين إلا الفرق المتطرفة التي غطى السواد الكثيف والكتمان معظم نشاطاتها وأعمالها السرية ، رغم خطرها في التاريخ .

وأخيراً فقد أنصبّ اهتمام المؤرخين على الطبقات العليا في الجماعة : سواء منها الحاكمة سياسياً أو المبرزة دينياً . « العامة » . « الأوباش » . «العيارون» « النبط » . « العراة » . « الزواقيل » . « الطرارون » . « باعة الطرق » ... الخ . كل من كانت تعبر عنهم هذه الأسماء من الطبقات الدنيا المحرومة ، مضافاً إليهم طبقات العبيد بأجناسهم وأعمالهم لم يكن لهم من مكان على سطور التاريخ . كانوا الهامش البعيد منه . لا تلقى عليهم الأضواء إلا إن دخلوا لسبب أو لآخر في الدارة الضوئية لبعض الأحداث المتصلة بالطبقات العليا .

وهذه الطبقات العليا كانت مجموعتين احداهما بيدها الحكم والسيف والسياسة والمال ... وتحمل اسم « الخاصة » مقابل العامة . ويدخل فيها عدا الخلفاء والسلاطين والأمراء ، جماعة البلاط من موظفين كبار وقواد ورجال دولة وعمال على المال ... كما يدخل فيها التجار والملاك والمتمولون ... وأما المجموعة الثانية فطبقات العلماء الذين كانوا يستمدون أعظم التقدير مما يحملون من علم هو الدين كله ، مصدر القيم . واقتصر التاريخ الإسلامي على الاهتمام بهاتين المجموعتين : ترجمة وعلاقات وحروباً وتقدير فكر وحفظ . حتى الجواري حين يتحدث عنهن التاريخ أو الزنج أو الغلمان أو المغنون ، فإنما كان التاريخ يذكرهم بمقدار ما لهم من علاقة مع الطبقات العليا ومن خلال نظرة تلك الطبقات إليهم . التاريخ الإسلامي هو ، من هذه الزاوية تاريخ طبقي ولكن هل كان له ، في عهده ، أن يكون غير ذلك؟

٣ — تحرر التاريخ إلى حدٍ كبير ، في هذه الفترة ، من الوصاية الدينية عليه . طبقة الكتّاب التي غزت ميدان التأليف أوجدت فيه ، بجانب اللّون الديني ، اللون الآخر الدنيوي . وانتقال تدوين التاريخ السياسي ، في الغالب ،

إلى أيدي الكتّاب ورجال البلاط والعمال ترك أثره العميق في التاريخ سواء في مادته أو في أسلوبه أو في أهدافه. أخذت الأحداث السياسية، كأحداث، قيمتها الخاصة بصرف النظر عن قربها أو بعدها من المفهوم الديني أو عن اتصالها أو علم الاتصال بالأمور الدينية. لم يعد الحدث السياسي كما كان في عهد النبي والراشدين تشريعاً، ولكن مجرد حدث سياسي في أسبابه ونتائجه وقيمته. وسقط السند لعدم الحاجة إليه لتبرز بدلاً منه الشهادة الشخصية والوثائق والرواية والاستنتاج. ومع تعدد المراكز السياسية في البلاد الإسلامية تعددت وتكاثرت الأحداث ودخل ميدان التاريخ فيض هائل من الأخبار التي تستحق التسجيل، من كل مكان. وكانت إعادة تكوين الأحداث الجارية وتسجيلها من الأمور اليسيرة على الكتّاب، ومن الأمور الملائمة لعملهم وطباعهم كما كانت المصادر التي يستقون منها المعلومات جاهزة تحت أيديهم سواء في الوثائق الرسمية أو في أحاديث البلاط والدواوين، أو تصرفات الأمير وما يروى عنه ...

ثالثاً — وهكذا اصطبغ التاريخ بالصبغة المدنية، متحرراً في الطريقة والأسلوب والهدف من القضية الدينية التي غلت لها كتبها الخاصة. وكان لهذا التحول آثاره الخطرة في علم التاريخ. وإذا تركنا جانباً أثره في الأسلوب وفي سقوط الإسناد، وفي ضعف التدقيق المتشدد فإن التاريخ قد تأثر أيضاً في أهدافه وفي مادته :

(أ) حل الهدف التعليمي السياسي أو التربوي الخلقي محل الهدف الديني في التاريخ. نزل هذا العلم في أهدافه إلى الأرض. وأضحى الغرض منه في معظم الأحيان، إما تعلم السياسة والحكم بالأمثلة السابقة لأهل السياسة والحكم وإما كشف القيمة الأخلاقية للأعمال وبسط الأمثال النافعة في تربية الأجيال المقبلة. أضحى التاريخ لدى بعض المؤرخين فرعاً من فروع علم السياسة كما أضحى لدى بعضهم الآخر فرعاً من فروع علم الأخلاق دون أن يلغوا، في الحالتين كونه مجال عبرة إلهية وحكمة عظمى. ولعل من أوضح النصوص في هذا المعنى ما كتبه مسكويه في مقدمة تجارب الأمم وقد يكون من المناسب قراءته قال : « إني لما تصفحت أخبار الأمم وسير الملوك وقرأت أخبار البلدان وكتب التواريخ وجدت فيها ما تستفاد منه تجربة في أمور لا يزال يتكرر مثلها.

وينتظر حدوث شبهها وشكلها كذلك مبادىء الدول وذكر دخول الخلل فيها بعد ذلك وتلافي من تلافاه إلى أن عاد إلى أحسن حال وإغفال من أغفله فآل الأمر إلى الاضمحلال والزوال . وذكر ما يتصل بذلك من السياسات في عمارة البلدان وجمع كلمة الرعية وحيل الحروب وذكر الأسباب التي تقدم بها قوم عند السلطان والأحوال التي تأخر لها آخرون . وذكر لسياسات الوزراء وأصحاب الجيوش . ولما كانت أمور الدنيا متشابهة وأحوالها متناسبة صار جميع ما يحفظه الإنسان من أحداث التاريخ كأنه تجارب له وكأنه قد عاش الزمان كله . فيعد لكل شيء عدته ... ووجدت هذا النمط من الأخبار مغموراً بالأخبار التي تجري مجرى الأسمار والخرافات التي لا فائدة منها غير استجلاب النوم بها ... فلذلك جمعت هذا الكتاب وسميته تجارب الأمم . وأكثر الناس انتفاعاً به أوفرهم قسطاً من الدنيا ، كالوزراء وأصحاب الجيوش وسواس المدن ومدبّري أمر الخاصة والعامة ثم سائر طبقات الناس . وأقل الناس حظاً لا يخلو أن ينتفع به في سياسة المنزل وعشرة الصديق ومداخلة الغريب . وأنا مبتدئ بذكر الله ومنته بما نقل إلينا من الأخبار عن الطوفان لقلة الثقة بما كان قبله ولأن ما نقل أيضاً لا يفيد شيئاً مما عزمنا على ذكره وضمناه في صدر الكتاب ... ولهذا السبب بعينه لم نتعرض لذكر معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم وما تم لهم من السياسات بها لأن أهل زماننا لا يستفيدون منها تجربة فيما يستقبلونه من أمورهم ، اللهم إلا ما كان منها تدبيراً بشرياً لا يقترن بالإعجاز ... » .

وإذا صادفت هذه الدعوة قبولاً لدى طبقات الكتّاب لأنها حررتهم إلا من الهدف السياسي فقد صادفت مثل ذلك لدى رجال السياسة لأنها أعطتهم الأمثلة والمبررات لما يقومون به من الأعمال والأحداث كما صادفت القبول لدى علماء الأخلاق ورجال الأدب الذين أخذوا يكيفون أمثلة التاريخ بما يلائم أغراضهم ويملأون مؤلفاتهم بما يستحسنون من النوادر والطرف المتفرقة كما صادفت القبول لدى الوعاظ الذين كانوا في سبيل هدفهم الوعظي ، أكثر الناس تشويهاً لأحداث التاريخ ..

(ب) اتضح في التاريخ أساس جديد من أسس التحليل والتفسير هو العقل. أخذ المؤرخون أو بعضهم على الأقل يعتملون التعليل والمناقشة المنطقية في سطوره وأحداثه بجانب التسليم الإيماني بأن الأقدار بيد الله. وبالرغم من أن هذا الأساس لم يتطوّر بشكل واسع ليصبح « مدرسة » فكرية في التاريخ إلا إنا لا نعدم الأمثلة الكثيرة عليه. وأكثر ما ظهر ذلك لدى الكتّاب والمؤرخين ذوى الثقافة الفلسفية لا الحديثية.

(جـ) تحرر التاريخ، نتيجة لهذا وذاك، من الخرافات والأسمار. استقل عنها ليكون له ميدانه الخاص به. وبالرغم من أن مادته، بما تحمل من الطريف والمثير، كانت تغري على الدوام طلاب المتعة والسمر أو الوعاظ، أو أصحاب الأخيلة، بخلع أحداثه من قيود الزمن، وانتزاعها من إطار الواقع وإطلاقها حرة المصير في موكب القصص والأسطورة والوعظ التهذيبي أو التسلية فإن حداً واضحاً قد وضع بين التاريخ وبين القصص، بين معرفة الواقع كما كان وبين استخدامه ألهيّة أو حلية أو سوط عذاب أو مصباح هداية ... تحدد ميدان التاريخ في رواية الواقع. فتح طريقه الخاص كمرآة حيادية للزمان والأحداث. شق مكانه الوسط بين الاهتمامات الدينية التي ودعها وبين الميول القصصية التي رفضها ...

(د) انقسم التاريخ، في شكله التسجيلي، إلى فرعين: فرع للأحداث وفرع للتراجم. وإذا تنحى الفقيه والمحدث لعمال الدواوين عن مكانهما في تدوين التاريخ السياسي فإنهما ظلا على الاستئثار بتاريخ الرجال. وإذا صار التاريخ السياسي « مدنياً » وكان الحفاظ والفقهاء راضين عن تركه وإهماله لما فيه مما لا يرضي الله فإن تمسكهم بعلم الرجال كان جزءاً من علومهم الخاصة برواية الحديث ونقله وقد مارسوا في تسجيله أصولهم وقواعدهم الحديثية بما في ذلك ذكر السند والشيوخ والتلاميذ..

على أن ميدان التراجم والرجال لم يبق، مع ذلك، ميداناً خاصاً بأهل

الحديث ورجاله . ذلك أن الصفة « الدنيوية » ما لبثت بدورها أن لحقت التراجم التي دخلها بالتدريج أعيان الرجال وكبار القادة وأهل الدولة . و « تحييد » التاريخ الذي نجح أولاً في ميدان الأحداث السياسية عاد فنجح كرة أخرى في ميدان التراجم وكتب الرجال . أدخل الجماعات غير الدينية في دنيا التراجم التي تحفظ وتروى . بل أدخل أحياناً بعض البارزين من غير المسلمين ولاسيما في مجالات التخصص الفكري كالطب والفلسفة أو في العمل السياسي في الوزارة والكتابة والدواوين . ومع أن هذا الاتجاه مشى أول الأمر على الضعف والتردد في اعطاء الاعتبار لمختلف البارزين في المجتمع بالتوازي مع البارزين في العلم الديني إلا أننا لا نلبث أن نرى هذا التوازي ينتصر في مثل تاريخ بغداد (أواسط القرن الخامس) الذي دخله حتى بعض المغنيين والتجار والمماليك ، والجواري ، والقواد والخدم ... فإذا جاء القرن السابع لم يكن كتاب (وفيات الأعيان) حكراً على طبقة دون أخرى من الأعيان كافة .

٤ — ظل التاريخ بصورة عامة ومن حيث الشكل في النطاق الوصفي ، التقريري ولم يصل إلا عند قبضة محدودة من المؤرخين إلى اعتبار التحليل والتعليل من أساليبه المقررة . لم يصبح ممارسة فكرية مستقلة . محاولات أمثال المسعودي ومسكويه والبيهقي لم تتكرر وبالتالي لم تأخذ أبعادها في التطوّر نحو تكوين منهجية تاريخية خاصة . المنهجية الكبرى التي تقررت هي تلك التي التي تناولت حملة الأخبار لا الأخبار نفسها والسند الراوي لا الحادث التاريخي نفسه . وهذا العجز المنهجي أدى إلى الضمور في استقلالية هذا العلم ، وإلى تحديد دوره الفكري . لم يأخذ في بروزه كعلم خاص ، الأبعاد التي يقتضيها استقلاله . وهكذا ظل وسيلة لا هدفاً وظل في نطاق الخدمة للعلوم الأخرى أكثر ممّا كان عاملاً في تطوير الفكر الإسلامي نفسه ، بما يحمل من الإمكان والمعطيات . يقول فون غرونباوم : « لم يكن علم التاريخ (الإسلامي) وفن كتابته يرغبان في الحكم والتفسير بل كانا فقط يقدمان المادة ... »[1] .

---

(١) فون غرونباوم – اسلام العصر الوسيط (الترجمة الفرنسية) باريس – مايو ١٩٦٢ ص ٣٠٥ .

ويقول و. سميث « لقد عمل التدوين التاريخي العربي (الستريوغرافيا) بمثابة دفاع أكثر ممّا عمل بمثابة بحث حقيقي ... »[1] والحكمان ينتهيان إلى نقطة واحدة هي ذهاب التسجيل التاريخي الإسلامي سطحاً مع الأحداث والتراجم لا عمقاً . ووصفه الأحداث من الخارج لا تفاعله الفكري معها . على أن هذه السطحية والوصفية هما لحد ما سمتان ظاهريتان ويجب أن لا تخدعانا عن الواقع الذي يجب أن تقرر معه أن المؤرخ الإسلامي ، كان يخفي وراءهما ، جهداً كبيراً من الانتقاء للروايات ومقارنتها ونفي ما لا يقبله منها أو دمج بعضها في بعض . إن التدوين التاريخي الإسلامي ، في الحقيقة ، إنما يتضمن في شكله الوصفي المعطى تلك العمليات الفكرية من استقراء ومناقشة وتفضيل رواية على أخرى ولكن دون الإعلان أو التسجيل لكافة تلك المراحل التحضيرية السابقة للكتابة والتي قلما يكشف عنها المؤلف ، ونلر جداً من المؤرخين من كان كتابه مجرد سرد ساذج لا يحمل ضمن السطور تأويله الخاص وتفسيره الذاتي . ومع ذلك فإن الموضوعية التي انصبت لديهم على الاحترام الزائد « للشهادة » و « النص » قد أبعدتهم عن المناقشة المباشرة والكاملة للمحتوى الذي تحمله الرواية التاريخية وهي التي حالت دون تطوّر المنهجية التاريخية نحو العلمية الكاملة .

٥ — ومن جهة أخرى فإن التاريخ الإسلامي لم يكن كما قد توحي صورته الظاهرية مجرد أشتات من المعارف وأكداس من المعلومات . لقد قدم ، وخاصة في عصوره الذهبية (ما بين القرن الثالث وأواخر الرابع) قصة تلك المحاولات السياسية والفكرية والاجتماعية والدينية والاقتصادية لاقامة النظام الإسلامي بشكل عملي . قدم القصة كاملة بما لها وما عليها ؛ لم يهمل حتى أفراد الرجال ودقائق الحياة . وإذا كان الجو السياسي هو الطاغي على مؤلفات التاريخ فإن صورة الجو الفكري الثقافي ليست أقل وضوحاً ودقة وشأناً . وحين تحدث التاريخ عن

(١) سميث — الاسلام في العالم الحديث (باريس ١٩٦٢) ص ١٥٩ .

الإمامة والتعليم السياسي والفروسية والديارات والملل والنحل وعن الأغاني والجواري والنوادر والأذكياء والوزراء والمجانين ... الخ فإنما كان يقوم بتقديم حصيلة الصور الواقعية للتاريخ الإسلامي ولنظامه ، بل وحصيلة الأشكال الفكرية الممكنة من خلال الإسلام .

بعض المؤرخين كانوا إنما يصفون ما كان تقريراً لواقع ، وتسجيلاً لتجربة حضارية متنامية ممتلئة بمختلف الأفكار وبألوان الحياة وعواصف السياسة وخصيب النشاط الفكري والاجتماعي . كانوا يرون أنها جديرة بالتسجيل لذاتها . لأنها حضارة الدنيا الأولى في تلك الفترة . على أن بعض المؤرخين الآخرين كانوا يضعون هذه الصورة التاريخية مقابل تلك الصورة المثلى لعصر الرسالة والصحابة . الاهتمام خاصة برجال الحديث وأخبار الزهاد والصوفية والنظم العادلة والفقه إنما هو اهتمام « بجملة » الإسلام واهتمام باستمرارية التاريخ الأول كصورة مثالية تقابل التاريخ الواقعي المتدهور . وإذا كان المؤرخون الأول هم شهود العصر فهؤلاء كانوا بدورهم الشهود السلبيين . كانت أعمالهم شهادة على مبلغ بُعد الواقع التاريخي الإسلامي عن مستوى عصر الرسالة . كان التاريخ الذي سجلوه تعبيراً وتسجيلاً لحركية اجتماعية – سياسية فكرية ما تنفكّ تتباين مع الصورة المثلى . ومن هؤلاء وهؤلاء على السواء نشأ تقليدان في التاريخ يمكن أن يُعتبرا مدرستين فيه : دينية ودنيوية . وإن كان الطرفان شهود عصورهما ...

٦ – واعترفت الأمّة الإسلامية ، في هذه الفترة ، عن طريق التاريخ ، بالأمم الأخرى التي تعايشها . وفي القرون الثلاثة الأولى التي نشأ فيها التاريخ الإسلامي كانت الجهود والعيون والأنوار منصبة كلها على تبيّن ملامح المعجزة الإسلامية الكبرى : رسالة ونجاحاً وفتحاً ودولة ونظاماً دولياً ... لم يكن للمسلمين لا الوقت للنظر في تجارب الأمم الأخرى ولا الرغبة في الاعتراف بوجودها مع عظمة الواقع الإسلامي العربي .

على أن هذا التجاهل ما انفك يخرق شيئاً فشيئاً سواء من قبل المسلمين الجدد الذين أرادوا أن يثبتوا وجودهم التاريخي السابق تجاه العرب المسلمين أو من قبل العرب أنفسهم الذين أدركوا سعة الشعوب الأخرى في المكان والزمان والعدد والفكر والحضارة . ومنذ أصبح المسلمون هم الأكثرية في الدولة الإسلامية ، في القرن الثالث ، واتجهت الحضارة الإسلامية نحو التمازج بالثقافات الأخرى وانتصرت سياسة العباسيين في تعايش العناصر المتعددة وتعايش الأديان وقبول الثقافات كلها على مستوى واحد ، منذ ذلك الوقت أخذت الشعوب السابقة للاسلام أو المعاصرة له مكانها من الوجود « والتحيّز » بالنسبة للمسلمين ، وقبلت في السجل التاريخي . كان التسجيل بمثابة الاعتراف المتأخر بها وبمثابة اعطائها حقها من « المفاخر » والمجد السابق . شمول الإسلام وتكاثر معتنقيه من كافة الأمم وصيرورة الأكثرية العددية والفكرية إليه في الدولة الإسلامية سمح للتأليف التاريخي بصورة آلية وبالتبعية العفوية بأن يشمل في سجلاته كافة الأمم . وهكذا وضعت منذ أواخر القرن الثالث التواريخ العالمية التي قد تكشف بالكمية العددية المحدودة من الصفحات وبالنسبة التي خصصتها منها للأمم الأخرى مقابل ما كرسته للتاريخ العربي الإسلامي ، مدى ذلك الاعتراف المحدود على أي حال . كان الحاضر الإسلامي والماضي الإسلامي بالنسبة للمؤرخ المسلم من التألق ومن الشأن الديني ومن القرب الزمني ومن الالتصاق الحياتي بالناس بحيث كانت تواريخ الأمم السابقة أو الأمم الأخرى المعاصرة لا تشغل معه إلا أبسط الاهتمام .

٧ — على أن هذا التفسير الأحادي الجانب قد لا يكون كافياً لفهم السبب في ظهور تلك التواريخ العالمية الموسوعية في فترأتها . ان لها مجالاً آخر للتفسير قد لا تفهم بدونه . إنها على أي حال لا تفهم حين ينظر إليها كركام من المعلومات المجموعة بين دفتين ، ولكن كنظام فكري كامل ، من تصور وتكوين أولئك المؤرخين الكبار ، مرتبط الارتباط المباشر بنسيج عصورهم السياسي والفكري وبأخطاره الكبرى .

ولعل مما يلفت النظر أن تظهر التواريخ العالمية الكبرى في الإسلام في أعقاب الكوارث الكبرى وفي العصور التي تتهيأ لحركة جديدة من النهضة. إن رابطة عميقة من الصلة تربط دون شك ما بين تحطم الخلافة العباسية تحت ضربات الخدم الأتراك منذ مقتل المتوكل سنة ٢٤٧ حتى نهاية القرن، ثم ظهور البويهيين في بغداد سنة ٣٣٤، وما بين ظهور التواريخ العالمية لليعقوبي والطبري والمسعودي والمطهر المقدسي ومسكويه ... كانت العيون كلها والنفوس تبحث في كل الآفاق، وفي «تجارب الأمم» عن أمثلة تفسر هذا الذي يتزل بالخلفاء العباسيين، رؤوس الدولة دينياً وسياسياً، من نكال وإذلال. فجاءت التواريخ العالمية من كل أفق تخبر عن «الملوك» و «الدول» و «الأنبياء» و «البدء والتاريخ» ... كأنما تريد أن تحمل العزاء والتفسير وأن تقول أنه لا جديد تحت الشمس ... أو تفتح الطريق الفكري للتطور السياسي الجديد.

وإذا كان كتاب الدول للمجاشعي هو التاريخ العالمي الوحيد الذي أثاره دخول السلاجقة إلى المسرح السياسي الإسلامي في أواسط القرن الخامس لأن أحداً لم يعتبر هذا الدخول خطراً ولكن رائد دعم وعون للخلافة، فإن دخول الفرنجة إلى الشام بذلك الشكل المأسوي الساحق وآلام البلاد العربية الإسلامية وهي ترمم جبهتها الداخلية أكثر من سبعين سنة حتى استقامت جبهة واحدة في وجه الفرنجة هي التي تفسر ظهور كتاب المنتظم لابن الجوزي (وإن يكن اهتمامه الرئيسي ببغداد إنما يعكس واقع انصراف بغداد عن الاهتمام بتلك المحنة الكبرى إلى شؤونها الخاصة) ثم حين ازدوجت الكارثة على العالم الإسلامي بظهور المغول الساحق من الشرق مع ضغط الفرنجة عليه من الغرب (في مطالع القرن السابع / ١٣م) وتضخمت في الضمائر لحظات الشعور بالخطر المدمر المزدوج ظهرت كنوع من الدفاع الذاتي سبعة تواريخ عالمية على مدى نصف قرن كتبها (ابن الأثير وسبط ابن الجوزي وابن نظيف وابن أبي الدم وياقوت والقفطي وابن أبي أصيبعة ...) وإن لم يبق منها سوى الاثنين الأولين.

على أن ثمة فرقاً ما بين « عالمية » مؤرخي القرن الرابع ومؤرخي القرن السابع . فالأوائل كانت عالميتهم اعترافاً بالأمم الأخرى التي دخلت الإسلام ومحاولة للاحتجاج على التخريب الداخلي الذي حاولت فيه بعض العناصر من هذه الأمم تهديم النظام الإسلامي القائم من الداخل وتذكير المسلمين بالعهود الناصعة الأولى وبأمثلة الأمم الأخرى التي بادت بسبب العدوان على النظام العام . ومن هنا كانت تلك « الموسوعية » في المعلومات وتلك العالمية لاطراق الحاضر المليء بالتشاؤم والسوء في ماضٍ رائع يعاد بناؤه للناس كتلة واحدة متكاملة . إنها عملية دفاع داخلي يراد بها صيانة استمرارية الأمة . أما عالمية مؤرخي القرن السابع فمختلفة . إنها محاولة لإعادة ثقة الأمة بذاتها والهرب الى تاريخ سابق رائع من واقع سيء يحقق الناس منه . إنها استمساك بالعمود الفقري للجماعة الإسلامية المهددة كي لا تنهار أمام الخطر الخارجي وتذكير لها بكافة الأمجاد السابقة التي انتصرت فيها على كافة الأمم الأخرى وورثتها . سبعة تواريخ عالمية كانت سبعة تأكيدات للأمة الإسلامية بأنها هي الوارثة الوحيدة للنظام العالمي وبأن كل الأخطار حتى لو اجتمعت (من فرنجة ومغول معاً) فالله خير حافظاً ... وهو الغالب على أمره .

٨ — توطدت خطوط التاريخ في ثلاثة مسارب : تاريخ الأحداث أو التاريخ السياسي ، وتاريخ الرجال أو التراجم ، وتاريخ الأفكار والعلوم والآداب والمجتمع والنظم أو التاريخ الحضاري . واذا كان مفهوم التاريخ قد انصبّ أول الأمر على التراجم وأخبار الرجال وقد حمل المعنى الديني بسبب اختصاصه أيضاً بحملة الحديث فإنّه سرعان ما توسع عن هذا المفهوم منذ أواخر القرن الثالث ليحمل دون أن يتركه، معنى الأخبار السياسية . ثم فرضت كتب التاريخ الحضاري نفسها تارة بوصفها تراجم لرجال العلوم المختلفة والآداب وتارة بوصفها أخباراً عن نواح طريفة أو هامة من الحياة العامة ، ولكن دون أن تحمل إلاّ في النادر عنوان التاريخ .

وخطوط المسيرة التاريخية بعد ذلك لم تحد عن هذه المسارب الثلاثة وإن زاوجت أحياناً فيما بينها جامعةً التراجمَ مع الأحداث ، منذ القرن السادس أو ناثرةً الأخبار الحضارية في ثنايا التواريخ كما فعل المسعودي والفارقي ، والبيهقي وغرس النعمة وابن منقذ ، ومؤرخو المدن في مطالع المؤلفات الخاصّة .

رابعاً ـ وأخيراً عرف التاريخ أوسع الازدهار في مطلع هذه الفترة التي درسنا وفي نهايتها على السواء .

كان القرن الرابع (العاشر الميلادي) هو القرن الذهبي للتاريخ الاسلامي : سواء في أعداد من عملوا على التاريخ أو في أعداد المؤلفات التاريخية وأنواعها . ولم يقاربه في ذلك إلاّ القرن السابع الأخير الذي شهد بدوره فيضاً هائلاً من المؤرخين والمؤلفات والاهتمام التاريخي الواسع .

وإذا تحددت في القرن الرابع خاصة معالم علم التاريخ الإسلامي فلم يدخل عليها بعده الا أبسط التعديل سواء في المادة أو الأسلوب أو المنهج أو الفروع التاريخية فقد تجد هذه الظاهرة تفسيرها في رغبة الفكر الاسلامي ، في ذلك القرن ، في تسجيل ملامح وأحداث حضارة كبرى بلغت إذ ذاك أوجها وبلغ شعورها بتميزها وتقدمها أوجه وبدأت في الوقت نفسه دور المحافظة أي دور الأفول والتراجع كأنما أحسَّ المؤرخون بضرورة تسجيل كل شيء من تلك الحضارة لأن لكـــل شيء قيمته حتّى المذكرات الشخصية وحتّى أخبـــار المجانين فهم يمسكون بجميع الخطوط والصور قبل الاضمحلال والضياع . كانت تلك الحضارة مدركة لتميزها عن غيرها ومعجبة بذلك التميز للدرجة التي وجدت من الضروري معها تسجيل جميع صورها في كل الأحوال . كتب التاريخ بالمعنى الكامل والأوفى لهذه الكلمة إنما هي مؤلفات القرن الرابع ... ولا شك أن انطلاق الأفكار ، من خلال نماذج الثقافات المختلفة ، في كل الآفاق وشيوع الفلسفة والعلوم الشيوع الواسع ، وانتشار المعارف عن مختلف الأمم واجتماع أبنائها من كل الفجاج في بغداد ، واشتباك العلاقات التجارية وطرق القوافل والاقتصاد في هذا البلد الذي أضحى عاصمة الدنيا وتصادم

التقاليد الاجتماعية لمختلف الأمم في قصوره والأسواق كل ذلك قد خلق نوعاً من « الجوع » العام للمعرفة . والمعرفة لذاتها . وليس من علم يمكن أن تتجلى فيه الرغبة في المعرفة للمعرفة كالتاريخ الذي لم يكن يطعم خبزاً ولا يؤهل لمقام كبير وليس له حلقاته التدريسية في الجوامع ولا يعتبر العالم به « عالماً » ما لم يقرنه بأي علم آخر من حديث أو فقه أو أدب وشعر أو فلسفة أو طب أو رياضة ... تلك الفورة من الجوع الثقافي في القرن الرابع ترجمت عن نفسها من خلال التاريخ .

أما القرنان الخامس والسادس فقد اتجهت الأقلام الى تسجيل استمرار المؤسسات الاسلامية على حالها واستمرار العلوم السابقة على خطها وعلماء الحديث والفقه على سنة السلف وذلك من خلال تسجيل استمرار الخلافة ، وعقيدة أهل السنة والجماعة من خلالها ومن خلال الأسرة السلجوقية التي جاءت فدعمتها ثم الزنكية والأيوبية ومن خلال تراجم الرجال والتأكيد على أنهم في كل بلد (وذلك عن طريق التواريخ البلدانية) ما يزالون على النهج القويم التقليدي نفسه يرددون الاسناد عن الشيوخ السابقين ويروون الأحاديث ذاتها في المساجد .. ولقد دعم السلاجقة هذه « التقليدية الاستمرارية » بتلك الشبكة من المدارس التي أنشأوها ما بين أقصى إيران وأدنى الشام لتعليم ونشر ودعم الأيديولوجية السنية ..

وفي مثل هذه الأحوال تتراجع الأحداث السياسية في القيمة لتحل محلها تراجم الرجال الحفظة التقاليد . واذا استثنينا أخبار الهزات السياسية الثلاث التي أصابت المشرق الاسلامي في ما بين القرنين الخامس والسابع (هجمة السلاجقة ، عدوان الفرنجة والمقاومة له ، والهجوم المغولي المدمر) فانا لا نكاد نجد إلا الأخبار العادية عن المؤسسات الإسلامية التقليدية منذ قمتها والخلفاء حتى أبسط الوظائف بما في ذلك القضاة والكتاب والجيش والخراج ... ممّا كان في الزمن الأول . على أننا نجد أن تراجم الرجال بالمقابل هي التي تحتل السطور الأولى دوماً

كنوع من التأكيد على استمرارية المؤسسات الأولى ضمن الخط الإسلامي . وهكذا فالتواريخ الكبرى كانت منذ أواسط القرن الخامس للتراجم : تاريخ بغداد للخطيب . الأنساب للسمعاني . تاريخ دمشق لابن عساكر . حتى المنتظم لابن الجوزي إنما أفرد الجانب الأوسع منه للتراجم كأنما أراد المؤرخون أن يؤكدوا أن النظام الاسلامي كله سياسة وعلماً وتكويناً ما يزال قائماً كما كان ، مستمر الوجود على عهده الذي سبق . لقد اتصل بهذه العقلية الاستمرارية دون شك ظهور بدعة « الذيول » وتكملة اللاحق للسابق ، وسلاسل المؤلفات المتابعة التي تكاثرت بوضوح في القرنين الخامس والسادس ، وكتب معاجم الشيوخ التي أضحت من المؤلفات التقليدية لكبار العلماء يسجلون بها روابطهم مع أجيال الشيوخ السابقين ...

ولقد اتصل بذلك عصر المحافظة والجمود وغياب الابداع فساء « نوع » التدوين التاريخي وجفت مصادره ومعالمه . أضحى تقليدياً . حولياته أضحت من الإملال بحيث استطاع الكثيرون اختصارها في أسطر . وانتهى الانفتاح الموسوعي على الأفكار والحياة . ولم نعد نجد من جديد في كتب التاريخ سوى المحلي اليومي ، أمّا النظرات الآفاقية والاتصال بالحياة العادية وبألوان المزج لاجتماعي ممّا عرفناه في القرن الرابع ، فقد غاب تمام الغياب . لم يعد في حياة الناس ما يستحق التسجيل ... هم أنفسهم آمنوا بذلك فسكتوا ...

وجاء القرن السابع بنهضة تاريخية واسعة نستطيع معها أن نعد ما يزيد على ٣٢٥ مؤرخاً في مدى قرن (فيما بين أواسط القرن السادس وأواسط السابع) كتبوا ما يزيد على ٦٠٠ كتاب في التاريخ ... وظهر في هذه الفترة ابن الجوزي وابن الأثير وياقوت وابن النجار وابن أبي طي . وسبط ابن الجوزي والعماد الأصبهاني . والقفطي . والسمعاني . وابن أبي أصيبعة . وابن الدبيثي . والمنذري . وابن عساكر . وابن فندق . وابن العديم . والشيباني . وابن حمدون . وأبو شامة . اوالطبرسي . والقادسي . وابن ظافر . وابن قدامة . وابن اللباد . وابن اسفنديار .

وابن نظيف . وابن أبي الدم . والبنداري وغيرهم كثير . ذلك الفيض إنما كان نوعاً من الردة ونوعاً من إثبات الوجود ومن اليقظة الحواييـة على تحدي الأخطار التي كادت في تلك الفترة تسحق من أقصى الشرق ، بسنابك المغول ، ومن أقصى الغرب ، بسيوف الفرنجة ، منطقة الشرق الاسلامي كلها . وبالرغم من أن هذه المنطقة أنقلت في اللحظات الأخيرة من هذه الأخطار وتلك، إلا أن النظام الذي كان كل ذلك التاريخ وكل تلك الجهود التاريخية السابقة تدافع عنه وتدعمه وتطوف من حوله كان قد انهار مع انهيار بغداد سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ ...

الفهرس

الصفحة

القسم الثاني : التاريخ الإسلامي في المشرق العباسي
ما بين أوائل القرن الرابع وأواسط السابع الهجري

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر :

هذا الكتاب

يوم كانت مادة هذا الكتاب تجتمع على الصمت والتكاثر بين يدي سنة بعد سنة حتى بلغت ما يزيد على خمسة عشر ألف بطاقة ، عدا مئات الكتب ومئات الأبحاث ، ما كان في خاطري أن تأخذ طريقها إلى دراسة كهذه الدراسة في علم التاريخ الاسلامي ولا إلى كتاب من مثل هذا الكتاب .

على أن مصاداة المصادر التاريخية جرتني — دون أن أدري — إلى النظر في مناهجها ونسيجها الفكري وتقنيتها العلمية الدفينة وخصائصها من خلال تاريخ التدوين وتطوره على تمطي الزمن ، كما جرتني — ودون أن أدري أيضاً — إلى معايشة المؤرخين ، ذلك الرعيل الكبير الذي رافق مسيرة التاريخ العربي الإسلامي كله وأعارنا عيونه والأقلام لنرى ونعرف تلك المسيرة من خلاله ... حيادياً كان أم ذاهباً مع الأهواء ، نافذ البصيرة أو أعمى الفؤاد ، في ألوف المجلدات التي كتب ... ووجدتني بين هذا وذاك أمام موضوع جديد لم يكتب بعد ، وقد تكاملت على أوراقي جوانبه « فلم يبق إلا صورة اللحم والدم » ، لم يبق إلا أن توضع له الكلمات ... وهكذا وجد هذا الكتاب الذي يتحدث عن علم التاريخ العربي في مختلف أطواره وعصوره وعن المؤرخين الذين أقاموا، على الأطوار والعصور ، هذا العلم .

وهذا الكتاب ليس على أي حال أكثر من محاولة تطمح في كثير من التواضع إلى أن ترسم بعض الخطوط والملامح في تأريخ علم التاريخ جواباً على الحاجتين الأولى والثانية وإلى أن تكون نوعاً من المصباح الهادي لفهم المصادر التاريخية في معارجها والمسالك تلبية للحاجة الثالثة . كما ترجو أخيراً أن تكون إحدى المنافذ للاتصال على الإحاطة والألفة بهذا الفرع من فروع النشاط الفكري في الثقافة العربية الإسلامية ، تمهيداً لاستعراض ثمرات ذلك النشاط في الكتاب الثاني التمريب : مصادر التاريخ الإسلامي .